الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر

Weghat Nazar - Volume 3 - Issue 34 - November 2001 مجلة شهرية. العدد الرابع والثلاثون. السنة الثالثة. نوفمبر ٢٠٠١. الثمن عشرة جنيهات

السياسة بين الحلم والإرادة ؟
محمد حسنين هيكل

الإرهاب والإسلام
كمال أبو المجد

.. وماذا بعد طالبان؟
فهمى هويدى

ومقالات:
- محمد الميلى
- يوسف القعيد
- أمينة رشيد
- ناصر الأنصارى
- سلامة أحمد سلامة
- جلال أمين
- سيمور هيرش
- حسين عبد الله
- عادل أبو زهرة
- أحمد توفيق

نوبل "نايپول" .. ومكافأة التهجم على الإسلام / صبرى حافظ

كلمــــــة..

ظـــــــلال أفغانســــــتان

فى تتابع لاهث متلاحق لما بعد الزلزال.. ورغم سحابة داكنة من عدم اليقين. وامواج متلاطمة من علامات الاستفهام، اصبحت افغانستان ـ البلد الأكثر فقراً ووعورة.. وعناداً ـ مانشيت الصفحة الأولى، رغم ندرة التفاصيل. وخبر النشرة الأول، رغم صعوبة النطق .. والشاشة الخضراء المبهمة.. وملل التقارير المكررة.

افغانستان التى قُدر لها أن تكون «خشبة» للمشهد «الحالى» من مسرحية تبدو للكثيرين «عبثية»، فرضت نفسها.. او بالأحرى فرضتها الأحداث، موضوعاً وعنواناً لهذا العدد من «وجهات نظر».

«ماذا بعد طالبان؟» السؤال احتل الصفحة الأولى فى كتاب الألغاز الضخم الذى بدأ تحريره صبيحة الحادى عشر من سبتمبر (بتوقيت نيويورك) بعد أن تم ـ ربما عمداً ـ ورغم عدم اليقين، تنحية السؤال الأهم جانباً: من فعلها..؟ وكيف..؟ ولماذا..؟!



محـاولاً الإجابة عن السـؤال ـ الذى يعمل الكثيـرون على التـدخل بالقـوة والدبلوماسية فى إجابته ـ يرسم فهمى هويدى بخبرته «المباشرة» الخريطة المعقدة لتضاريس الأعراق والإثنيات والتحالفات والتاريخ فى هذا البلد البائس (٦٤٧ الف كيلو متر مربع، و٢٧ مليون نسمة، وأكثر من سبع جماعات عرقية وما يزيد على ثلاثين لغة محلية).

يرى هويدى أن إسقاط حكومة طالبان لم يكن بحاجة إلى كل تلك العمليات العسكرية والغارات التى ـ على العكس ـ مدت من عمر الحركة التى كان عمرها الافتراضى قد قارب الانتهاء، بعد أن فشلت فعليا فى إدارة البلاد رغم نجاحها فى إنهاء عقد من الدماء والفساد. فالغارات «الاستعراضية» كان من شانها، وهذا من طبائع الحياة والبشر، أن تزيد من تماسك صفوف الحركة (أمام جبروت غاشم واحد). ثم إنها وضعت فصائل المعارضة فى موقف حرج من شانه أن يفقدها أى تعاطف من شعب جبلى يتميز بالكبرياء والعناد.

اكثر من ذلك يذهب هويدى إلى أن سقوط النظام لن يعنى نهاية طالبان والتى ستتحول إلى حركة مقاومة جهادية. ويقول بانه علم أن قرار التحول من سلطة حاكمة إلى حركة مقاومة اتخذ بالفعل.. وأن التعليمات صدرت بهذا الخصوص إلى حكام الأقاليم بالعمل كقادة ميدانيين لمواجهة الواقع الجديد. وانه فى ظل انقطاع الاتصالات فإن لأولئك القادة المحليين حق التصرف واتخاذ ما يرونه مناسباً دون الرجوع لقيادة مركزية. الأمر الذى ـ إلى جانب بقية العوامل المتداخلة ـ يفتح الباب لاحتمالات تظل لانهائية.



أيا مـا كـان أمـر مشـهد أفـغـانسـتـان «التى ستكون»، يرسم لنا جمال الدين الأفغانى مشهد أفغانستان «التى كانت». وتخصص «وجهات نظر» كتاب الزاوية لفصول من كتاب «تتمة البيان فى تاريخ الأفغان» الذى طبع عام ١٩٠١ وهو الكتاب الوحيد الذى الفه جمال الدين الأفغانى (١٢٤٥ ـ ١٣١٤ هجرية) ويعرض فيه لأصول الأفغان وطباعهم ومعتقداتهم وصناعاتهم ونظامهم السياسى.

والواقع انه رغم الكتاب، ورغم شهرة الأفغانى عربياً، فقد ظل العرب لايعرفون إلا القليل عن افغانستان والأفغان ـ كما يقول يوسف القعيد فى مقاله «لوجهات نظر» والذى يقرا فيه روايتين لكاتبة افغانية «ميرال معروف».. بعد ان ادهشته الندرة الشديدة للأدب الأفغانى فى الكتابات المصرية والعربية: دراسة وتحليلاً وترجمة.. الأمر الذى يعكس حالة عدم اهتمام عربية شاملة بأدب هذا البلد «البعيد القريب».



ظلال افغانستان.. ودعاوى «التجييش».. والضجيج الهائل حول أبعاد ماجرى، يبدو انها طالت ماكان مفترضاً الا تصل إليه. فبغض النظر عما أثير بقوة حول «أجواء» قرار الأكاديمية السويدية بمنح نوبل فى الآداب للكاتب الهندى الأصل الإنجليزى اللغة «فيديادار سوراجيراساد نايبول». يقدم صبرى حافظ فى مقاله عن «الأدب والسياسة فى عصر مابعد الحداثة» قراءة تحليلية، ليس فقط لكتابات صاحب نوبل المختلف عليه، بل ـ وربما كان ذلك مثيراً للاهتمام ـ لنص إعلان الأكاديمية «بجمله العامة الملتبسة.. والتى تشير بوضوح لا يخفى على أحد ـ وعكس العادة ـ إلى أعماله غير الروائية..».

يطرح صبرى حافظ فى مقاله مسألة تسرب معايير السياسة وأحكامها إلى ماينبغى أن يظل فى خانة الأدب.. والأدب وحده. فيعرض لما حدث هذه الأيام أيضا لجائزة «بوكر» وهى أرقى الجوائز البريطانية فى فن الرواية وكيف أن الاختيار خالف ما كان متوقعاً «ليتماشى مع المزاج السياسى السائد فى مناخ هذه المواجهة المتصورة بين الإسلام والغرب..».

والواقع أن كل من شهد معرض فرانكفورت الدولى للكتاب قبل أيام لابد أن استوقفه حديث (أو بالأحرى سكوت) الفيلسوف الألمانى يورغن هابيرماس *Jurgen Habermas* فى حفل استلامه لجائزة السلام التى يمنحها سنويا معرض فرانكفورت للكتاب. فالذين تجمعوا فى كنيسة القديس باول العريقة حيث أقيم الحفل توقعوا ـ كما هى العادة ـ الا يغيب عن «حفل السلام» صدى الحرب الدائرة هناك، إلا أن ذلك لم يحدث أبداً. بل كان الأكثر إثارة ما لاحظه البعض من اختلاف ـ متعمد ـ بين الكلمة المطبوعة التى وزعت على الحاضرين وبين تلك التى ألقاها فعلاً الفيلسوف اليسارى المحتفى به. فبين فقرات أخرى اختفت قرأ الحاضرون فى الوثيقة الأصلية تحذير هابيرماس من «الضغط المنفلت الذى ينتجه الأخذ بالثأر..»، إلا أن هذا الجزء ـ مع أجزاء أخرى ـ تم حذفه فى كلمته أمام الحضور.

هل نحن أمام إرهاب فكرى يذكرُ بما يفضله الكثيرون من تجنب الحديث عن «المحرقة». وهل تصرف الفيلسوف الألمانى وفى باله ماتعرض له مواطنه الكاتب الروائى مارتن فالسير الذى أثار قبل سنتين عند تسلمه الجائزة ذاتها الكثير من اللغط، عندما قال فى كلمته بانه شخصياً غير معنى بعد بالشعور بالذنب إزاء ما ارتكبه هتلر، لأنه يعتقد إن الألمان عليهم التطلع إلى المستقبل، وأن الشعور الدائم بالذنب، يجعلهم محبطين دائماً بصورة عامة.

اين نحن الآن؟

وإلى أى مدى ستتصل جهود صياغة العدو البديل؟

وإلى أى اين سيذهب بنا كل هذا الصخب والضوضاء والضجيج.. ومحاولات النفخ فى مقولات « صموئيل هنتنغتون» القديمة..؟

وجهات نظر





مقدمة

كان هذا الحديث مكتوبا فى الأصل للعدد السابق من «وجهات نظر» وعندما وقع ما وقع فى نيويورك وواشنطن يوم ١١ سبتمبر الأخير، واندلع الحريق فى «أمريكا والعالم». وجدت مناسبا أن أقف مع الواقفين على ناصية دنيا تتغير أحوالها تحت بصر أهلها جميعا من خلال صور ومشاهد لا يستغرق زمنها أكثر من ثوان. لكنها تستولى على الحس والعقل والخيال.

وظننت أن ذلك الحديث الذى كتبته قبل ١١ سبتمبر فات أوانه بانتمائه إلى عصر ما قبل الحريق، وألقيت نظرة أخرى عليه قبل أن أودعه سجل المحفوظات، ثم خطر لى . والصفحات مازالت أمامى . أن موضوعه مازال موصولا بما هو جار من الأحداث خصوصا مع كلام يتردد عن «تعاون» أو «ائتلاف» أو «تحالف» يدخل فيه العرب مع الولايات المتحدة فى حرب يسمونها: «الحرب الأولى فى القرن الواحد والعشرين».

ومر بخاطرى أن السياسة العربية المعاصرة قد يفيدها أن تقرأ . إذا كان يهمها . تجربة عن فكر وفلسفة وشروط «التعاون» أو «الائتلاف» أو «التحالف» بين أطراف تتفاوت بينها عوامل القوة والضعف بما يميل بالموازين «نظريا» إلى ناحية الأقوياء . إلا إذا أدرك الضعفاء أن ما هو «نظرى» له جانب آخر «عملى»!

ذلك أنه عندما يحتاج القوى إلى الضعيف فى درجة من درجات «التعاون» أو «الائتلاف» أو «التحالف» . فمعنى ذلك أن القوى يستشعر «الحاجة» إلى الضعيف، لأن ذلك الضعيف يملك شيئا مرغوبا فيه ومطلوبا، وفى الغالب فإن هذا المرغوب فيه والمطلوب يكون من الموارد المعنوية أو الأخلاقية أو القانونية يراد لها أن تضفى صفة المشروعية على نوايا الأقوياء وخططهم وأفعالهم، وذلك هو المبرر المنطقى الذى يخلق لدى الأقوياء حاجتهم إلى الضعفاء!

أى أن «حاجة» الأقوياء إلى الضعفاء قادرة على تعويض النقص فى القوة وتحقيق قدر من المساواة بين الأطراف، بمعنى أنه إذا كانت القوة المادية تصب فى حساب طرف، فإن القوة «المعنوية» و«الأخلاقية» و«القانونية» تضيف إلى أرصدة الطرف الآخر، وبالتالى فإن ذلك التعويض يصنع تكافؤا سياسيا يحفظ العلاقة بين الطرفين أن تتحول إلى تبعية (وربما عبودية !).

لكن هذه العملية . تعويض المادى بالمعنوى . لا تحدث تلقائيا وإنما هى تحتاج إلى فهم للحقائق بدقة ، وإلى استعمال للإرادة بحساب لأنها عملية شديدة التعقيد.

□

وعندما مالت بى الظنون إلى إمكانية نشر هذا الحديث فقد آثرت أن أتركه على حاله كما كتبته باعتقاد أن كل حديث وحدة كاملة متوازنة فى الموضوع والمناخ والتأثير . وبرغم إحساسى أن الواقع الراهن بعيد عن كلام البحر والموج والرمل . فقد تصورت أننى خلال الشهور الأخيرة وفيما كتبته فى هذه المجلة وقفت طويلا أمام مقدمات الواقع الراهن وعرضت مبكرا لاحتمالاته، وكذلك جازفت . وأملى ألا أكون أخطأت . وشردت قريبا أو بعيدا.

هـ.

١ «عن البحر والحرب والزمان الجديد»

في الطريق إلى الساحل الشمالى لإجازة صيف على شاطئ البحر، صحبت معى عدة كتب. وإجازات الصيف عادة فرصة حرة للقراءة. والقراءة فى هذه الأوقات متانية، لأنها ليست محصورة ولا محاصرة، وكذلك فهى فسحة مفتوحة للتأمل والتحليق فى سماء عريضة، بشراع عال، على موج وريح كلاهما يحمل الشاطئ ومن فيه إلى سفر بغير قيد نحو أفق بغير حد.

وكان «صحابى» من الكتب هذا الصيف مجموعة من منشورات ربيع سنة ٢٠٠١، ومعظمها مما أستبقيه عادة لقراءات الصيف المسترخية. وبالطبع، فإن أول هذا النوع من الكتب هو «السّير» كتبها أصحابها بأنفسهم (سيرة ذاتية)، أو كتبها آخرون غير أصحابها بعد أن تقابلوا مع قصص (حياة) تستحق التسجيل لرجال ونساء تركوا فى الدنيا ذكرا وأثرا.

بعد كتب السّير ـ ذاتية وغير ذاتية ـ أحمل معى فى العادة ضمن قراءات الصيف أعمالا فى التاريخ والسياسة والحرب، فتلك ـ إلى جانب أسباب المهنة ـ هواية مبهورة دائما بحكاية الصراع الإنسانى ودخائلها.

ثم يجىء بعد ذلك نوع ثالث من الكتب يتصل بالفلسفة والفكر. وعادة ما تكون الكتب من هذا النوع آخر قراءات الصيف فى دورها، وعادة ما ينتهى الموسم بتأجيل قراءتها ـ مع غيرها ـ إلى فصل الشتاء حيث تصح قراءتها أكثر داخل جدران غرفة، وأمام مكتب، وفى اليد قلم بالقرب منه ورق، وتلك حوافظ تمكن من التركيز فلا تشرد نظرة أو خاطر وراء شعاع شمس أو حبة رمل أو طائر نورس ينزلق بجناحيه مع الريح!

وكان «صحابى» من الكتب هذا الصيف عشرة:

ـ «صنع اليابان الحديثة» لـ: «هربرت بيكس».

ـ «حياة أنديرا غاندى» لـ: «كاترين فرانك».

ـ «بيت الأسرار» (عن وكالة الأمن القومى الأمريكى) لـ«جيمس بامفورد».

ـ «شخصية الملكة فيكتوريا» لـ: «كريستوفر هيبرت».

ـ «صليب الفارس» (عن الماريشال الألمانى إروين روميل) لـ: «دافيد فريزر».

ـ «يوميات الحرب الكاملة» لـ: «الماريشال آلان بروك».

ـ «فرنسا سنوات الظلام (١٩٤٠ ـ ١٩٤٤)» لـ: «جوليان جاكسون».

ـ «تكوين العقل الحديث» لـ: «بيتر واطسون».

ـ «الطلسم» (السباق إلى حل الشفرات السرية للدول الكبرى) لـ: «سيباج مونتفيورى».

ـ «ميزان القوى العسكرية فى الشرق الأوسط ٢٠٠١» لـ: «أنتونى كوردسمان».

....

....

فى الصباح الباكر من أول يوم على الساحل، مشيت فوق الرمل نصف ساعة، ثم سبحت وسط الموج نصف ساعة أخرى، ثم ذهبت أجىء بواحد من «صحابى» أقضى معه بقية الصباح حتى الظهر إذا لم يطرأ ما يلفت أو يشغل!

وألقيت نظرة عابرة على كتبى العشرة وقد اتخذت مكانا منفردا وسط رفوف كتب سبقتها إلى الساحل وبقيت هناك، لأن عودتها إلى القاهرة لم تكن ضرورية. وبدا لى أن تلك النظرة العابرة على صف الكتب تريد أن تستوثق أن ما جئت به من «صحابى» كان اختيارا معقولا لم تفرضه عجلة السفر.

بين الحلم والإرادة!

بدت لى قائمة «صحابى» من الكتب مقبولة، وإن لاحظت أننى مازلت مفتونا بالحرب العالمية الثانية: فأربعة ضمن عشرة كتب - جئت بها معى - كانت عن تلك الحرب أو متصلة بوقائعها، ولم أجد فى ذلك ما أستغربه، بل وجدته بالنسبة لى طبيعيا ومنطقيا، لأسباب يطول شرحها وإن حاولت الإجمال والاختصار:

■ إن تلك الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ - ١٩٤٥) كانت آخر مواقع الصراع الكبرى على مسرح التاريخ الإنسانى. كانت بالفعل آخر حرب إنسانية: بشر أمام بشر، وجيوش أمام جيوش، وسلاح يستعمله رجال أمام سلاح يستعمله رجال، ومواقع القتال ظاهرة، فيها نار ودم ولحم وعظم، وأهم من ذلك كله عواطف ومشاعر وغرائز وهواجس حية ويقظى ومؤثرة.

فى حروب السلاح فيما بعد شحبت صورة البشر، بل ولم تعد للقتال ميادين ولا ساحات ولا مواقع، فإمكانية الحرب النووية حياة تتحول فى لمحة بصر إلى رماد، وإمكانية الحرب الإلكترونية صور أمام المشاهد تلهيه، وإمكانية الحرب الكيماوية أو البيولوجية موت مهين لا شجاعة أو بطولة، ولا شهيد أو نشيد!

■ وتلك الحرب العالمية الثانية كانت مختبرا هائلا لكل العلوم الحديثة، من الفضاء والذرة إلى الطبيعة والكيمياء إلى المعلومات والذكاء الصناعى إلى التخطيط والتنظيم والإدارة والمتابعة. والحروب باستمرار هى أكبر دافع لاختراقات العلم فى كل المجالات. ففى غمار مخاطرها تتحفز العقول، وتتفتح الخزائن، وتنطلق روح المغامرة خارجة عن المألوف والمعروف باحثة عن مكامن التقدم حيث تكون.

وكانت اختراقات العلم التى جرت فى الحرب العالمية الثانية وتحت إلحاح ضروراتها هى التى فتحت الأبواب لثورة اجتماعية غير مسبوقة فى التاريخ الإنسانى، أتاحت السلع والخدمات من كل الأنواع وكل المستويات لمن يطلبها. ثم إنها أحدثت نقلة تشبه الخيال فى مجال تلاقى الناس والثقافات والفنون، وكان مثل ذلك التلاقى من قبل ضروبا من أوهام الخيال. والحقيقة أنه خلال نيران تلك الحرب العالمية الثانية جرى صهر وسبك العالم كما نعرفه الآن ماشيا من القرن العشرين إلى القرن الواحد والعشرين، وهى رحلة وصلت من سطح الأرض إلى سطح النجوم.

■ وتلك الحرب العالمية الثانية كانت البيئة التى ظهرت فيها القوى الغالبة فى هذا العصر لأنها القادرة عليه. كان ذلك العصر هو الذى صنع تلك القوى، وقد حاولت بما اكتسبته أن تصنع العصر كما صنعها.

وكانت الولايات المتحدة الأمريكية هى القوة التى انتصرت فى تلك الحرب، وكان شريكها الأكبر فى تحقيق النصر هو الاتحاد السوفيتى، لكن وسيلة النصر لدى كل منهما حددت وحسمت أيهما يملك الزمان الجديد أو على الأقل يسيطر عليه.

فالاتحاد السوفيتى حقق نصيبه فى النصر بعطاء من الدم غزير (كان ضحايا الحرب العالمية الثانية فى كل ميادينها ٦٨ مليون إنسان - لكنه كان بينهم ٢٥ مليونا من السوفييت - أى أكثر من ثلث شلال الدم.

وأما الولايات المتحدة فقد حققت نصيبها من النصر بعطاء مختلف: وفرة فى الموارد مهولة، ومعها ثروة طائلة تستطيع أن تمنح وهى أيضا تستطيع أن تستحوذ وتلك طبيعة الأشياء. وهكذا فإن وفرة الموارد ومعها الثروة الهائلة لم تأخذ فقط كل منجزات العلم، لكنها أخذت أيضا كل غنائم النصر.

وكانت النتيجة فى نهاية الحرب الباردة أن الذى أعطى الروح والدم أخذ بعدهما الشعر، وأن الذى أعطى الموارد والثروة أخذ بعدهما القوة ووجد فيها ما يغنيه عن القصائد والعقائد!

وتلك هى الحقيقة العارية فى شأن هذه الحقبة من التاريخ الإنسانى التى نعيشها الآن، وذلك هو واقعها الراهن بصرف النظر عن معانٍ وقيم وحقوق تطالب للحياة بكرامتها، بعيدا عن أوهام البطولة والشعر والقصائد، وبعيدا عن هيمنة القوة وغرورها وجنونها فى بعض الأحيان!

■ وتلك الحرب العالمية الثانية كانت نوعا من العودة إلى مجرى التاريخ الإنسانى بالنسبة لشعوب وأمم وأوطان ودول فيما أصبح يسمى بالعالم الثالث فى آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية. والشاهد أن مجرى التاريخ تلازم مع مجرى الحضارة كأنهما صفان من العجلات على شريط للسكة الحديد، وكذلك تذهب مراكز الحضارة إلى حيث تذهب مراحل التاريخ. أى أنه حين تغيب شمس الحضارة تنام حركة التاريخ.

وكان هدير مدافع الحرب العالمية الثانية هو الصوت الذى وصلت أصداؤه إلى العالم الثالث وأيقظته. ثم إن الذين لم يوقظهم الصدى هزتهم حركة الجيوش المتحاربة فوق أرض أوطانهم أو بالقرب منها، وقد هبوا ليجدوا النار من حولهم وكان عليهم أن يهموا بسرعة. وذلك بالضبط ما حدث لشعوب الأمة العربية التى راحت تفتش وسط الحرب العالمية الثانية - وفى أعقابها - وما زالت تفتش لنفسها عن شكل يناسبها وهيئة تشارك بها فى مجرى التاريخ ومجرى الحضارة معا.

■ ونتيجة لذلك، وتواصلا طبيعيا معه، فإن تلك الحرب العالمية الثانية أصبحت بالنسبة لذلك الجيل الذى أنتسب إليه بداية للوعى بالعالم والتنبه للعصر. فقد كانت أجواء تلك الحرب - قرب ميادين القتال أو بعيداعنها - صراع معارف وثقافات وخبرات ألهمت ووجّهت وحرّكت وفتّحت، على حد تعبير أشهر مؤرخى القرن العشرين، وهو «أرنولد توينبى»: «مائة عام من المستقبل على الأقل».

ويظهر الآن بعد أكثر من نصف قرن من سكوت مدافع تلك الحرب العالمية الثانية أن نبوءة «توينبى» صحيحة، وأكثر من ذلك، فإن أعقاب تلك الحرب كانت بالنسبة لى - شخصيا - بداية طريق. ذلك أنه حين شاءت لى الظروف والحظوظ أن أبدأ رحلة الحياة، كان الأفق الذى سرت نحوه هو وهج تلك الحرب. ثم كان أن دواعى المهنة وضعتنى - حتى بعد أن شحب الوهج - وسط عواقب تلك الحرب وتداعياتها وتوابعها مما لا يزال يجرى حتى الآن وإلى أى مدى يمكن استشرافه من هنا!



لم يكن غريبا إذن - وتلك خواطرى - أن تمتد أصابعى لتدعو واحدا من «الصحاب» معى إلى شاطئ البحر، ثم يكون هذا «الصاحب» الأول - من بين العشرة - هو كتاب: «فرنسا (١٩٤٠ - ١٩٤٤): سنوات الظلام» ومؤلفه هو «جوليان جاكسون»، أبرز أساتذة التاريخ فى جامعة «ويلز» البريطانية، وتخصصه هو التاريخ الفرنسى الحديث، وله فيه خمسة مؤلفات كل منها مرجع لا يستغنى عنه فى موضوعه!

و«سنوات الظلام» التى قصدها الأستاذ «جوليان جاكسون» بعنوان كتابه هى تلك السنوات التى عاشتها فرنسا تحت الاحتلال الألمانى من ساعة دخلتها قوات الاحتلال فى يونية سنة ١٩٤٠.



ثقافات البحر الأبيض
حصة الأغلبية فى شراكة الحضارة العالمية

إلى ساعة تحررت باريس في سبتمبر سنة ١٩٤٤ بعاصفة من قوات الحلفاء نزلت على شواطئ «نورماندي» تحت قيادة «أيزنهاور»، وشقت طريقها إلى المدينة التي اعتبرها العالم ـ قبل الحرب العالمية الثانية ـ عاصمة للنور!

وقصدت بالكتاب إلى مقعدي فوق الرمل وقرب حافة الماء وعلى مسمع من صوت حكايا الموج للشاطئ. وفتحت كتاب «فرنسا: سنوات الظلام» واجتزت عدة صفحات من الكتاب فيها المقدمة والفهرس والخرائط، ثم توقفت.

راودني على نحو ما شعور بأن ما أقرؤه ليس غريبا عني. ربما قرأت شيئا مشابها له من قبل لكن شعوري كان أنني عشت ما فيه على نحو ما وعرفته بتجربة الحياة وليس بمعرفة المطالعة مما سبق!

ساءلت نفسي: كيف؟ ولم أجد سببا قاطعا، لكني كنت على شبه يقين بأن ما أقرؤه الآن، عشته، رأيته وسمعته وتفاعلت وانفعلت مع مشاهده وحواراته وأجوائه وأحاسيسه.

طرأ على بالي ـ ونظري يمتد إلى مدى البصر حيث لقاء البحر والأفق ـ أنه تأثير البحر الأبيض وذلك التواصل بين شمال هذا البحر (جنوب أوربا وفيه فرنسا) وبين جنوبه وشرقه (المشرق العربي وفيه مصر).

وعاد إلى ذاكرتي وصف سمعته يوما من «كوف دى مورفيل» ـ وكان وزير الخارجية المستديم للجنرال «ديجول» ورئيس وزرائه أواخر عهده ـ وفي ذلك الوصف كان «دى مورفيل» يرسم صورة حية لحوار التاريخ والحضارة والسياسة حول البحر الأبيض.

وبشكل عام كان «دى مورفيل» يقول: «إن الناس يتصورون أحيانا أن البحر الأبيض عازل لكني أتصوره واصلا، بمعنى أنه ليس فضاءً خاليا وإنما هو أشبه ما يكون بسطح مائدة أحاطت بها مقاعد تجلس عليها ثقافات متنوعة تمثل حصة الأغلبية في شراكة الحضارة العالمية».

ويمضي «كوف دى مورفيل» إلى أبعد ويقول: «البحر الأبيض مائدة مستطيلة حولها من الشمال و الجنوب ومن الشرق والغرب مواقع ظهرت واستقرت عليها ثقافات المصريين والأشوريين واليونان والرومان واللاتين والعرب من دمشق حتى قرطبة».

ويستطرد «كوف دى مورفيل»: «من مواقعنا حول البحر الأبيض تحاورنا، ومن هذه المواقع تأثر كل منا بالآخر، مع ملاحظة أن البحر الأبيض مستطيل شبه مغلق، يبدأ المسافر من أى بقعة فيه ويمشى على شاطئه فيجد نفسه حيث بدأ دورة كاملة».

ومع أن بين الشعوب فوارق في مراحل التطور، ومع أن الظروف تتفاوت بين شمال وجنوب وشرق وغرب ـ إلا أن هناك سمات مشتركة لأن البحر الأبيض بالفعل دائرة واحدة متصلة: سماء صافية وشمس طالعة ومناخ معتدل، وكل ذلك يغرى بالحياة وبالفكر وبالذوق وبالأدب، وبالفن وحتى بالأكل. وكل ذلك حى على شواطئ البحر الأبيض متداخل ومتفاعل، مما يجعل لكل موقع فيه نسمة وعطرا ولونا لا تخطئه الحواس.

....

....

[والمدهش أن محيط البحر الأبيض كله حزام من شجرتين اثنتين: واحدة مثمرة هى شجرة الزيتون الوقورة، والثانية مزهرة هى شجرة «البوجينفيليا» اللعوب (التى يسميها المصريون «الجهنمية» بسبب لونها الشائع (أحمر متوهج) وهو ظلم لأن أوراق هذه الشجرة في الواقع عيد من الألوان).

وكان فيلسوف الألمان الأكبر «هيجل» هو أول من قرأت له تعبير «إن التاريخ ظل الإنسان على الجغرافيا»، وربما إنه على نفس المنوال يمكن القول: «إن خصوصية أى شعب بصمة الطبيعة على طبعه».

وهنا فإنه إذا كان البحر الأبيض «طبيعة» فهو في الوقت نفسه «طبع»، وكذلك فإنه يمكن لما حدث ذات يوم في فرنسا أن يتشابه على نحو ما مع أيام في العالم العربي مع الاعتراف بمساحات للاختلاف هى من قوانين الحياة.]

....

....

وقفت مع الصفحات الأولى لكتاب «سنوات الظلام» ثم ذهبت معه مرتحلا فوق موج البحر، وعبر مساحة الزمن! ■

٢ «سنوات الظلام: بدايتها ونهايتها؟!»

■ ■ يبدأ كتاب «فرنسا: سنوات الظلام» بمشهد يحترم «المعنى» دون أن يتوقف كثيرا أمام «الشكل»!

والمشهد اجتماع لهيئة الوزارة الفرنسية المؤقتة التى دخلت باريس بعد تحريرها من قبضة الاحتلال الألماني، والاجتماع برئاسة قائد «فرنسا الحرة» الجنرال «شارل ديجول».

كان جو باريس حارا في شهر أغسطس سنة ١٩٤٤، وكذلك قلقا لأن المعارك ما تزال دائرة على ساحات من الأرض الفرنسية، وكان الموضوع المطروح على هيئة الوزارة المؤقتة، وبأحكام الواقع، محفوفا بتعقيدات شائكة ومعبأ بمشكلات صعبة، لأن جدول أعمال الاجتماع حوى بندا واحدا تقدم به الجنرال «ديجول» ملخصه: «ضرورة صدور إعلان رسمي بأن كافة التشريعات والتنظيمات التى أقرت أو وضعت طوال السنوات الأربع التى تولت المسئولية فيها تلك الحكومة التى رأسها الماريشال «بيتان» بعد استسلام فرنسا ودخول الجيش الألماني إلى باريس ـ كلها ملغاة ومعدومة الأثر null and void».

وكان ذلك إجراءً كاسحا، ذلك، أن الماريشال «بيتان» كان قد وقع اتفاقية صلح مع ألمانيا سمحت باحتلال نصف فرنسا ـ وفيها باريس ـ وسمحت في الوقت نفسه ببقاء نصف فرنسا الآخر بغير احتلال تتولى أموره حكومة فرنسية برئاسته «بيتان» تباشر سلطتها من مدينة «فيشى» (جنوب غربى فرنسا). وهذه الحكومة قامت خلال سنوات ولايتها الأربع بإعادة بناء دستورى وقانوني وإدارى واسع قيل في تبريره إنه «الاستفادة من درس الهزيمة التى منيت بها فرنسا من جانب ألمانيا».

وكانت عملية إعادة البناء الدستورى والقانوني والإدارى استيعابا للدرس ـ كما قيل في تبريرها ـ قد طالت كل مرافق الحياة في فرنسا، لكن «ديجول» جاء الآن في لحظة التحرير ليسقط هذا البناء كله.

كان منطق «ديجول» أن حكومة «فيشى» ورئيسها الماريشال «بيتان» (وهو أبرز أبطال فرنسا في الحرب العالمية الأولى) لم تكن حكومة شرعية لأنها رضيت أن تتعامل مع الاحتلال وتتفاوض تحت ظل مدافعه.

وافقت هيئة الوزارة المؤقتة بالإجماع على مطلب «ديجول»، مع أن كل أعضائها كانوا يعرفون ويقدرون حجم التعقيدات والمشكلات التى سوف تطرأ فور صدور هذا الإعلان.

وبرغم ذلك فإن كل أعضاء الوزارة كانوا في الوقت نفسه يدركون أهمية تلك اللحظة الفارقة في «المعنى» على مسار التاريخ الفرنسي.

وفى أثناء المناقشة، اقترح أحد الوزراء: «أن يعلن قائد فرنسا الحرة عودة الجمهورية الفرنسية».

ورد «ديجول»: «إن الجمهورية الفرنسية لم تغب عن الوجود قط، حتى وإن كان بعض الأفراد قد انتحلوا سلطتها واستعملوها في توقيع ورقة بإملاء السلاح».

وتساءل وزير آخر: «عما إذا كان مناسبا إسقاط فترة الاستسلام (السنوات الأربع ما بين يونيه ١٩٤٠ إلى أغسطس ١٩٤٤) من تاريخ فرنسا باعتبارها زمنا خارج الشرعية».

ومرة ثانية رفض «ديجول»، ورأيه «أن الشرعية الفرنسية تلك السنوات تمثلت في المقاومة (حركة فرنسا الحرة) بصرف النظر عن وجود حكومة على بقعة من أرض فرنسا في فيشى». وتقديره أن «الشرعية» أساسها «الإرادة الوطنية»، وفى غياب الإرادة الوطنية فليست هناك شرعية خصوصا وأن تلك الحكومة في «فيشى» وقعت «ورقة» الاستسلام دون معرفة رأى فرنسا ودون سندٍ من إرادة شعبها.

وكان قرار «ديجول» أن تلك السنوات التى لا يمكن إسقاطها من التاريخ الفرنسي يمكن اعتبارها سنوات «ظلام نزل على فرنسا»!

وبرز سؤال طرح نفسه هنا، «ما هو حساب سنوات الظلام؟ ومن أين تبدأ؟ وأين تنتهى»؟

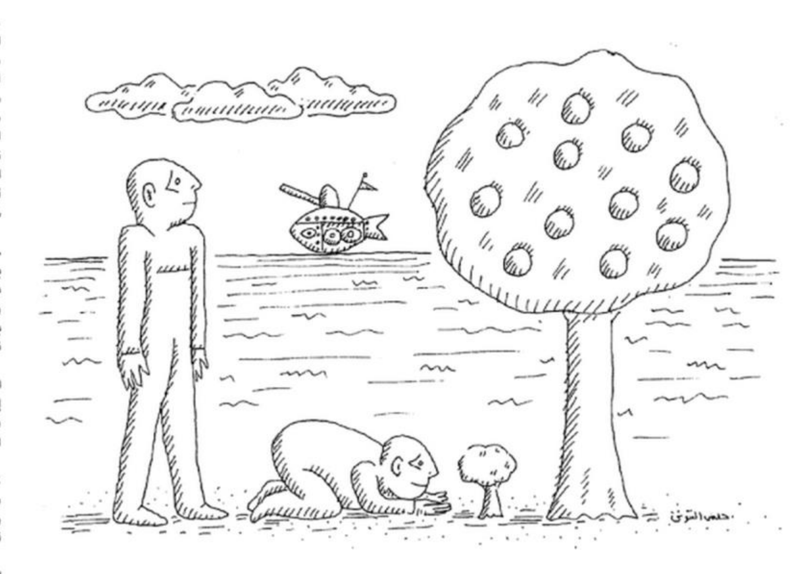
وكانت إجابة «ديجول»: «من ساعة وضع «بيتان» توقيعه على «ورقة الاستسلام» وحتى ساعة إعلان دخول حكومة فرنسا الحرة إلى باريس».

وتولى «هنرى فريناى»، وهو أحد زعماء المقاومة البارزين، مهمة تفصيل ما أجمله «ديجول»، فأعلن بالنص: «إن حكومة «بيتان» كانت ظرفا ساد فيه الجنون. لقد هزمنا عسكريا أمام الألمان، إن ذلك صحيح لسوء الحظ، لكنه ليس سببا كافيا يدعونا لأن نقبل كحقيقة ثابتة ما هو حادثة عارضة. لقد كان قبول التعامل مع ألمانيا هو الهزيمة ذاتها. السلاح ينهزم، وهنا «الحادثة»، لكنه إذا انهزمت الإرادة فهناك «النهاية»».

وهكذا اعتبر انكسار الجيوش حادثة هى من طبائع صراعات التاريخ، وأما القبول والتوقيع على ورقة تنازل بإملاء السلاح، فتلك هى الكارثة!



كان انكسار الجيوش الفرنسية مذهلا. فالهجوم الألماني على فرنسا بدأ يوم ٩ من مايو سنة ١٩٤٠، وكان تقدمه من الجهة غير المتوقعة أو على الأقل الجهة التى لم يحسب حسابها بالقدر الكافي. والحاصل أن فرنسا كانت تنتظر الهجوم القادم من الشرق على أى بقعة من خط حدودها مع ألمانيا. وقد تصورت أنها استعدت لهذا الاحتمال، وكانت واثقة إن الخط الدفاعي الأسطورى الذى بنته أمام ألمانيا والذى اشتهر باسم خط «ماجينو» ـ على اسم وزير الدفاع الفرنسي الذى أعد له وأشرف على



بنائه - سدا لا يقهر من التحصينات المنيعة وأبراج المدافع ومرابض الدبابات ومراكز القيادة ومخزونات من الأسلحة والذخائر والمؤن يمكن أن تعين المدافعين عن الخط وعن تراب الوطن الفرنسي لشهور بل لسنوات. لكن الهجوم الألماني عندما جاء أتى من الشمال، لأن خطة «هتلر» لغزو فرنسا كررت مرة أخرى خطة قديمة وضعها الماريشال «فون شليفن» من أيام حرب السبعين (١٨٧٠). ومقتضى الخطة ترك الحدود الفرنسية وخطوطها وتحصيناتها والدوران حولها عن طريق بلجيكا وهولندا وعبور نهر «الموس» والنفاذ في مناطق «الأردين»، ثم عبور نهر «اللوار» والاندفاع نحو «باريس» وتحقيق الفصل الكامل بين الجيوش الفرنسية على خطوط الحدود في الجنوب وبين الجهة الأكثر حساسية والأشد خطرا في الشمال والغرب.

وفي ظرف أيام قليلة كانت مدرعات الجنرالات «جودريان» و«روميل» و«فون بيك» تسابق بعضها بعضا في شمال فرنسا، وغربها، مندفعة إلى قلبها.

ومن المصادفات صباح يوم بدء الهجوم الألماني على فرنسا (فجر ٩ من مايو) - أن القيادة العليا الفرنسية كانت معطلة، لأن رئيس الوزراء الفرنسي «بول رينو» لم يعجبه أداء القائد العام للجيش الفرنسي الماريشال «موريس جاملان» فيما سبق من معارك - فقرر إحالته إلى الاستيداع مساء يوم ٨ مايو - لكنه فجر اليوم التالي (٩ من مايو) ومع بدء الهجوم الألماني الشامل عبر هولندا وبلجيكا، والالتفاف حول خط «ماجينو» لم يكن أمام «بول رينو» إلا العدول عن قراره بإحالة قائده العام إلى الاستيداع، وهكذا فإن الماريشال «جاملان» الذي وقع طرده في المساء أعيد تثبيته على منصبه عند الصباح. والواقع أن الجبهة الفرنسية كانت قد انهارت تماما في حضور الماريشال «جاملان»، ثم في غيبته بالطرد في المساء، وكذلك بعد عودته بالتثبيت في الصباح!



وكان حلفاء فرنسا البريطانيون الذين جاءوا إليها بجيوشهم في «نورماندى» (شمالي فرنسا) قد رأوا الانهيار مبكرا وقرروا الانسحاب من المعركة وترك فرنسا تواجه العاصفة وتقرر لنفسها ماترى وعندما عبرت القوات الألمانية نهر «اللوار» والطريق إلى باريس مفتوح كان مجموع خسائر فرنسا من البشر:

- مليون وربع مليون قتيل.
- مليون ونصف مليون أسير.
- ثمانية ملايين مواطن فرنسي تحولوا إلى لاجئين (إلى درجة أن مدينة مثل «شارتر» لم يعد فيها غير ٨٠٠ مواطن في حين أن تعدادها الأصلي ثلاثة وعشرون ألفا، ثم إن قرية مثل «بوسيلانج» هرب سكانها ولم يتبق منهم غير عائلة واحدة ما لبث أفرادها جميعا - وعددهم خمسة - أن قرروا الانتحار جماعيا قبل أن تدهمهم القوات الألمانية.

ومساء يوم «٢٥ من مايو» قام الماريشال «موريس جاملان» (القائد العام للجيش الفرنسي) بإبلاغ الحكومة في باريس رسميا بأن عليها «أن تجد وسيلة لوقف القتال والتوصل إلى هدنة مع الألمان. لكن الحكومة قامت بعزل الماريشال «جاملان» وعينت بدله الماريشال «ماكسيم ويجاند» وحاول القائد العام الجديد أن ينقذ الموقف لكنه يوم «١٢ يونيه» حل عليه الدور لكي يطلب من الحكومة أن تجد وسيلة لوقف القتال والتوصل إلى هدنة مع الألمان.

وأكثر من ذلك، فإن الماريشال «ويجاند» وجه إلى رئيس الوزراء تحذيرا قال فيه، «إن التوصل إلى اتفاق بأي شكل مع الألمان لابد أن يتم بسرعة وقبل أن تنفرط الجيوش الفرنسية وتذوب في فوضى الهزيمة، ثم لا تجد الحكومة في باريس أي قوات تحمي بها الداخل الفرنسي من «حركة شيوعية» تحاول استغلال الكارثة وتستولي على السلطة»!



كانت باريس تعيش أقسى الساعات في تاريخها الحافل، لكن العاصمة كانت منقسمة بين الذين يرون استمرار مقاومة فرنسا حتى من خارج التراب الفرنسي كله إذا أدى الأمر - وبالتحديد من المستعمرات في شمالي أفريقيا (تونس والجزائر ومراكش) - وبين الذين يرون أن «الواقعية» لابد لها الآن أن تسود وأنه ليس أمام فرنسا غير أن تسأل الألمان عن شروطهم لوقف القتال، فالحرب انتهت عمليا بانتصار الألمان ليس على فرنسا فقط، وإنما على بريطانيا أيضا، لأن فلول الجيوش البريطانية التي انسحبت من فرنسا تحت النار في «دنكرك» أفلتت محطمة الأعصاب تاركة أسلحتها الثقيلة غنيمة لقوات الجنرال «جورديان» التي طاردتها وطردتها من «نورماندى»، والنتيجة - وذلك هو القدر المحتوم - أن الجزر البريطانية نفسها سوف تصبح مكشوفة أمام غزو ألماني عبر بحر الشمال، لأن بريطانيا ببساطة لا تستطيع في أيام ولا أسابيع ولا شهور أن تعد دفاعات عن شواطئها تقدر على الصمود.

كان الشعب الفرنسي في حالة ذهول مما حل به، فقد انقضّت عليه عاصفة الحرب وهو يعيش أزمة سياسية ضاعت فيها ثقته بمؤسساته السياسية والفكرية والثقافية، والشك في النفس أخطر ما يصيب الشعوب لأنه ينزع مناعتها ويضرب إرادتها بنوع من الحيرة تصل بها إلى الضياع.

وفي تلك اللحظات المثقلة بالهم تقرر دعوة الماريشال «بيتان» (الذي كان يعمل سفيرا لدى إسبانيا) كي يعود بسرعة لعل لديه دواء لعلل فرنسا، وهو البطل الذي حقق لها النصر في الحرب العالمية السابقة (١٩١٤-١٩١٨).

لكن الماريشال - الذي استدعى على عجل - كان قد ترك آخر جذوة في أسطورته تنطفئ بدعوى أن ساسة فرنسا تخلوا عن «القيم والأخلاق والمثل العليا التي قام عليها تماسك فرنسا».

وهكذا فإن «بيتان» «بطل الحرب» كان هو الرجل الذي طلب من الألمان «شروط السلم»!

ويوم «٢١ يونية» قدم الألمان شروطهم لمبعوث خاص بعث به الماريشال «بيتان» الذي تسلم رئاسة الوزارة من «بول رينو» قبلها بأيام. والغريب أن القائد الألماني الماريشال «فون رونشتد» قدم تلك الشروط لمبعوث «بيتان»، وهو الجنرال «هونتزيجر» في عربة قطار سحبت إلى محطة «كومبين»، وكانت نفس العربة إلى نفس المحطة التي وقعت فيها ألمانيا شروط الاستسلام في الحرب العالمية الأولى قبل ٢٢ سنة!

وكانت شروط الألمان كما يلي:

١ - يتم تقسيم فرنسا بالعرض إلى منطقتين: في الشمال منطقة احتلال ألماني، فيها باريس، ومنطقة في الجنوب تقوم فيها دولة فرنسية «مستقلة» تختار لنفسها عاصمة حسبما ترى سلطاتها.

٢ - الدولة الفرنسية تباشر تسريح جيشها وتحتفظ بقوة أمن لا يزيد تعداد أفرادها على مائة ألف رجل.

٣ - الأسرى الفرنسيون لدى الجيش الألماني (مليون ونصف المليون) يبقون في الأسر حتى تنتهي الحرب العالمية وتوقع معاهدة للصلح بين جميع الأطراف (وبعد شهور قليلة كان نصف هؤلاء الأسرى (٨٠٠ ألف) عمال سخرة في خدمة الإنتاج الحربي الألماني).

٤ - تتكفل الحكومة الفرنسية بدفع تكاليف وتتحمل نفقات الجيش الألماني في منطقة الاحتلال (شمالي فرنسا وفيها باريس).

وحين قام الجنرال «هونتزيجر» بنقل هذه الشروط الألمانية إلى الماريشال «بيتان» طلب الماريشال في مقابل قبوله بها ثلاثة شروط:

١ ـ أن تتعهد ألمانيا بعدم احتلال أرض الدولة الفرنسية المستقلة (جنوب فرنسا).

٢ ـ ألا تحتل ألمانيا أيا من مستعمرات فرنسا الإمبراطورية، وإنما تترك هذه المستعمرات تابعة لهذه الحكومة الفرنسية المستقلة التى اتخذت من مدينة فيشى عاصمة لها، وذلك حتى تجرى تسوية عامة فى مؤتمر الصلح بعد نهاية الحرب.

٣ ـ أن تتعهد ألمانيا بالا تستولى، ولا تحاول الاستيلاء على الأسطول الفرنسي فى موانئ: «مارسيليا» و«طولون»، لأن البحرية الفرنسية سوف يقع عليها وحدها عبء الدفاع عن المستعمرات الفرنسية إزاء أطراف محتملة (بريطانيا).

ووافقت ألمانيا على هذه الشروط، وكان البند الوحيد المعلق قبل وقف القتال هو الاتفاق على المبلغ المقدر لتكاليف ونفقات جيش الاحتلال الفرنسي.

ولساعات دارت مساومات، وعرض المفاوض الفرنسي دفع مبلغ عشرين مليون فرنك يوميا، لكن المفاوض الألمانى لم يكن لديه وقت لطول الجدل، كما أن المفاوض الفرنسى كان يشعر دقيقة بعد دقيقة أن الأرض تقع من تحته والسقف يهوى منقضا عليه. وهكذا تم الاتفاق على أن «تتعهد فرنسا بأن تدفع تكاليف ونفقات جيش الاحتلال الألمانى وتقدر بمبلغ ٤٠٠ مليون فرنك كل يوم مع احتساب قيمة الفرنك الفرنسى إلى المارك الألمانى بنسبة ٢٠:١ أى أن عشرين فرنكا تساوى ماركا ألمانيا واحدا»!

ووضع الماريشال «بيتان» إمضاءه على اتفاق سلام ينهى الحرب ويبدأ تجربة جديدة للتوافق مع «الآخر» الألمانى، مع العلم بأن هذا «الآخر» كان «جارا» لفرنسا طول التاريخ وليس «آخر» انقض من الفراغ على التاريخ وعلى الجغرافيا معا!

وقد رأى «بيتان» من باب استيفاء الاجراءات أن يعرض الاتفاق على الجمعية الوطنية، وكان الجيش الألمانى على أبواب باريس فعلا ووافقت الجمعية الوطنية على الاتفاق باغلبية ٦٢٤ صوتا ضد أربعة أصوات.

وتستوقف النظر وتستدعى التأمل مجموعة الإجراءات التى بدأ بها الماريشال «بيتان» حكمه لفرنسا. ومؤلف كتاب سنوات الظلام يوردها فى صفحة ١٥٤ من كتابه:

١ ـ طلب وحصل على تفويض دستورى جعل سلطته فى فرنسا أقوى من السلطة التى كانت فى يد الملك «لويس الرابع عشر» عندما كان يلقب بـ«الملك الشمس»، وعندما قال قولته المأثورة يوما: «أنا الدولة».

٢ ـ قرر تغيير النشيد الوطنى إلى نشيد آخر مختلف عن نشيد «إلى السلاح أيها المواطنون»، لأن النشيد القديم فيه تحريض على الحرب.

٣ ـ وجه نداءً إلى الأمة الفرنسية لتعود إلى أيام كانت العائلة فيها أساس المجتمع ورابط علاقاته ومحدد قيمه.

٤ ـ أشار أو أشير عليه بوضع رسم يوضح صورة جانبية له محل وجه «ماريان» التى كانت بشبابها ترمز إلى حيوية الثورة الفرنسية.

٥ ـ وافق على كتابة شعارات الثورة عن: «الحرية والإخاء والمساواة» فوق كل المراسيم والقوانين والتنظيمات التى وضعتها حكومة فيشى، مع أن الإجراءات كلها تكاد توحى بأنه «نظام ملكى يتخفى وراء شارات ثورية»!



لكن رجلا واحدا رفع صوته ورفض هذا الاتفاق من باريس، وكان ذلك الرجل هو الجنرال «شارل ديجول» نائب وزير الدفاع فى وزارة «بول رينو».

وأمر الماريشال الأسطورى بالقبض على الجنرال المغمور، لكن «ديجول» الذى كان بين مهامه أن ينسق العمليات على جبهة «نورماندى» بين الجيوش الفرنسية والجيوش البريطانية قرر أن يتوجه إلى «لندن» ليقود من هناك حركة مقاومة باسم «فرنسا الحرة».

وكان يقينه الذى لم يتزعزع أن كل دعاوى «الواقعية» هى استسلام لضغوط لحظة تنسى التاريخ، وتتنازل عن الحقيقة، وتتهاون فى المستقبل.

ويقينه أن الثلاثة: التاريخ والحقيقة والمستقبل أهم وأبقى من صدمة حادثة ومن «لحظة ضعف» لا يجوز التاسيس عليها ثم البداية منها ونسيان ما عداها!

وفى لندن بدأ «ديجول» يتصرف على أنه الممثل لإرادة فرنسا، ومن ثم الشرعية الفرنسية، وفى رأيه كانت حكومة «بيتان» «الواقعية» حكومة غير شرعية ـ ليل من الظلام نزل على فرنسا!

٣ «الخيال ـ الحلم ـ الواقعية!»

كان «شارل ديجول» ـ الذى ترك باريس قبل سقوطها ـ رافضا استسلام فرنسا وداعيا إلى استمرار الحرب ضد ألمانيا حتى من خارج التراب الفرنسى كله إذا اقتضى الأمر ـ رجلا يملك «حلما»، لكنه لم يكن رجلا «خياليًا».

....

....

[والفارق شاسع بين «الحلم» (الأمل) وبين «الخيال»، كما أن الفارق شاسع بنفس المقدار بين «الحلم» وبين «الواقعية».

والحقيقة أن تلك كلها: «الخيال»، و«الحلم»، و«الواقعية» ظلال لمواقف من الضرورى توضيحها بإضاءة معانيها وليس بمجرد النظر إلى سطحها، وإذا وقعت تلك الاضاءة الضرورية ونزلت على مكانها فسوف تشحب الظلال وتتضح المشاهد بما تعنيه:

■ مشهد «الخيال» هو الجموح فى طلب «المستحيل» بصرف النظر عن حدود الطاقة الحالية والمحتملة للطالب، لأن الجمَوح إلى الخيال رغبة أقرب إلى الغريزة مستغنية عن الحساب، والمشهد على هذا النحو نوع من المقامرة خطرة العواقب على طالبها قبل غيره من الأطراف.

■ ومشهد «الحلم» هو «المشروع» القادر على تصور المستقبل وهو بالتالى طلب «الممكن كله» إذا وضعت «الإرادة كلها» فى خدمته، وذلك جوهر «المشروع السياسى» وبالتالى فإن «الحلم» مشروع سياسى يحقق كل المقدور عليه فكرا وفعلا إذا استعملت الإرادة كل وسائلها بقوة وذكاء.

■ وأما مشهد «الواقعية» فهو القبول «بالمتاح»، أى المأذون والمسموح به كما هو ظاهر فى لحظة معينة، واعتبار أن صورة هذه اللحظة هى الحقيقة الراهنة والدائمة، وهنا فإن «الواقعية» تصبح أبعد ما تكون عن «السياسة» بمعناها وأقرب ما تكون إلى الوظيفة بحدودها، فالسياسة تصوغ مطالبها مهما كانت صعبة وبعيدة، والواقعية تنفذ لوائحها كارهة لها أو سعيدة.

والسياسة ملزمة بإطار من دستور وقانون لكن «الواقعية» لا تسائل نفسها عن شرعية ما تلتزم بتنفيذه، فهى تنفذ فقط ما تجده مكتوبا فى لوائحها (واللوائح ـ بل وحتى الدساتير والقوانين ـ يمكن أن تكتب بواسطة قوة غير شرعية، لأن سلطة هذه القوة تفرض تنفيذها قسرا، وذلك ما فعله الاحتلال الألمانى لفرنسا فى المنطقة التى دخلتها جيوشه، وذلك أيضا ما فعلته حكومة الماريشال «بيتان» فى الدولة الفرنسية المستقلة ـ! ـ التى سمحت بها اتفاقية السلام بين ألمانيا وفرنسا!).]

....

....

[وعلى سبيل الاستدلال بنماذج من الحرب العالمية الثانية، فإن «هتلر» كان رجلا خياليا جمح خياله إلى حد تصور معه أنه يستطيع السيطرة على العالم بالسلاح، وكان ذلك منزلقه حتى فى ذروة قوته، وقد بنى حساباته على أساس قدرته على هزيمة الإمبراطوريتين الكبيرتين فى أوربا ـ فرنسا إلى جواره، وبريطانيا أمامه عبر القنال الإنجليزى (المانش).

وفى ذلك نسى «هتلر» قوتين صاعدتين:

ـ قوة اقتصادية مالية هى «الولايات المتحدة الأمريكية» تنتظره عبر المحيط حتى يستنزف قواه فى أوربا ثم تقرر كيف تواجهه.

ـ والقوة الثانية كتلة إنسانية ضخمة، إلى جانب أنها فكرة عقائدية نشطة تتحرك فى فضاء عالمى واسع. وهى تعتبر نفسها موقع اليسار. وتعتقد أن نازية «هتلر» أقصى اليمين والصراع بين الاثنين مهما تأخر «حتمية تاريخية».

وربما كان فى مقدور السلاح الألمانى أن يتحدى إمبراطوريات قديمة (بريطانيا وفرنسا)، أو يتحدى طاقة اقتصادية مالية هائلة (الولايات المتحدة)، أو يتحدى كتلة إنسانية وعقائدية ضخمة (الاتحاد السوفيتى) ـ لكنه كان من المستحيل ومن ضروب الخيال، أن يتحدى الثلاثة معا وفى وقت واحد.]

....

....

[وعندما استسلمت فرنسا ورفضت بريطانيا بقيادة «تشرشل» أن تستسلم برغم أنها فقدت حليفها الكبير فى القارة الأوربية (أى فرنسا)، وبرغم أن الجزء الأكبر من جيشها انسحب من القارة عن طريق «دنكرك» عاريا من سلاحه وشبه عارٍ من معنوياته، ورغم أن ما بقى تحت تصرف تشرشل من جيوش الإمبراطورية البريطانية كان شتاتاً لا يقدر أن يصد هجوما ألمانيا إذا أمر «هتلر» بعبور القنال الإنجليزى (وكانت تلك نيته فعلا بالخطة التى عرفت بالاسم الرمزى «سبع البحر») ـ إلا أن «تشرشل» «الحالم» قرر أن بريطانيا تستطيع الصمود وكان واثقا إن ذلك فى مقدوره وأنه فى حدود الممكن إذا استطاع أن يحشد كل طاقة الإرادة المتوافرة لدى الأمة البريطانية وراءه.

ولم يكن «تشرشل» فى ذلك «خياليا» برغم أن بعضا من أركان وزارته وأولهم وزير خارجيته اللورد «هاليفاكس» وجدوا أن «الواقعية» تقتضى جس نبض هتلر عن طريق حليفه موسولينى لمعرفة شروطه لوقف الحرب، ولكن «تشرشل» تصدى لـ«هاليفاكس» وللآخرين. وكان «تشرشل» فى ذلك «حالما» وليس «خياليا» بمعنى أنه صاغ لنفسه ولبريطانيا مشروعا سياسيا

(إستراتيجية) رآه ممكنا، واستطاع ـ وهذا هو جوهر العمل السياسي ـ أن يقنع به وزارة الحرب وشريكه فيها «كليمنت آتلي» زعيم حزب العمال، كما استطاع أن يقنع بها رئاسة أركان حرب الإمبراطورية وعليها في ذلك الوقت الفيلد مارشال «آلان بروك».

وأهم من ذلك فقد استطاع تشرشل أن يقنع الشعب البريطاني في الجزيرة الأم ووراء البحار.

وكان ـ حلم ـ مشروع ـ تشرشل مؤسسا على حساب القوة والإرادة وليس مجرد اندفاع وراء الوطنية والكرامة وحدهما. وكان الحساب ـ وهنا المشروع السياسي ـ حساب المستقبل الآتي وليس حساب اللحظة الراهنة.

كان كل تفصيل في صورة «الواقع» يدعو «تشرشل» إلى اللحاق ببيتان في طلب شروط هتلر بمنطق الواقعية. ولكن الحلم ـ وبحساب المستقبل ـ كان هو الذي تجاوز الواقع إلى ما وراءه، وترك المتاح المأذون به وتوجه إلى الممكن إذا وضعت الإرادة في خدمته.]

....

....



وكان حساب «تشرشل» أنه بالنظر إلى خريطة العالم فإن «هتلر» غير قادر على النصر النهائي في الحرب بالتحديد بسبب الولايات المتحدة ـ وبسبب الاتحاد السوفيتي:

كان تقدير «تشرشل» أن سقوط فرنسا هو المشهد الأخير في الكابوس الألماني الذي نزل على أوربا لأن ذلك المشهد سوف يستثير الولايات المتحدة.

والداعي أن سقوط فرنسا يعني أن بريطانيا إذا ظلت وحيدة فهي مهددة بالسقوط، وإذا لحقت لندن بباريس في طلب شروط «هتلر» فإن ذلك معناه أن ألمانيا هي الوريثة القادمة للإمبراطوريتين والمسيطرة على البحر الأبيض المتوسط وهو قلب العالم، والمالك الجديد للمستعمرات الفرنسية والبريطانية في آسيا وأفريقيا، وذلك شيء لا تستطيع الولايات المتحدة قبوله، وإذا قبلته فلن تكون آمنة وراء الأطلنطي وإنما هي معزولة وراء هذا المحيط. وعلى وجه اليقين فإن تعامل «هتلر» معها لن يخرج عن أحد احتمالين لا ثالث لهما:

ـ إما أن يعبر المحيط ليطولها.

ـ وإما أن يحوّل المحيط إلى سجن يحبسها وراء أسواره.

وكان تقدير «تشرشل» ـ أيضا ـ أن سقوط فرنسا سوف يهز الاتحاد السوفيتي، ويقنعه بسطحية التحليل الذي أغراه بـ«تجنب الحرب وترك الرأسماليات الكبرى تطحن بعضها»، لأن سقوط فرنسا (واحتمال غزو الجزر البريطانية) معناه انفراد «هتلر» (أقصى اليمين في أوربا) بالسيطرة على القارة كلها، ونتيجته أن الهدف القادم لأقصى اليمين الأوربي (ألمانيا النازية) هو الهجوم على روسيا (موطن البلشفية) والحصول على ثرواتها الطبيعية الهائلة وتصفية معقل الثورة العالمية.

ومن النظر إلى خريطة المستقبل، كان «تشرشل» على يقين بأن «هتلر» لا يستطيع أن ينتصر في الحرب.

والخلاصة التي توصل إليها هي: «إنه والأمر كذلك، فإن بريطانيا لابد أن تظل واقفة، ولابد أن تظل مشتبكة بالحرب مع ألمانيا، ولابد أن تكسب وقتا حتى تتنبه أمريكا وتتحرك، أو تتنبه روسيا وتتحرك، أو يقوم «هتلر» بحركة خاطئة يتعثر بها، خصوصا وقد احتل غربي القارة الأوربية كله وعليه أن يتقدم وراء ذلك وإلا وجد نفسه مقطوعا عن هدفه النهائي ووجد جيشه عاطلا في نصف حرب لم تكتمل لأن أمريكا تراقب من وراء المحيط، كما أن الاتحاد السوفيتي يتربص على شرقي القارة نفسها لا يحجزه محيط!

وكان «تشرشل» سياسيا صاحب مشروع ـ صاحب حلم ـ حينما نادى على بريطانيا بأنه «ليس عندي غير العرق والدم والدموع، وبأنه علينا أن نقاتل على الشواطئ، ونقاتل في الحقول، ونقاتل في المدن، ونقاتل من بيت إلى بيت».

....

....

[ويكاد موقف إسرائيل في الشرق الأوسط أن يكون صورة مكررة (بالاستنساخ وليس بالخلق!) لحالة ألمانيا النازية. بمعنى أن إسرائيل هي الأخرى تستطيع بتفوق السلاح أن تكسب المعارك والحروب، وتستطيع أن تحتل الأقاليم وتضم بعضا من أرضها، لكنها لا تستطيع ولا تملك إمكانية النصر النهائي لأنه أبعد من حدود التفوق في السلاح. والواقع أمل إسرائيل الحقيقي في انتصار نهائي معلق بتواضع الإرادة العربية إلى حد يقبل المأذون والمسموح به والمتاح ـ باسم «الواقعية» وهي ظاهرة متفشية في دهاليز وأروقة السياسة العربية المعاصرة.

والحقيقة أن ظاهرة «الواقعية» الراهنة تحتاج إلى تفسير، ويمكن على الفور عرض ثلاثة أسباب رئيسية لها:

■ السبب الأول: أن مواقع القرار العربي لا تعرف كثيرين وصلوا إليها من وسط معمعان التاريخ أو من البوابات العريضة للاختيار الديمقراطي الحر وإنما تعرف كثيرين وصلوا إليها بحكم الوظيفة (حتى وظيفة الإرث)، و«الوظيفة» لا تعرف لنفسها مشروعا تحلم به وإنما تعرف لنفسها لائحة تطبقها دون أن تسائل النصوص عن شرعيتها أو مشروعيتها.

■ والسبب الثاني أن ظروف الثراء العربي «الجاري» الآن في العالم العربي وضع هواجس «الحرص» سابقة على طموحات «الحلم».

وتلك حالة: أشار إليها «ابن خلدون» في مقدمته الشهيرة لأحوال الممالك عندما «يترهل» الأمراء بتخمة العز ومن ثم تتواضع «العزة» (وهي التي يسميها مؤسس علم الاجتماع بـ«العصبية»).

■ والسبب الثالث، (وتلك محاولة في الإنصاف) أن مواقع القرار العربي ضاعت منها الخرائط الملاحية القديمة بسبب تغير المناخ العالمي على نحو لم يتحسب له أحد. ثم إنها لم تستطع ـ في ظروف مستجدة ـ أن تتوصل إلى رسم خرائط ملاحية جديدة للبحور العميقة والرياح العاصفة والصخور الغارقة تحت السطح وعندها آثرت مواقع القرار العربي أن يكون خط سيرها قريبا من الشواطئ حيث المياه ضحلة تمكن من رؤية القاع، وحيث الشاطئ القريب ساتر من عصف الرياح، وحيث النجاة ممكنة بالسباحة إلى اليابسة، لو وقع ما لم يكن منتظرا، أو تمرد «بحارة» السفن إذا اكتشفوا أن القباطنة ليسوا على ما ظنوه فيهم علما وخبرة ومقدرة على خوض العقبات والصعوبات إلى حيث الحلم المطلوب والممكن.

والراجح أن هناك أسبابا أخرى لزيادة جرعة «الواقعية» في تركيبة القرار السياسي العربي المعاصر، لكن ذلك على أي حال موضوع آخر مستقل بذاته.]

....

....



كان الجنرال «شارل ديجول»، الذي هبط من آخر طائرة غادرت مطار «بوردو» الحربي قبل أن تشق القوات الألمانية طريقها إلى باريس، رجلا يمسك في يده «بحلم»، ويرى لنفسه مشروعا سياسيا تصوغه حقائق مستقبل لا تقعدها «واقعية» اللحظة الراهنة.

والشاهد أنه بالشكل العام للصورة كان يمكن أن يبدو «ديجول» خياليا أكثر منه حالما.

فالدولة الفرنسية، والحكومة ضاعت منهما إرادة المقاومة، والشعب الفرنسي في حالة ذهول يتابع مأخوذا حركة جيوش العدو الألماني تنفذ إلى قلب الوطن، وجيوش فرنسا تتكسر شظايا، و«عاصمة النور» تنطفئ فيها الأضواء حيا بعد حي وشارعا بعد شارع وبيتا بعد بيت:

لكن ديجول كان قادرا على تجاوز «الواقعية» والنظر بالرؤيا إلى تخوم المستقبل، وقد اعتبر نفسه ـ ولو حتى وحيدا ـ رمزا لمستقبل فرنسا الحرة.

ولم يكن «تشرشل» الذي أذن لـ«ديجول» بأن يوجه نداءً بمواصلة المقاومة للشعب الفرنسي فوق موجات الإذاعة البريطانية مقتنعا بأن ديجول هو مستقبل فرنسا، إلا أنه في تلك اللحظة كان «الفرنسي الأرفع رتبة» الذي ينادي بمواصلة الحرب ولو من خارج فرنسا.

وفي البداية، كان «تشرشل» يتصور أن نداء ديجول سوف يدعو كثيرين أكبر منه وأهم ـ على الأقل أشهر ـ كي يفعلوا مثله ويجيئوا إلى لندن وعزمهم مواصلة الحرب، لكن «تشرشل» فقد رجاءه من الانتظار وأدرك أن فرنسا سوف تظل ممثلة برجل واحد هو «شارل ديجول» حتى تتغير الظروف.

وكذلك طلب «تشرشل» إلى وزارة الخارجية البريطانية وإلى رئاسة أركان حرب الإمبراطورية أن تنظم اتصالاتها مع الجنرال «ديجول» وأن تتعاون معه.

وفي أول تقرير كتبه السير «ألكسندر كادوجان» الوكيل الدائم للخارجية البريطانية كانت صورة «ديجول» كما بدت لعميد الدبلوماسية البريطانية هي: «رجل له رأس في شكل فاكهة الأناناس الخشنة، وله جسم على هيئة خضار «الباذنجان» الطويلة، وإلى جانب ذلك فإن لديه شعورا متضخما دون سبب بدوره التاريخي!».

وفي أول تقرير كتبه الفيلد مارشال «آلان بروك» رئيس أركان حرب الإمبراطورية كتب لـ«تشرشل» في تلخيص لقائه مع «ديجول». «هذا رجل لا يريد أن يحارب، ولا يريد أن يلم شراذم الجيش الفرنسي التي خرجت مع قواتنا من «دنكرك» ويصنع منها فرقة مقاتلة تثبت نفسها في الحرب مع الألمان.

لقد حاورته طويلا، لكنه بدا لي وكأنه يريدنا أن نحارب، وأما هو فدوره أن يحكم ويقود. والمزعج أنه ليس



إسرائيل صورة مكررة
بالاستنساخ وليس بالخلق
من ألمانيا النازية. تستطيع
أن تكسب المعارك، لكنها
لا تستطيع أن تكسب السلام!



لديه شيء يحكمه، لا دولة، ولا مدينة، ولا قرية، وليس لديه شيء يقوده لا فرقة ولا كتيبة ولا سرية من الرجال!».

لكن «شارل ديجول» كان «بالحلم» يعرف أكثر من موظف وصل بكفاءته الوظيفية إلى وكالة الخارجية البريطانية ولم ير في اللاجئ الفرنسي غير رأس «الأناناس» وجسم «الباذنجان». وكان يعرف أكثر من موظف آخر وصل بعلمه العسكري إلى رئاسة أركان حرب الإمبراطورية - استغرب منه «ادعاء» الحكم ودعوى القيادة.

كان «ديجول» يعرف بالرؤية الإستراتيجية كيف يفكر «تشرشل» وكيف يخطط للنصر، وظل متنبها إلى أن العنصر الأهم في خطة «تشرشل» هو كسب الوقت حتى تفيق روسيا من وهم الرأسمالية التي تحارب بعضها بعضا، ثم تتحرك أمريكا قبل أن يتحول المحيط إلى عازل ويتحول العازل إلى سجن!.. ومن ثم ينفرد «هتلر» بكل الإرث الإمبراطوري الذي تفتحت الطرق إليه بعد سقوط فرنسا، وعزلة بريطانيا في الجزيرة التي تحولت إلى قلعة موحشة تنتظر الغزو أي يوم.

وعلى أساس المعرفة بهذه الرؤية الإستراتيجية لـ«تشرشل»، قدر «ديجول» ورسم.

هو الآخر سوف يلعب على الوقت ولن يجره سوء ظن الدبلوماسية البريطانية في قدراته ولا إلحاح العسكرية البريطانية عليه ليجمع شراذم قوة عسكرية تستأنف حرب ألمانيا إلى جانب بريطانيا.

كان «ديجول» واثقا بأن معركة القتال محسومة دون أن يشارك فيها، ولم يكن متعجلا لتنظيم حركة مقاومة في الداخل تجعل مهمة الاحتلال الألماني صعبة (لأنه كان يقدر أن لحظة الذهول السائدة في فرنسا ليست هي بالضبط لحظة الدعوة إلى المقاومة خصوصا وهناك في «ڤيشي» رجل مثل «بيتان» بتاريخه المجيد يدعو إلى «واقعية» يعطي لها في خطابه مسحة من الحكمة تغطي بالرنين على الجوهر!

- كذلك كان «ديجول» بالتوازي مع ذلك يدرك أنه لا يستطيع الآن يلملم من الشتات المبعثر للجيوش الفرنسية إلا قوة صغيرة تتنازل قياسا عليها - ولا تكبر - قيمة المشروع السياسي «الحلم» الذي يحمله).



ومع ثقة «ديجول» - اعتمادا على الزمن حسابه وفعله - بأن معركة تحرير أوربا قادمة بعد سنة.. سنتين.. ثلاث - لكنها «حتمية»..

ومع ثقة «ديجول» - بأن الانتصار النهائي في الحرب لن يكون من نصيب «الخيال» - مهما عاند «هتلر»...

ومع ثقة «ديجول» بأن هناك جيوشا لمعركة تحرير أوربا سوف تتدفق من الشرق (من الاتحاد السوفيتي) وسوف تتدافع فوق أمواج المحيط من الغرب (من الولايات المتحدة) - فإن «فرنسا الحرة» ينبغي أن يكون لديها جدول أولويات يتسق مع «حلمه» - مشروعه السياسي.

وهنا يمكن فهم الإستراتيجية التي اعتمدها «ديجول» في تلك الأيام المبكرة من يوليو وأغسطس سنة ١٩٤٠.

في تلك الأوقات التي بدت فيها الصورة أشد كآبة من أي وقت مضى. وأشد ظلاما على فرنسا من أي وقت في تاريخها كان «ديجول» يرسم لسياسته خطين:

الخط الأول: أن التراب الفرنسي سوف يتحرر بحقائق الأشياء.

الخط الثاني: أن الإمبراطورية الفرنسية - وليس التراب الفرنسي - هي المكشوفة الآن وغدا..

وهنا كانت صيحة:

فرنسا ليست في خطر.

الإمبراطورية في خطر.

إذا كان وجود فرنسا هو الوطن - فإن عظمة فرنسا هي الإمبراطورية!



والمدهش أن رؤية «ديجول» كانت واضحة فيما يتعلق بالخطر القادم على عظمة فرنسا - إمبراطوريتها القديمة - وقد رأى الخطر من مصدرين:

- «ألمانيا» كابوس وقع - و«أمريكا» كابوس يتشكل.

أي أن «ألمانيا» وريث يطالب الآن - بينما «أمريكا» وريث يهيئ المستندات الداعمة للمطالبة!

وكذلك فإن الحلم - المشروع السياسي لديجول - نظر إلى المستقبل في عينيه وتمكن من تحديد مصادر الخطر على هذا المستقبل.

ولم تكن تلك قراءة في الغيب وإنما نظر إلى الخريطة واطلاع على التاريخ. فألمانيا في أوربا جار ومنافس وخصم وعدو في فترات مختلفة من الجوار، ثم إن الولايات المتحدة هي الدولة التي أنشأت نفسها بطرد «الإمبراطوريات» من أمريكا بادئة بطرد بريطانيا مستعينة في لحظة من اللحظات بفرنسا، ولما انتهت حرب الاستقلال عن بريطانيا ودخلت العلاقة بين المستعمرات القديمة والإمبراطورية المهزومة إلى مرحلة جديدة بحكم وحدة اللغة الإنجليزية - جاء الدور على الإمبراطورية الأخرى، فإذا الولايات المتحدة تطارد فرنسا إلى أقاصي القارة شمالا وجنوبا تخرجها من الجنوب حتى خليج المكسيك (نيو أورليانز) وتحصرها في الشمال داخل جيب في «كندا» تراجعت إليه كل المواريث الثقافية التي تركتها فرنسا في العالم الجديد! ■

«٤» الثابت والمتغير في أحوال الأمم

■■ عندما طرح الجنرال «شارل ديجول» «إستراتيجية» فرنسا الحرة على أساس أن التراب الوطني الفرنسي سوف يتحرر بضرورة الأشياء، وأن الإمبراطورية الفرنسية (عظمة فرنسا) - هي التي سوف تصبح عرضة للخطر بسبب المطامع المتنافسة سابقا ولاحقا لم يكن يبتدع شيئا لم يُعرف قبله، ولا كان يخترع جديدا ليس له أصل قديم. والحقيقة أن إستراتيجيات الدول التي تحترم نفسها - وعالمها - لا تعرف سياسيا يستيقظ من نومه بوحي تنزّل عليه يطلب إليه أن يفاجئ الكل بما لم يخطر لهم على بال، والسبب أن إستراتيجيات الدول مطالب جغرافيا وتاريخ نشأت وترتبت عليها دواعي مصلحة وضرورات أمن، وتلك مسائل لا دخل لها بالوحي ولا علاقة لها بالمفاجآت المثيرة مسرحية أو سينمائية.

والدول مطالبة بالتعبير عن نفسها مع تطورات الظروف في كل عصر بما يناسب مقتضياته، لكن التجديد يكون في الأسلوب وليس في الهدف لأن أحدا لا يستطيع بأثر رجعي أن يعيد تركيب الطبيعة أو ينقل بلدا من موقعه على الخريطة المعروفة إلى موقع آخر يختاره. ثم إن أحدا لا يستطيع أن يغير مجرى التاريخ كما تدفق عبر القرون والعصور أو يعيد ترتيب سياقه كما يوافق هواه ورؤاه. ثم إن مصالح الدول وأمنها ليست قصصا يكون للمؤلف فيها حق رسم الشخصيات، وإجراء الحوار على ألسنتها معبرا عنه وشارحا لفكره!

ويكاد «جوليان جاكسون» أن يقول في كتابه «فرنسا سنوات الظلام»: إن ديجول استأنف بحكومته في المنفى نفس المناقشات التي قاطعتها أصوات المدافع الألمانية في باريس وإن استراتيجية «فرنسا الحرة» تحت قيادته كانت اتصالا مباشرا بالخيارات الإستراتيجية التي كانت مطروحة في فرنسا قبل دخول الحرب العالمية الثانية في سبتمبر سنة ١٩٣٩ - وقبل الاستسلام «لهتلر» في يونية سنة ١٩٤٠.

كان الزمن لم يتوقف.. وبالفعل فإن الزمن لا يتوقف.. وإن توقف بعض الساسة في لحظة من اللحظات أو شردوا خارجين من ساعته يجربون معجزة خلق زمان جديد ناسين أن هناك فارقا بين حق البشر في توجيه مقاديرهم وبين تجاسر البشر على توهم صنع الكون!



وقبل هبوب إعصار الحرب العالمية الثانية عاشت فرنسا حالة حيرة شاملة وعنيفة.

كانت فرنسا تشك في الجمهورية الثالثة كلها من دستورها إلى مؤسساتها إلى رجالها.

وكانت فرنسا تعاني من انقسام داخلي بين اليمين واليسار وكلاهما يطرح نفسه بإلحاح باعتباره اليقين المؤدي إلى القوة.

وكانت فرنسا تتابع ما يجري في القارة حولها وتخشى سطوة ألمانيا النازية وهي تزيد كل يوم وتنتزع لنفسها مساحات من الأرض والنفوذ تمكن لها في قلب أوربا:

- المنطقة المنزوعة السلاح على الحدود بين ألمانيا وفرنسا بمقتضى «معاهدة فرساي» - وهي منطقة «السار» - دخلتها قوات «هتلر» بلا إنذار.

- النمسا جرى ضمها إلى ألمانيا بدون طلقة رصاص واحدة وأصبح الرايخ الثالث متحققا بـ«وحدة الأمة من وحدة اللغة».

- إقليم «السوديت» في تشيكوسلوفاكيا جرى إلحاقه بألمانيا.

- والآن يطالب «هتلر» باستعادة منطقة «دانزيج» - بدعوى عرقية - من بولندا لتكتمل حدود الرايخ الثالث.

وكانت فرنسا ترى الخطر الألماني يستشري ويتفاقم لكنها لم تكن واثقة بقدرتها على إيقافه ورده، وفوق ذلك فهي تشعر أن بريطانيا تحرضها على التصدي لألمانيا وأن السياسة البريطانية هي هي لم تتغير تبغي تحقيق انتصارها بجنود غيرها ودمهم، أي أنها تريد محاربة «هتلر» إلى آخر قطرة دم فرنسي!

وفي ذلك المناخ ظهرت وانتشرت مقولة قابلة للتصديق مؤداها «أنه ليست هناك قضية تساوي من أجلها أن تنتحر فرنسا»!

....

....

وعندما ذهب رئيس الوزراء «إدوارد دالادييه» للمشاركة مع نظيره البريطاني

«نيفل شمبرلين» فى مؤتمر دعى إليه «أدولف هتلر» على عجل فى ميونيخ - رجع «دالادييه» رافعا - مثل نظيره البريطانى - شعار أن «السلام تحقق فى زماننا» - لكن «دالادييه» فى أعماقه كان يشعر أن الاتفاق فسحة وقت لا تزيد على شهور لأن «هتلر» مصمم على خطته بأن تكون «ألمانيا فوق الجميع» داخل القارة الأوربية وخارجها. وأن الحرب قادمة بلا شك لكن الكارثة أن فرنسا غير مستعدة وغير جاهزة لمقابلة العاصفة.

ورأى «دالادييه» أنه من الضرورى إعداد فرنسا للحرب وتهيئة فكرها لأن الحرب بالدرجة الأولى حالة «نفسية وعقلية».

لكن فرنسا ظلت حتى اللحظة الأخيرة مترددة. تدخل أو لا تدخل؟

● «نفسيا» كانت فرنسا لا تريد لأنها مازالت تتذكر خنادق الحرب السابقة والمجازر التى شهدتها خنادق «السوم» والخسائر الهائلة التى ألحقتها الحرب بالاقتصاد الفرنسى ثم العبء النفسى المخيف لسنوات من القلق والضنى - والمقامرة على المجهول.

● و«عقليا» كانت فرنسا لا تريد لأنها تخشى أن تخرج من الحرب خاسرة حتى ولو انهزم الألمان، وكانت الخشية أشد ما تكون على الإمبراطورية الفرنسية فى أفريقيا:

- الشاطئ الجنوبى الغربى للقارة («تونس»، و«الجزائر»، و«مراكش»).

- ووراء هذه المواجهة بالعمق - جنوب الصحراء حتى الكونجو.

- وعلى الشاطئ الشرقى العربى (سوريا ولبنان وحصة الثلث فى بترول العراق).

- وفى آسيا: شبه جزيرة الهند الصينية وفيها «فيتنام» و«كمبوديا» و«لاوس».

....

....

إلى جانب ذلك فقد كان هناك فى فرنسا «وطن الثورة الفرنسية»، إعجاب مكتوم بالنازية والفاشية، وقد ظهرت وسط الفوضى وساوس وشكوك بأن «الديمقراطية» فكت تماسك المجتمع الفرنسى (بموجة انحلال يستهولها اليمين) وبعجز فى السلطة (تأليف وإسقاط الوزارات) أدى إلى تردى الحكم، وفساد للنخبة أقعدها إلى درجة العفن! (رشوة فى جيب كل وزير وعشيقة «رسمية» معترف بها له) - وبدا للجميع أن «النازية» فى ألمانيا تحت زعامة «هتلر» و«الفاشية» فى إيطاليا تحت زعامة «موسولينى» تحقق معجزات فى الأداء الاقتصادى والإدارى وفى استقرار السلطة ونزاهة الحكم، وفوق ذلك فى إعادة تنظيم وحشد عناصر القوة.

وتحت السطح فقد كان محسوسا أن المانع الأساسى الذى يرغم فرنسا على استمرار تحالفها الاضطرارى مع «بريطانيا» ويبعدها رغم الاعجاب عن ألمانيا وإيطاليا هو الخوف على الإمبراطورية، فثمن التقارب مع الدولتين الداخلتين بقوة إلى دائرة السيطرة العالمية هو صفقة جديدة لإعادة تقسيم المستعمرات، ولم يكن فى ذلك سر، فقد كانت ألمانيا تطالب بما كان لها فى أفريقيا (وفيه تانزانيا والكاميرون) قبل أن تتخلى عنه بمقتضى شروط معاهدة فرساى التى اضطرت لتوقيعها اعترافا بالهزيمة فى الحرب العالمية الأولى.

ولم يكن «هتلر» هو وحده الذى يطالب بإعادة تقسيم المستعمرات وإنما كانت «إيطاليا» تطالب أيضا، وكانت «إيطاليا» تضع عينها بالفعل على «تونس» لتكون دفعة أولى ترضى بها وتكون امتدادا لوجودها فى «ليبيا» - وتسكت. والمدهش أن الحكومة الفرنسية تلقت نصيحة بريطانية تزكى التنازل عن تونس لإيطاليا لأن ذلك يمكن أن «يشترى موسولينى» ويبعده عن حلفه مع «هتلر»!

وكانت باريس مستفزة وردها «لماذا لا تعطونه «مصر» وهى على الناحية الأخرى امتداد لليبيا؟»

....

....

[وقد يتذكر البعض أن بريطانيا أشارت على مصر (سنة ١٩٣٥) بإعطاء جزء من الصحراء الغربية ملاصق لليبيا - وهى واحة «جغبوب» وما حولها - لكن شهية «موسولينى» للمستعمرات لم تكن تكفيها واحة وإنما كانت تطلب بلدانا وأقاليم.]



وهكذا كانت كل المناقشات حول دور فرنسا فى الحرب العالمية الثانية: وهل تدخلها أو لا تدخلها؟ يبدأ وينتهى «بالمستعمرات»، أو «بالامبراطورية» كما تسميها باريس.

ولعله من المفيد لبعض الناس فى العالم العربى أن يقرءوا فصلا بالذات من كتاب «جوليان جاكسون» «سنوات الظلام» وهو الفصل الذى يبدأ من صفحة ٨١ وعنوانه «المشكلة الألمانية». وهذا الفصل فى الواقع عرض للبدائل المتاحة لمستقبل فرنسا.

ملخص الفصل مجموعة واضحة من «شبه المسلمات»:

١ - فرنسا لا تستطيع أن تكون قوة عظمى فى أوربا وحدها والأسباب أنها فى أوربا تواجه ثلاث دول تتفوق عليها:

- ألمانيا: أكبر

- بريطانيا: أقوى

- روسيا: أضخم

٢ - إذا كان على فرنسا أن تكون قوة يحسب لها حساب، فعليها أن تبحث عن ذلك خارج أوربا، وفى اتجاه الجنوب بالذات لأن المتفوقين عليها يسدون كل اتجاه حولها: فوقها على الخريطة هناك بريطانيا - فى وسط أوربا بجوارها هناك ألمانيا - على الشرق خطوة واحدة هناك روسيا - وإذن طريق الجنوب وحده مفتوح وهو نفسه البحر الأبيض.

٣ - لكن بريطانيا تظل القوة البحرية المتنفذة فى البحر الأبيض بامتلاكها لقاعدتى السويس وجبل طارق على مداخل البحر - ولجزيرتى قبرص ومالطة وهما مواقع السيطرة على الخطوط الملاحية.

٤ - وإذن فإن الجزء الأهم من الإمبراطورية هو الشاطئ الجنوبى للبحر الأبيض حيث تونس والجزائر ومراكش ثم العمق الأفريقى وراء ساحل البحر حتى نهر الكونجو.



وعندما انزلقت فرنسا إلى الحرب العالمية الثانية وشاركت فيها فإنها أقبلت مترددة، وقد حاربت بعض معاركها بنصف اقتناع ونصف عزم ونصف مجهود - وهنا كانت الهزيمة نتيجة بعد مقدمة، ولحظتها تنبهت فرنسا وأفاقت، وكذلك ظهر الرأى الذى يرفض الاستسلام ويطالب بمواصلة القتال من فرنسا وراء البحر - من الإمبراطورية - بالتحديد من شمال أفريقيا.

كانت الإمبراطورية فى خيال فرنسا الرافضة للهزيمة هى الميدان الذى يتعين على حكومة باريس أن تنتقل إليه وأن تواصل الحرب منه وإلا فهى نهاية فرنسا حتى فى أوربا. بمعنى أن قوة فرنسا ليست تراب الوطن الفرنسى - وإنما هى الإمبراطورية التى تضيف للتراب تلك العظمة التى تنشأ للدول من نفوذها وهيبتها خارج حدود ولايتها. فما هو داخل الدولة تصنعه سلطتها، وأما الخارج فإن التواجد فيه هو المعيار الذى تقاس به القوة ويقوم على أساسه المجد!

وكانت تلك بالضبط هى النقطة التى بدأ منها «ديجول» مهمته فى حركة «فرنسا الحرة» عندما ذهب بها لاجئا إلى بريطانيا.

وقد وجه حديثا واحدا إلى الأمة الفرنسية من الإذاعة البريطانية، وأصدر بيانا وحيدا دعا فيه «الأمة الفرنسية» إلى رفض الاستسلام.

ولم يتأثر بضغوط الخارجية البريطانية حتى وإن وصفه كبار موظفيها برأس الأناناس وجسم الباذنجان، ولم يضعف أمام رئاسة الأركان الإمبراطورية البريطانية تحرضه على لم شتات جيش يحارب، وإنما كان همه هو «الإمبراطورية».

وفى الواقع فإن أول عمل حقيقى مارسه «ديجول»، وبعد شهر على خروجه من فرنسا (أغسطس ١٩٤٠) كان توجيه نداء إلى كل حكام المستعمرات الفرنسية يدعوهم - باسم فرنسا الحرة - إلى قبول حركة «فرنسا الحرة» تجسيدا لشرعية فرنسا بدلا من الحكومة التى استسلمت للألمان ووقعت معهم اتفاق سلام ثم «تكومت» على نفسها فى «فيشى».

وكان «ديجول» فى ذلك مدركا لحقيقة أن عددا من حكام المستعمرات الفرنسية ضباط من الجيش هو يعرفهم أو هم يعرفونه. وقد استجاب له بالفعل منهم ثلاثة هم: الحاكم العسكرى لـ«تشاد» والحاكم العسكرى لـ«الكونجو» الفرنسية (برازافيل) والحاكم العسكرى لـ«الكاميرون».

وهكذا وجد ديجول لحركته موضع قدم فرنسى: فى نطاق الإمبراطورية، ثم توجه لزيارة هذه المستعمرات الثلاث بعد أن تأكد من حكامها العسكريين أنهم سوف يرتبون له هناك استقبالا يليق بعظمة فرنسا. وذهب ديجول إلى الإمبراطورية الفرنسية فى أفريقيا وعاد ليعلن تكوين «لجنة الدفاع الإمبراطورى» ومعها «حكومة مؤقتة لفرنسا الحرة».



وكان «ونستون تشرشل» رئيس الوزراء البريطانى - وبتأثير البيروقراطية الدبلوماسية والعسكرية البريطانية - غير مرتاح لما يفعله «ديجول»، وتصوره أن «فرنسا الحرة» تحارب معركة التحرير بعيدا عن الميدان - لكن «ديجول» كان على يقين مما يفعل.

وفى مناقشة جرت تلك الأيام - أكتوبر ١٩٤٠ - ولم تكد تمضى شهور على استسلام فرنسا وقع حوار له معنى بين «تشرشل» وبين «ديجول».

قال «تشرشل» أثناء الحوار موجها كلامه لـ«ديجول»:

- أنت تترك ميدان الحرب الحقيقى فى أوربا - فى فرنسا - وتذهب إلى أفريقيا.

ورد «ديجول»:

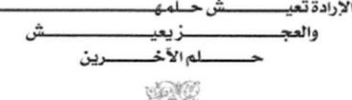
- الذهاب إلى أفريقيا رسالة سوف تفهمها فرنسا.

وقال «تشرشل»:



لا نعض صديقا،
ولكننا لا نمانع أن يفهم
من يهمهم الأمر أن لنا أسنانا





الإرادة تعيش حلمها
والعجز يعيش
حلم الآخرين

- ولكن مؤسساتنا هنا وأنت تتعامل معها في الخارجية وفي رئاسة الأركان لا يفهمونها وأخشى أن يتهموك يوما بأنك تعض اليد التي أطعمت حركتك - حركة «فرنسا الحرة».

ورد «ديجول»:

- إن «فرنسا الحرة» لا تعض صديقا لكنها لا تمانع أن يفهم من يهمهم الأمر أن فرنسا مازالت لها أسنان!».



ثم مضى «ديجول» يجري تصرفاته وفق حلمه وبإملاء مطالب هذا الحلم بمنطق أن «مجد فرنسا» قبل «ترابها الوطني» في هذه اللحظة، وهكذا فإنه بعد انشاء الحكومة المؤقتة لفرنسا الحرة سنة ١٩٤٠ - واصل طريقه:

● سنة ١٩٤١ حاول الألمان - وبسكوت يعني الرضا من جانب حكومة «فيشي» - أن يدخلوا إلى سوريا ولبنان لمساعدة جيش «روميل» المتقدم إلى مصر من الغرب، ورأت بريطانيا في الدخول الألماني إلى سوريا ولبنان خطرا طارئا من الشرق فقررت القتال في ظروف صعبة رآها «ديجول» مبكرا وتقدم لاستغلالها في اللحظة المناسبة، فأجرى اتصالات مع كبار الحكام العسكريين الفرنسيين لأملاك الإمبراطورية الفرنسية في المشرق وقد حدث، وأمكن حصر القتال وحصل «ديجول» على جائزته بأن رفع علم «فرنسا الحرة» على دمشق وبيروت.

● وسنة ١٩٤٢ كانت استراتيجية الحلفاء بعد اشتراك الولايات المتحدة في الحرب أن يقوم الجيش الأمريكي بالنزول في شمال أفريقيا - المغرب والجزائر - لكي يقوموا بحصر جيش «روميل» في ليبيا، وبذلك يتم طرد ألمانيا وإيطاليا من أفريقيا ومن ثم تتركز الجهود على أوربا. وأحس «ديجول» أن الأمريكيين يخشون أول مخاطر عملية عسكرية لهم في الحرب بعد ضربة «بيرل هاربور» (التي دمرت فيها الأساطيل اليابانية بقيادة الأميرال «ياماموتو» - كل أسطول أمريكا في المحيط الهادي كله بضربة واحدة مفاجئة في ديسمبر عام ١٩٤١).

ومرة ثانية، وفي إمبراطورية فرنسا المغربية (المغرب - الجزائر - تونس)، كما وقع من قبل في إمبراطورية فرنسا المشرقية (سوريا - لبنان) تقدم «ديجول» يعرض تسهيل نزول القوات الأمريكية دون معارك - وقام بترتيب الأمور مع الحكام الفرنسيين في شمال أفريقيا، وكان شرطه أن يرتفع علم «فرنسا الحرة» على أعلى الساريات في «الرباط» و«الجزائر» و«تونس» لكي تكون اعلانا عن عودة كل الإمبراطورية الفرنسية (المجد الفرنسي) حول البحر الأبيض.

● وفي سنة ١٩٤٣ - أي بعد ثلاث سنوات تقريبا - من استسلام فرنسا التفت «ديجول» إلى تنظيم المقاومة السرية ضد الاحتلال الألماني على التراب الفرنسي وبدأ ينشئ الخلايا ويقيم التنظيمات ويرتب لعمليات «تخريبية!» ضد الاحتلال الألماني: قواته - ثكناته - مواصلاته - تسهيلاته الإدارية - أفراده - وكذلك الفرنسيين المتعاونين مع الاحتلال وحتى «البغايا»!

وكان اهتمام القيادة المتحالفة بالمقاومة الفرنسية أكيدا لأنها اعتبرت نشاطها ضد الاحتلال الألماني إزعاجا بالنهار، وأرقا بالليل - وتهديدا لمؤخرته في كل الأوقات.

● وسنة ١٩٤٤ كانت خطة تحرير أوربا بالنزول شمال فرنسا والتقدم منها لتوجيه ضربة قاضية إلى ألمانيا وفق عملية «أوفر لورد» Over lord - قد تم إعدادها وبدأ الترتيب لتنفيذها وتحدد بالفعل يوم اقتحام الشواطئ الفرنسية وعليها الخط الدفاعي المنيع الذي بناه «هتلر» للدفاع عن أوروبا وأسماه «حائط الأطلنطي».

وكانت قيادة الحلفاء تحتاج إلى المقاومة الفرنسية في الداخل تراقب لها تحركات الألمان وتعرقل جهدهم وتثير الفوضى خلف الجبهة، وعلى طريق تقدم الجيوش المتحالفة إلى عمق فرنسا وعمق أوربا.

وطلبت قيادة «إيزنهاور» القائد العام لقوات الحلفاء والمسئول عن «أوفر لورد» من الجنرال «ديجول» طلبين:

- تنشيط عمليات المقاومة الفرنسية إلى أقصى حد ممكن في توقيتات معينة تتناسب مع الخطط العسكرية.

- تسجيل بيان بصوت ديجول يذاع لحظة إنزال القوات ويحمل نداء منه إلى الشعب الفرنسي أن يقوم ضد الألمان بكل جهد يستطيعه وإلى المقاومة الفرنسية في كل مكان لكي تخرج من مكامنها وتضرب بشجاعة.

وقبل ديجول لكنه إزاء طلبين من قيادة الحلفاء قدم إلى هذه القيادة ثلاثة طلبات:

- أن يطلع - وأركان قيادته - على الخطة العسكرية للحلفاء بالذات فيما يتعلق بالأرض الفرنسية.

- أن يتضمن الأمر اليومي للقائد العام للقوات المتحالفة القائمة وهو الجنرال «إيزنهاور» - ساعة بدء العملية - إشارة واضحة إلى دور فرنسا حليفة بين الحلفاء المشاركين في الحرب.

- وأخيرا أن تكون أول قوات تدخل باريس عند تحريرها مجموعة لواء فرنسي مدرع يقوده مساعده الجنرال «ليكليرك».

وعندما علم الرئيس الأمريكي «روزفلت» بهذه الطلبات الثلاثة التي تقدم بها «ديجول» بعث برقية إلى رئيس الوزراء البريطاني يقول فيها «هذا الرجل أصابه مس من الجنون على وجه اليقين وتعليقي على طلباته هو إبلاغه فورا بطرده من الحركة التي يرأسها والبحث عن جنرال آخر «عاقل» (واقعي) يحل محله.

وعندما اطلع وزير الخارجية البريطاني - «أنتوني إيدن» - على هذه البرقية كتب إلى «تشرشل» يقول:

«من سوء الحظ أن الفرصة قد فاتت لمثل هذا الإجراء لأن الفرنسيين في الداخل لا يعرفون غير «ديجول» وأي تغيير في تركيبة «فرنسا الحرة» في هذه الساعة المتأخرة سوف يحدث ارتباكا في خطط التحرير. ولذلك فإنه من الأفضل الآن أن تسير الأمور كما هو مرسوم لها، وبعدها نرى ما يمكن عمله.

وعندما تحررت باريس هرع «ديجول» (أغسطس ١٩٤٤) يسعى في موكب حاشد من ميدان «الكونكورد» عبر شارع «الشانزليزيه» قاصدا إلى «قوس النصر» وسط تقاطع ميدان «الاتيوال»، وكان الآن قد دخل ومعه الإمبراطورية إلى موقع القلب من التراب الفرنسي.

كان ديجول ساعتها رجلا حقق حلمه الصعب بأن وضع وراءه كل إرادة فرنسا وإرادته، ولم يجنح إلى المستحيل وخياله بغير حسابات، ولم يسقط في «الواقعية» وهي بئر بغير قاع.



ومن مفارقات التاريخ أن الجنرال «شارل ديجول» وهو رئيس للجمهورية الفرنسية للمرة الثانية (١٩٥٨ - ١٩٦٥) - كان هو بذاته الرجل الذي تعين عليه أن يشرف على فك الإمبراطورية الأفريقية لفرنسا عبر البحر!

كان رئيس الوزراء الفرنسي «بير منديس فرانس» قد سبق إلى فك الإمبراطورية في آسيا بعد هزيمة فيتنام الأولى (معركة ديان بيان فو).

لكن ديجول - وبعد الهزيمة في الجزائر سنة ١٩٦٠ - كان هو الرجل الذي تعين عليه فك الإمبراطورية في أفريقيا.

والأهم أن ديجول كان لا يزال الرجل الذي يحمل معه الحلم - المشروع. وفي الوقت نفسه كان لديه ذلك القدر الضروري من فهم متغيرات العصور بحيث فهم أن فرنسا تستطيع أن تستعيض عن الإمبراطورية في صورتها التقليدية - بإمبراطورية من نوع جديد على نحو ما فعلت بريطانيا بإنشاء الكومنولث (والأساس فيه اقتصادي يعتمد على الإسترليني).

ولم تكن لدى فرنسا قوة اقتصادية (إزاء بريطانيا والإسترليني - ولا قوة مالية إزاء المارك الألماني) وكان أن تحولت الإمبراطورية من دودة إلى شرنقة حرير على أساس من اللغة الفرنسية وحمولاتها الثقافية - وهكذا طرحت ونشأت فكرة «الفرانكفونية»، وهي فكرة سياسية وليست ثقافية لأنه فيما يتعلق بالجانب الثقافي قام العالم بتكريم الثقافة الفرنسية حين اتخذ من باريس عاصمة لليونسكو (المنظمة الدولية للتربية والعلوم والثقافة).

والحقيقة أن «الفرانكفونية» كانت الطبعة الأخيرة للحلم الإمبراطوري الفرنسي وهو حلم له مشروع.



وطويت صفحات كتاب «فرنسا: سنوات الظلام» وفي خواطري وأمام عيني «أن الإرادة تقدر أن تعيش حلمها (وتجدد وسائله)، وأما العجز فليس لديه غير أن يعيش حلم الآخرين (ويذوب فيه).

وقمت من مقعدي أمشي على الشاطئ وعليه الخطوط مما يرسم الموج على الرمل أو ما يلقي عليه من شظا حجر وبقايا صدف، متفكرا في شأن هذا البحر الأبيض الذي تحلقت الحضارات حوله، وارتكز التاريخ على صخوره، وكتبت الإنسانية واقفة أمامه بعضا من أشهر الصفحات في قصتها، تلك الأرفع قيمة - وتلك الأدنى تواضعا!

حقق ديجول حلمه الصعب

بأن وضع وراءه كل إرادة فرنسا وإرادته، ولم يجنح إلى المستحيل وخياله بغير حسابات، ولم يسقط في «الواقعية»، وهي بئر بغير قاع









دعوة

من ماكدونالدز مصر

لبناء المستشفى الجديدة

لعلاج سرطان الأطفال







مستشفى ٥٧٣٥٧

دعوة الى كل مواطن أن يساهم فى عمل الخير

و قد بدأ ماكدونالدز مصر بالتبرع بـ ١٠ قروش

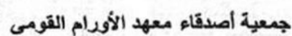
من ثمن كل وجبة تباع فى جميع أنحاء الجمهورية

و ذلك لعلاج الأطفال

المصابين بهذا المرض الخطير







جمعية أصدقاء معهد الأورام القومى

تليفون وفاكس :٣٦٥٥٢٣٣ (٢٠٢)-٣٦٨٠١٠٦-٣٦٣٨٨٧٥

بريد الكترونى : E-mail AFNCI@intouch.com

بنك أمريكان إكسبريس فرع الجيزة حساب رقم / ٥٧٣٥٧

البنك الأهلى المصرى فرع القصر العينى حساب رقم / ٥٧٣٥٧

بنك القاهرة فرع الألفى حساب رقم / ٥٧٣٥٧





الإرهاب .. والإسلام

.. ومستقبل النظام الدولى

أحمد كمال أبو المجد

لم تفلح جهود الساسة ورجال القانون فى الوصول إلى اتفاق على تعريف الإرهاب.. وكان هذا الفشل تعبيرا واضحا عن تعارض المصالح واختلاف المواقف السياسية كما كان تعبيرا واضحا عن الخلاف حول الاعتراف بشرعية حركات التحرير الوطنى ومقاومة الاحتلال الأجنبى



في يوم الحادى عشر من سبتمبر الماضى، كنا، نحن شعوب العالم، حكامًا ومحكومين.. نعيش أحلامًا وردية عن مستقبل العلاقات بين الدول والشعوب، متطلعين إلى غد قريب تختفى منه الصراعات والمواجهات، ليحّل محلها الحوار والجدال بالتى هى أحسن، كما تختفى من ساحته فكرة «العدو» التى وضعت الناس جميعًا فى خنادق متقابلة، يتربص القابعون فيها للقابعين فى الخنادق الأخرى.. لتحل محلها فكرة الشريك المنافس، والمنافسة بين الشركاء أو الأطراف تؤدى - فى التصور السائد - إلى تحسين مستوى الأداء (فى الإنتاج وتقديم الخدمات).. وهو تحسين تنتفع به القلة أولاً، ومن بعدها الكثرة الغالبة من الناس.

وما إن وقع ما وقع صبيحة الحادى عشر من سبتمبر حتى استيقظ الناس جميعًا على واقع مخيف أخذهم بغتة قبل أن يمسحوا عن عيونهم آثار الحلم الجميل الذى كانوا فيه إلى صور مفزعة من العنف والخوف والشك فى كل أحد وكل شىء بحيث لم يبق فى نفوس الناس إلا يقين واحد، هو اليقين بأن حياة الناس بعد الحادى عشر من سبتمبر لن تكون أبدًا كما كانت قبل صباح ذلك اليوم المفزع المخيف.. وأن الأمن النسبى الذى تمتعوا به قرونًا طويلة قد تبدد فجاة وقد لا يعود أبدًا، وأن القوانين التى ظنوا أنها تحكم التاريخ وتضبط مسيرته وتسمح باستشراف مستقبل الناس فيه، لا ضمان لاستمرارها ونفاذها، بل إن توازنها قد يختل فجاة، فتقلب الأمور رأسًا على عقب.. لأن أمر تلك القوانين وزمام حركتها تمسك به يد قديرة تتدخل حين تشاء كيف تشاء، وأمرها، إذا أرادت شيئا، أن تقول للتاريخ «كن فيكون».

وقبل مضى ساعات على انهيار البرجين الكبيرين اللذين كانا يرتفعان فى سماء نيويورك معبرين عن «القوة الأمريكية» فى جانبيها المادى والاقتصادى، وانهيار جزء غير صغير من مبنى البنتاجون الشهير رمز القوة العسكرية الأمريكية التى لم تعد تماثلها قوة عسكرية أخرى فوق هذا الكوكب.. والذى كان مصدر «الإحساس بالأمان المطلق» لكل أمريكى وأمريكية.. يصور لهم أن حياتهم المعيشية ومؤسساتهم الاقتصادية والسياسية وثقافتهم بكل عناصرها ومكوناتها.. وأسلوبهم الخاص فى الحياة الذى عرفوا به بين الناس والشعوب The American way of life .. كل ذلك لا يمكن أن يطال أو يصل إليه عدو معروف أو متربص غير معروف.



بعد ساعات على وقوع «الانهيار العظيم» كان الجو قد امتلا بمفردات جديدة لا يكاد يعدوها.. يعبر أكثرها عن الهلع بحثًا عن المواقع التى يمكن أن تكون قاعدة انطلق منها ذلك العدو المجهول.. الذى خطط لذلك الهجوم أو شارك فى تنفيذه.. امتلا الجو على الفور بكلمات «الحرب على أمريكا» وضرورة شن حرب شاملة على «الإرهاب والإرهابيين».. واستخرجت - على عجل - قوائم قديمة لأسماء مشتبه فيها وهى أسماء كانت - منذ شهور - أو سنوات، قابعة فى أدراج المخابرات المركزية، وعند مكتب التحقيق الفيدرالى F.B.I.. وإذا باكثر هذه الأسماء لأفراد من العرب والمسلمين، ولعل جانبًا كبيرًا منها كانت هى الأسماء التى زودت الأمريكيين بها حكومات عربية وإسلامية.. تطلب تسليم أصحابها لاتهامهم فى جرائم وقعت فى بلاد تلك الحكومات.. وهو طلب امتنعت عن الاستجابة إليه الحكومات الأمريكية، معتقدة أو متوهمة أن أصحاب هذه الأسماء ليسوا إلا خصومًا ومعارضين للأنظمة والحكومات التى طلبت تسليمهم.. وأن فى هذا التسليم ما يتعارض مع ما تعلنه الحكومة الأمريكية فى كل مناسبة من حماية مطلقة لحقوق الأفراد وحرياتهم.. ومن اتهام لكثير من الحكومات، خصوصًا فى دول العالم الثالث.. بالقمع والاستبداد والاعتداء المستمر على حقوق الإنسان.

وفى لهفة الوصول إلى معرفة «العدو» الذى دبر مؤامرة يوم الثلاثاء الأسود؛ استعدادًا «للانقضاض السريع» عليه، والثأر منه ثأرًا يتجاوز حدود عدوانه وجريمته.. ظهر «العرب والمسلمون» مشتبها فيهم، بحكم قوائم الأسماء التى استخرجت من الأدراج، وبحكم شبهات قوية بلغ بعضها عند الحكومة الأمريكية - كما تقول - مبلغ الأدلة على الإدانة فى حوادث «إرهابية» سابقة.. وبحكم ما كان قد تجمع لدى أجهزة الاستخبارات من معلومات واسعة عن تنظيم «القاعدة» فى أفغانستان، وعن أسامة بن لادن، الذى يوجه ذلك التنظيم.. مجندًا له مئات من شباب العرب والمسلمين، وهكذا، وقبل أن ينجلى الغبار عن موقع البرجين فى وسط نيويورك وعن مكان الانهيار فى مبنى البنتاجون.. كان الاتهام قد «عُلّق» برقبة العرب والمسلمين.. وكان على كل عربى وكل مسلم أن يقيم هو الدليل على براءته.. هذا إذا سُمح له بإقامة مثل ذلك الدليل.. ووقعت فى توجيه الاتهام تجاوزات عديدة، بعضها أفرزه الغضب، والغضب جمرة تُذهب العقل وتسد منافذ المنطق، وبعضها ولده الجهل وقلة العناية بمعرفة الآخر وثقافته، خصوصًا إذا لم يكن ذلك الآخر أمريكيا، أو غربيًا على أقل تقدير، وبعضها - أخيرًا - ولدته الرغبة السيئة فى اهتبال الفرصة السانحة لتشويه صورة العرب والمسلمين.. ولخلق فجوة بين المسلمين والغرب قد يصعب عبورها، حتى بعد أن يهدأ

الغبار ويستعيد الناس توازنهم، ويفيئوا إلى العقل والمنطق والعدل. وأسوأ هذه التجاوزات وأبعدها أثرًا، تلك الإشارات المتكررة إلى «الإسلام» وثقافته، باعتباره «الفاعل الأصلي» الذي أفرز موجات العنف والإرهاب.. وعلى قمتها الموجة التي أصابت الولايات المتحدة يوم الحادي عشر من سبتمبر.



هذه هي الصورة التي تحددت قسماتها وملامحها بعد أيام قليلة، بل بعد ساعات من وقوع «الانهيار العظيم» في نيويورك وواشنطن.

ولقد ترددت طويلاً قبل أن أستجيب لرغبة «وجهات نظر» في أن أكون أحد الذين يسعون لتسليط الأضواء على ما وقع يوم ١١ سبتمبر، وما أعقبه بعد أسابيع قليلة من تثبيت الاتهام وتوجيهه رسميًا من خلال خطب وبيانات الرئيس جورج بوش الابن ومعاونيه وتصريحاتهم، من بدء ما سموه جميعًا «الحرب ضد الإرهاب»، واستهلال معارك تلك الحرب بحملة عسكرية احتشدت لها القوة العسكرية الأمريكية بكل فروعها وأسلحتها وتقنياتها المتقدمة.

وكان مبعث ترددي أننا - في الحقيقة - إزاء حدث لم يكتمل بعد ولازالت حلقاته الأساسية تتعاقب، وهي أشبه بزلزال عظيم.. له توابع قد يكون بعضها أشد هولا وأبعد أثرًا من هزته الأصلية الأولى.. ومن ثم فإن ادعاء المعرفة اليقينية في شأنه ومحاولة التوكيد والقطع حول صورة المستقبل في ظله أمور لا يجوز التورط فيها.. وعلى الكاتب والقارئ أن يدركا جميعًا أن كل ما يكتب في هذه المرحلة المبكرة لا يمكن أن يكون أكثر من محاولة للفهم، والتحليل، والإمساك بأطراف خيوط واقع شديد التعقيد والتركيب.

وهذا الحدث الذي صدم الدنيا كلها قد فتح للبحث والرصد والتحليل ملفات عديدة نختار منها لحديثنا هذا ملفات ثلاثة هي:

١- ملف الإرهاب.

٢- ملف الإسلام والصلة المزعومة بينه وبين الإرهاب.

٣- ملف النظام الدولي الذي لابد أن يتأثر بالحدث الذي وقع، وما أعقبه من تداعيات لازال أكثرها يتجلى يومًا بعد يوم.

الإرهاب

يتجدد الحديث عن الإرهاب، تحذيرًا منه، وإدانة له، وبحثًا عن الوسائل الفعالة لمحاربته والقضاء عليه، كلما وقع حادث من حوادثه.. يهدد أمن الناس، أو يضر بمصالحهم الاقتصادية، أو يهدد استقرار النظام السياسي القائم بينهم.

ثم لا يلبث هذا الحديث أن يخفت، ويتصور الناس، حكومات وشعوبا أنهم نجحوا في استئصال الإرهاب والقضاء عليه.. فيسترد المجتمع إحساسه بالأمن فترة تطول أو تقصر، إلى أن يقع حادث إرهابي جديد.

ولا أريد أن تكون هذه السطور تكرارًا لما قيل وما يقال كلما وقع حادث إرهابي، وإنما أتعرض لأمور ثلاثة تتعلق بتعريف الإرهاب، وأسبابه، والأساليب الفعالة لمقاومته.

١- الإرهاب، بعيدًا عن الوقوف عند المعنى اللغوي للكلمة، هو كل اعتداء على الأرواح والأموال والمنشآت تستخدم فيه القوة بقصد إكراه المعتدى عليه، أو المجتمع، أو مؤسساته على اتخاذ إجراء أو قرار معين، أو اتباع سياسة يراها ممارسو ذلك الإرهاب.

وحين تجاوزت الحوادث الإرهابية حدود الدولة.. وامتدت إلى دول أخرى، وتزايد عددها على نحو غير مسبوق، فقد كان طبيعيًا أن تبدأ الجهود الدولية لمقاومة الإرهاب بمحاولة وضع تعريف له يتفق عليه المجتمع الدولي.. أو تتفق عليه الدول التي تريد الدخول في اتفاقيات ثنائية أو جماعية لمقاومته.. ومع ذلك لم تفلح جهود الساسة ورجال القانون في الوصول إلى اتفاق على تعريف الإرهاب.. وكان هذا الفشل تعبيرًا واضحًا عن تعارض المصالح واختلاف المواقف السياسية.. فيما حرصت أكثر الدول النامية وتلك التي تتعرض للاحتلال الأجنبي على التمييز بين جرائم الإرهاب التي تمارس داخل الدولة، أو تمتد إلى دولة أخرى تعبيرًا عن موقف سياسي أو أيديولوجي.. وبين العنف الذي تضطر الشعوب إلى ممارسته مقاومة للاحتلال، ودفاعًا عن الاستقلال الوطني.. والذي هو في جوهره استعمال لحق الدفاع الشرعي في مواجهة الاحتلال.. وهي مقاومة تجد سندها القانوني فيما يقرره ميثاق الأمم المتحدة، بينما اتخذت الدول النامية هذا الموقف فإن أكثر الدول التي حققت النمو قد ظلت حريصة على تجنب وضع تعريف للإرهاب، حتى لا تمنح الشرعية لحركات التحرير الوطني التي تقاوم الاستعمار والاحتلال.

وظهر هذا الخلاف من جديد فور إعلان الرئيس الأمريكي بوش أن الولايات المتحدة ستخوض حربا شاملة ضد الإرهاب، داعيًا سائر الدول إلى الانضمام للولايات المتحدة في تلك الحرب.. دون أن يحدد على الإطلاق معنى هذا العدو الذي تحشد لمحاربته الجيوش والطائرات والأساطيل.

وتأكد استمرار هذا الخلاف حين أصدر مجلس الأمن يوم ٢٨ سبتمبر ٢٠٠١ قراره رقم ١٣٧٣ الذي دعا فيه الدول إلى الالتزام بمحاربة الإرهاب.. عن طريق قطع الموارد المالية عن الأفراد والمنظمات الإرهابية.. والالتزام بعدم قبول أولئك الأفراد كلاجئين سياسيين.. وإلى تعديل التشريعات الداخلية بما يتفق وبنود ذلك القرار.. إذ رغم التفصيل الكبير الذي تميز به القرار (خمسة بنود أساسية ينقسم كل منها إلى ثلاثة أو أربعة أجزاء) رغم ذلك كله.. فقد بقي «الإرهاب» مُجهلاً.. وبقي باب الخلاف حوله مفتوحًا على مصراعيه.

والعرب والمسلمون ومعهم المدافعون عن حقوق الشعوب في تقرير مصيرها حريصون أشد الحرص على أن ينحسر أي تعريف للإرهاب عن حركات التحرر الوطني والمشاركين فيها، الذين يضطرون إلى استخدام العنف لمقاومة عنف آخر يتمثل في فرض الاحتلال، وما تمارسه سلطات الاحتلال من عدوان على حقوق أبناء الأقاليم الواقعة تحت ذلك الاحتلال.. ومن تضييق عليهم، وفرض الوصاية على حياتهم كلها.

وحرص الحكومات والشعوب العربية على هذه التفرقة يكتسب هذه المرة أهمية كبرى بسبب تكرار الإعلان من جانب الحكومة الأمريكية والرئيس الأمريكي على احتمال توجيه ضربات عسكرية إلى أية دولة عربية أو مسلمة، أو غير عربية ولا مسلمة تتورط في إيواء الإرهابيين أو تمتنع عن تسليمهم.. ورغم تناقض التصريحات الصادرة عن المسئولين الأمريكيين في هذا الشأن.. فلازال بعضها يشير تصريحًا أو تلميحًا إلى احتمال ضرب بعض الدول العربية أو الإسلامية.. التي لا تنصاع لقرار مجلس الأمن رقم ١٣٧٣ أو ترفض تسليم «الإرهابيين» الذين يطلب إليها تسليمهم.. وآخر ما سمعناه من ذلك في هذا الشأن تصريح السيدة كونداليزا رايس مستشارة الأمن القومي للرئيس بوش في حديث لها مع إحدى الشبكات الفضائية العربية يوم ١٥ أكتوبر ٢٠٠١، حيث أشارت إلى أمرين يستحقان التأمل في سياق هذا العرض، أولهما: قولها إن الولايات المتحدة لاتزال قلقة إزاء العراق وأنها تشك في أن النظام العراقي لايزال حريصًا على الاحتفاظ بأسلحة كيماوية وعضوية مما يكشف - من جديد - عما هو معروف من تحريضها الحكومة الأمريكية على توجيه ضربة عسكرية للعراق. وثانيهما: قولها إنه لا يوجد إرهاب حسن وإرهاب سيئ.. وهو تعبير مُغرِق في السطحية والمبالغة في التبسيط، ولكنه على أي حال - يكشف عن رفض مبدأ التمييز بين جرائم الإرهاب وبين الحق الشرعي في مقاومة الاحتلال. ومن عجب أن السيدة رايس لم تكتف بهذا، وإنما عادت فذكرت ضرورة أن يقوم الرئيس عرفات بجهد يضمن مائة في المائة وقف كل صور العنف ومنها العنف ضد الإسرائيليين.

وهكذا تظل قضية «الحرب ضد الإرهاب» محملة - في إطارها الناشئ بعد يوم ١١ سبتمبر بمخاطر كبيرة، وصراعات محتملة بين موقفين متناقضين في تعريف الإرهاب، حين تصل تلك الحرب إلى التهديد بضرب دول لا تقبل منع مواطنيها من الانخراط في «حركات التحرير» ومقاومة الاحتلال الواقع على أجزاء من أراضيها.

ويبقى أن ننبه إلى أن العمليات التي تمت يوم ١١ سبتمبر قد مثلت درجة من الإرهاب بمعناه الحرفي لا سابقة لها في التاريخ وأن «الخوف» من عمليات إرهابية جديدة قد أحال حياة الناس جميعا.. إلى قلق وخوف لا حدود لهما وهو خوف صار تعقبهم في أسفارهم وتنقلهم وإقامتهم وفيما يتلقونه كل يوم من رسائل بريدية تعاظم الخوف من احتوائها على بكتيريا مرض الأنثراكس Anthrax أو الجمرة الخبيثة وهو مرض شديد الفتك إذا لم يكتشف مبكرًا ويلاحق بالعلاج السريع.

إننا - لذلك كله - لا نبالغ إذا قلنا إن أبواب الخوف والشك، وما يترتب عليهما من آثار قد فتحت يوم ١١ سبتمبر على مصراعيها ويعلم الله وحده، متى يعود الأمن إلى النفوس، ومتى يزول كابوس الشك والخوف الذي تحول إلى هلع هستيري جماهيري، تؤججه وسائل الإعلام حين تصك أسماع الناس وأبصارهم ساعة بعد ساعة بتحذيرات لا آخر لها عن احتمالات التعرض لهذا النوع الخطير من أنواع الأسلحة الكيماوية أو البيولوجية.

إن جسامة الخطر الذي تواجهه الإنسانية كلها نتيجة استشراء الإرهاب والتطور المخيف للأسلحة التي تستعملها الجماعات الإرهابية يدعونا إلى نقل بؤرة الاهتمام من تحليل أساليب الإرهاب وصوره المختلفة.. إلى الاهتمام بالتعرف على أسبابه ومحركاته والعمل على إزالة هذه الأسباب والمحركات.. حتى نستأنف معًا مسيرة الخير والتواصل والتعاون على البر وما ينفع كل الناس.

وحسبي أن أوجه النظر إلى أن الدراسات السياسية والاجتماعية تشير كلها إلى أن البيئة التي تنمو فيها حركات العنف والإرهاب تتميز عادة بأمور ثلاثة:

أولها: ضيق المنافذ المتاحة للمشاركة الديموقراطية وهو ضيق يغري بالعمل خارج القنوات الشرعية. وثانيها: غياب العدل الاجتماعي على نحو تتسع في ظله الهوة بين الأغنياء الأقوياء بسلطان الثروة، والفقراء الضعفاء بذل الحاجة والعجز عن تحقيق القدر الأدنى من التطلعات المشروعة. والثالث: غياب «سلطان القانون» والتخلي عن القدر الأدنى من احترام الحقوق الأساسية للأفراد خصوصا عند توجيه الاتهام وإنزال العقاب وما يصاحب ذلك في أحيان كثيرة من ممارسات للقهر والتعذيب تخلق رغبة جامحة للتمرد على المجتمع





هكذا تظل قضية «الحرب ضد الإرهاب» محمّلة - في إطارها الناشئ بعد يوم ١١ سبتمبر بمخاطر كبيرة، وصراعات محتملة بين موقفين متناقضين في تعريف الإرهاب، حين تصل تلك الحرب إلى التهديد بضرب دول لا تقبل منع مواطنيها من الانخراط في «حركات التحرير» ومقاومة الاحتلال الواقع على أجزاء من أراضيها





الإرهـــــاب والإســــلام

> إن هذه الجماعات إذا وصل أعضاؤها إلى حمل السلاح واستخدامه، فإنهم لا يتركونه أبدا.. والغالب أن يبدأ استخدامهم له فى قضايا عامة مشروعة كمقاومة الاحتلال الأجنبى مقاومة تشاركهم فيها جماعات وطنية أخرى.. فإذا فرغوا من هذه القضايا، أو أدركوا العجز عن تحقيق أهدافهم منها، توجهوا إلى قضايا أخرى قد لا تتوفر لها الشرعية الإسلامية والقانونية

كله والخروج على القانون، وتفتح للشر الذى لا آخر له أبوابا أعلم انه يضيق عنها خيال القائمين بهذه الممارسات، كما أنها ـ شئنا أم أبينا ـ تصيب روح الولاء والانتماء عند كثير من الشباب فى مقتل، إذ الأمر فى الولاء أنه أخذ وعطاء، والأمر فيه كما يقول الشاعر:

لا أذود الطير عن شجر
قد بلوت المر من ثمره

فإذا ذكرنا أن هذه الأسباب هى المسئولة فى النهاية عن نمو «فقه العزلة» و«فقه العمل السرى» خارج الإطار الشرعى، أدركنا أن للقضية جانبها الثقافى والفكرى الأساسى، وأن منح السلطات الأمنية وحدها مسئولية القضاء على الإرهاب ظلم لأجهزة الأمن وتفويت للفرص الحقيقية لمقاومة الإرهاب وجذوره التى يكمن بعضها فى الأوضاع السياسية والاجتماعية والثقافية.

الإســـلام.. والإرهـاب

من مفارقات التاريخ وغرائبه أن يرتبط الإسلام فى أذهان غير قليلة بالعنف والإرهاب.. وأن يختزل الإسلام العظيم الذى جاء به الأنبياء والمرسلون رحمة للناس وأمنًا ليتحول إلى «مشكلة أمنية».. وفى تقديرنا أن هذا الارتباط الموهوم بين الإسلام والإرهاب قد شاركت فى صنعه عوامل ثلاثة: الأول: بقايا صراع تاريخى قديم بين «المسلمين» ودول أخرى عديدة فى الغرب.. وهو صراع حركته فى مراحله الأولى المنافسة الحادة التى دارت بين الدعاة المسلمين والمبشرين المسيحيين والتى كان نشوؤها أمرًا طبيعيًا فى ظل دينين عالميين.. يسعيان إلى «دعوة الآخرين» للخلاص باعتناق العقيدة الصحيحة كما يراها كل من الدعاة المسلمين والمبشرين المسيحيين.

ثم حركت هذا الصراع فى مرحلة تالية الحروب الصليبية التى حاول الغرب الأوروبى من خلالها أن يستولى على بلاد المسلمين، وأن يدخلهم فى طاعته وسلطانه.. وخلال هاتين المرحلتين غرس المستشرقون والساسة الغربيون فى عقول وقلوب أتباعهم وتلامذتهم صورة للإسلام بالغة النقص والسوء والسلبية، ركزوا فيها حملتهم الثقافية على بعض معالم العقيدة والثقافة الإسلامية.. وعلى رأسها فكرة «الجهاد» الذى رأوا فيه صورة من صور الإكراه والقسر» وفرض الرأى على الآخرين.

وحين انحسر المد الإسلامى سياسيًا وعسكريًا عن أوروبا، وتحول التاريخ تحولاً جذريًا إلى الاتجاه المقابل.. وبدأت الجيوش الأوروبية غزوها للغالبية العظمى من الدول العربية والإسلامية.. كان طبيعيًا أن تظهر حركات وطنية تحارب المستعمرين وتعمل على إجلائهم عن أراضيها.. ولعب الإسلام دورًا بارزًا فى تزويد تلك الحركات بحافز روحى عظيم الأثر، تمثل فى الطابع الدينى الذى اكتسبته حركات تحرير عديدة فى العالم العربى والإسلامى.. وحسبنا أن نشير إلى الطابع الإسلامى الذى طبع الثورة الجزائرية على الاستعمار الفرنسى.. فإلى جانب «جبهة» التحرير الجزائرية التى لم يخل خطابها من «نبرة دينية» كانت هناك جمعية العلماء المسلمين الجزائريين التى أسسها العالم الفذ عبد الحميد بن باديس.. وانتمى إليها من بعده الشيخ البشير الإبراهيمى.



وفى تونس كانت لحزب الاستقلال الذى أسسه علال الفاسى توجهاته الإسلامية الواضحة.. وفى مصر شاركت حركة الإخوان المسلمين مشاركة فعالة فى كتائب الفدائيين التى بدأت بها المواجهات العسكرية بين العرب وإسرائيل عام ١٩٤٨.. وتزامن هذا الدور الذى لعبه «الإسلام» فى تأجيج حركات المقاومة الوطنية للاستعمار.. مع دعوة أخرى للمحافظة على الاستقلال الثقافى، وإذكاء الوعى بالخصوصية الثقافية للأمة. وهكذا بدا للعقل الأوروبى وللوجدان الغربى بصفة عامة أن الإسلام هو الخصم العنيد الذى يحرك روح العداوة للغرب.. وأن المسلمين مصدر خطر على الحضارة الغربية كلها.. ولذلك بقى «العقل» الغربى إلى يومنا هذا مستعدًا لتصديق كل نقد يوجه للإسلام والمسلمين، وقبول كل تصوير سلبى لهما، ثم جاءت قاصمة الظهر عام ١٩٤٨ حين أقيمت فى قلب العالم العربى والإسلامى دولة صهيونية كان الظن أن تكون ملجأ يلوذ به اليهود المضطهدون فى دول أوروبا، فإذا بها تجسيد لمشروع صهيونى استيطانى واسع الأطماع يقوم على نفى الآخر «الفلسطينى» ومحاولة استئصاله وفرض هيمنة الدولة العسكرية التوسعية على جميع العرب والمسلمين، وإذا كانت إنجلترا تحمل أمام الله والتاريخ مسئولية ارتكاب الخطيئة الأولى فى هذه القضية الشائكة حين مهدت لقيام تلك الدولة «النازية» بمنحها وعد بلفور الشهير عام ١٩١٧.. فإن الولايات المتحدة هى التى أعلنت قيامها عام ١٩٤٨ بجهد غير مسبوق داخل أروقة الأمم المتحدة، استعملت فيه الضغط والوعيد والتهديد.. وظلت إلى يومنا هذا، تسكت عن جرائمها، وتبارك عدوانها.. وترفض أن يصدر عن الأمم المتحدة قرار يشير من قريب أو بعيد إلى تلك الجرائم أو يسميها بأسمائها فضلاً عن أن يعاقب عليها.. وعبر هذه المسيرة المؤسفة تعقدت علاقة العرب والمسلمين بالولايات المتحدة تعقيدًا شديدًا تسأل عنه الحكومات الأمريكية المتعاقبة ولا يسأل عنه العرب والمسلمون.

أما العامل الثانى التى ساهمت فى خلق هذا الوهم الكبير فهو ظهور بعض الحركات والأحزاب التى تحمل أسماء وشعارات إسلامية.. والتى مارس بعضها السياسة بوسائل انقلابية تنقض على المجتمع، وتعمل خارج قنواته الشرعية، وتستحل تصفية خصومها السياسيين أو العقائديين تصفية جسمانية تقوم على العنف ويستباح فيها القتل وإراقة الدماء.. إن الأثر السلبى الذى يتركه مثل هذا السلوك على مجمل «الصورة الإسلامية» يفوق كثيرًا كل ما تتركه الحملات الإعلامية التى تصدر عن الآخرين. والذى نؤكده هنا، أن هذه الجماعات على تشعبها وتعدد فروعها وتنظيماتها خلال النصف الأخير من القرن الماضى لازالت تشكل هامشًا صغيرًا على جانبى «التيار الواسع العريض» للمسلمين.. ولازالت جماهير المسلمين تراقب سلوكها بكثير من الحذر والارتياب.. ومع ذلك فإن وجود هذه الجماعات والتنظيمات حقيقة لا تجوز فيها المكابرة ولا يجدى معها الإنكار.. والأولى أن يتصدى العلماء لمناقشة أفكارها ومواقفها، وإعلان كلمة الإسلام فيما يقول به أعضاؤها وما يفعلونه.. بغير مجاملة ولا مواربة، كل ذلك بنبرة عالية واضحة يبرأ بها الإسلام والمسلمون من شبهات العنف والإرهاب.

إن واجب العلماء الذين تفرضه عليهم أمانة العلم أن يبينوا للناس، وألا يكتموا الحق.. وأن يدركوا جميعًا أن مجاملة المنحرفين عن روح الإسلام ومبادئه وأحكامه الثابتة والسكوت عما يمارسه بعضهم من تجاوز وعدوان لمجرد أنهم يرفعون رايات إسلامية، هذه المجاملة تسىء إلى الإسلام أبلغ إساءة.. وتصد عنه أصحاب العقول النيرة والقلوب الطاهرة السليمة.. وتفتح على العقول والنفوس باب الخلط بين التدين الصحيح الذى يسعد به صاحبه وتنتفع به الأمة كلها وبين التدين المنحرف عن الجادة، الذى لا يورث صاحبه إلا ابتعادًا عن الناس.. ولا يفىء على الأمة إلا حرجًا ومشقة وفتحًا لأبواب شر لا آخر لها.

وإذا لم يكن من أهداف هذا البحث أن نستقصى أسباب ومظاهر العوج فى منهج التفكير الذى قد يقود أصحابه إلى التطرف فى الفكر والسلوك أو إلى ممارسة الإرهاب، فإننا نرى من المفيد ـ مع ذلك ـ أن نلفت الأنظار إلى ظاهرتين هامتين تربطهما بالإرهاب رابطة وثقى:

الظاهرة الأولى: أن العزلة عن التيار العام للحياة، ومفارقة المجتمع شعوريًا أو فعليًا، والانحصار داخل «حوزة» مغلقة لا تتواصل مع الآخرين.. هذه العزلة تصنع لأصحابها «فقها» خاصًا يراه أصحابه منتسبًا للإسلام، ويعتقدون أن مفرداته وأجزاءه مستمدة من نصوصه، ولكنه عند التأمل فقه خاص تمامًا.. صنعته أجواء العزلة والانفصال عن التيار العام ولذلك أجزت لنفسى أن أسميه «فقه العزلة»، وهو ينطوى على مخالفات جسيمة لروح الإسلام العامة ولكثير من مبادئه الثابتة ونصوصه القطعية.

وأهم عناصر هذا النوع من الفقه المنحرف:

١ـ تفسير النصوص تفسيرًا حرفيًا يجزئها، ويعزلها عن سياقها، ولا يحاول التعرف على مقاصدها الكبرى.

٢ـ شدة الإنكار على المجتمع وأوضاعه كلها، ورفض تفهم القوانين الاجتماعية التى يخضع لها المسلمون كما يخضع غيرهم.. وممارسة «الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر» ممارسة لا تعرف الضوابط ولا الحدود.. وتسعى للتغيير بأى ثمن على نحو يجعل من أصحابها «وصاة» على الأفراد وعلى المجتمع كله.. وهو موقف يكشف عن استعلاء ونظرة فوقية تخالف روح الإسلام وآدابه مخالفة أساسية.

الظاهرة الثانية: أن التجاء بعض حمله هذا الفقه الانعزالى إلى تكوين «جماعات أو مجموعات عمل» سرية وغير معلنة.. يفضى بدوره إلى نمو «فقه» مكمل لفقه العزلة نستطيع أن نسميه «فقه العمل السرى».

وهذا الفقه هو المسئول فى النهاية عن الانحراف السلوكى والتوجه العدوانى والعنف العشوائى الذى يسير فيه بعض أعضاء تلك الجماعات.



وقد لا تكون عناصر هذا الفقه واضحة ولا محددة عند نقطة «البداية» فى حياة هذه الجماعات السرية وحياة أفرادها فيها، ولكنها لا تلبث أن تظهر وتنمو على نحو يوشك أن يكون حتميًا وتكشف متابعة «فكر» هذا النوع من «الجماعات» المستترة عن ثلاثة عناصر أساسية لعلها أهم مشخصات هذا الفكر:

العنصر الأول: عنصر «التقية» أى إظهار صورة تخالف الصورة الحقيقية لنشاط هذه الجماعات وأهدافها القريبة والبعيدة.. ونظرًا لتداخل عناصر «الخطاب السياسى» المعلن من جانب هذه الجماعات.. واختلاط ما هو تعبير حقيقى عن الموقف من القضايا العامة بما هو تستر «بالتقية»، فقد آل الأمر إلى غياب الثقة غيابًا كاملاً بهذه الجماعات من جانب النظم السياسية الحاكمة، كما أدى إلى وقوع اختلاط

خطير فى عقول الكثيرين من المنخرطين فى هذه الجماعات.. بين ما هو موقف أصيل مستمد من الإطار المرجعى للأمة وما هو «تكتيك» من قبيل التقية» تسنده أو تبرره عند أصحابه ملاءمات سياسية خالصة.

أما العنصر الثانى: فهو قبول الالتجاء إلى الوسائل الانقلابية والإعداد لممارسة تلك الوسائل، ويقترن هذا القبول عادة باستحلال الالتجاء إلى العنف والإكراه استعجالاً للوصول إلى مقاليد الحكم ومقاعد السلطة كما يصاحبه ترخص وتساهل فى الالتزام بالضوابط الأخلاقية للعمل العام والسياسى، وهى ضوابط أكثرها مستمد من مبادئ الإسلام العامة التى تجد أصولها فى القرآن الكريم والسنة النبوية وسيرة النبى ﷺ.. وهكذا ينتهى الأمر - عمليا - بكثير من أعضاء تلك الجماعات إلى التورط فى تبرير الوسائل غير المشروعة، بالغاية النهائية المشروعة، ناسين قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا﴾ (النساء ٩٤)، وقول النبى ﷺ: «إن الله طيب لا يقبل إلا طيبا».

العنصر الثالث: إن هذه الجماعات إذا وصل أعضاؤها إلى حمل السلاح واستخدامه، فإنهم لا يتركونه أبدًا.. والغالب أن يبدأ استخدامهم له فى قضايا عامة مشروعة كمقاومة الاحتلال الأجنبى مقاومة تشاركهم فيها جماعات وطنية أخرى.. فإذا فرغوا من هذه القضايا، أو ادركوا العجز عن تحقيق أهدافهم منها، توجهوا إلى قضايا أخرى قد لا تتوفر لها الشرعية الإسلامية والقانونية.. وقد يكون استخدام القوة المسلحة فى التعامل معها مشكوكًا فى جوازه من الناحية الشرعية، كما قد يؤدى هذا الاستخدام فى شأنها إلى وقوع مفاسد وأضرار تجاوز المفاسد والأضرار التى تم استخدام القوة المسلحة لدفعها وإزالتها ناسين - مرة أخرى - أن من قواعد الإسلام المحكمة قبول المفسدة الصغيرة درءا لمفسدة أكبر منها، وأنه «يرتكب أخف الضررين» إذا تعين اختيار واحد منهما.

ويبقى أن ننبه القارئ فى نهاية هذا الجزء من حديثنا إلى أننا لا نناقش الإسلام فى مبادئه الثابتة ونصوصه القاطعة، وموقفه الواضح من القضايا المبدئية التى تعرضنا لها، وإنما نتوجه بالتحليل والمناقشة إلى «ثقافة» جانبية أو تحتية Subculture نشأت تاريخيًا كما تنشأ كل الثقافات الجانبية والتحتية، ترفع لواء العقيدة أو الثقافة العامة التى يعبر عنها التيار الواسع العريض لتلك الثقافة.. ولكنها تتوجه فى رؤيتها وفكرتها، وفى سلوكها العملى المعتاد توجهًا يناقض روح ذلك التيار الواسع، ويخرج على الحدود المبدئية والأخلاقية لتلك الثقافة.



ولسنا بحاجة أبدًا - فى مقامنا هذا - إلى أن نعرض من جديد لموقف الإسلام.. من القضايا الكبرى التى تشغلنا جميعًا هذه الأيام.. ونعنى قضايا الإرهاب.. والسلام.. والحرية.. والعلاقة مع «الآخر».. وقضية العدل الذى هو ركن الأركان فى الرؤية الثقافية للإسلام.. وقبل ذلك كله «قضية الإنسان» وحرمة دمه وعرضه وماله، ذلك أن موقف الإسلام المستمد فى وضوح وبغير تكلف ولا تعسف من مصادره الأساسية وإطاره المرجعى المعتمد، هذا الموقف ثابت ومدون ومعلوم للكافة.. قديمًا وحديثًا.

وليت المقام كان متسعًا لنصحب القارئ فى جولة سريعة بين عدد من النصوص والمبادئ التى قدم الإسلام بها للإنسانية منظومة كاملة لضوابط التعامل بين الناس والناس.. حين يتفقون وحين يختلفون.. فى أوقات السلم وأوقات الحرب على السواء.. إذن لازداد وضوح المفارقة الهائلة بين «الإسلام» الذى عليه الكثرة الغالبة من المسلمين، وهى الكثرة التى لا تجتمع على ضلالة، وبين السلوك الناشز لبعض من يستظلون بلوائه، وينتحلون لأنفسهم حق التحدث باسمه عن سائر المسلمين.. وإذن لأدرك الناس جميعًا.. هنا فى المشرق.. وهناك فى المغرب.. أن الإسلام ليس فى حرب مع كل ثقافة معاصرة.. وأن المسلمين شركاء لسائر الناس والشعوب.. فى مواجهة أخطار مشتركة جديدة.. وفى السعى لإنشاء نظام جديد للعلاقات الإنسانية يقوم على التعاون والتكامل وتبادل العطاء.. والخبرات.. بدلاً من نظام قديم يقوم على «الواحدية» و«الأنانية» والهيمنة والظلم واستبعاد الآخرين.

إن مساهمة الإسلام الكبرى فى إقامة نظام عالمى جديد للعلاقات الإنسانية يقوم على التواصل والتعاون ويحارب العنف والإرهاب وروح القطيعة بين الناس تتمثل فى أمور عديدة على رأسها المبادئ الكبرى الآتية:

١ - أن الإنسان أيا كان لونه وأصله وجنسه وعقيدته الدينية، هو فى نظر الإسلام مخلوق مكرم ومفضل على سائر الكائنات:
﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ (الاسراء ٧٠)

٢ - أن التنوع الإنسانى والاختلاف نعمة وليس نقمة ولا هو خطر على أحد، و«الآخر» فى منطق الإسلام ليس «جحيما» كما يقول مفكر وجودى معروف، وإنما هو «نعيم آخر» ينبغى التعرف عليه والاقتراب منه والتعاون معه ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ (الحجرات١٧).

٣ - إن دم الإنسان معصوم، وماله معصوم، وعرضه معصوم، مسلما كان أو غير مسلم. وهذه العصمة هى وصية النبى ﷺ للإنسانية كلها فى حجة الوداع «أيها الناس إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرام عليكم».

٤ - إن العهود واجبة الإحترام فى السلم والحرب على السواء ﴿الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ﴾ (الرعد ٢٠)، وهذا الاحترام الواجب يشمل العهود مع غير المسلمين فلا يجوز نقضها حتى بقصد مناصرة المسلمين ﴿وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ﴾ (الأنفال ٧٢).

٥ - أن الحرب ضرورة خارجة على أصل المودة والسلام بين الناس جميعا وخروجها هذا لا يخرجها من دائرة القانون وإنما يظل السلوك الإنسانى فيها محكوما بذات القيود والضوابط الأخلاقية التى تحكم علاقات الأفراد والشعوب وقت السلم.. وهكذا صار «قانون الحرب» جزءا من الشريعة، ولم تعد الحرب نظاما همجيا يستعصى على كل الضوابط الأخلاقية أو يفلت من قاعدة القانون.. ولا يملك أى دارس للقانون الدولى أو للقانون المقارن إلا أن يرى فى دخول قانون الحرب داخل دائرة الشريعة إلا بداية حقيقية وواضحة لنشأة القانون الدولى بمعناه الحديث.

ولكن لهذا كله مقاما غير هذا المقام، وحديثا يتجاوز نطاق هذا الحديث. وأسجل مع ذلك أن الحاجة إلى مثل هذا الحديث تزداد يومًا بعد يوم مع تصاعد الحملة ضد الإسلام والمسلمين واتساع دائرتها يومًا بعد يوم.. وهو اتساع لا يجوز أن تلفت الأنظار عنه بعض التصريحات «الودية» و«العاقلة» الصادرة من الرئيس بوش أو رئيس الوزراء البريطانى أو بعض المثقفين المنصفين فى أوروبا والولايات المتحدة، لقد كشفت هذه الحملة عن موقف ثقافى وسياسى بالغ الخطورة.. يهدد بوقوع تصدع هائل فى علاقة المسلمين بالغرب المسيحى فى أوروبا والولايات المتحدة وهو تصدع لا يمكن تصور آثاره المدمرة على مستقبل الإنسان.. وجدير بحكومات الدول العربية والإسلامية، وبمنظمة المؤتمر الإسلامى.. وبجميع المثقفين ورجال الإعلام فى العالمين العربى والإسلامى أن ينهضوا لاحتوائه قبل أن يتعذر التدارك ويقع المحظور الكبير الذى تستفيد منه سياسياً «جهة واحدة» يفزعها كل تقارب بين العرب والمسلمين.. وبين أبناء الحضارة الغربية فى أوروبا وأمريكا.



الإسلام ليس فى حرب مع كل ثقافة معاصرة.. والمسلمون شركاء لسائر الناس والشعوب.. فى مواجهة أخطار مشتركة جديدة.. وفى السعى لإنشاء نظام جديد للعلاقات الإنسانية يقوم على التعاون والتكامل وتبادل العطاء.. والخبرات.. بدلاً من نظام قديم يقوم على «الواحدية» و«الأنانية» والهيمنة والظلم واستبعاد الآخرين



مستقبل النظام الدولى..

منذ سقط الاتحاد السوفيتى سقوطا مفاجئاً ومدويا فى نهاية الثمانينيات ومنذ سقطت معه، فجأة كذلك، الدول والأنظمة التى كان يطلق عليها اسم «المعسكر الاشتراكى». منذ ذلك التاريخ أدرك المفكرون والساسة، بل أدرك جميع الناس أن العلاقات بين الدول والشعوب تدخل مرحلة جديدة تماماً لم تتشكل معالمها بعد على نحو محدد.. ولكن المؤكد فى شأنها أنها فقدت عنصراً أساسياً كان أحد عناصر المرحلة السابقة على «الانهيار الكبير» فى النظام الدولى، وهو عنصر «التعددية» Pluralism التى تخلق حالة من حالات التوازن Checks and balances بين القوى صاحبة التأثير الأكبر داخل النظام الدولى.. ذلك أن الاتحاد السوفيتى بقوته ووزنه الذاتى وبمن يقفون معه وخلفه داخل معسكر واحد كان أحد قطبين كبيرين، أو قوتين عظميين، وكان القطب الآخر يتبنى الحرية السياسية والاقتصادية ويطلق عليه فى الاصطلاح السائد «المعسكر الحر» أو «المعسكر الغربى».. فلما اختفى القطب الاشتراكى كقوة عظمى مؤثرة وانفرد المعسكر الغربى الذى تقوده الولايات المتحدة بوصف «القوة العظمى» صار القول النهائى فى جميع القضايا الدولية لهذا القطب الواحد وطرأ تغيير جوهرى على دور الأمم المتحدة فى إدارة العلاقات بين الدول والشعوب.. فصارت قراراتها - فى واقع الأمر وحقيقته - تابعة إلى حد كبير للقرار الأمريكى وللرؤية الأمريكية.



وهكذا أصبح النظام الدولى أسير ما يتاح للقرار الأمريكى من احتمالات النظرة الصائبة، والقدر الأدنى من الموضوعية والتوفيق الضرورى بين المصالح الأمريكية ومصالح الأطراف الأخرى، أى أن النظام العالمى فى ظل «القطبية الواحدة» قد صار باكمله مرهونًا بالرؤية الأمريكية والقرار الأمريكى..

وقد حرصت الإدارات الأمريكية المتعاقبة فى كثير من المواقف على الالتزام - بدرجات متفاوتة - بالشرعية الدولية التى تمثلها الأمم المتحدة وما يصدر عنها من قرارات.. كما حرصت فى مناسبات محدودة على أن تأخذ زمام المبادرة وأن تبحث لقراراتها عن غطاء جماعى.. على النحو



تتمة البيان فى تاريخ الأفغان

الشائع أن جمال الدين الأفغانى ولد فى قرية أسعد أباد فى أفغانستان عام ١٢٥٤هـ، وتوفى فى الأستانة عام ١٣١٤هـ.

وربما كان كتابه هذا «تتمة البيان فى تاريخ الأفغان» الذى طبع عام ١٩٠١ هو الكتاب الوحيد الذى ألّفه، إذ أن رسالته «فى الرد على الدهريين». هى فى حقيقتها ردود عن استفسارات تلاميذه.

وفى «تتمة البيان» يعرض الأفغانى لأصول الأفغان وطبائعهم ومعتقداتهم وصنائعهم ونظامهم السياسى.

فى أصل التسمية

إن الفارسيين يسمونهم بأفغان ويعللون ذلك بأنهم حينما أسرهم (بخت نصر) كان لهم أنين وحتين والأنين يسمى بالفارسية «أفغان» فأطلق عليهم هذا الاسم من ذلك الوقت. وقيل إن أفغان اسم لحفيد (شاؤول) وهو جدّ الأفغانيين فسموا باسم جدّهم. وعوام الفرس يطلقون عليهم اسم «أوغان» وهو قريب من الأول والهنود يسمونهم «بتان» وبعض قبائل الأفغانيين كالمقيمين «بقندهار» و«قزن» يسمون أنفسهم (بشتو) و(بشتان) بالباء الفارسية فيهما. وبعضهم كاكنى «خوست» و«كورم» و«باجور» يسمون أنفسهم (بغتو) و(بغتان) بالباء الفارسية فيهما. ومن دقق النظر فى تقارب هذه الألفاظ يعلم أنها من أصل واحد وأن لفظ «أفغان» و«أوغان» و«بتان» محرّف عن (بغتان). و«بغتان» و«بشتان» يصح أن يكونا مأخوذين من «باشتان» وهى قرية من قرى (نيسابور). والواو فى (بشتو) و(بغتو) المحرّف عنه للدلالة على النسبة كالياء فى لغة العرب وحذفت مع الجمع تخفيفاً.



الذى حدث فى حرب الخليج عام ١٩٩٠ حين تدخلت عسكرياً لإنهاء الاحتلال العراقى للكويت، مستعينة فى ذلك بغطاء جماعى تمثل فيما سمى حينذاك دول التحالف Coalition.

ولكن النظام الدولى قد امتحن امتحاناً عسيراً لازال قائماً فى أعقاب الاعتداء الإرهابى على مدينتى واشنطن ونيويورك إذ اندفعت الولايات المتحدة فى ظل ما أسمته «التعاون الدولى لمحاربة الإرهاب» إلى طلب موافقة الدول جميعاً على تدخلها العسكرى فى أفغانستان، لتصفية بؤرة الإرهاب التى يقودها «أسامة بن لادن».. بعد أن قررت هى ـ وحدها ـ أن تحت يديها أدلة تشير إليه باعتباره ومعه تنظيم القاعدة مسئولاً عن عمليات التخريب والقتل الجماعى التى وقعت يوم الحادى عشر من سبتمبر.. وطرح الرئيس بوش مقولة غريبة تصعب الموافقة عليها وهى: على الدول جميعا أن تحدد موقفها بلا تردد أو موارية.. هل هى مع الولايات المتحدة أم مع الإرهاب؟.. وألمحت التصريحات العديدة الصادرة من واشنطن ومن بعض العواصم التى تابعتها فى تعاملها مع حادث يوم الحادى عشر من سبتمبر إلى احتمال توسيع الأعمال العسكرية لتشمل كل دولة وأى دولة لا تتعاون مع الولايات المتحدة ودول التحالف!! فى مقاومة الإرهاب.. وتسليم الأفراد الذين تطلب الولايات المتحدة تسليمهم إليها بعد قيام الدليل لديها ـ أى لدى الولايات المتحدة ـ على تورطهم فى أعمال إرهابية.



وهذا الذى تطلبه الولايات المتحدة يكشف عن عمق الأزمة التى يعيشها النظام الدولى المعاصر.. كما يكشف عن استمرار الولايات المتحدة فى ممارسة أساليب العمل التى أدى تكرارها وتراكمها إلى خلق موقف يوشك أن يكون إجماعياً من سياساتها ومواقفها فى العديد من القضايا الدولية الشائكة.. ويكفى أن نشير إلى موقفها من المجتمع الدولى بشأن اتفاقية كيوتو للتغيرات المناخية، وموقفها المبالغ أشد المبالغة فى الدفاع عن إسرائيل وسياسة حكومتها والذى وصل إلى حد انسحابها مع إسرائيل من مؤتمر مكافحة العنصرية الذى انعقد فى ديربان بجنوب أفريقيا.. والتصريحات المستفزة التى صدرت ـ ولا تزال تصدر ـ فى شأن «العنف المتبادل» فى الأراضى الفلسطينية المحتلة والتسوية غير المقبولة عدلاً ومنطقاً بين القاتل والقتيل.. وبين عنف يلجأ إليه المقهورون المطاردون بترسانة السلاح الأمريكية التى تملكها إسرائيل.. وعنف تلجأ إليه الدولة الغازية المحتلة، وتعلن فى ظله عن عزمها وقرارها «باغتيال» مسئولين فى السلطة الوطنية والتنظيمات السياسية الفلسطينية.. لقد أدى تكرار هذه المواقف غير العادلة وغير المقبولة إلى نشوء موقف يكاد يكون إجماعياً فى العالم، غاضب على السياسة الأمريكية، ومتحفظ أشد التحفظ على كثير من القرارات الأمريكية.. وإذا كانت دول العالم كله، وفى مقدمتها الدول العربية والإسلامية قد أعلنت بنبرة عالية إدانتها للاعتداء الذى وقع يوم ١١ سبتمبر، وعزمها الصادق على التعاون مع سائر دول العالم للقضاء على الإرهاب.. وإذا كانت أكثر الدول الأوروبية قد اتخذت ـ هى الأخرى ـ مواقف مشابهة وشارك بعضها فى الأعمال العسكرية فى أفغانستان.. فإن لهذه المشاركة ـ فيما نرى ـ حدوداً لا يمكن تجاوزها، وإذا تصور راسمو السياسة وأصحاب القرار فى الولايات المتحدة غير ذلك.. فقد يفاجأون بتصدع فى التحالف الذى بدأت العمليات العسكرية فى أفغانستان باسمه وتحت مظلته، وهو تصدع نراه أكثر قربا مما يتوقع كثير من المحللين وإن كان مرهونا بطبيعة الحال بتطور الموقف الأمريكى نفسه.

إن جوهر الأزمة الحالية التى يمر بها النظام الدولى، أن القوة الكبرى التى تتحرك فيه قد صارت فى ظل القطبية الواحدة أكبر من كل إطار قانونى يحكم حركتها، كما صارت تتمتع بحرية فى الحركة لم يسبق أن تمتعت بها قوة كبرى فى التاريخ. ولازال هناك أمد بعيد قبل أن يعود التوازن من جديد إلى النظام الدولى بنمو الدور الأوروبى، أو نمو القوة السياسية والاقتصادية للصين. وإلى أن يتحقق هذا التوازن لابد من عمل شىء يقلل من الآثار السلبية لانفراد قوة واحدة بإدارة شئون العالم والتدخل المباشر فى جميع قضاياه. وهو عمل لابد أن يتعاون فيه العرب والمسلمون مع سائر القوى العالمية التى تحرص على أن يظل العدل فوق القوة فى النظام الدولى، وأن تظل علاقات الدول والشعوب محكومة طول الوقت بمنظومة قانونية ملزمة للقوى العظمى والصغرى على السواء.. ولابد أن تشارك فى هذا العمل كذلك جميع مؤسسات المجتمع المدنى فى تلك الدول بعد أن أخذ دورها يتعاظم يوما بعد يوم فى التأثير على صورة العلاقات بين الشعوب وحكامها وصورة العلاقات بين الدول والحكومات.



إن المشكلة الحقيقية فى النظام الدولى القائم أن التاريخ لم يعرف حلا جذريا لما يطرأ على النظام الدولى من خلل جوهرى إلا عبر حروب عالمية تنتهى ـ بعد تضحيات هائلة ـ إلى هدم النظام القديم واقتلاعه من جذوره وإقامة تنظيم جديد تعبر عنه وثائق دولية جديدة. حدث هذا بعد الحرب العالمية الأولى وترتب عليه إنشاء نظام عصبة الأمم، كما حدث بعد الحرب العالمية الثانية وأسفر عن وضع ميثاق الأمم المتحدة وإقامة بنيانها القانونى الذى لانزال نعيش فى ظله، ولذلك فإن التحدى الذى تواجهه شعوب العالم فى ظل ما طرأ على النظام القائم من خلل هائل فى التوازن فهو السعى لإقامة نظام جديد أكثر عدلا وأكثر توازنا وأدعى لإقرار السلام يولد من باطن النظام القائم دون حاجة إلى حرب عالمية جديدة بين الدول أو بين الحضارات.

هذا هو السؤال الذى نطرحه ويطرحه كثير من الباحثين ولكنه يظل حتى يومنا هذا قائما بغير جواب. فهل تكون الصدمة «الكبرى» التى تعرضت لها القوة «الكبرى» مدخلا لإعادة النظر فى النظام الدولى القائم دون حاجة إلى حروب جديدة يعلم الله وحده فداحة ثمنها من دماء الأبرياء وثمرات حضارة عالمية أنفقت البشرية فى إقامتها مئات السنين وما لا آخر له من جهود العلماء والزعماء والمبدعين من صناع الحضارة والمصلحين؟ ■

من بريطانيا ١٩٥٦ إلى أمريكا ٢٠٠١

جلال أمين



إن قراءة التاريخ تعلمنا درسا كان يبدو ـ حتى الآن على الأقل ـ غير قابل للشك أو المناقشة، وهو أن المركز النسبى فى القوة العسكرية يتمشى دائمًا مع المركز النسبى فى القوة الاقتصادية



من نافلة القول أن التاريخ لايمكن أن يكرر نفسه بالضبط، ومع ذلك فمن الممكن أن يجد المرء فى التاريخ حادثة شبيهة جداً من عدة نواح بما يجرى اليوم مما يمكن أن نستخلص منه العبر، ويزيد من فهمنا لما يحدث، بل وقد يجعلنا أقدر على التكهن بالمستقبل.

إذًا فلننظر مثلاً إلى ما حدث لبريطانيا فى ١٩٥٦، أى منذ أقل قليلاً من نصف قرن، ومقارنة بما حدث لأمريكا منذ أسابيع قليلة.

فى يوليو ١٩٥٦ استيقظت بريطانيا يوماً لتسمع ذلك الخبر الفظيع ـ الفظيع بالنسبة لها طبعاً ـ فإن جمال عبدالناصر أمّم قناة السويس وكانت الخسارة الاقتصادية كبيرة ولكن الإهانة كانت أعظم. إذ كيف يجرؤ رئيس دولة صغيرة من دول العالم الثالث ظلت تحت الاحتلال البريطانى لمدة ثلاثة أرباع قرن، ولم يكن قد مضى على مغادرة آخر جندى بريطانى لها أكثر من أسابيع قليلة، كيف يجرؤ على اغتصاب هذه الدرّة الثمينة من درر التاج البريطانى؟ كان رئيس وزراء بريطانيا فى ذلك الوقت، انتونى إيدن، رئيساً لحزب المحافظين، وأرستقراطياً حتى النخاع، ولم يكن على استعداد بالمرة، مثلما كان من الممكن أن نتصور من رئيس حزب العمال مثلاً، أن يقبل أن توجه إلى بريطانيا العظمى مثل هذه الإهانة من دولة لابد أن إيدن كان يعتبرها، ليست فقط موغلة فى الفقر، بل وأيضاً موغلة فى «عدم التحضر».

لا يسع المرء إلا أن يلاحظ أوجه الشبه بين الغضب الذى عبّر عنه انتونى إيدن والحكومة الإنجليزية فى ١٩٥٦، والغضب الذى عبّر عنه جورج بوش والإدارة الأمريكية فى سبتمبر الماضى، نفس العصبية وعدم القدرة على التصديق، والشعور بالإهانة أكبر من أى شعور بالحزن على الخسارة البشرية أو المادية، ونفس التصميم على الانتقام الفورى والعقاب الرادع، ونفس التعبئة «للعالم المتحضر» كله، ونفس الإثارة للنزعة العنصرية والتعالى عن التحضر والتخلف، بل ونفس التذكير بهتلر (وإن كان هذا قد جاء من إسرائيل) والتحذير من السكوت عن الإرهاب (أو عبدالناصر) كما سبق أن سكتت بريطانيا على هتلر فازداد همجية.



كانت بريطانيا فى ١٩٥٦ فى موقف لا تحسد عليه، وكذلك أمريكا الآن، من عدة نواح. كانت بريطانيا قد خرجت قبل سنوات قليلة منتصرة فى الحرب العالمية الثانية، ولكن انتصارها كان منهكًا ومرهقًا وديونها ثقيلة، وكان من الواضح للجميع أن مركزها النسبى فى الاقتصاد العالمى، سواء إذا قيس بنصيبها فى إجمالى الإنتاج العالمى، أو إجمالى الإنتاج الصناعى، أو بنصيب صادراتها فى مجمل التجارة الدولية، أو نصيب استثماراتها الخارجية إلى حركة رؤوس الأموال فى العالم، آخذًا فى الانخفاض بسرعة. كانت كل الدلائل فى منتصف الخمسينيات تدل على أنه لن يمضى وقت طويل حتى تتحول بريطانيا العظمى، التى حكمت حتى وقت قريب امبراطورية لا تغرب عنها الشمس، إلى دولة كبقية الدول. قد تظل لفترة ما أهم وأقوى من دولة كالسويد أو النرويج، ولكنها لن تكون لها مكانة أو قوة الولايات المتحدة أو الاتحاد السوفيتى. كان من الصعب على انتونى أندريه أن يقبل هذه الحقيقة القاسية، ومن ثم أخطأ خطأ جسيمًا، وارتكب غلطة العمر بالهجوم على مصر فى أكتوبر ١٩٥٦. وعندما اضطرت بريطانيا إلى الانسحاب مكسورة الجناح من بورسعيد فى ١٩٥٧، كانت قد أصبحت شيئًا مختلفًا تمامًا عما كانت عليه قبل يوليو ١٩٥٦.

هناك أوجه اختلاف مهمة بالطبع بين حالة الاقتصاد الأمريكى اليوم، وحالة الاقتصاد البريطانى فى ١٩٥٦، ولكن هناك أيضًا أوجه شبه مهمة. إن من الواضح للجميع منذ فترة لا تقل عن ربع قرن أن الاقتصاد الأمريكى يتراجع بالتدريج فى مركزه النسبى فى الاقتصاد العالمى باستخدام كل المؤشرات التى سبق ذكرها: نسبة الإنتاج الأمريكى إلى إجمالى الإنتاج العالمى، أو نسبة الإنتاج الصناعى، أو حجم الصادرات فى مجمل التجارة الدولية، أو نسبة الاستثمارات الأمريكية الخارجية إلى إجمالى الحركة الدولية لرؤوس الأموال. وهذا التدهور فى المركز النسبى مستمر ولا يبدو أن هناك أى سبب قوى للاعتقاد بإمكانية وقفه، فأسبابه ليست طارئة بل تتعلق بظروف عميقة تدور حول أهم محددات القدرة التنافسية.

ولكن أمريكا ترفض قبول هذه الحقيقة، وتتصرف كما لو كان من الممكن وقفها وقلبها إلى عكسها، وهى تأمر وتنهى حلفاءها وأصدقاءها وكأنها لاتزال هى وحدها المتربعة على عرش العالم، والقادرة على وضع رغباتها موضع التنفيذ، وإن كانت تصر دائمًا على أن يساهم هؤلاء الحلفاء والأصدقاء فى دفع أنصبتهم التى تحددها أمريكا دون استئذانهم فى تكاليف ما تقرر القيام به من أعمال.

شىء واحد مهم يميز بين الحالين، حال بريطانيا فى ١٩٥٦، وحال الولايات المتحدة فى ٢٠٠١، وهو بالطبع القوة العسكرية.



إن قراءة التاريخ تعلمنا درسًا كان يبدو ـ حتى الآن على الأقل ـ غير قابل للشك أو المناقشة، وهو أن المركز النسبى فى القوة العسكرية يتمشى دائمًا مع المركز النسبى فى القوة الاقتصادية، وأن الدولة التى يعتريها ضعف جذرى فى الاقتصاد لابد أن يعتريها، إن آجلاً أو عاجلاً، ضعف جذرى فى قدرتها على شن الحروب والانتصار فيها. وقد كان هذا واضحًا تمامًا عندما هاجمت بريطانيا مصر فى ١٩٥٦. لم يكن هناك شك فى أنها قادرة على أن تهزم مصر فى الحرب، ولكن كان من الواضح أيضًا أنها غير قادرة على الصمود أمام تهديد عسكرى من الاتحاد السوفيتى، ولا أن تستمر فى العناد إزاء الموقف الذى اتخذته الولايات المتحدة الذى كان أقل ما يمكن أن يوصف به هو «الميوعة». الأمر يبدو الآن مختلفًا تمامًا فيما يتعلق بالقدرة العسكرية للولايات المتحدة، إنها رغم ما أصاب مركزها النسبى فى الاقتصاد العالمى من تدهور، لازالت بلا منازع صاحبة أقوى قدرة عسكرية. فإذا كان التاريخ يكرر نفسه حقًا، فإن علينا أن نتوقع أن التفوق العسكرى للولايات المتحدة لابد إن عاجلاً أو آجلاً أن يذوى ويزول مع التدهور النسبى لقوتها الاقتصادية. ولكننا هنا قد نفاجأ بظاهرة جديدة تلقى بالشك على استمرار صحة ما سبق أن تعلمناه من التاريخ، وهو اعتماد القوة العسكرية فى نهاية الأمر على القوة الاقتصادية. وقد نتبين أن ما كان صحيحًا فى عصور سابقة، أو ما يمكن تسميته بعصر «الدولة القومية»، قد لا يكون صحيحًا تمامًا فى عصر «العولمة».

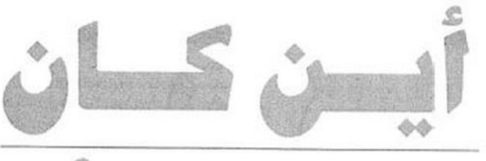
ذلك أن من الممكن جدًا أن تكون القوة الاقتصادية هى العامل الحاسم فى نهاية الأمر مادامت المصالح الاقتصادية الأساسية للدولة منحصرة داخل حدودها القومية. أما فى عصر العولمة، حيث تعتمد الدولة أكثر فأكثر على مصادر للثروة والدخل تقع خارج حدودها، فقد تكتسب القوة العسكرية درجة أكبر من الاستقلال، وتصبح أكثر قدرة على حسم المركز النسبى للدول فى العلاقات الدولية. بعبارة أخرى، قد يكون الأمر فى عصر العولمة أشبه بحالة ينتقل فيها مصدر ضخ الدم فى الجسم إلى مركز أو مراكز تقع خارج الجسم نفسه، وفى هذه الحالة تصبح القدرة على التحكم والسيطرة على هذه المراكز الخارجية «عن طريق القوة العسكرية» أكثر حسمًا من ذى قبل. وإذا بالانتصار النهائى يكون من نصيب من استطاع السيطرة على الأطراف، مهما كانت القوة النسبية للطلب القابع داخل الجسم.

إن هناك دلائل عديدة على أن الولايات المتحدة تحاول منذ أن أدركت ما بدأ يصيب مركزها الاقتصادى النسبى فى العالم من تدهور، أن تستخدم تفوقها العسكرى كوسيلة لإيقاف هذا التدهور وتحويل المسار إلى الاتجاه المعاكس، وذلك عن طريق التحكم فى بعض مراكز ضخ الدم الأساسية فى اقتصاديات الدول المنافسة، وعلى الأخص أوروبا واليابان، والواقعة خارج حدود هذه الدول. فهى تستخدم تفوقها العسكرى «وما ترتب عليه من علاقات خاصة مع الدول العربية المنتجة للبترول» فى التأثير على حجم إنتاج البترول وأسعاره، بل وفى الجلوس على منابعه، كما حدث نتيجة لحرب الخليج فى أعقاب هجوم صدام حسين على الكويت، كما تستخدم هذا التفوق العسكرى للحصول على تنازلات اقتصادية مهمة من منافسيها، كلما دارت جولة من جولات التفاوض حول الترتيبات الاقتصادية للعالم.

إن هذا الاستخدام للقوة العسكرية لتحقيق مكاسب اقتصادية ليس شيئًا جديدًا بالطبع، فالحروب الاستعمارية كانت دائمًا صورة من صور هذا الاستخدام، ولكن الراجح أنه فى عصر العولمة يصبح هذا الاستخدام ممكنًا بل وضروريًا بدرجة أكبر بكثير مما كان فى الماضى، حيث يصبح اقتصاد كل دولة من الدول الكبرى أكثر اعتمادًا من أى وقت مضى على مراكز تقع خارج حدودها.

لم يكن الحال كذلك فى ١٩٥٦، ومن ثم اضطرت بريطانيا للانكماش عسكريًا بمجرد أن انكمشت اقتصاديًا. أما الولايات المتحدة الآن فهى تحاول أن تستخدم التوسع العسكرى كوسيلة لوقف انكماشها الاقتصادى، وقد جربت هذا عدة مرات خلال الثلاثين عامًا الماضية ونجحت فيه بدرجة ملحوظة. وهى لا تفعل هذا لمجرد صد الهجوم الاقتصادى الذى تمارسه دول عريقة فى التصنيع وأثبتت قدرتها المتزايدة على منافسة الاقتصاد الأمريكى، كأوروبا واليابان، بل تفعله أيضًا لصدّ أى هجوم اقتصادى متوقع فى المستقبل من جانب دول تشير كل الدلائل على سرعة تحوّلها إلى مصدر خطر حقيقى على الولايات المتحدة، وعلى الأخص الصين.

لابد إذن أن نقول إنه على الرغم من أوجه الشبه المهمة بين حالة الولايات المتحدة الآن وحالة بريطانيا فى ١٩٥٦، فلا يجوز أن نستنتج بسهولة أن القصة الحالية سوف تنتهى بالولايات المتحدة إلى مثل ما انتهت به قصة ١٩٥٦ من انحسار لقوة عظمى. فحتى لو كانت هذه هى بداية أفول عصر الهيمنة الأمريكية، فالأرجح أن هذه القصة، بعكس القصة البريطانية، لازال فيها فصول كثيرة لم نقرأها بعد، بل ولا يمكن حتى التكهن بما فيها. ■



الـ «سـى آى إيـه»
وفشـل الاسـتخبارات الأمريكيـة

سـيمور هيـرش

بعد أسابيع من التحقيقات التى تجرى على مدار الساعة بشأن الهجمات التى وقعت على مركز التجارة العالمى والبنتاجون، لا يزال مجتمع الاستخبارات الأمريكى يعانى من الارتباك والانقسام وعدم اليقين بخصوص الطريقة التى نفذ بها الإرهابيون عملهم، وكم كان عددهم، وما قد يقومون به مستقبلاً. وذكر مسئولون حكوميون أن عدم وجود هذه المعلومات الوثيقة كان العامل الأساسى وراء قرار حكومة بوش بتأخير إصدار الكتاب الأبيض الموعود الذى يتضمن الأدلة التى تربط تنظيم أسامة بن لادن بالهجمات.

وهناك إجماع داخل الحكومة بشأن قضيتين: فقد خُططت الهجمات الإرهابية ونُفذت بقدر كبير من الذكاء والترتيب، ولم يكن مجتمع الاستخبارات مستعداً بأية صورة من الصور لمنعها. وذكر المسئولون أن أحد الضحايا البيروقراطيين قد يكون جورج تينيت مدير وكالة الاستخبارات المركزية (سى آى إيه)، الذى يعتبر كثيرون فى الحكومة استقالته أمراً محتوماً. وقال لى مسئول رفيع المستوى: «إن النظام يلاحق تينيت، فهو يريد التخلص منه».

والمحققون منقسمون فى الوقت الراهن إلى فريقين. فالفريق الذى يتركز فى مكتب التحقيقات الفيدرالى (إف بى آى) يعتقد أنه ربما لم يكن الإرهابيون «مجموعة متماسكة» - كما وصفهم أحد المشاركين فى التحقيقات - قبل أن يبدأوا التدريب والعمل معاً من أجل هذه العملية. كما قال إن «هؤلاء الرجال يشبهون فريق كرة سلة جرى تجميع أفراده قبل المباراة. فهم حفنة من الرجال تلاقوا معاً». ومازال مكتب التحقيقات الفيدرالى يحاول تحديد هويات المختطفين وخلفياتهم. والحقيقة كما يعترف بها هذا المسئول هى: «إننا لا نعرف الكثير عنهم».



ويشك هؤلاء المحققون أن يكون الفريق الانتحارى محظوظاً وحسب. وتساءل ذلك المسئول قائلاً: «فى أكثر أحلامك غرابة، هل تعتقد أنهم كانوا يظنون أنهم قادرون على إنجاز أربع عمليات اختطاف؟» وأضاف قائلاً: «إن الاستيلاء على طائرة واحدة والهبوط بها على الأرض يعد نجاحاً. ولا وجود للإنسان الخارق (السوبرمان)». وأوضح المسئول أن أهم ميزة تمتع بها المختطفون، إلى جانب عنصر المفاجأة، هى التاريخ: ففى الماضى كان الحال ينتهى بالمختطفين سالمين على الأرض فى أحد مطارات العالم الثالث، ولذلك درّب الطيارون على أن يتعاونوا.

أما الرأى الآخر الذى يتركز فى البنتاجون ووكالة الاستخبارات المركزية فيرى أن المختطفين أمضوا سنوات فى التخطيط والتدريب قبل العملية، على أن تعقب ذلك حملة



تضليل متعمدة. وقال أحد المسئولين إن «هؤلاء الرجال كانوا فوق مستوى أجهزة رادار الجميع - إنهم محترفون. لم يكن هناك أكثر من خمسة أو ستة أفراد فى الخلية الواحدة. ثلاثة يعرفون الخطة، والثلاثة الآخرون لا يعرفونها. لقد كانوا نائمين هناك منذ سنين وسنين». وذكر لى مخطط عسكرى أن كثيرين من زملائه يعتقدون أن الإرهابيين «هبطوا إلى الأرض وقطعوا أسلاك التليفون» قبل الحادى عشر من سبتمبر بكثير - وهو ما يعنى أنهم أخفوا آثار أنشطتهم. وهناك اعتقاد على نطاق واسع بأن الإرهابيين كان لهم فريق مساعد، ويُنظر إلى عدم تمكن مكتب التحقيقات الفيدرالى من تتبع آثار المتآمرين الذين خلّفوا فى الولايات المتحدة على أنه دليل آخر على التخطيط المحكم. وقال شخص على صلة بالتحقيقات إنه «لو كان الأمر من البساطة والوضوح بحيث يمكن اعتباره عملية غريبة لن تتكرر، لما نثرت بذور الارتباك بالصورة التى نثرت بها».

ويعتقد الكثير من المحققين أن العثور على بعض الأدلة المبدئية التى جرى الكشف عنها بخصوص هويات الإرهابيين واستعداداتهم، مثل كتب الطيران، كان متعمداً. وأبلغنى مسئول سابق رفيع المستوى فى الاستخبارات أنه «أياً ما كان الدليل الذى تُرك فقد تُرك عمداً - لكى يجرى وراءه مكتب التحقيقات الفيدرالى».

وفى مقابلات أجريت على مدى الأسبوعين الماضيين، أثار عدد من مسئولى الاستخبارات أسئلة حول قدرات بن لادن. فقد قال أحدهم بوكالة الاستخبارات المركزية: «أيجلس هذا الرجل فى كهف من كهوف أفغانستان ويدير هذه العملية؟ إنه أمر شديد الضخامة، وما كان له أن يقوم به بمفرده». وأخبرنى ضابط كبير بالجيش أنه بما أن تأشيرات الدخول وغيرها من الوثائق لازمة لتسريب أفراد الفريق إلى داخل الولايات المتحدة، فقد يكون هناك جهاز استخبارات أجنبى كبير شارك كذلك فى العملية. وأضاف المسئول قائلاً إنه «لكى تجعل شخصاً ما يقود طائرة - لكى يقتل نفسه - فلا بد أن إنساناً ما دفع لعائلته مبلغاً ضخماً جداً من المال».

وقال لى مسئول بوزارة العدل إنه «ليس بالضرورة أن يكون هؤلاء الناس جميعاً من طرف بن لادن». وأضاف أن مكتب التحقيقات الفيدرالى لا يزال غارقاً فى بحر من المعلومات، ثم قال: «ما زلنا نستخلص الكثير من الأشياء». وفى الثالث والعشرين من سبتمبر قال وزير الخارجية كولين باول فى مقابلة أجريت معه: «سوف نضع أمام العالم والشعب الأمريكى قضية مقنعة». كما أوضح أن بن لادن مسئول عن الهجمات. إلا أن المسئول بوزارة العدل ذكر أن الكتاب الأبيض المنتظر قد لا ينشر، لعدم وجود حقائق قوية. وقال: «ليس هناك ما يكفى لإتمام الأمر».

وبررت الحكومة التأخير بما أبلغته للصحافة من أن معظم المعلومات محظورة ولا يمكن نشرها. إلا أن مسئولاً كبيراً بوكالة

يعتقد الكثير من المحققين أن العثور على بعض الأدلة المبدئية التى جرى الكشف عنها بخصوص هويات الإرهابيين واستعداداتهم، مثل كتب الطيران، كان متعمداً. وأبلغنى مسئول سابق رفيع المستوى فى الاستخبارات أنه «أياً ما كان الدليل الذى ترك فقد ترك عمداً. لكى يجرى وراءه مكتب التحقيقات الفيدرالى»

الاستخبارات المركزية أكد فى الأسبوع الماضى أن مجتمع الاستخبارات لم تتكون لديه بعد كمية كبيرة من المعلومات الوثيقة بشأن عمليات الإرهابيين وتمويلهم وتخطيطهم. وأضاف المسئول: «سوف نعلم فى يوم من الأيام، ولكننا لا نعلم شيئاً فى الوقت الراهن».

وأضاف هذا المسئول: «بالنسبة لى فإن أفظع شيء هو أن هؤلاء الرجال» - الإرهابيين - «حصلوا على الأولى مجاناً. فقد كانوا يعرفون أن أسلوب التشغيل المعيارى فى خطف الطائرات هو اللعب من أجل الحصول على الوقت. وكانوا متأكدين من انه بعد ذلك سيتحسن الأمن على الطائرات إلى حد كبير. ولذلك فمهما كان ما خططوه من أجل الدورة التالية، فقد كان كل شيء أمامهم فى موضعه الصحيح».

والتخوف من وقوع هجوم ثان أمر ردده آخرون يشاركون فى التحقيقات. وفى الوقت الراهن يشك البعض فى مكتب التحقيقات الفيدرالى فى أن الإرهابيين يتبعون خطة حربية وضعها المتآمر المدان رمزى أحمد يوسف، الذى يعتقد أنه كان العقل المدبر لتفجير مركز التجارة العالمى سنة ١٩٩٣ وكان يوسف مشاركاً فى الخطط التى كانت تطالب، ضمن ما طالبت به، بإطلاق السموم فى الجو وتفجير الأنفاق التى تربط نيويورك بنيوجيرسى. وكانت قضية يوسف وراء زيادة مخاوف الحكومة من التهديد المحتمل من شاحنات نقل النفايات الخطرة.

وطرح جنرال كبير سؤالاً استنكارياً هو: «هل سيقومون بعمليات كيماوية بيولوجية خلال عام أو عامين أو ثلاثة أعوام؟ يجب علينا الآن إجراء تحول صعب من الاعتماد على فرض القانون إلى شن هجوم وقائى. وهذا أمر صعب. إذ هل يمكننا تجنيد ما يكفى من الأشخاص الأكفاء؟» كما قال: «فى السنوات الأخيرة كنا نوظف أولاداً من خريجى الجامعات العباقرة فى استخدامات الكمبيوتر. أما هذا الأمر فيقتضى العودة إلى العمل القذر الصعب، مع وجود أشخاص أقوياء يغوصون فى أعماق الحوارى المظلمة ويتمتعون بقدرات جيدة».



إن وكالة الاستخبارات الحالية لا يمكنها القيام بهذا العمل. فمنذ انهيار الاتحاد السوفيتى فى عام ١٩٩١ والوكالة تزداد بيروقراطية وعدم استعداد للمخاطرة، وهى ترقى الضباط الذين يشاركونها هذه القيم. (ويقول ضابط سابق إنه «الوعى بالنوع».) وهى تقلل باطراد اعتمادها على الاستخبارات التى يقوم بها بشر فى الخارج وخفضت أعداد ضباط الحالات فى الخارج - وهم أعضاء الجهاز السرى الذى يعرف رسمياً الآن بإدارة العمليات ومهمتهم تجنيد الجواسيس. (وكان يسمى من قبل إدارة «الحيل القذرة».) وبدلاً من ذلك تعتمد الوكالة على علاقات الاتصال - وهى التقارير التى ترد إليها من أجهزة الاستخبارات وإدارات الشرطة الصديقة فى أنحاء العالم - وعلى أنظمة جمع المعلومات الفنية.

وليس من السهل إعادة العملاء من جديد إلى الميدان. فخلال الحرب الباردة، كانت أهم مهام وكالة الاستخبارات المركزية هى تجنيد جواسيس من داخل السلكين العسكرى والدبلوماسى فى الاتحاد السوفيتى. وكان عملاء الوكالة يكلفون بالعمل باعتبارهم موظفين دبلوماسيين أو ثقافيين فى السفارات الأمريكية فى المدن الكبرى، وكان الكثير من عملهم يمكن أداؤه فى الحفلات الدبلوماسية وغيرها من المناسبات الاجتماعية. وبالنسبة للعميل الذى يعمل تحت ذلك الغطاء، لم تكن عاقبة انكشاف أمره تزيد فى العادة على طرده من الدولة المضيفة وإعادة تكليفه مؤقتاً بالعمل المكتبى فى واشنطن. أما اليوم ففى أفغانستان أو أى مكان من الشرق الأوسط أو جنوب آسيا، فإن عميل وكالة الاستخبارات المركزية لا بد أن يتحدث اللغة المحلية ويكون قادراً على الاختلاط بالناس. وينبغى ألا يبدو على العميل أن له علاقة بالأمريكيين أو بالسفارة الأمريكية، إن كانت هناك سفارة. ويعرف هذا الوضع داخل الوكالة باسم «الغطاء غير الرسمى». وانكشاف أمر العميل قد يعنى الموت.

ومن المحتمل أنه لا وجود لمثل هذا الضابط المفرد الذى يعمل اليوم داخل الدوائر الأصولية الإسلامية. وفى مقال نشر العام الماضى فى «أطلانتك منثلى»، نقل رول مارك جيريشت، الذى عمل لمدة عشر سنوات تقريباً ضابط حالات بقسم الشرق الأدنى بوكالة الاستخبارات المركزية، عن أحد رجال الوكالة قوله «إن معظم ضباط الحالات بوكالة الاستخبارات المركزية يقيمون فى ضواحى فيرجينيا. إننا لا نقوم بهذا النوع من العمل». وقال ضابط آخر لجيريشت إن «العمليات التى تنطوى على الإسهال كأسلوب حياة لا تحدث».

وفى الوقت ذاته أضيرت إدارة العملية ضرراً بالغاً من جراء سلسلة من الاستقالات والتقاعدات بين أصحاب المناصب الكبيرة، بمن فيهم أربعة رجال أسماؤهم غير معروفة كثيراً للجمهور، ولكنهم كانوا يلقون احتراماً كبيراً داخل الوكالة: وهم دوجلاس سميث، الذى أمضى واحداً وثلاثين عاماً فى الجهاز السرى؛ وويليام لوفجرين، الذى كان عند تقاعده سنة ١٩٩٦ رئيساً لقسم وسط أوروبا؛ وديفيد مانرز، الذى كان رئيس مركز فى عمان بالأردن عندما ترك الوكالة سنة ١٩٩٨؛ وروبرت بير، الذى يتحدث العربية وربما كان يعد أفضل ضابط ميدانى فى الشرق الأوسط. وقد غادروا جميعاً الوكالة ولديهم إحساس بالمرارة بسبب أساليبها فى إدارة العمليات السرية.

وقال لى ضابط سرى كبير سابق: «لن نحل قضية الإرهاب إلا بعد أن نعيد تشكيل إدارة العمليات. وخط الدفاع الأول وأهم خطوط الدفاع هو الاستخبارات التى يقوم بها بشر».

وقال بير الحاصل على وسام العمل الاستخباراتى بعد استقالته فى أواخر ١٩٩٧: «قد لا تصدق مدى سوء الحال. الذى أنقذ البيت الأبيض من الرحلة ٩٣» - الطائرة التى سقطت فى بنسلفانيا - «مجموعة من لاعبى الرجبى. هل هذا ما تدفع ثلاثين مليار دولار من أجله؟» وكان يشير بذلك إلى الميزانية الفيدرالية الخاصة بالاستخبارات. ولم يندهش هو وزملاؤه من أن مكتب التحقيقات الفيدرالى لم يتلق تحذيراً من الهجوم. وقال أحد رجال الوكالة: «المكتب رائع فى حل الجرائم بعد أن ترتكب. ولكنه لا يجيد الاختراق. ولا بد أن نقوم نحن به».

واليوم ليس لدى وكالة الاستخبارات المركزية ضباط الحالات المؤهلون كى يديروا مراكزها وقواعدها الكثيرة فى أنحاء العالم. وقد أعيد اثنان من عملائها المتقاعدين على أساس تناوبى كى يتوليا مسئولية قاعدة صغيرة فى كراتشى بباكستان، وهى نقطة محورية بالنسبة للنشاط الإرهابى. (كانت كراتشى المكان الذى قتل فيه سنة ١٩٩٥ أمريكيان أحدهما موظف فى وكالة الاستخبارات المركزية، بزعم الانتقام من إلقاء القبض على رمزى أحمد يوسف فى باكستان.) كما يدير عميل متقاعد مركزاً أكبر لوكالة الاستخبارات المركزية فى دكا ببنجلاديش، وهى دولة مسلمة يمكن أن تكون مصدراً للمجندين. ويدير كذلك متقاعدون آخرون مراكز فى أفريقيا.



والسؤال الصعب هو ما المدى الذى ينبغى أن تصل إليه وكالة الاستخبارات المركزية. وفى مقابلة مع اثنين من ضباط العمليات السابقين ذكرا التكتيكات التى استخدمها جهاز الأمن الأردنى فى مسعاه الناجح للإيقاع بأبى نضال، الذى كان يقود ما كانت تعرف وقتها بأنها «أخطر منظمة إرهابية فى الوجود»، حسبما قالته وزارة الخارجية. وكانت جماعة أبى نضال معروفة بدورها فى هجومين دمويين بالمدافع الرشاشة والقنابل على مكاتب مراجعة الركاب التابعة لشركة الطيران الإسرائيلية العال فى مطارى روما وفيينا فى ديسمبر ١٩٨٥. وكان أبو نضال يهدد حياة عاهل الأردن الملك حسين - الذى كان يطلق عليه «الملك القزم» - وكان رد الملك عليه، طبقاً لما ذكره ضابطا الاستخبارات السابقان، هو أن قال لجهازه الأمنى: «هاتوه».

ولم يتحرك الأردنيون مباشرة فى اتجاه المتهم أبى نضال، وإنما ألقوا القبض على أفراد عائلته المقربين - الأمهات والأخوات. وأمكن التوصل إلى المتهم أبى نضال وأعطى تليفوناً وطلب منه أن يتصل بأمه التى قالت له، حسب ما رواه أحد رجال وكالة الاستخبارات المركزية: «يا بنى، سوف يهتمون به ما لم تفعل ما يطلبونه منك». (وأضاف المسئول بدقة إن كل المتهمين، حسب معلوماته، وافقوا على الكلام قبل أن يصاب أى من أفراد عائلاتهم بأذى). وفى بداية التسعينيات، أصيبت الجماعة بالشلل بسبب الانشقاق الداخلى ولم تعد منظمة إرهابية ذات أهمية. (ويعتقد أن أبى نضال، وهو الآن فى العقد السابع من عمره ويعانى من اعتلال صحته، يعيش عيشة هادئة فى مصر). وأضاف المسئول أن «الأردن هى الدولة التى نجحت نجاحاً تاماً فى اختراق الجماعة. فعليك أن تسيطر على عائلات أفرادها».

وهذه الإجراءات تتعارض مع القاعدة القانونية الأمريكية، وأساليب وكالة الاستخبارات المركزية، ولكن المسئول أصر أنه عندما يتعلق الأمر بأسامة بن لادن والمتواطئين معه فما من بديل سوى ذلك. كما قال: «نحن مضطرون لذلك - أن نوقعهم الواحد تلو الآخر. فهل نحن جادون بشأن القضاء على المشكلة - وليس قضاء الوقت فيما لا طائل من ورائه؟»

وبعد بضعة أيام من الهجمات، دافع نائب الرئيس ديك تشينى عن مدير وكالة الاستخبارات المركزية جورج تينيت على شاشة التليفزيون قائلاً: إن الأمر سيصبح «مأساة» إن نحن بحثنا عن «كباش فداء». وأضاف الرئيس بوش بعد ذلك بادرة تأييد بزيارته مقر وكالة الاستخبارات المركزية. وفى مقابلة أجريت مع أحد كبار المسئولين بالوكالة فى الأسبوع الماضى دافع كذلك عن تينيت. فقد قال لى: «نعرف أن هناك انتقادات كثيرة بعد ما جرى، إلا أن الناس لا يفهمون الظروف التى ورثها جورج. فإنك لا يمكن أن تخترق خلية تضم ستة رجال عندما يكونون إخوة وأولاد عم. - مهما كان مقدار ما تعرفه من أوردو». ورغم اعتراف المسئول بعدم الرضا الشديد عن أداء وكالة الاستخبارات المركزية، فقد قال إن «جورج لم يتلق أى كلام خلاف ثقة الرئيس التامة فيه. ولا يمكن أن يستقيل جورج فى وضع كهذا».

ومع ذلك فقد أبلغنى مسئولون آخرون أن أيام تينيت معدودة. إذ قال لى أحد المسئولين إنهم «أبلغوه أنه فى سبيله إلى الخروج. وهو يحاول أن يحسب المسألة - إما الخروج بهدوء أو جعل الأمر يبدو وكأنهم فصلوه». وفسر أحد مستشارى البيت الأبيض تأييد تشينى العلنى لتينيت بقوله: «فى واشنطن يطعنك أصدقاؤك دائماً فى الصدر. فلا بد أن يلقى اللوم فى ذلك على شخص ما». وأضاف أنه يدرك أنه «بعد فترة مناسبة - أى حينما يحصلون على بعض النفوذ بشأن المشكلة - سوف يرحل. وسمعت أن هذه الفترة تتراوح بين ثلاثة وستة أشهر». بل إن أحد أصدقاء تينيت المقربين قال لى إنه «بات فى خبر كان».

وقد أضر موقف تينيت أكثر، بعد الحادى عشر من سبتمبر، ما ثبت أنه سلسلة من الادعاءات المتفائلة بشأن فاعلية مركز مناهضة الإرهاب التابع لوكالة الاستخبارات المركزية، الذى أنشئ سنة ١٩٨٦ فى أعقاب موجة من

أين كان الخطأ؟

التفجيرات واختطاف الطائرات وخطف الأفراد في أنحاء العالم. وكانت الفكرة وراء ذلك هي تجميع الخبراء من كل هيئة شرطة أمريكية، بما في ذلك المباحث، في «مركز اندماجي» يقوم بتنسيق المعلومات الاستخبارية الخاصة بالإرهاب. وفي أكتوبر ١٩٩٨، وبعد الإشارة إلى أربعة رجال على صلة بن لادن على أن لهم دوراً في التفجيرات التي وقعت في السفارتين الأمريكيتين في تنزانيا وكينيا، قام صحفيون تابعون لمجلة «نيوزويك» بجولة في المركز. وذكرت «نيوزويك» أن الاتهامات «كان يقصد بها أن تكون رسالة واضحة إلى بن لادن وأتباعه الهاربين: وهي أن الولايات المتحدة تعرف حقيقتهم وأين هم. ...وقصة الطريقة التي تعاونت بها وكالة الاستخبارات المركزية ومكتب التحقيقات الفيدرالي - وكانا في يوم من الأيام خصمين بيروقراطيين لدودين - للإيقاع بشبكة بن لادن المراوغة حكاية من حكايات أحدث ما توصل إليه فن تعقب الجناة، وليست سوى مجرد ضربة حظ».



ولكن الواقع أن مركز مناهضة الإرهاب لم يكن مصرحاً له بتجنيد العملاء في الخارج أو التعامل معهم - فقد كانت تلك مهمة إدارة العمليات ومراكزها في الشرق الأوسط التي كانت لها أولوياتها. وجرى تدعيم مركز مناهضة الإرهاب بالمزيد من الأموال والمزيد من الطاقة البشرية بعد تفجير مركز التجارة العالمي سنة ١٩٩٣، ولكنه ظل وحدة خلط أوراق ليس مطلوباً من ضباطها أن يكونوا خبراء في اللغات الأجنبية. وأبلغني الكثير من رجال وكالة الاستخبارات المركزية القدامى أنه رغم كبر مكانة مركز مناهضة الإرهاب فلم يكن العمل فيه يتم بناء على اختيار أى ضابط صغير أو طموح من ضباط إدارة العمليات. فقد كان مركز مناهضة الإرهاب ومركزان آخران من مراكز الاستخبارات الكبيرة - التي تتناول قضايا المخدرات ومنع انتشار الأسلحة النووية - تستنفد طاقاتها إلى حد كبير للحرب التي يرى المحللون المهنيون أنها تحول دون أدائها لوظائفها. وذكر مدير كبير تقاعد مبكراً وكانت مهمته الأخيرة هي إدارة أحد هذه المراكز أنها «جميعاً تتحارب فيما بينها. وليس هناك تركيز على القضايا».

وفي سنة ١٩٨٦ اختير روبرت بير، وكان ضابط حالات وصل للتو من الخرطوم، ليعمل في مركز مناهضة الإرهاب، بعد شهور قليلة من إنشائه. وكان صاحب الاختيار مديره دوان (ديوى) كلاريدج. وتصور مسودة مذكرات كتبها بير وتنشرها دار كراون هذا الخريف ما حدث بعد ذلك:

كانت الشهور القليلة الأولى أشد ما تكون إثارة بالنسبة للدخول في عالم الجاسوسية. وكانت لدى ديوى السلطة لكي يفعل ما يشاء بالإرهابيين. وكان لديه ما يريد من المال. ...ولكن لم يمض وقت طويل حتى أتت سياسة الاستخبارات على كل ما أراد ديوى أن يفعله. ...كان الأمر ينطوى على قدر كبير من المخاطر. وكانت العملية الفاشلة - أو حتى الناجحة - تغضب إحدى الحكومات الأجنبية الصديقة. وكان البعض يطرد من منصبه المريح. بل كان البعض مصيره القتل. ...

قد تطلب من مركز وكالة الاستخبارات المركزية في بون تجنيد عدد قليل من العرب أو الإيرانيين لتعقب الجالية المهاجرة الشرق أوسطية في ألمانيا الغربية، فيأتي الرد بأن ليس لديه ما يكفي من الضباط. وقد تطلب من بيروت أن تقابل عميلاً معيناً مسافراً إلى لندن، فترفض بسبب مشكلة أمنية ما. لم يكن الأمر سوى إخفاق روتيني، ولكنه خرّب كل ما سعى ديوى إلى تحقيقه. وبعد ستة أشهر، استطاع ديوى أن يضع يده على اثنين فقط يتحدثان العربية - أنا وضابط آخر.

واشتكى كثيرون من مجتمع الاستخبارات، أثناء محادثاتهم معي، مر الشكوى من مدى صعوبة العمل مع إدارة العمليات، حتى في وقت الأزمة. فقد قال لي عالم كبير سابق إنه «لكي تعكف على مشكلة ما مع إدارة العمليات، لا بد أن تكون داخل إدارة العمليات». وبالمثل تمكن مراقب برلماني لوكالة الاستخبارات المركزية من إدراك سلطة إدارة العمليات البيروقراطية. فقد قال إنه «لكي تنجح كمدير للاستخبارات المركزية، لا بد أن تتقرب لإدارة العمليات». وذكرت لي مصادر استخبارية أخرى أن مؤامرات إدارة العمليات أدت في وقت من الأوقات إلى صراع مع وكالة الأمن القومي بشأن من الذى يسيطر على جهاز جمع المعلومات الخاص، وهو مشروع مشترك للوكالتين ينشر فرق المتخصصين الالكترونيين في أنحاء العالم لرصد الاتصالات الدبلوماسية وغيرها من الاتصالات في أوقات الأزمات. وعادة ما تدار عمليات جهاز جمع المعلومات الخاص شديدة السرية، التي أفرزت بعض أقيم معلومات الحرب الباردة، من مواقع مأمونة داخل السفارات الأمريكية. وكانت الكفاءة والتقدم يعوقهما قدر كبير من التشاجر. وأبلغني رجل عسكرى شارك عام ١٩٩٨ في عملية جمع معلومات استخبارية من خلال الإشارات اللاسلكية في الشرق الأوسط أنه لم يكن يمكنه مناقشة النشاط مع ممثلي وكالة الاستخبارات المركزية ووكالة الأمن القومي في وقت واحد. وقال ذلك الضابط: «كنت ألتقى بأحدهما في منزل مأمون في فرجينيا، وآخذ فترة راحة للغداء، ثم ألتقي بالآخر. فما كانا ليتواجدان في غرفة واحدة».

وإذا لم تؤد الأزمة الحالية إلى إصلاح الوكالة، فإنه من غير المحتمل أن تقدم لجنتا الاستخبارات في مجلسي النواب والشيوخ أى عون. وقد التقى لوفيجرن وسميث ومانرز وبير وغيرهم مراراً مع أعضاء المجلسين ومع العاملين معهم وقدموا شهاداتهم أمام الكونجرس في مسعى منهم لإحداث تغييرات. ولكن شيئاً لم يحدث.

وليس مستغرباً أن كلاً من الديمقراطيين والجمهوريين لديهم تفسيرات مختلفة للخطأ الذى وقع. فقد ذكر أحد العاملين الجمهوريين باللجنة أن السناتور ريتشارد شيلبي من ألاباما، الذى كان رئيساً للجنة حتى أوائل العام الحالي، أدرك أن المشكلة تكمن في قيادة الوكالة. كما قال إن «لدينا رجالاً في الميدان لديهم أفكار عظيمة لا يلقون دعماً من المؤسسة». وأضاف أن أحداً من كبار الديمقراطيين لا يرغب في إحراج المدير جورج تينيت عن طريق إجراء بحث أو عقد جلسات استماع للتحقيق في الشكاوى العديدة. (وكان تينيت قد أمضى سنوات في العمل مع الديمقراطيين ضمن العاملين باللجنة، وخدم كعضو في مجلس الأمن القومي وفي حكومة كلينتون قبل أن ينضم إلى فريق إدارة وكالة الاستخبارات المركزية.)

إلا أن أحد الديمقراطيين يلقى باللوم على سير العمل داخل لجنة مجلس الشيوخ، التي قال إنها تهمل الإرهاب لمصلحة القضايا الأكثر شحناً من الناحية السياسية. «كان تينيت يبلغ عن بن لادن منذ سنوات، ولكننا لم نكن من التنظيم بحيث نضع في اعتبارنا التهديدات التي تتعرض لها الولايات المتحدة. إننا نجرى وراء ما تذيعه نشرات الأخبار في الوقت الراهن».

والسناتور السابق بوب كيرى من نبراسكا، الذى خدم لأربع سنوات كبيراً للأعضاء الديمقراطيين في اللجنة ويعمل حالياً رئيساً للمدرسة الجديدة بنيويورك، هو أحد المدافعين عن تينيت. إلا أن كيرى يعترف كذلك بأنه لم يعد يعرف «مدى إجادتنا لعملنا» الخاص بالقصور التشريعي. «ولا يمكن لأحد أياً ما كان أن ينجو من هذا. لقد فاتنا هنا شيء ما».

ومازال كيرى غاضباً بشأن سياسة الولايات المتحدة تجاه أفغانستان في السنوات التي تلت هزيمتها للاتحاد السوفيتي. فقد قال كيرى: «لقد انتهت الحرب الباردة وأغلقنا أفغانستان» - أى أوقفنا كل العمليات الاستخبارية فيها. «وما حدث منذ بوش إلى كلينتون واحد من أكثر قرارات السياسة الخارجية الأمريكية إثارة للارتباك، وهو مثل فيتنام في سوئه». وقد تحدث عن مؤامرة فاشلة قامت بها وكالة الاستخبارات المركزية سنة ١٩٩٦ للإطاحة بالرئيس العراقي صدام حسين: «وقمنا كذلك بعملية عراقية غير مكتملة النضج، فكانت بذلك إشارة إلى أننا لسنا جادين».

وفي شهر يونيو الماضي، أبلغ شيلبي مندوب الواشنطن بوست، بعد جولة في الخليج الفارسي وسلسلة من الإفادات الاستخبارية، أن بن لادن «هارب، وأظن أنه سيظل هارباً، لأننا لن نكل ولن نمل». ومضى يقول: «لا أظن أنه يمكنك القول بأنه غل أيدينا. فأنا أعتقد أن يديه مغلولتان أكثر». إلا أن شيلبي كان بعد التفجيرات بين أول من رأوا علناً أن الوقت قد حان لكي يرحل تينيت. فقد قال لصحيفة يو إس إيه توداى: «أظن أنه رجل طيب، وأنه فعل بعض الأشياء الطيبة، إلا أنه كانت هناك مرات كثيرة أخفق فيها خلال الفترة التي أمضاها في منصبه». كما قال إن تينيت تنقصه «المكانة التي تجعله يسيطر على كل الوكالات. فهو من ناحية يتحمل المسئولية، ولكنه في واقع الأمر ليس مسئولاً».

ويقول صديق قديم وزميل لتينيت إن رفضه دفع قيادات مجلس الشيوخ إلى التعامل مع القضايا الصعبة كان عرضاً لمشاكله كمدير لوكالة الاستخبارات المركزية. وقال ذلك الشخص عن تينيت إنه «سياسي كذلك. وهذا هو السبب في أنه لا ينبغي له أن يكون في هذا الموقع، لأنه ليست له تلك المكانة التي تجعله يقول لأعضاء مجلس الشيوخ إنكم لا تعرفون ما تتحدثون عنه».



ويصف روبرت بير في مذكراته «الوعكة القاتلة» التي ألمت بمركز باريس التابع لوكالة الاستخبارات المركزية في أوائل التسعينيات قائلاً إنه «لم يكن ضباط الحالات يجندون عملاء جددا. وكان العملاء المسجلون بالفعل متقدمين في العمر. وكانوا قد فقدوا اتصالاتهم. ولم يكن يبدو أن هناك من يهتم». وصدم كثيرون في الوكالة في أوائل ١٩٩٢ عندما أبلغ ملتون بيردن رئيس قسم شرق أوروبا والاتحاد السوفيتي - وقام كذلك بدور كبير في دعم وكالة الاستخبارات المركزية للمتمردين الأفغان في الحرب الوحشية ضد الاتحاد السوفيتي - مراكزه في الخارج أن روسيا سوف تعامل الآن كأى دولة صديقة أخرى مثل ألمانيا وفرنسا. ولم تعد وكالة الاستخبارات المركزية تقوم بتجنيد عملاء للتجسس على الروس. كما أغلقت إدارات المراقبة بوكالة الاستخبارات المركزية ورفعت أجهزة التنصت من أنحاء الشرق الأوسط وأوروبا. وقال مسئول متقاعد:



قال أحدهم بوكالة الاستخبارات المركزية:
«أيجلس هذا الرجل في كهف من كهوف أفغانستان ويدير هذه العملية؟
إنه أمر شديد الضخامة،
وما كان له أن يقوم به
بمفرده»



«لن نعرف أبداً الخسائر التى تعرضنا لها فيما يتصل بعدم الاستفادة من انهيار الاتحاد السوفيتى». كما رُد ضباط سوفييت سابقون رفيعو المستوى لديهم معلومات استخبارية أو غيرها من المعلومات. «لقد رد جواسيس متبرعون على أعقابهم. وكان ذلك أمراً يدعو للدهشة، وحسبما أعلم فلم يقاومه أحد».



وتغير الموقف بعض الشىء عندما تولى كلينتون السلطة سنة ١٩٩٣ وفى ذلك الوقت كان بير مكلفاً بالعمل بناء على طلبه فى موقع صغير متقدم لوكالة الاستخبارات المركزية فى دوشنبه بطاجيكستان القريبة من الحدود الأفغانية، وكان يراقب عاجزاً الأصوليين الإسلاميين الذين تدعمهم السعودية - وهم طلائع طالبان - وهم يعززون قواعد التدريب ويجندون المؤيدين ويجرون العمليات داخل حدود الاتحاد السوفيتى السابق.

وفى سنة ١٩٩٥ انتُقدت الوكالة انتقاداً كبيراً بعد الأخبار التى قالت إن مصدراً يتقاضى أجراً فى جواتيمالا تورط فى مقتل صاحب فندق أمريكى وزوج محامية أمريكية جواتيمالاى. وكان اسم ذلك المصدر قد ظل ضمن كشوف رواتب وكالة الاستخبارات المركزية رغم معرفة إدارة العمليات لأنشطته. ورد جون دويتش، ثالث مدير لوكالة الاستخبارات المركزية خلال ثلاث سنوات، على تلك الانتهاكات وعلى الغضب العام بإصداره توجيهاً يدعو فيه إلى الحصول على موافقة مبدئية من القيادة قبل تجنيد أى شخص له مشاكل جنائية أو متعلقة بحقوق الإنسان. وأوضح دويتش فيما بعد أن الموافقة تقوم على اختبار توازن بسيط: «هل المكسب المحتمل فى الاستخبارات يستحق الثمن الذى قد يرتبط بالتعامل مع شخص ربما يكون قاتلاً؟»

وأعلن دويتش وزملاؤه «أمر التطهير»، كما بات يعرف، مصحوباً بأفضل النوايا، وكان يتضمن شروطاً لمراجعة كل حالة على حدة. إلا أنه من الناحية العملية شطب مئات «الأصول» الجواسيس من كشوف رواتب وكالة الاستخبارات المركزية بلا تمييز، مما كان له أثره المدمر على عمليات مناهضة الإرهاب فى الشرق الأوسط.

وأدى أمر التطهير إلى خلق سلسلة من لجان الفحص فى مقر وكالة الاستخبارات المركزية. فقبل تجنيد أى جاسوس جديد، كان على ضابط الحالات الحصول على موافقة من لجنة المراجعة الكبرى. ويتذكر ضابط سابق ذلك فيقول: «كان الأمر أشبه باختصاصى أمراض قلب فى كاليفورنيا يقرر إذا ما كان بإمكان جراح فى مدينة نيويورك فتح صدر مريض أم لا». وكان تقييم الجواسيس المحتملين يقوم به موظفون ليست لهم خبرة مباشرة بالعمليات السرية. (ويتذكر روبرت بير ذلك قائلاً: «الأمريكيون يكرهون الاستخبارات - يكرهونها وحسب».) وفى رأى ضباط العمليات، فإن أهم أسلحة فى الحرب ضد الإرهاب العالمى كان يقيِّمها رجال ونساء وصفهم ضابط متقاعد بأنهم «لم يكونوا يقودون سياراتهم إلى أحد مطاعم مدينة واشنطن ليلاً لخوفهم من مشكلة الجريمة».

وأخذت لجان بيروقراطية أخرى «تتكاثر كالأرانب، الواحدة من الأخرى» كما قال رئيس مركز سابق. أما الضباط المتمرسون الذين كانوا متشددين بشأن الاستمرار فى تعيين الجواسيس فقد وجدوا أن الحصول على موافقة قبل اتخاذ أية خطوة مسألة انتقال من لجنة إلى أخرى. وقال الضابط المتقاعد إنهم «فى الأيام الخوالى كانوا يقولون اذهب وائت بهم». ومع ذلك كانت هناك عملية مراجعة أخرى تعرف باسم «نظام إعطاء صلاحية الجاسوس». وقال لى ضابط متقاعد آخر: «كان لا بد أن تكتب الكثير من الأوراق كى يقضى الرجال بالمركز فى كتابة التقارير وقتاً يزيد على ذلك الذى يقضونه فى الشارع».

وقال ضابط ثالث: «كان أمراً لا معنى له انظر، لقد كنا نجند أشخاصاً كريهين، وكنت أتعامل مع رجال سيئين. فنحن لم نكن نجند أناساً يتسمون بالبراءة». ومضى قائلاً: «ما فعلناه بأنفسنا جرم فى حقنا. وهناك ستة أشخاص طيبين يحاولون إصلاح الأمر».

وقال روبرت بير عن الإعلان: «لقد جعل يوم العمل أسهل بكثير. كنت أشاهد السى إن إن وحسب. ولم يكن هناك من يبالى». ولم يكن لدى المجموعة الجنوبية الحيوية التابعة لوكالة الاستخبارات المركزية المكونة من ثمانية مراكز فى وسط آسيا - وكانت جميعها مهددة من قبل المنظمات الأصولية، وخاصة فى أوزبكستان وطاجيكستان وتربطها صلات بطالبان وبن لادن - أى عملاء، بحلول منتصف التسعينيات «كانت الوكالة ترحل».

وعلى عكس الكثير من كبار المسئولين فى وكالة الاستخبارات المركزية، أقام بير سراً فى بيروت وغيرها من مناطق الشرق الأوسط، وكان يدرك جيداً قدرة المنظمات الإرهابية على إخفاء آثارها. وذكر لى أنه عندما بدأت وكالة الاستخبارات المركزية فى ملاحقة منظمة الجهاد الإسلامى، وهى جماعة لبنانية متشددة لها صلة بسلسلة من أعمال الاختطاف فى عهد ريجان، «قام رجالها بالاطلاع بشكل منظم على الوثائق فى أنحاء بيروت، بل وتدمير كل سجلات الطلاب. كما وضعوا أجهزة تنصت فى مطار بيروت واستطاعوا تمييز الأمريكيين. كانوا يعرفون من يريدون خطفه قبل أن تهبط طائرته». وتغلب الإرهابيون على قدرة الأمريكيين على التقاط المحادثات فى أنحاء العالم عن طريق تغيير شفراتهم باستمرار - وكثيراً ما كانوا يقومون بما هو أكثر من مجرد تغيير لمعانى الجمل التى تستخدم عادة. وقال بير: «هناك كادر محترف بينهم». وفى إشارة إلى الإرهابيين الذين وجهوا ضربة الحادى عشر من سبتمبر قال: «هؤلاء الناس بارعون إلى حد كبير جداً». ▪

بترتيب خاص مع مجلة:
The New Yorker

٨ أكتوبر ٢٠٠١
ترجمة: أحمد محمود



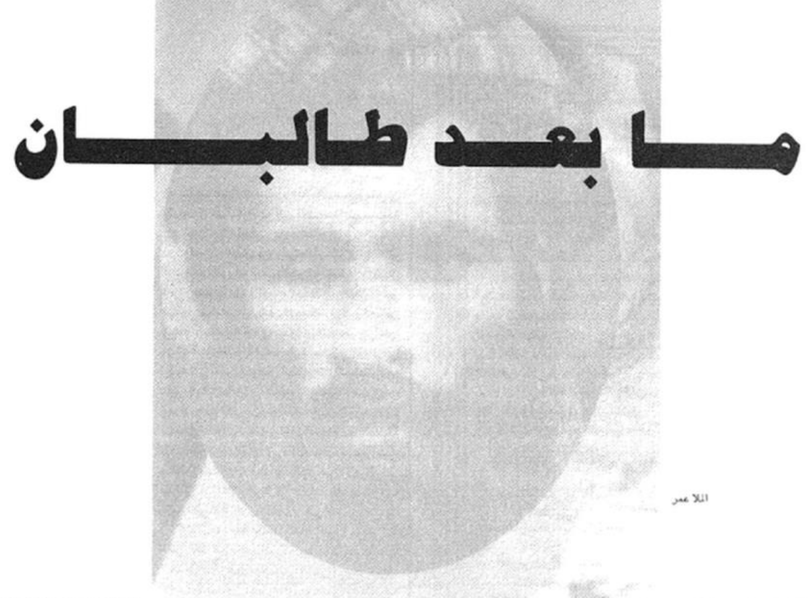
مذهبهم ومعتقداتهم

وجمع الأفغانيين سنّيون متمذهبون بمذهب أبى حنيفة لا يتساهلون رجالاً ونساءً وحضريين وبدويين فى الصلاة والصوم سوى طائفة (نورى) فإنهم متوغلون فى التشيع ولهم محاربات شديدة مع جيرانهم السنيين ولا يبالون بالصلاة والصوم وإنما يهتمون بأمر مأتم الحسين (رضى الله عنه) فى العشرة الأولى من المحرَّم ويضربون ظهورهم وأكتافهم بسلاسل مكشوفة.

والأفغانيون مع شدّة تعصبهم للدين والمذهب والجنس لا يعارضون غيرهم فى حقوقهم ولا يتحاشون عن أن يروا شيعياً أو غير مسلم يقيم مراسم دينه ويلا يمنعون المستحقين منهما من نيل المراتب العالية فى حكومتهم. فإنك ترى أرباب المناصب فى البلاد الأفغانية من الشيعيين (القزل باش). وكل أفغانى يزعم أنه أشرف الناس لكونه أفغانياً ولو كان فقيراً وأنه لا يوجد الإيمان الكامل والإسلام الخالص إلا فى جنس الأفغان والعرب. وكل قبيلة إذا أرادت أن تبرم أمراً فلابد أن يجتمع أمراؤها للمشورة وتسمى هذه الجمعية عندهم بجركه. وإذا قتل أحدٌ من قبيلة أحداً من قبيلة أخرى فكل فرد من أفراد قبيلة المقتول يرى أنه من الواجب عليه أن يجتهد لأخذ الثأر بقتل رجل من قبيلة القاتل ولا يقتنعون بقصاص الحاكم ولا يتجاوزون عن ذلك ولو مضت عليه أعوام إلا أن يستجير بهم القاتل. وهكذا تكون الحال إذا قتل أحدٌ من عائلة أحداً من أخرى.

وقد وقع كثيراً أن الابن قتل أباه والأخ قتل أخاه ولا ينعقد الصلح بين القبيلتين المتحاربتين إلا بالمصاهرة.





ما بعد طالبان

الملا عمر

فهمى هويدى



سقوط النظام لن يعنى نهاية طالبان، التى لن تختفى من الساحة، وإنما ستتحول إلى حركة مقاومة جهادية، مستفيدة من كوادرها الملتزمة التى يقدر عددها بما يتراوح بين ٤٠ و ٥٠ ألف مقاتل، ومستفيدة أيضا من أجواء الغضب التى تسود الساحة الأفغانية من جراء القصف



الذى يجرى فى أفغانستان ليس أكثر من مشاهد من فيلم سينمائى. أعد له السيناريو منذ بدايات العام، ويقوم ببطولته الرباعى الفتاك: بوش - تشينى - باول - رامسفيلد. ومعهم فى أدوار البطولة الثانية كوكبة من الضباط العظام من أساطين أسلحة البر والبحر والجو، الذين يقبعون فى غرف العمليات وراء الأجهزة الإلكترونية الجبارة، وتناط بهم مهمة توفير أكبر قدر من الإبهار والإثارة. أما دول التحالف فهى تؤدى دور «الكومبارس» الذى لا يطلب منه أكثر من الظهور فى خلفية المشاهد لتصوير عمقها وجلالها.

الفرق بين هذا الفيلم وغيره مما أنتجته هوليوود أنه من تأليف السياسيين وإخراج العسكريين، وأن نهايته مفتوحة. فى انتظار الحقيقة الأفغانية التى تتشكل على الأرض، ولم تكن بحاجة إلى ذلك الاحتشاد المهول أو القصف المجنون. وهى بغير ذلك كانت ستصبح فى وضع أفضل لا ريب، لكن مخرج الفيلم أراد أن يوفر له أعلى درجات الإثارة، لأن عينه مركزة على الجمهور الأمريكى الذى لايزال أسير الانفعال بما جرى فى الحادى عشر من سبتمبر، الأمر الذى جعله متعطشًا للانتقام، ولم يكن السياسيون أقل منه انفعالاً، لأنهم بدورهم متعطشون لاستعادة الهيبة ورد المهانة، لذلك فلم يكن هناك مفر من إخراج الفيلم على نحو يلبى رغبات الجميع. وهؤلاء يريدون أن يروا بأعينهم مشهد سحق «الأشرار» وتدمير مملكتهم، وانتصار الرباعى الأمريكى الفتاك.

[١]

السيناريو قديم حقًا، وأقدم منه فكرة الفيلم، فأسامة بن لادن وجماعته من قيادات تنظيم «القاعدة» متهمون فى كل العمليات التى وجهت ضد المنشآت والمصالح الأمريكية، من تفجير «الخبر» بالسعودية (يونيو ٩٦) إلى تفجير سفارتى الولايات المتحدة فى كينيا وتنزانيا (أغسطس ٩٨) إلى تفجير المدمرة «كول» فى عدن (أكتوبر ٢٠٠٠). بعد هذه العمليات أصبح اسم بن لادن يوضع على الطاولة كلما وقع حادث فى أى مكان بالكرة الأرضية، حتى كان أول من اشتبه فيه حين سقطت الطائرة البوينج المصرية عام ١٩٩٩ قرب نيويورك، ثم استبعد بعد ذلك، وأصبح الاسم والتنظيم التابع له فى العناوين الثابتة للإرهاب الدولى، وهو ما عبرت عنه مجلة «نيوز ويك» فى عددها الصادر فى ٢٠/٢/٢٠٠١، حيث نشرت تحقيقًا مطولاً وموسعًا عن الإرهاب العالمى استغرق ١٢ صفحة، كان محوره «بن لادن» و«القاعدة».

فى هذا التحقيق، الذى تضمن أكثر من موضوع، إشارة إلى بن لادن بحسبانه «التهديد الأكثر مباشرة وخطورة على الأمن القومى الأمريكى» - وأنه زعيم لشبكة إرهابية «سبقت الجهود الدولية المصممة لتدميرها» - وهى تعمل «بصورة مكشوفة لشن حرب مقدسة ضد الولايات المتحدة وحلفائها»!

ليس ذلك فحسب، وإنما نسبت المجلة إلى مسئول أمريكى - لم تذكر اسمه - قوله إن بن لادن يريد برنامجا تخريبيا مدته مائة عام (!). وأن أصابعه ممتدة إلى الشيشان والفلبين وإندونيسيا والولايات المتحدة والأرض المحتلة فى فلسطين. ولأنه بهذه الخطورة، فإن مخططاته استهدفت الحصول على أسلحة الدمار الشامل. فى هذا الصدد ذكرت المجلة أن أحد المقبوض عليهم فى تفجير سفارتى الولايات المتحدة فى كينيا وتنزانيا ذكر أن بن لادن وجماعته حاولوا شراء كمية من اليورانيوم بقيمة مليون ونصف مليون دولار من تجار سودانيين فى السوق السوداء. كما ذكر المدّعون الأمريكيون أن بن لادن وأحد كبار معاونيه حاولا فى مرات عديدة، منذ عام ١٩٩٢ شراء مكونات لتصنيع قنبلة نووية!. وأضافت «نيوز ويك» أن «الخبراء يحذرون» من أن الزعيم «الإرهابى» قادر بسهولة على صنع ما يسمى بالقنبلة القذرة، التى هى متفجرة تقليدية، ويمكنها نشر مواد مشعة قاتلة فوق منطقة واسعة. وقد تكون قنبلة كهذه، أو قنبلة أخرى بيولوجية أو كيميائية توازيها فى خطورتها، موجودة لمن يريد شراءها فى السوق الدولية السوداء».



أيا كان قدر المبالغة أو الاختلاف فى تلك المعلومات، فإن المجلة قدمت بن لادن باعتباره أخطر رجل فى العالم، الذى يهدد الكرة الأرضية من أقصاها إلى أقصاها، وخططه التدميرية موضوعة لكى تشيع الخراب فى الكون لمائة سنة مقبلة!

كان واضحًا فى تقرير «نيوز ويك» وفى إشارات أخرى عديدة، إن إدارة الرئيس بوش الابن - الذى تسلم منصبه فى شهر يناير - أدرجت ضمن اهتماماتها موضوع بن لادن وجماعته ونظام طالبان الذى يؤويه. ولم يكن مصادفة بطبيعة الحال أن تسلط الأضواء على بن لادن وتصوره على ذلك النحو المرعب بعد شهر واحد من تولى الرئيس بوش للسلطة.

تكمل الصورة وتختصر علينا جهود البحث معلومات أخرى مهمة نشرتها المجلة ذاتها فى عدد ١٩/٦/٢٠٠١، فى تقرير تحت عنوان: إعادة التفكير فى بن لادن. وفيه ورد النص التالى: شرعت وكالة الأمن القومى (الأمريكى) فى الإعلان عن توظيف خبراء فى اللغة الأوزبكية، لإضافتهم إلى مجموعة المتحدثين بلغة الباشتو، وهى اللغة السائدة فى أفغانستان. فضلاً عن اللغة العربية التى هى لغة بن لادن الأم. كذلك تشرف الولايات المتحدة على مناورات كتيبة «حفظ السلام» فى آسيا الوسطى (سنترا لاسبات)، التى ضمت مئات من المظليين، من الولايات المتحدة وأوزبكستان وقازاقستان وقرغيزستان وتركيا. وهؤلاء يتدربون على القفز من مروحيات وطائرات تحلق على ارتفاع منخفض فى الجمهوريات (السوفيتية سابقًا)، المجاورة لأفغانستان.

أضاف التقرير يقول: لقد قام الجيش (الأمريكى) أيضًا بإرسال طائرة النقل الحربية (سى ١٧) المتقدمة من الناحية التكنولوجية، فى رحلة دون توقف، من الولايات المتحدة إلى

آسيا الوسطى ـ وهي مسافة قياسية لطائرة نقل ـ لإقناع حكومات دول آسيا الوسطى بالسرعة التي يمكن أن تستجيب بها واشنطن في حالة وقوع «أزمة».

هذه الترتيبات كانت جارية وأذيعت أخبارها، على الأقل قبل ٨٣ يومًا من الهجوم على نيويورك وواشنطن، وقبل ١٠ أيام من القصف الأمريكي لأفغانستان. وهو ما يعني أن «سيناريو» ضرب بن لادن وجماعته وإسقاط نظام طالبان كان مُعَدًا وجاهزًا للتنفيذ، سواء وقع ذلك الهجوم أم لم يقع.

[٢]

على عكس ما يتصور كثيرون، فالأمر ليس كله شرًا، لأن الولايات المتحدة بالهجوم المكثف الذي شنته، وبالاحتشاد الدولي الذي أقامته، أسدت من حيث لا تحتسب خدمة جليلة لنظام حركة طالبان، لأنها أنهت عمره الافتراضي في السلطة بعد خمس سنوات من تبوئهم لها (سقطت كابول العاصمة في أيديهم خلال شهر سبتمبر ١٩٩٦). ذلك أن حكومة طالبان بعدما تخلت عن دعمها باكستان، وبعد أن سحبت اعترافها بها كل من المملكة السعودية ودولة الإمارات، فقدت شرعيتها من الناحية العملية على المستوى الإقليمي، وهي التي لم يعترف بشرعيتها أصلاً على المستوى الدولي، وبعدما أغلقت الدول الست المحيطة بها حدودها معها، فقد سدت أمامها كل المنافذ البرية، وهي مقطوعة الصلة أصلاً بأية منافذ بحرية. وحصارها على هذا النحو، سياسيًا واقتصاديًا، لن يمكن النظام المنهك من الاستمرار مهما كانت قدرته على الصمود (خلال أسابيع قليلة سينضب مخزونه من الوقود مثلاً وستصاب الحركة في البلاد بالشلل) وإذا أضفت إلى ذلك أن قوات التحالف الشمالية تحولت إلى رأس حربة لإسقاط النظام، وهي المدعومة بكل إمكانيات الحملة الأمريكية، والمؤيدة بالدول المجاورة، التي فتح بعضها حدودها لها، خصوصًا أوزبكستان التي تبين أنها أصبحت قاعدة عسكرية أمريكية مهمة في وسط آسيا، فسوف نجد أن وصول تلك القوات إلى العاصمة واستيلاءها على مقاليد الحكم ليس أمرًا مستبعدًا، وإنما هو مسألة وقت فقط.

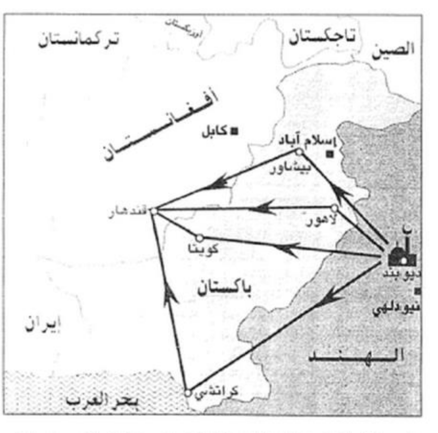
هذه الضغوط من شأنها إسقاط الحكومة، دون تكلفة بشرية عالية الثمن كتلك التي يدفعها الشعب الأفغاني حاليا من جراء القصف الذي لا تعرف أرقام ضحاياه بالضبط، لأن هناك تعتيما إعلاميًا من جانب الأمريكيين والبريطانيين على نتائج العمليات العسكرية، وإن كانت المصادر الأفغانية قد قدرت الضحايا من المدنيين خلال الأسابيع الثلاثة الأولى بما يتراوح بين ٦٠٠ و٨٠٠ شخص، ذلك بخلاف عمليات التدمير المفترضة للمباني السكنية والمرافق العامة.

لم يكن إسقاط الحكومة بحاجة إلى كل تلك العمليات العسكرية والغارات المتتالية، التي أضرت بأهداف الحملة من ناحيتين، أولاً: لأنها زادت من تماسك صفوف حركة طالبان، وأجّلت ظهور التمايزات بين أجنحتها، بعدما أدرك الجميع أن القصف وضعهم في كفة واحدة، وأن مصيرهم صار واحدًا، بالإضافة أنها زادت من التفاف قبائل البشتون حول الحركة ـ ثانيًا: لأنها وضعت فصائل المعارضة في موقف حرج من شأنه أن يغلق باب التعاطف الشعبي معها، حيث بدا في هذه الحالة أن البدائل المرشحة لخلافة نظام طالبان قادمة على أجنحة الطائرات الأمريكية النفاثة، الأمر الذي يستثير غضب الأفغان ويجرح كبرياءهم.

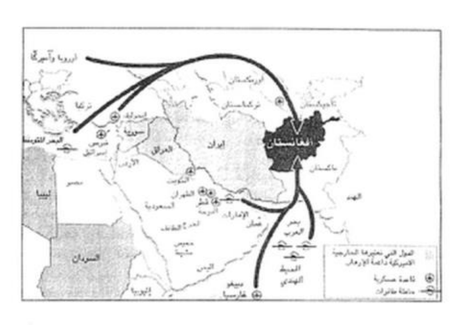


لقد آثرت الإدارة الأمريكية أن تستعرض قوتها وعضلاتها في سماء أفغانستان، وأن





المصدر: كتاب طالبان، من حلم الملا إلى إمارة المؤمنين، مولوي حفيظ الله حقاني، من إصدارات معهد الدراسات السياسية بإسلام آباد، عام ١٩٩٧.



تقوم بتمثيل الفيلم المثير لا لإسقاط نظام طالبان، ولكن لإشباع غرائز الانفعال والغضب والانتقام لدى الجمهور الأمريكي. وهي تفعل ذلك فإنها على إدراك تام بأن ثمة جهودًا أخرى تبذل على الأرض ـ تقوم المخابرات الباكستانية بدور رئيسي فيها ـ لترتيب أوضاع المستقبل الأفغاني، فيما بعد سقوط نظام طالبان.

سقوط النظام لن يعني نهاية طالبان، التي لن تختفي من الساحة، وإنما ستتحول إلى حركة مقاومة جهادية، مستفيدة من كوادرها الملتزمة التي يقدر عددها بما يتراوح بين ٤٠ و ٥٠ ألف مقاتل، ومستفيدة أيضًا من أجواء الغضب التي تسود الساحة الأفغانية من جراء القصف، والشبهات التي يمكن أن تثار إزاء أي وضع مستجد، مدعوم من الولايات المتحدة. ومستفيدة كذلك من انتشارها في أنحاء البلاد التي ظلت مسيطرة على ٩٥٪ من أراضيها خلال السنوات الخمس الماضية. ثم لا تنس أن طالبان تمثل عرق البشتون وهم النسبة الأكبر بين سكان أفغانستان، وأن قيادتها تتمركز في قندهار التي تعتبر أصل الأفغان، ومحيطها البشري والقبائلي يمتد إلى داخل حدود باكستان.

هذا التحول من سلطة حاكمة إلى حركة مقاومة جهادية مطروح الآن بقوة في محيط طالبان. وفيما علمت فإنه قرارًا اتخذ بهذا الصدد في قيادة الحركة، وأن التعليمات صدرت لحكام الأقاليم بالاستعداد للعمل كقادة ميدانيين لمواجهة أي وضع مستجد، وفي ظل انقطاع وسائل الاتصال، فإن أولئك القادة أعطوا حق التصرف واتخاذ ما يرونه مناسبا من إجراءات وخطط للمقاومة، دون الرجوع إلى القيادة.

من هذه الزاوية، فلعلي أزعم أن الحملة العسكرية الأمريكية أدت من حيث لا تحتسب خدمة لطالبان، بسعيها لإسقاط نظامها، ودفعها للانتقال من مقاعد السلطة إلى خنادق المقاومة ـ كيف ولماذا؟

[٣]

لأن حكومة طالبان بعدما أمضت خمس سنوات في السلطة، أصبحت تواجه مازقاً سياسياً كبيراً، لم تكن ترى مخرجا منه، فقد جلبت الأمن والسلام للبلاد منذ فتحت كابول عام ٩٦ واستقام لها الأمر في البلاد، لكنها بعد ذلك فشلت في أن تقدم للشعب الأفغاني أي شيء آخر. نعم، خلصت المجتمع من تحكم وفساد ممثلي الأحزاب الجهادية الذين أساءوا استخدام سلطاتهم بعد خروج السوفييت في عام ٩٢، وهو ما أراح الناس كثيراً، لكن الناس لهم مطالب حياتية أخرى فشلت الحركة في تلبيتها.

ومن الناحية العملية، فإنها خلال السنوات الخمس الماضية أقامت كياناً سياسياً مبسطاً ومشوهاً باسم إمارة أفغانستان الإسلامية، ونصبت على رأسه «أميراً للمؤمنين» في استرجاع لأحد عناوين العصر الإسلامي الأول، وشغلت نفسها بمظاهر الناس وأشكالهم وسلوكياتهم، ولم تعن بشيء له قيمته في البلد، وإنما غاية ما نهضت به هو دور الحراسة للمدن والحدود، ورد هجوم قوات التحالف الشمالي، التي لم تكن تشكل في السابق خطراً يذكر. وقد انكشف موقف حكومة طالبان تماماً حين شحت الأمطار واشتدت المجاعة في شتاء العام الماضي (٢٠٠٠)، الأمر الذي أدى إلى نزوح حوالي ٨٠٠ ألف شخص من القرى إلى المدن، ووفاة أعداد من الأطفال لم يتم حصرها، ولم تستطع حكومة الحركة أن تفعل شيئاً إزاء تلك الكارثة.

بسبب قلة الخبرة وسوء التصرف من جانب عناصرها، ومن جراء الحصار الدولي النسبي الذي فرض عليها، فإن الحركة أصبحت في النهاية عاجزة عن أن تقدم شيئا للمجتمع الذي ظل يعاني من شح الموارد وتعطل المرافق وبؤس الخدمات، فتضاعف فقراؤه ومعذبوه، وصار

النزوح واللجوء إلى الدول المجاورة حلاً لمشكلات السلم، بقدر ما كان حلاً لمشكلات الحرب.



هذا الانسداد جسد المأزق الذي عانى منه نظام طالبان، الذي ظل يراوح مكانه خلال السنوات الثلاث الأخيرة، حيث لم يكن قادراً على التقدم إلى الأمام، ولم يكن واردا في حسبان قادته أن يتراجعوا إلى الخلف. من ثم فإن الحملة العسكرية الراهنة حلت لهم الإشكال (هل نقول إن القصف في هذه الحالة كان هبة من السماء؟!) - إذ إنها بذلك أعفتهم من تكاليف الحكومة إزاء رعاية المجتمع وتنميته، ودفعتهم إلى الانتقال إلى ساحة الجهاد التي قد يكونون أقدر على الأداء والإنجاز فيها. هذا إذا افترضنا أن قيادتها الراهنة ظلت كما هي، ولم تختف من المسرح لسبب أو آخر، وهو ما سنتطرق إليه بعد قليل، حين نحاول الإطلال على «سيناريوهات» المستقبل.

فشلهم في السياسة والحكم ليس مفاجئاً، وهو ما أشرت إليه فيما كتبت عنهم قبل أكثر من عام، حيث أدركت من لقاءاتي مع عناصر الحركة وبعض قياداتها أن «النظام» لا تتوفر له مقومات الاستمرار، وأن ظروفاً تاريخية استدعتهم لأداء دور «الإطفائي»، بعدما ظل قادة المقاومة الذين قبضوا على السلطة بعد جلاء السوفييت (بوجه أخص قلب الدين حكمتيار وبرهان الدين رباني ومعه أحمد شاه مسعود)، هؤلاء ظلوا يتقاتلون فيما بينهم طيلة الفترة بين عامي ٩٢ و٩٤. وللإطفائي دور يؤديه ثم يعود إلى مواقعه، لكنهم غامروا بالمهمة ولم يغادروا، فحملوا أنفسهم بما لم يكونوا مؤهلين له، الأمر الذي أوصلهم إلى مأزقهم الذي أنقذتهم منه الحملة العسكرية.

ما كان لنا أن نتوقع الكثير في الحكم من جماعات مقطوعة الصلة بالدنيا، ومحدودة المعرفة بالدين، انتقلت من المدارس الدينية إلى جبهات القتال، ثم وجدت نفسها فجأة قابضة على السلطة في البلاد. نعم لمست فيهم براءة وإخلاصاً شديدين، وغيرة على الدين لا حدود لها، لكن ذلك كله كان من قبيل النوايا الحسنة التي تقود المرء إلى جهنم أحياناً، من جراء قصور إدراكه وسوء تصرفه.

جميعهم خرجوا من عباءة المدارس الدينية، أكثرهم تلقوا تعليماً متوسطاً وصاروا «ملالي»، وأقلهم أكملوا الشوط إلى نهايته وأصبحوا «مولوية»، وهي شهادة أعلى أقرب إلى «العالمية» عند الأزهريين. (قرأت أن «أمير المؤمنين» محمد عمر خرج إلى الجهاد، قبل أن يحصل على شهادة «الملا»، ولكن لسعة اطلاعه النسبي على العلوم الدينية أعلى شهادة فخرية تعرف باسم «الملا الإعزازية»).

تلك المدارس الدينية كانت من طراز خاص، فهي امتداد وفروع للمدارس «الديوبنديه»، نسبة إلى مدينة «ديوبند» بالهند، التي تأسست قبل أكثر من ١٥٠ سنة، وتبنت فكراً موغلاً في التشدد والمحافظة، وحصرت نفسها في حدود المذهب الحنفي السائد في شبه القارة الهندية، مع التقليل من شأن المذاهب الأخرى، واتهامها بالانحراف في التعاليم والتقاليد.





جميعهم خرجوا من عباءة المدارس الدينية، أكثرهم تلقوا تعليماً متوسطاً وصاروا «ملالي»، وأقلهم أكملوا الشوط إلى نهايته وأصبحوا «مولوية»، وهي شهادة أعلى أقرب إلى «العالمية» عند الأزهريين

وهو اتهام يصل إلى حد التكفير بالنسبة للسلفيين المعروفين باسم «الوهابيين»، وبسبب تعصبهم للمذهب الحنفي اعتبروه هو السُنة (يتطلقونها سنات)، وماعداه مسكون بالبدع (بدعات).

انتشرت هذه المدارس في أوساط اللاجئين الأفغان، خصوصاً أنها كانت تتكفل بتغطية نفقات إقامة طلابها، وعادة ما تتولى إدارتها شخصيات دينية معروفة، وتمول عن طريق التبرعات من داخل وخارج باكستان، بالإضافة إلى ما كانت تتلقاه من دعم من قبل الحكومة الباكستانية، خصوصاً في عهد الرئيس الأسبق ضياء الحق.

[٤]

بعدما برز دور الجهاد الأفغاني ابتداء من منتصف الثمانينيات ازداد الإقبال على الأحزاب والمنظمات الجهادية، من قبل كل فئات الشعب الأفغاني، غير أن تلك الأحزاب خصصت مراكز خاصة لطلاب المدارس الدينية، التي عرفت باسم «مراكز طالبان» (في اللغة الفارسية تجمع كلمة طالب بهذا الشكل) - فقد كان أولئك الطلاب أفضل تعليماً من غيرهم وأكثر انسجاماً مع بعضهم البعض - الأمر الذي يعني أن شباب الحركة كانت لهم قدم في الجهاد منذ وقت مبكر نسبياً، وقادتهم كانوا بدورهم قادة ميدانيين عملوا ضمن الأحزاب الجهادية الأخرى.

من بين الأحزاب الجهادية العشرة التي اشتركت في القتال ضد السوفييت، كان إقبال طلاب المدارس الدينية أكبر على اثنين منها، لسبب جوهري هو أن قيادة هذين الحزبين كانت معقودة على اثنين من العلماء «المولوية».. والحزبان هما: الحزب الإسلامي الذي قاده مولوي محمد يونس (من مواليد عام ١٩١٩) وحزب الانقلاب الإسلامي (الانقلاب هنا في معناه الفارسي معادل لكلمة الثورة) الذي تزعمه المولوي محمد نبي محمدي (مولود في سنة ١٩٢٥)، والحزب الأخير تمتع بجاذبية خاصة من جانب طلاب المدارس الدينية لكثرة أعداد المولوية والملالي فيه، الذين كانت معهم أعداد من أتباع الطريقة النقشبندية، ثم لأن حزب المولوي محمد نبي كان يدير عدة مدارس دينية في داخل أفغانستان، وفي مدينتي بيشاور وكويتا الباكستانيتين الحدوديتين. وكان الملا محمد عمر زعيم حركة طالبان من طلاب تلك المدارس.



من هذه البيئة الثقافية خرجت عناصر طالبان، لكن البيئة الجغرافية والاجتماعية التي خرجوا منها كانت لها تأثيراتها التي تقل أهمية على مسار الحركة ومواقفها. فقادة الحركة ليسوا أفغاناً فحسب ولا من قبائل البشتون فقط، ولكنهم من منطقة قندهار بالدرجة الأولى وغير القندهاريين لم يبتعدوا كثيراً عن المقاطعة، وإنما ظلوا ينتمون إلى مقاطعتين مجاورتين في الجنوب الغربي هما: زابل وهيلمند أو مقاطعة أوزوزجان الملاصقة لقندهار.

وقندهار الولاية هي أصل الأفغان، وعاصمة دولتهم، التي أسسها في عام ١٧٤٧ أحمد خان الإبدالي، المعروف باسم أحمد شاه بابا، وأهلها لهم سمات خاصة في هيئاتهم وثيابهم وطباعهم، وفي لسانهم أيضاً، حيث لغتهم هي البشتو الفصحى، أما بقية البشتون فيتخاطبون بعاميتها. القندهاريون قاماتهم متينة وحواجبهم كثيفة الشعر وشواربهم غزيرة ولحاهم ضخمة، يميزهم أيضاً أن سراويلهم واسعة جداً، وعمائمهم من قماش أسود بطول سبعة أمتار، بذيل طوله خمسة أشبار، وهو ما يتمسكون به ويعتبرونه من «السنات».

وإذا كان مسلمو أفغانستان محافظين بطبيعتهم فمسلمو قندهار من الغلاة الأشداء في كل شيء. وفي الحرب ضد السوفييت كانوا الأكثر إقداماً وثباتاً. حتى انهم كانوا يستنكفون الانبطاح على الأرض أثناء الغارات، ويعتبرون ذلك عاراً لا يليق بكرامة وكبرياء المحاربين، لذلك فإنهم كانوا يظلون وقوفاً في تحد كلفهم الكثير. من ثم فلا غرابة في أن كان بين القندهاريين أكبر عدد من الشهداء والمعوقين والأرامل. وبسبب كبريائهم وأنفتهم كانوا يعفون من الخدمة العسكرية في ظل الحكومات السابقة، وحين كان السوفييت يريدون معاقبة أحد من جنودهم فإنهم كانوا يرسلونه إلى جبهة قندهار، التي حظيت منهم بأكبر قسط من الدمار، حيث قيل لي أنه ما من غرفة في بيت بالمدينة إلا وأصابتها نيران القاذفات السوفيتية. وبسبب شدة القتال الذي أرهق السوفييت في تلك الولاية، فإنها كانت أول ما سارعوا إلى الانسحاب منه، حين قرروا الخروج من المستنقع الأفغاني.

[٥]

يروي البلاذري في «فتوح البلدان» أنه حين فتح المسلمون قندهار في عهد الخليفة عمر بن الخطاب (سنة ٢٢ هجرية) أرسل قائد المسلمين في تلك الحملة، الحكم بن عمرو التغلبي مبعوثاً يحمل البشارة إلى أمير المؤمنين، وحين سأله سيدنا عمر أن يحدثه عن تلك البقعة التي تم فتحها، رد المبعوث - واسمه سمار العبري - قائلاً: سهلها جبل، وماؤها وشل (قليل وشحيح)، وتمرها دَقل (رديء) ونصفها بطل (من الأشقياء والكلمة في لسان العرب معنيان متناقضان)، وخيرها قليل، وشرها طويل، والكثير بها قليل، والقليل بها ضائع، وما وراءها شر منها.

لما سمع عمر بن الخطاب هذه الأوصاف سأل المبعوث: أسجّاع أنت أم مخبر؟ فقال بل مخبر، فاطرق ابن الخطاب لحظة ثم أمر بالكف عن التقدم في الفتح إلى أبعد من قندهار.

هذه الخلفية تسلط الضوء على جذور وطبيعة الشخصية القندهارية التي تشكلت ونمت في أجواء اتسمت بالخشونة والقسوة وشظف العيش، الأمر الذي أورثها الصلابة والعناد والقدرة الفائقة على تحمل المشاق. تجلى ذلك في نمط حياتهم وفي سلوكهم، وفي ألعابهم أيضاً، فمن بين الألعاب مسابقة يقيمونها تختبر صلابة المرء وقدرته على الاحتمال، فيقف نفر من الشبان في حلقة، ويضع كل واحد منهم جمرة مشتعلة على ساعده، ويفترض أن يبقيها هكذا إلى أن تنطفئ وتصبح رماداً. اللعبة تستغرق وقتاً ليس بالقصير، وتتطلب من المشاركين فيها قدرة غير عادية على احتمال الألم والعناء. لأن من يتحرك من مكانه أو يتأوه، يستبعد من الحلقة، ويخرج مهزوماً وكسير النفس. والفائز من بقي ثابتاً في مكانه بغير حراك حتى تخمد النار في الجمرة!

من يدرك هذه الأبعاد في الشخصية القندهارية التي تطبع بها القندهاريون من قادة

الهيكل البشرى الجغرافى للمجتمع الأفغانى

م	العرقية	حجم التواجد وأماكنه	الديانة	اللغة	معلومات أخرى
١	البشتون «الباتان»	٤٠٪ ـ ٦٠٪ من السكان يتركزون في الجنوب الشرقي على الحدود مع باكستان التي يوجد بها النصف الآخر للبشتون.	مسلمون سنة وأحناف عدا قبيلة «توري» فهم شيعة.	البشتو.	أكبر وأقوى تجمع عرقي في أفغانستان، وهم يسيطرون على معظم المناصب العليا في الحكومة والجيش منذ نشأة أفغانستان وحتى الآن.
٢	التاجيك	٢٥٪ ـ ٣٠٪ من السكان يتركزون في الشمال الشرقي.	مسلمون سنة أحناف، وبعضهم إسماعيلية في الشمال خاصة.	الداري (لهجة فارسية)	التجمع العرقي الثاني في أفغانستان ويعيش الكثير منهم في المدن، وهم تجار وحرفيون مهرة.
٣	الفارسوان	٢.٥٪ من السكان يعيشون بالقرب من الحدود الإيرانية وفي قندهار وغزني ومدن أخرى في الجنوب والغرب.	شيعة إمامية.	الداري.	زراعيون بالدرجة الأولى، ويقدمون خطأ على أنهم تاجيك.
٤	القزلباش	١.٢٪ من السكان مبعثرون في مدن أفغانستان.	شيعة إمامية.	الداري.	من أكثر الجماعات ثقافة في أفغانستان ويشغلون مناصب بيروقراطية وعلمية هامة، ويستخدمون التقية للوصول إلى ذلك.
٥	الهزارا	٣.٣٪ ـ ٦.٦٪ من السكان يتركزون في قلب المنطقة الوسطى.	شيعة إمامية وإسماعيلية، وقليل من السنة.	الداري.	يتحكمون في ممرات هامة عبر جبال الهندوكوش.
٦	الأيماق	٣.٥٪ من السكان يتركزون في الجزء الغربي من المرتفعات الوسطى.	سنيون أحناف.	الداري مع كثير من التركية.	ــــــ
٧	المغول	بضعة آلاف يتركزون في ولاية غور، وينتشر بعضهم في وسط وشمال أفغانستان.	سنيون أحناف.	الداري مع كثير من المنغولية.	ــــــ
٨	الأوزبك	٦.٦ من السكان، يتركزون في شمال أفغانستان.	سنيون أحناف	الأوزبكية والتركية.	معظمهم زراعيون.
٩	التركمان	٣.١٪ من السكان، يتركزون في شمال أفغانستان.	سنيون أحناف.	التركية.	ــــــ
١٠	القرغيز	عدة آلاف، يتركزون في جبال البامير الأفغانية.	سنيون أحناف.	التركية الكيشاكية.	لهم امتداد في الاتحاد السوفيتي والصين.
١١	البامير ى	عدة آلاف يعيشون أساسا في واخان بولاية بدخشان.	سنيون أحناف، إسماعيلية.	بامبرية متنوعة، ولغة شرق إيران.	فلاحون جبليون.
١٢	البلوش	٦.٠٪ من السكان، يتركزون في الجنوب الغربي حول منخفض «سستان».	سنيون أحناف.	البلوشية	أغلبهم رعاة، وهم امتداد لبلوش باكستان.
١٣	البراهي	٣.١٪ من السكان، يتركزون في الجنوب الغربي.	سنيون أحناف.	البراهية، البلوشية، البشتو.	أجراء زراعيون ورعويون.
١٤	النورستانيون	٦.٠٪ من السكان، يتجمعون في أقصى الشرق الأوسط لأفغانستان وتعرف منطقتهم بنورستان.	سنيون أحناف، وأهل الحديث.	النورستانية.	دخلوا الإسلام بعد أن فتح بلادهم الأمير عبد الرحمن خان في عام ١٨٩٦م.
١٥	الكوهستانيون	مجموعة لغوية متميزة تعيش على الحواف الجنوبية لنورستان	سنيون أحناف.	الداري، والبشتو.	ــــــ
١٦	الكوجار	يعيشون على الحواف الشرقية لنورستان.	سنيون أحناف.	الهندوستانية والبشتو.	رعاة ماشية وفلاحون.
١٧	الجات	ــــــ	سنيون أحناف.	الهندوستانية والبشتو والفارسي.	يدعي الكثيرون منهم النسب العربي.
١٨	العرب	موزعون في أنحاء أفغانستان لا سيما في الشمال، وهم قليلون جدا.	سنيون أحناف.	الدارية والبشتو وبعض العربية.	يشتهرون باسم «السيد» لنسبهم القرشي.
١٩	الهنود	١.٠٪ من السكان، مبعثرون في المدن كتجار ومرابين.	الهندوسية.	هندوستانية، بنجابي، بشتو، داري.	ــــــ
٢٠	السيخ	٦.٠٪ من السكان، مبعثرون في المدن كتجار ومرابين.	السيخية.	بنجابي، لاهندا، بشتو، داري.	ــــــ
٢١	اليهود	عدة آلاف يعيشون في كابول وقندهار وهيرات.	اليهودية.	بشتو، داري، عبري.	تجار ومرابون، ذهب عدة مئات منهم إلى «إسرائيل» ولكن معظمهم عاد ثانية.

المصدر: كتاب طالبان، من حلم الملا إلى إمارة المؤمنين، مولوي حفيظ الله حقاني، من إصدارات معهد الدراسات السياسية بإسلام أباد، باكستان.

وكوادر طالبان، يجد فيها تفسيرًا لكل ما صدر عن الحركة من سلوك وممارسات بدءًا من الغيرة التي حركت الملا محمد عمر وبعض أصحابه في عام ٩٤، الذين قرروا تحدى ومقاومة مفاسد ومظالم ممثلي الأحزاب الجهادية حين بسطوا نفوذهم على الولاية وأداروها لحسابهم الخاص، وإلى أن تحدوا الأحزاب الإسلامية المحاربة وشقوا طريقهم إلى كابول في سنة ٩٦، وانتهاء بتحديهم للإدارة الأمريكية، ورفضهم الانصياع لمطلب تسليم أسامة بن لادن.

لست من أنصار الادعاء الذي يردده كثيرون مروجين فيه لفكرة أن طالبان صناعة باكستانية أو أمريكية، وهو ما أعتبره نوعًا من التبسيط المخل، الذي يتجاهل خرائط الواقع بمقتضياتها واستجاباتها، التي فرضت ظهور فئة ثالثة تخلص البلاد من الاقتتال بين حزبي حكمتيار ورباني، لكنني أفهم وأعلم أن طالبان حين ظهرت في الأفق، وخرجت من رحم الواقع الأفغاني البائس، تحركت المخابرات الباكستانية بسرعة ومدت جسورها معها، حتى شجعتها على مواصلة مسيرتها إلى كابول، بعدما أدركت أن الحكومة المهيمنة آنذاك التي رجحت فيها كفة «الطاجيك» لا تكن لها ودًا، الأمر الذي يتعارض مع مصالحها ويعوق تطلعاتها إلى وسط آسيا، من ثم فإنها وجدت في طالبان طرفًا بشتونيًا مقبولاً من الرأي العام، الذي يجل كثيرًا المولويين والملالي، واعتبرته مؤهلاً أكثر من غيره ـ في ظروف ذلك الوقت ـ للتحالف معه، ومن ثم لتأمين المصالح الاستراتيجية الباكستانية.

وإذا كانت المخابرات الباكستانية في ذلك على اتصال مع المخابرات الأمريكية، وهو الاتصال الوثيق تاريخيًا، والذي تعزز أكثر أثناء مقاومة الاحتلال السوفيتي لأفغانستان: فهو عنصر يحسب على الطرف الباكستاني وينبغي ألا يحمل على مواقف حركة طالبان أو يحسب عليها.

[٦]

يوشك ذلك كله أن يتحول إلى تاريخ الآن، ذلك أننا نعيش هذه الأيام لحظات إنزال الستار على حكم طالبان ونظامها، وهناك إعداد في عواصم عدة، أوروبية وآسيوية، إعدادًا لرفع الستار على فصل جديد في «الدراما» الأفغانية، تغيب فيه طالبان عن المسرح، كليًا أو جزئيًا، وأحسب أننا لن نستبق كثيرًا إذا قلنا أن العنوان المقرر حتى الآن لفصل جديد هو: ما بعد طالبان.

لا يستقيم الحديث عن ذلك الفصل قبل أن نستكشف «جغرافية» الساحات والأطراف المرشحة للمساهمة في تشكيل ذلك الطور الجديد، بدءاً بتركيبة المجتمع الأفغاني وقواه الفاعلة، ومروراً بالخريطة الداخلية لحركة طالبان ذاتها، وانتهاء بمواقف القوى الإقليمية والدولية المعنية بمستقبل أفغانستان.

مسرح الحدث هو الساحة الأفغانية بتركيبتها البشرية الفريدة والمعقدة، التي أسهم الموقع الجغرافي للبلد في تشكيلها، فموقع أفغانستان في وسط آسيا حولها من الناحية العملية إلى معبر يمر به القادمون من شرق القارة إلى غربها، أو من شمالها إلى جنوبها (والعكس)، وأولى بذلك الجيران بطبيعة الحال. لذلك تعددت بصمات هؤلاء جميعاً في أفغانستان، حتى اجتمعت فيها حوالي ٢٠ مجموعة عرقية أهمها: البشتون والطاجيك الذين يشكلون ٧٠٪ من السكان، والبشتون (٤٥٪) يتركزون في النصف الجنوبي والجنوبي الشرقي المتاخم لباكستان، التي يوجد على حدودها النصف الآخر للبشتون المعروفين بقبائل «الباتان». والطاجيك يتركزون في الجزء الشمالي الشرقي، وإلى حد كبير فإنهم يعدون امتداداً لقبائل جمهورية طاجسكتان المجاورة. ولغة الأولين هي «البشتو»، والآخرين هي «الداري»، التي تعد إحدى اللهجات الفارسية، والاثنتان تكتبان بالحروف العربية.

البشتون والطاجيك من أهل السنة الأحناف، ويعد الشيعة الفئة الثالثة في البلاد حيث يمثلون حوالي ١٣٪ من السكان، ولغتهم هي «الداري»، ويتوزعون على أعراق ثلاثة هي: «الهزارا»، و«القزلباشي» و«الفارسوان»، وهم منتشرون في المناطق الحدودية المتاخمة لإيران.

بعد الشيعة الاثنى عشرية، يأتي الأوزبك (٦.٦٪) الذين يتمركزون في المناطق الشمالية، بجوار الحدود على أوزبكستان. وفي بقية القائمة يندرج التركمان والمغول والقرغيز والبلوش... إلخ! وجميع هؤلاء أحناف من أهل السنة.



ورغم أن حركة طالبان عملت على تطعيم قيادتها بعناصر من الأقليات الأخرى، فعينت في الحكومة وزيرين من الطاجيك والأوزبك، إلا أنها ظلت حركة بشتونية في سَمْتها العام، وقندهارية إن شئت الدقة. أما التحالف الشمالي الذي وقف في صف المعارضة، وتشكل في أعقاب دخول طالبان إلى كابول في عام ٩٦، فيبدو وكأنه تحالف للأقليات الرئيسية، رغم وجود بعض عناصر من البشتون على هامشه (في المقدمة منهم قلب الدين حكمتيار وعبدالرسول سياف)، إذ أنه يتكون أساساً من عناصر وقيادات طاجيكية وأوزبكية وشيعية، ومؤيدو الدول المجاورة، التي تعتبر أن تلك القيادات تمثل امتدادات لها، عرقية أو مذهبية، لذلك فربما جاز لنا أن نقول أن التحالف يستند في قوته واستمراره إلى الدعم الخارجي بأكثر من اعتماده على التأييد والدعم الداخليين.

[٧]

حركة طالبان لها واقع مغاير، فهي متجانسة عرقياً وفكرياً، وقاعدتها العريضة في الداخل، حيث يمثل البشتون الأغلبية التي سبقت الإشارة إليها، فضلاً عن أن لهم عمقهم الممتد إلى قبائل «الباتان» في شمال باكستان، غير أن القندهاريين ـ من دون كل البشتون ـ يمثلون العمود الفقري للحركة، على مستوى القيادة والقاعدة. وبذلك فإنهم يحظون ـ نسبياً ـ بالتفاف وتأييد في ولايات الجنوب الغربي أكبر من الجنوب الشرقي، رغم أنها جميعاً ولايات بشتونية.

وإذا ما اقترب المرء أكثر من تضاريس وقسمات الحركة، يجد في داخلها مستويين من التمايز، الأول تمايز قبائلي، لأن القندهاريين موزعون على قبيلتين

رئيسيتين كانتا متنافستين ومتصارعتين تاريخياً، هما: «غلزائى» التى ينتمى إليها الملا محمد عمر، وقبيلة «إبدالى» التى كان ينتمى إليها رئيس وزرائه المتوفى الملا محمد ربانى، وهذا التنافس بين القبيلتين، يمكن إحياؤه من جانب أى طرف له مصلحة فى ذلك.

الثانى تمايز فكرى، بين تيار متشدد يمثله الملا محمد عمر والملا أمير خان متقى وزير التعليم، وتيار آخر منفتح ومعتدل يمثله اثنان من رجال الصف الأول هما مولوى جلال الدين حقانى القائد العسكرى المعروف، الذى عين مؤخراً قائداً عاماً لجيش طالبان، إضافة إلى كونه وزيراً لشئون القبائل، وله دوره المهم فى حشد تأييد القبائل البشتونية وراء الحركة. ثم مولوى عبدالكبير حاكم مدينة جلال آباد، وهو شخصية مستقلة نسبياً عن الملا عمر، وله علاقاته الخاصة مع الحكومة الباكستانية وجهاز مخابراتها، وهو الذى اقترح من قبل تسليم بن لادن ومحاكمته فى دولة ثالثة، فى حين كان الرأى الرسمى يدعو إلى محاكمته داخل افغانستان طبقاً للشريعة الإسلامية فى حالة تقديم أدلة اتهامه.

فى هذا الصدد، لا تفوتنا ملاحظة أن الرجلين حقانى وعبدالكبير، ينتميان إلى ولايات الجنوب الشرقى، التى تستشعر أن حصتها فى حكومة طالبان أقل مما استأثر به أبناء ولايات الجنوب الغربى، من القندهاريين وأحزابهم.

يتردد اسم وزير الخارجية الملا وكيل أحمد متوكل بين العناصر المعتدلة، وهو مالا أستبعده خصوصاً أن موقعه الراهن يوفر له فرصة أفضل للاطلاع على العالم الخارجى وتطوير موقفه، وهو الذى كان مقرباً من «أمير المؤمنين» ومسئولاً عن مكتبه، ومستشاراً له فى ذات الوقت، وقد ساعده على الاقتراب من الدائرة الخاصة للملا عمر، كونه قندهارى الأصل، وأنه ابن أحد العلماء الذين استشهدوا إبان الاحتلال السوفيتى وهو الشيخ المحدث عبدالغفار.







لن تغيب طالبان عن الساحة إلا فى حالة واحدة، إذا أختفى الملا محمد عمر من المسرح، (قتل فى غارة مثلاً)، لأنه الآن يمثل الخيط الوحيد الذى يربط بين حبات الحركة. وبعد وفاة الملا محمد ربانى. لم يعد وراءه رجل ثان يلتف عليه الإجماع. وأغلب أعوانه الحاليين كانوا -كما أشرنا قبلاً- ناشطين وقادة ميدانيين فى أحزاب أخرى

[٨]

لا تكتمل صورة خلفية المشهد، مالم نطل أيضاً على مواقف لأطراف أخرى معنية بالشأن الأفغانى، الذى أصبح يهم عدة دول أخرى فى المنطقة وخارجها، وتلك الدول حريصة على أن يكون لها دور فى وضع خرائط ما بعد طالبان، لأن الوضع المستجد من شأنه أن يؤثر على مصالحها، بدرجة أو أخرى، هذه الدول هى:

* باكستان، وهى الجارة صاحبة المصلحة الأولى، التى تشترك مع أفغانستان فى حدود ومصالح تتجاوز حصة أية دولة أخرى، إذ تمتد تلك الحدود بطول ٢٤٦٦ كيلومترا، وبسبب الجوار، والتداخل الجغرافى والعرقى، والأهمية الاستراتيجية التى تمثلها أفغانستان كبداية لباكستان إلى وسط آسيا، فإنه يصعب ترتيب أى وضع سياسى لمستقبل أفغانستان دون أن تكون باكستان شريكة فيه، أو راضية عنه.
* إيران، التى لها حدود مشتركة مع أفغانستان بطول ٨٤٩ كيلومترا، فضلاً عن وجود نسبة معتبرة من الشيعة فى الولايات الأفغانية الممتدة على الحدود، ثم إنها الدولة التى تدفع منذ عشرين عامًا - مع باكستان - ثمن عدم الاستقرار فى أفغانستان حيث يتدفق عليها اللاجئون مع كل أزمة تمر بها البلاد، ولديها الآن أكثر من مليون لاجئ أفغانى، لذلك فإنها تطالب بأن يكون لها دور فى رسم مستقبل أفغانستان، وقد أعلنت على لسان وزير خارجيتها كمال خرازى رفضها مشاركة حركة طالبان فى أية حكومة مستجدة فى كابول، كما أنها عبرت عن قلقها من الوجود الأمريكى فى وسط آسيا وراء ظهرها، وبالقرب من الاحتمالات النفطية الكبيرة فى بحر قزوين.
* روسيا الاتحادية، التى تعتبر أن ما يجرى فى أفغانستان يمكن أن يؤثر على أوضاع المسلمين فى داخلها، وكثيراً ما اتهمت حركة طالبان بأنها على صلة بالتمرد ودعوات الانفصال فى الشيشان، ثم إنها تعتبر أن الوضع فى أفغانستان له تأثيره المباشر على أوضاع الجمهوريات الإسلامية فى آسيا الوسطى، التى لاتزال موسكو تعتبرها مجالها الحيوى و«حديقتها الخلفية». ومعروف أن الروس لا يزالون يحتفظون بقوات عسكرية لهم فى تلك الجمهوريات.
* الهند، هى إحدى الدول التى دعمت قوات التحالف الشمالى المعارض، وكان لها يدفى تأييد وتقوية موقف الجناح الممثل للطاجيك، ويمثله الرئيس السابق برهان الدين ربانى، الذى لم يكن - ومعه القائد الراحل أحمد شاه مسعود - على وفاق مع باكستان، ويهمها الوضع الأفغانى من حيث إنه يمكن أن يكون مصدرًا للضغط على باكستان، بمثل ما أن باكستان تستخدم كشمير كورقة للضغط على الهند.
* الصين، لها حدودها المتواضعة مع أفغانستان (٧١ كم)، وربما اهتمت بالوضع الأفغانى من زاوية احتمال تأثيره بالإيجاب أو السلب على موقف مسلمى تركستان الشرقية (مقاطعة - سينكيانج الصينية حاليًا) البالغ عددهم حوالى ١٣ مليون نسمة، يتطلعون إلى الاستقلال، ويتحينون كل فرصة مواتية للتعبير عن مشاعرهم.
* الولايات المتحدة الأمريكية، التى غاية مايهمها فى أى وضع أفغانى أمران: ألا يكون مصدرًا للإضرار بمصالحها، وأن يوقف زراعة الأفيون الذى يصل بعضه إلى الولايات المتحدة فى نهاية المطاف. ولا يستبعد أن تتخذ واشنطون من الوضع الأفغانى ذريعة للبقاء فى وسط آسيا، قريبًا من الثروات الكبيرة فى المنطقة، ومن بينها نفط بحر قزوين وحقوق الغاز فى تركستان والمعلومات المتاحة تشير إلى أن الولايات المتحدة عازمة على البقاء لفترة غير قصيرة فى أوزبكستان.

الهند لها تحفظاتها على أن يكون لباكستان اليد الطولى فى تقرير مستقبل أفغانستان، ثم إن إيران ترى لنفسها حقا مساويًا لباكستان فى هذا الصدد، علمًا بأن البلدين كانا يقفان على طرفى نقيض، من حيث إن باكستان ظلت مؤيدة لطالبان، بينما وقفت إيران فى صف دعم المعارضة الشمالية. فى الوقت ذاته فإن باكستان ليست على علاقات ود مع الرموز الطاجيكية والأوزبكية التى تقود التحالف الشمالى فضلاً عن ذلك فلها هواجسها إزاء عودة الملك ظاهر شاه الذى اعتبر أثناء حكمه أن باكستان مغتصبة لأرض بشتونستان، ورفض الاعتراف بها.

وإذا كانت الولايات المتحدة تراهن على دور رئيسى لباكستان فى ترتيب مستقبل أفغانستان، كما تراهن على قوات التحالف الشمالى، لكى تكون القوة الضاربة على الأرض - أو واجهة تلك القوة إن شئت - فإن ظروف هذا التحالف ليست أقل تعقيدًا من ملابسات الدور الباكستانى، كيف؟ «لأن شيئا واحدا يجمع بين عناصر ذلك التحالف، هو معارضتهم لحكم طالبان وانفرادهم بالسلطة. فيما عدا ذلك فهم مختلفون فى كل شىء تقريبًا. مختلفون عرقيًا، فبينهم البشتون الطاجيك والأوزبك والشيعة الهزارة، ومختلفون كأحناف متعصبين وشيعة اثنى عشرية. ومختلفون فى الموقف من باكستان. فربانى متحفظ إزاءها، وحكمتيار وسياف مقبولان لديها، والأوزبك والشيعة يعارضون دورها. ومختلفون حول الموقف من الملك ظاهر شاه. بين محبذين لعودته ومعارضين لدوره. كما أنهم مختلفون إزاء التدخل الأمريكى بين مؤيد له ومعارض (حكمتيار قال إنه إذا دخلت القوات الأمريكية أفغانستان، فسوف يحارب فى صف طالبان، وربانى وسياف لا يثقان فى نوايا الإدارة الأمريكية).

من ناحية أخرى، فإن قوات الراحل أحمد شاه مسعود، (١٥ ألف مقاتل أغلبهم من الطاجيك، وتمثل العمود الفقرى للمعارضة) هذه القوات التى يقودها الآن الجنرال «فهيم»، ومعهم قيادات حزب الرئيس السابق ربانى، يتخوفون من أن تكون أوزبكستان بتعاونها مع واشنطن فى الحملة العسكرية لها هدف آخر أبعد. إذ يشك فى أنها تريد أن يبسط الجنرال الأمريكى عبد الرشيد دوستم على المعادلة الأفغانية. كما أنهم يتخوفون من أن يكون قادة ميدانيين مثل إسماعيل خان فى الغرب، والقائد عبد الحق فى الشرق، وغيرهما من القادة، قد يقومون بصفقات جانبية بعيدًا عنهم لصالح آخرين، مثل الملك ظاهر شاه. وبوجه عام، فإن القوى الإسلامية فى تحالف الشمال تنظر بعين الشك إلى «دوستم»، وتعتبره رجلاً انتهازيا ومتقلبا، صنعه السوفييت ونعتبره على رأس ميليشيا أوزبكية لضرب المجاهدين، ثم دخل بعد ذلك فى تحالفات ومعارك عديدة معهم.

هذه الملابسات تشكل نموذجًا للخلفية التى تكمن وراء المساحة التى تبذل لترتيب المستقبل فى أفغانستان، وتسلط الضوء على مدى وعورة الطريق إلى ذلك المستقبل.

[٩]

لن تغيب طالبان عن الساحة إلا فى حالة واحدة، إذا اختفى الملا محمد عمر من المسرح، (قتل فى غارة مثلاً)، لأنه الآن يمثل الخيط الوحيد الذى يربط بين حبات الحركة. وبعد وفاة الملا محمد ربانى. لم يعد وراءه رجل ثان يلتف عليه الإجماع. وأغلب أعوانه الحاليين كانوا - كما أشرنا قبلاً - ناشطين وقادة ميدانيين فى أحزاب أخرى مازالت قائمة (الحزب الإسلامى الذى يقوده المولوى محمد يونس خالص، وحركة الانقلاب الإسلامى بقيادة المولوى محمد نبى). إذا اختفى الملا عمر، فسوف ينفرط العقد، وسيشحب دور طالبان على نحو تدريجى، الأمر الذى سيخرجها فى الوقت نفسه من المعادلة الأفغانية.

أما إذا كتبت له النجاة، فقد ذكرت أن طالبان ستتحول فى الأغلب إلى حركة جهادية، مستفيدة من كوادرها وفى الالتفاف المتوقع حولها، سواء من جانب الذين استفزتهم

الغارات الأمريكية، أو من جانب القبائل البشتونية التى تعتبر أن الانتصار لطالبان هو تثبيت لقدم البشتون «الحكام التاريخيون لأفغانستان» فى مواجهة الأعراق الأخرى القادمة من الشمال مدعومة بالقوى الأجنبية [لاحظ ان عشرات الآلاف من البشتونين المقيمين فى باكستان احتشدوا على الحدود وقرروا العبور عنوة للحرب مع طالبان].

أغلب الظن أن قادة طالبان الذين يفكرون على ذلك النحو، لايزالون متأثرين بتجربة الجهاد الأفغانى ضد الاحتلال السوفيتى فى الثمانينيات، أو على الأقل فهذا ما فهمته من الدوائر الباكستانية المتصلة بهم، واستدعاء هذه التجربة ينم عن خلل فى القياس، لايضع فى الاعتبار جملة المتغيرات الدولية التى حدثت فى العقدين الأخيرين، فهو يلغى مثلاً أن العالم انتقل من المرحلة ثنائية القطبية إلى مرحلة القطب الواحد. وإذا كانت الولايات المتحدة قد شجعت الجهاد ضد السوفييت فى الثمانينيات، فإن الكل ضدهم الآن، وإذا كانت باكستان آنذاك عمقًا لهم ومصدرًا للإمداد والتموين والتسليح ومركزًا لتجميع الأنصار، فإن ذلك الباب أغلق الآن تمامًا، ثم إن القتال ضد السوفييت إذا كان قد لقى إجماعًا بحسبانه «جهادًا»، فإن التكييف الشرعى للقتال ضد أى حكومة أفغانية أخرى لن يحظى بغطاء من ذلك القبيل.

فى كل الأحوال فإن حركة طالبان، فى حالة استمرار وجود الملا عمر، ستظل طرفًا لا يمكن تجاهله لضمان الاستقرار فى أفغانستان. وإذا استثنينا موقف إيران الرافض لأى دور للحركة فى الحكومة المقبلة، فإن أغلب الأطراف الأخرى تميل إلى اشراك بعض رموز الحركة فى تلك الحكومة، باستخدام ورقة التنافس بين القبيلتين الكبيرتين فى قندهار (غلزائى وإبدالى)، أو ورقة المعتدلين والمتشددين، أو بشتون الجنوب الشرقى المهمشين نسبيًا فى مواجهة بشتون القندهاريين فى الجنوب الغربى.

هذا اللعب على التمايزات يفترض أنه يستهدف شق الحركة وإقصاء الملا محمد عمر، وهو الدور الذى يمكن أن تقوم به ـ دون غيرها ـ المخابرات الباكستانية وثيقة الصلة ببعض قيادات طالبان، ولا نستبعد أن تستخدم الولايات المتحدة أو باكستان الإغراءات المالية لإحداث ذلك الشق، عن طريق استقطاب بعض زعماء القبائل، وربما أيضاً بعض عناصر الحركة ذاتها.

[١٠]

الفرض الأساسى الذى نحن بصدده أن ثمة حكومة أخرى غير طالبان سوف تتشكل فى كابول، لكى تملأ الفراغ الناشئ عن غيابها ولو بصفة مؤقتة، والخيارات المطروحة لتشكيل تلك الحكومة ثلاثة: أن تكون برئاسة الملك ظاهر شاه، وبمشاركة قادة التحالف الشمالى ـ أو أن تكون من قادة ذلك التحالف يتقدمهم الرئيس السابق برهان الدين ربانى، مستبعداً منها الملك ظاهر شاه ـ أو أن تكون بمشاركة الجميع الملك والتحالف وجناح من طالبان.

عودة الملك مرغوب فيها أمريكياً وأوروبياً بالدرجة الأولى. لكن الطريق ليس مفتوحاً ولا ممهداً أمامها تماماً، فالملك سيعود رمزاً وواجهة فقط، ولن يحكم بسبب ضعف صحته (عمره ٨٦ عاماً) وإنما الذى سيدير الأمور هو ابنه ومستشاروه، ثم إن باكستان ليست متحمسة له للسبب الذى ذكرناه، كما أن ربانى وفريقه ليسوا مرحبين به، وحجتهم فى ذلك انهم لم يناضلوا ويصمدوا طيلة السنوات التى خَلت، لكى يسلموا السلطة فى النهاية إلى الملك القابع فى المنفى منذ عام ٧٣.



تشكيل حكومة من قادة التحالف لا يخلو بدوره من محاذير، فالتناقضات شديدة بين فصائل التحالف، ثم إن الدور البارز للطاجيك فيه لابد أن يثير قلق البشتون، الذين سيكونون أقلية فى ذلك الوضع الجديد. ثم إن هناك حساسية لا يمكن تجاهلها من جانب باكستان إزاء وجود الطاجيك فى حكومة كابول، وليس معروفاً فى هذه الحالة كيف سيتصرف الأوزبك الذين ظلوا يعملون مستقلين عن قوات التحالف التى أنشأها القائد الراحل أحمد شاه مسعود.

يبدو الخيار الثالث أكثر قبولاً، من حيث إنه يضمن على رأس الدولة حاكما بشتونيا وإلى جوارە حكومة من قادة التحالف وعناصر من طالبان. وهو حل قد يرتضيه الجميع، باستثناء إيران المعترضة على اشتراك طالبان، والهند التى لن تخفى امتعاضها من تشكيل حكومة تلقى قبولا من باكستان.

فى التقاليد الأفغانية المستقرة منذ ٢٥٠ سنة على الأقل أن أموراً مصيرية من هذا القبيل يحسمها «اللويا جيركا» وهو أشبه بالبرلمان الذى يجتمع فيه ممثلو الأمة، من زعماء القبائل والأعراق والعلماء، وثمة جهود تبذل الآن بين الأطراف الأفغانية المختلفة لتوفير قدر من الإجماع حول تصورات المستقبل وصيغة «مابعد طالبان»، أبرزها ذلك المؤتمر الذى عقد فى بيشاور فى الأسبوع الأخير من شهر أكتوبر تحت عنوان «السلام والوحدة الوطنية». ولوحظ أن الوفد الذى يمثل الملك لم يشترك فيه، ربما لأن المؤتمر كان تحت رعاية باكستانية. وهناك مؤتمر آخر مماثل يعد له فى أنقرة، قيل إن ممثلى التحالف وممثلى الملك سيشاركون فيه. وقد رحبت به تركيا، المعنية بالموضوع، باعتبار أنها تصنف جمهوريات وسط آسيا ضمن «العالم التركى». ولأن الأمر ليس يسيرا، بسبب التناقضات التى ذكرناها، فأغلب الظن أن ذلك الإجماع المنشود لن يتحقق فى وقت قريب، وأن الظروف ليست مهيأة بعد لانعقاد «اللويا جيركا». الأمر الذى لا يستبعد معه أن تغرق أفغانستان فى بحر من الفوضى لبعض الوقت، وهو المصير الذى ستحاول تجنبه أطراف عدة، باكستان فى مقدمتها.

ولأننا تعلمنا أنه لا توجد فى السياسة عامة كلمة «أخيرة» أو «وحيدة»، فينبغى ألا نسقط من الاعتبار مسار الحملة العسكرية الأمريكية الراهنة ونتائجها، وضغوط الرأى العام العالمى التى تتزايد بمضى الوقت رافضة لاستمرارها، لأن ذلك المسار سوف يؤثر بالضرورة على مواقف وحسابات مختلف الأطراف.

لننتظر إذن لكى نقف على نهاية الفيلم، ونعرف ما مصير الملا عمر وطالبان وأسامة بن لادن ومنظمة القاعدة، ثم ما الذى تبقى من أفغانستان ومن الأمريكان على الأرض.

كتاب الزاوية

الزراعة فى بلاد الأفغان

إن البلاد الأفغانية لاختلاف أبعادها عن خط الاستواء ووجود الجبال العالية والأودية المنخفضة فيها تختلف أهويتها حرارة وبرودة على حسب المواقع ولتغير بتغير الفصول والأزمان ولكنها جيدة للصحة خلوها عن العفونة والفساد وقلَّ ما تقع فيها الأمراض الناشئة عن فساد الهواء كالأمراض الوبائية. وبيوت المدن والقرى طبقة واحدة مبنية غالباً باللَّبِن خالية عن الزخرفة والزينة إلا مدينة كابل فإن جل أبنيتها بالأخشاب والأحجار وقد يوجد فى بعضها حدائق وجداول وحياض. وشوارعها وأزقتها ضيقة معوجة خلا شوارع مدينة قندهار فإنها واسعة مستقيمة. والجوامع المشيدة المزخرفة التى كانت فى تلك البلاد فى الأزمنة السالفة صارت بسبب توالى هجمات الأعداء ودوام المحاربات خاوية على عروشها إلا القليل منها.

وأراضى الأفغان قابلة لأنواع المزروعات ترويها أنهر ونهيرات ولكن لكثرة الفتن وعدم مهارة الأهالى فى فنون الزراعة وإحكام الجسور وحفر الترع وبناء القناطر تكون غالب الأراضى المرملة بلا انتفاع تعتدُّ به. ومع ذلك فالأهالى يزرعون البر والشعير والأرز والذرة والدخن والباقلة والحمص والبقول والخضروات وغيرها مما تقوم به معيشتهم ولا يهملون زرع قليل من القطن والتنباك والأفيون والحشيشة للتجارة ويسعون بقدر طاقتهم إلى غرس الأشجار وتربيتها كالكرم والخوخ والمشمش والكمثرى والتفاح والسفرجل والرومّان والجوز واللوز والعناب والفستق والتوت وغيرها، وأهالى هرات يربون دود القز. ويزرع فى جلال آباد قصب السكر.





يوسف القعيد

■■ السؤال قادني إلى رحلة، عرفت نقطة البدء فيها ولم أتمكن حتى الآن من الوصول إلى كلمة ختامها. تساءلت عن الأدب الأفغاني وموقعه من الكتابات المصرية والعربية. دراسة وتحليلاً وترجمة. كنت أتصور أنني ساجد نفسي إزاء زحام كتابات. توفر لي إمكانية الاختيار. فإذا بي إزاء حالة من الندرة الشديدة. وأنها تعكس حالة عدم اهتمام عربية شاملة بادب هذا البلد. البعيد القريب.

كيف مارسنا هذا الإهمال الشديد. الذى يصل إلى حدود الجريمة مع بلد أتى منه جمال الدين الأفغاني؟ ولد في قرية أسعد أباد من قرى كنر التي تبعد ثلاثة أيام عن كابول. في رواية أنه ولد سنة ١٨٣٨ وفي رواية أخرى ولد في السنة التالية. وفي ٩ مارس ١٨٩٧ توفي الأفغاني على أثر عملية جراحية لإزالة سرطان في الفم. ودفن في نفس اليوم. دون أي مراسم في مقبرة عادية بالأستانة. وكنت أتصور أنه بلد ابن تيمية أيضاً. ولكن اتضح لي أنه ينتمي إلى بلدة اسمها حران تقع شمال غرب أفغانستان وإيران. وجنوب شرق تركيا. وشمال العراق وسوريا. وأنه ربما كان من الأكراد. هذه الفئة التي قدمت للأمة الإسلامية والعربية أفضل إبداعاتها في الأدب والشعر والعسكرية والزعامة ابتداء من العصر الوسيط وحتى الآن. ولكن تلك قضية أخرى.

كانت حالة من الشك إن جمال الدين الأفغاني خرج من أفغانستان. والدكتور محمد عمارة يصر على أنه أفغاني اسماً وفعلاً. وفهمي هويدي يذكر في كتابه «طالبان جند الله في المعركة الغلط» أن ضريح السيد جمال الدين الأفغاني في حرم جامعة كابول لم يدمر تماماً وإنما أصابته قذيفة أطاحت بجزء منه. ومهما كان الخلاف والاختلاف المثير حول الرجل ودوره. وشخصيته وتاريخه ومولده ونشاته ومذهبه ومراحل حياته. وظروف وفاته وأفكاره الدينية وعقيدته وإيمانه. إلا أن أثره في العالم الإسلامي من أفغانستان إلى إيران ومصر والامبراطورية العثمانية. لا يمكن إنكاره أو التقليل من قيمته.

إلا أن البلد الذى انحدر منه لم يقابل منا سوى بالإهمال. قال لي الدكتور حسين مجيب المصري. أن السبب في ذلك هو حداثة الدولة الأفغانية. وأن أدبها المكتوب موزع بين أكثر من لغة. فهناك كتابات أدبية أفغانية ولكنها مكتوبة بالفارسية مثلاً. وكثير من المؤرخين تعاملوا مع تراث البلد الفكري باعتباره جزءاً من التراث الفارسي، أو جزءاً من تراث شبه القارة الهندية. ولهذا - أكد لي - لن تجد ما تبحث عنه أبداً.

الموسوعة الإسلامية تقول إن البلاد المعروفة الآن باسم أفغانستان لم تحمل هذا الاسم إلا منذ أواسط القرن الثامن عشر عندما تدعم الجنس الأفغاني. وكانت المقاطعات المختلفة تحمل قبل ذلك أسماء مختلفة. ولم تكن للمملكة وحدة سياسية محددة. ولا الأقسام التي تتالف منها مربوطاً بعضها ببعض بأي رباط جنسي أو لغوي. وكان معنى اسمها قديماً بلاد الأفغان. وبعد أبواب عن التكوين الجيولوجي. ووصف الجبال. والأنهار والتكوين العام. والمناخ. والتقسيم السياسي والسكان والشعوب التي من أصل فارسي. والجنس التركي والمغولي. الشعوب الآرية غير الإيرانية التي تقطن جبال هندوكش. وقبل الوصول إلى ما جاء في الموسوعة عن اللغة والأدب في أفغانستان. أتوقف أمام المعلومات السابقة لأستخلص منها بعض الحقائق..

أولها: أن موقع أفغانستان أكثر من استراتيجي وأكبر من مهم. فهي مفصل بين حضارات ودول. وأن هذا الموقع بقدر ما أعطاها أهمية من نوع خاص. فقد كان لعنة طاردتها عبر سنوات عمرها القليلة.

ثانيتها: أن هذه الدولة أسسها أحمد خان الأبيرالي «أحمد شاه بابا» سنة ١٧٤٧ أي أن عمرها الآن بالحساب الدقيق مائتان وأربع وخمسون سنة. وفي أعمار الشعوب فإنها سنوات قصيرة جداً. لا تمكن سكان البلد من الانصهار. لأن هذه عملية تتم عبر قرون طويلة. إن الأجناس التي تؤلف سكان أفغانستان أربعة: الأفغان. الفرس. الترك. والمغل. سكان هندوكش الآريون. وبالتالي فإن مشكلة هذا البلد تتمثل في حداثة التاريخ التي تتناقض مع صخب الجغرافيا.

ثالثتها: أن للدولة الأفغانية حدودا مع ست دول هي: إيران وتركمانستان وطاجكستان وأوزوبكستان والصين وباكستان وإن كانت ليس لها ميناء بحري. ولا تطل على أي بحر أو محيط.

رابعتها: أن طبيعة المكان وعرة. الجبال هي العلامة الأولى. فيها جبال عالية لدرجة أنه يقال عنها سقف الكون والعالم. وجميلة لحد القول عنها سويسرا الشرق. كما قالت لي الدكتورة عفاف زيدان رئيس قسم اللغة الفارسية وآدابها بكلية بنات الأزهر. وأنها بلد يخلو من البنية التحتية التي نعتبرها في العالم الثالث من علامات الحضارة في العصر الحديث.

خامستها: أنه رغم قصر عمر الدولة فقد تعرضت لغزوتين: الأولى إنجليزية ١٨٤٠ والثانية سوفيتية ١٩٧٩ - ١٩٨٩. وكان الفشل نصيب كل منهما. فقد ذهب الغزاة وبقيت أفغانستان.

عن اللغة والأدب في أفغانستان تقول الموسوعة الإسلامية:

- إن اللغة التي يتم الكلام بها في أفغانستان هي من الشعبة الفارسية. ما عدا التركية التي تتكلم بها في إقليم جيجون قبائل «جهارايماق» ولغات الكافر في كافرستان ومن هذه اللغات الفارسية ويتكلم بها التاجيك في ولايتي كابل وهراه. وفي مدنهم الخاصة بهم في بنخشان وقوهستان. ويتكلم الفارسية أيضاً الهزارة المغل وقزل باش كابل وهراه الذين هاجروا إليها في القرن الثامن عشر وهم من القبائل التركية في شمال فارس. واللغة الفارسية المستعملة في أفغانستان قديمة وقد حافظت على خاصية المجهول والمعروف القديمة. ورغم اختلافها من الفارسية الحديثة.

واللغات الإيرانية الأخرى تنسب إلى الشعبة الإيرانية الشرقية. وتشمل الشتود مجموعة غلجة وبركست التي تتكلم بها قبائل أرمرى. والبشتو أو الأفغاني وهي لغة الأفغان وتنتشر في كل بلادهم. داخل الدولة الأفغانية الحالية وخارجها. محدودة من الشمال بلغتي كافر ودرد ومن الشرق بالبنجابية الغربية أو الهمندا. ومن الجنوب بالـ«بلوخي» ومن الغرب بالفارسية.

وأدب البشتو الذي استمر إلى وقتنا هذا بدأ في القرن السادس عشر وغالبه شعر وفيه بعض مؤلفات نثرية هامة ولاسيما في التاريخ مثل مخزن بشتو. ومخزن إسلام لأخون دوريزه. وتاريخ مرصع لأفضل خان خطك. وأهم الشعراء خوشحال خان زعيم الـخطك الذي سجن مدة من الزمن في بلاط الامبراطور أورنك زيب. وميرزا خان الأنصاري الشاعر الصوفي. ومن الشعراء الشعبيين عبد الرحمن وعبد الحميد. وقد ترك كل واحد منهما ديواناً له طابع صوفي ثم عبد القادر خطك وأحمد شاه الملك الدراني الكبير. ويعتبر الأفغان عبد الرحمن أحسن شعرائهم. ولكن الرأي الأوروبي يفضل شعر خوشمال لبساطته وقوته. ويمكن القول إن الأدب الأفغاني تظهر فيه الصنعة والتقليد وما هو إلا ترديد للنماذج الفارسية.

وإلى جانب هذا الأدب هناك شعر شعبي حقيقي. لم يسترع الأنظار إلا مؤخراً. وقد جمع دار مستتر هذا الشعر فدفع عنه عادية النسيان. وهذا الشعر يعبر تعبيراً صادقاً عن عواطف الشعب الحقيقية في الحرب وفي أمور السياسة والحب. وجمع توربيرن أيضاً بعض الأغاني والأحاجي والأمثال كما نشر هول بعض أغان جياشة. وليس لواحد من هذه الأشعار الشعبية تاريخ قديم. ولا توجد أشعار حماسية عن الهجرات الكبرى وفتوحات الجنس الأفغاني. ما عدا قصيدة خاصة بأحمد شاد. وأغلب هذه القصائد يرجع تاريخها إلى القرن التاسع عشر. وليس فيها ما يوازن بالقصائد الحماسية الجميلة التي لقبائل بلوخستان. وفي لغة بشتو مؤلفات دينية كثيرة. نظماً ونثراً. وقد طبع عدد كبير من هذه المؤلفات على الحجر في بيشارو ولاهور. وليس لأغلبها قيمة أدبية كبيرة ويمكن أن يذكر منها «مير حمزة» وهي قصيدة طويلة أنشاها ميان محمد الصحاف.

بعد رحلة بحث مضنية في مكتبات القاهرة سواء العامة منها أو مكتبات الأصدقاء. عثرت على رواية منشورة من الأدب الأفغاني الحديث، ورواية أخرى مخطوطة. ومقابلة طويلة مع كاتبة افغانية. وقد استغربت أن من يكتب الرواية في أفغانستان هن النساء برغم القيود المفروضة على المرأة الأفغانية. وقد قالت لي الدكتورة ماجدة مخلوف الأستاذ المساعد بقسم لغات الأمم الإسلامية في كلية الآداب جامعة عين شمس: إن هذا من الأمور الطبيعية أن تكتب المرأة النص الروائي. لأن الرجل متفرغ طوال سنوات طويلة للجهاد والكفاح ضد أعداء البلاد. وكتابة النص الروائي تتطلب تفرغاً شبه تام. لا يحدث للرجل وإن كان يتوفر للمرأة.

---

١ - الهجرة من أفغانستان
رواية أفغانية
تأليف: مرال معروف
ترجمة: د. محمد حرب
دمشق: دار القلم

٢ - معسكر الأرامل
رواية أفغانية
تأليف: مرال معروف
ترجمة: د. ماجدة مخلوف
مخطوط تحت النشر

مرال معروف

وهى مؤلفة الروايتين. ومرال معروف كما يقول الدكتور محمد حرب مترجم رواية «الهجرة من أفغانستان». ولدت فى كابول عاصمة أفغانستان عام ١٩٦٠، ودرست المرحلتين الابتدائية والإعدادية فى أنقرة عاصمة تركيا. عندما اشتغل والدها فى الإذاعة التركية قسم الباشتو الموجه إلى أفغانستان. وتخرجت فى مدرسة مستور الغورى الثانوية للبنات فى ولاية لاغمان الأفغانية «وهى الولاية التى تجرى فيها أحداث روايتيها» وكان تخرجها عام ١٩٧٨، وفى ذلك العام قبض النظام الشيوعى فى أفغانستان على والدها، وألقى به فى السجن. فكان لزاماً أن تعود أسرته إلى جارباغ موطنها الأصلى. واضطرت مرال إلى العمل فى تدريس اللغة الإنجليزية للبنات فى المدرسة الثانوية. وفى عام ١٩٧٩ احتل الاتحاد السوفيتى أفغانستان احتلالاً مباشراً بواسطة القوات المسلحة السوفيتية. ومع هذا الاحتلال قامت السلطات فى كابول بإطلاق سراح عشرات الآلاف من المسجونين المعادين لها والذين لم تتم عملية تصفيتهم وقتلهم بعد. وذلك كنوع من الدعاية وحتى تخف معاداة الشيوعية فى داخل أفغانستان. وكان من بين المطلق سراحهم والد الكاتبة مرال. أسندت الحكومة الأفغانية لوالدها منصباً. لكنه كان مراقباً فى كل حركاته وسكناته بواسطة مندوب المخابرات الأفغانية. وعلى ذلك استقرت الأسرة مرة أخرى فى كابول. وعملت مرال معروف معلمة للغة الإنجليزية فى مدرسة فالاجا الإعدادية للبنات فى كابول. وكانت فى نفس الوقت تدرس كطالبة فى أكاديمية المعلمين. ومن جانب آخر تستعد خفية مع أسرتها فى ترتيب استعداداتهم للهجرة إلى مدينة الأنصار بيشاور. وكانت هجرة مرال معروف مع والدتها وأختها فى ٢٠ ديسمبر ١٩٨٠ إلى بيشاور وهذه الهجرة تشكل التجربة الأولى التى خرجت منها الرواية.

وفى رسالة كتبتها الروائية إلى أحد معارفها سنة ١٩٨١ تقول: إن أخاها الكبير يجاهد فى الداخل - أى داخل أفغانستان - وأخاها الأوسط يتدرب على أعمال الجهاد العسكرية فى أحد المعسكرات على الحدود الأفغانية. وأخاها الأصغر بائع متجول فى الشوارع. ورغم صغر سنه إلا أنه يقوم بدورد فى الكسب من أجل الإنفاق على أسرته. ووالدها يعمل فى شئون المهاجرين الأفغان. فى مكتب حزب إسلامى فى باكستان. وهى تعمل معلمة فى المرحلة الإعدادية للبنات وعضو اتحاد النساء فى حزب إسلامى لرعاية أسر المهاجرين الأفغان.

الهجرة من أفغانستان

وتحت عنوان الرواية تعريف بها على طريقة جرجى زيدان: رواية واقعية تصور هجرة النساء الأفغانيات والمسنين من أفغانستان إلى باكستان. وما عانوه فى الطريق من ظلم الروس وقسوة الكفار وفظائع المرتدين وأحوال الصحراء ووعورة الجبال ومعاناة الخوف والاضطراب.

الهجرة من أفغانستان ثلاثية. الجزء الأول



المرأة الأفغانية المعاصرة؟



استغربت أن من يكتب الرواية فى أفغانستان هن النساء برغم القيود المفروضة على المرأة الأفغانية. وقد قالت لى الدكتورة ماجدة مخلوف. الأستاذ المساعد بجامعة عين شمس: أن هذا من الأمور الطبيعية. لأن الرجل متفرغ طوال سنوات طويلة للجهاد.

منها عنوانه: هجرتى. والثانى: الفرار من بخارى. والثالث: هجرة منور. والراوية تستخدم فى هذه الروايات الثلاثة القصيرة ضمير المتكلم «أنا» ومن الواضح أن الكاتبة تكتب نصوصها الثلاثة وهى مستندة إلى معرفة واسعة بالنص الروائى الغربى الذى اكتملت أدواته فى النصف الأول من القرن العشرين. هذا رغم المحتوى الشرقى الذى تحاول أن تقدمه.

فى النص الأول هجرتى: تصور الكاتبة أسرتها. اسم البطلة داخل النص مرال أيضاً. تصف هجرة أسرتها والظروف التى أحاطت بهذه الهجرة ودوافعها ومشاق الطرق وظروفها القاسية والخوف من الطريق. والإيمان بالنصر الذى سيأتى من عند الله. وهى هجرة من أفغانستان إلى بيشاور مدينة الأنصار. أما الأب والإخوة الذكور فقد بقوا لانشغالهم بالحرب الجهادية. هذه المرحلة توشك أن تكون ترجمة ذاتية للمؤلفة. فهى تتكلم فى رسالة إلى أحد معارفها عن هجرتها مع أمها وأختها. ومرال بطلة الرواية تهاجر مع أمها وأختها. إذن هناك حالة من التطابق بين واقع المؤلفة. وواقع البطلة.

وهذا القسم يبدأ هكذا..

ـ كانت هذه ليلتنا الأخيرة فى مدينتنا الحبيبة لاغمان كما كانت ليلتنا الأخيرة أيضاً فى جارباغ قريتنا العزيزة. التى أحبها الشعب الأفغانى فى أفغانستان. وكان قد جاء اليوم إلى منزلنا مجموعة من الأشخاص. لعلهم خمسة وقد يكونون ستة. كانوا من البدو الرُحّل. جاءوا لأخذنا. ذلك لأننا سنعبر الحدود متخفين فى أزياء وملابس أفراد القبائل البدوية الرحل. أحضر لنا جيراننا ـ لى ولأمى ولعائشة ـ ملابس بدوية استأجروها لنا من العائلات البدوية الرحل التى يعرفونها.

وسبب الهجرة أن السلطة كانت تبحث عن عبد الحق الذى يقاومها. أعلنوا عن ستة ملايين أفغانى ـ وهى العملة الأفغانية ـ لمن يقبض عليه. وعندما فشلت المحاولة. جاء من يخبرهم أن الروس سيقبضون على عائلة عبد الحق ليجبروه على تسليم نفسه. لذلك سافرت النساء. تصف لحظة الوداع:

ـ ومع امتداد الحديث وأثناءه. كنا نجمع احتياجاتنا من ناحية. ونبكى من ناحية أخرى. ونتحدث من ناحية ثالثة. أصوات الرجال تأتى من الخارج. نعم فقد وصلت الجمال. كانت جارباغ فى قبضة المجاهدين تماماً. وكان الروس ينوون الاعتداء عليها من أجل تدمير بيت عبد الحق وأخذ أسرته بجميع أفرادها أسرى لديهم. لذلك كنا مجبرين على الهجرة.

تصف عملية ركوب الجمل بالنسبة لها كامرأة. وتقرأ شعارات الكفاح ضد الاحتلال السوفيتى لأن الليلة كانت مقمرة. كانت النساء راكبات فوق الجمال والرجال يمشون فوق الجبال. يسيرون فوق الصخور الصعبة. وبعد الصخور جاء الطريق الرملى الناعم. وبعده الطريق الأسفلتى. كانوا يخافون جنود بابراك كارمل. وفى هذا دلالة على الزمان الواقعى الذى تدور فيه الأحداث. ذلك أن المؤلفة حريصة على أن تحدد الزمان والمكان الذى تجرى فيه الأحداث بكل دقة. وتصل القبيلة المهاجرة إلى الجسر. حيث يوجد الروس. ومن الممكن انكشاف أمرهن. كان مع الروس ضابط أفغانى. تصفه بالعبودية للروس والأمريكان وإنجلترا والصين. العملاء مستعدون لكى يبيعوا وطنهم نظير الدولارات الأمريكية.

أحضروا لهن فتاة روسية من أجل التفتيش. ترفض البطلة وأمها وأختها أن يتم التفتيش أمام الرجال. ويذهبن إلى مكان خلف الحامية. حتى يتم التفتيش هناك. بعد أن ينتهى التفتيش. تقول الفتاة لهن: هيا اعبروا. وتصف الكاتبة عملية العبور:

ـ عبر ثلاثتنا فى انفعال. أخذنا نغذ السير لكى نلحق بعمنا الذى ينتظرنا فى مفترق الطريق الأسفلتى. كنا ننظر إلى الجبال المريبة التى تلف «قاما السفلى» من أربع جهات ها هو ذا مربض المجاهدين.

وتقابل فى الطريق كل فئات الشعب الأفغانى:

ـ الشعب الأفغانى كله كريم مضياف. لكن البدو بالذات أكثر كرماً وضيافة.

ثم تتكلم عن النساء الأفغانيات.

ـ ملابس النسوة والفتيات تبدو جميلة. ملابس من قماش مختلف ألوانه. الوسط منها مطرز مستطيل. ملابس طويلة تمتد حتى أقدامهن. ويلبسون شالوارات من نفس القماش. أغطية رءوسهن كبيرة واسعة جداً. ومن لون الملابس نفسها. وإذا كانت الملابس منقوشة فلابد أن يكون الحجاب غير منقوش.

النساء ـ تكتب المؤلفة ـ يتعبن دائماً والرجال يرتاحون دوماً. كل الأعمال تقوم بها النساء فى الدار. وجمال البدويات الأفغانيات جمال مشهور. وكم من الملاحم كتبت عن جمالهن. ويصلون إلى باكستان التى كانت البطلة تفكر فيها منذ شهور. وتتساءل: ترى هل شعبها طيب مثلها؟ وعندما تسمع اسم مدينة شينوار تصاب بالرعب. يقف شعر رأسها. كانت شينوار هى المدينة الوحيدة التى يشمئز منها كل شعب أفغانستان. فكل أهلها أعداء للمجاهدين. وتكون كندو أول مدينة باكستانية تراها. ومنها تحركت إلى بيشاور. وتختم قصتها:

ـ ها هى ذى هجرتى. لا أدرى إن كانت مرة أو لطيفة. لكنها هجرة. هاجرتها وأنا أشعر بألف اضطراب واضطراب. سأصل إلى بيشاور على أن أبقى فى باكستان قليلاً. وسأعرف هناك آلاف الأنصار الحقيقيين. الجماعة الإسلامية. هذا الامتداد الحقيقى لأنصار المدينة. هذه الجماعة لم تدخر وسعاً فى محاولة التخفيف عنا بُعدنا عن أفغانستان.

ها هو عمى. لا أحس بالألم من أجل أنفسنا، ثقوا أننا فى بعض الأيام نعيش على الطوى جوعى. لكننا نفكر فيهم. فى هؤلاء المحاربين فى الجبال وهم جياع وعطشى ويحاربون: هؤلاء المجاهدون الأبطال. لا يهم أن أجوع أنا. لكن المجاهد لا يبقى جائعاً. ذلك لأنه هو الذى يعمل على إحياء الإسلام. إنه هو الذى يحافظ على الأرض التى سيرفرف عليها علم الإسلام. بإذن الله عز وجل.

الفرار من بخارى

الراوى فى هذه القصة هو عم مرال والكلمة الأولى فى هذه القصة. هى نفسها الكلمة الأخيرة فى القصة السابقة. تقول: عاد إلى أفغانستان. عمى الذى رافقنا من أفغانستان إلى باكستان عندما هاجرنا إليها. كان عمى قد اتفق وهو هناك مع مجموعة من المجاهدين تذهب إلى باكستان للحصول على السلاح.

إن هذه القصة تصور حالة المسلمين فى تركستان عندما لم تتح لهم الفرصة لأن يقوموا قومة رجل واحد ضد الاحتلال الروسى. وكانت النتيجة واحدة وهى إبادة القوات الروسية للمسلمين فى تركستان إبادة جماعية. مذلة. وكانت هذه الصورة يمكن أن تتغير لو كان للمسلمين هناك إمكانيات الأفغان المادية والمعنوية. فالموت فى النهاية واحد لابد أن يحدث لكل البشر. لكن طريقة الإقبال على الموت تكتب الحياة لشعب واحد موحد. الحياة الكريمة فى الدنيا. والخلود فى الجنة الآخرة.

والمؤلفة تطبق مبادئ للقص الشرقى. وهى أنك يمكنك أن تتكلم عن واقعك بصورة أفضل عندما تدرك حال غيرك من الناس الآخرين. فإن كان أهل مرال قد قاوموا ووقفوا وقفة رجل واحد ضد الروس. فإن أهل تركستان لم يقدموا نفس الجهد فى الكفاح ضد المحتلين. وأيضاً الحكاية التى تقوم على حكاية تخرج من رحم حكاية. ذلك أن عم مرال يحكى ثم يبدأ بعده مباشرة ابن إحدى القرى: وهو الشكل الفنى الذى ستطوره الروائية فى روايتها التالية لذلك. بل وتعتمد عليه بصورة جوهرية فى الكتابة الروائية. إن هذه القصة التى تعد أقصر الحكايات الثلاثة تقع فى أربع عشرة صفحة. فى حين أن الأولى تقع فى ٧٤ صفحة. والثالثة فى ثمان وسبعين صفحة. وفى هذه القصة يقدم الراوى سبباً جديداً للغزو الروسى. لأن الراوى كان سعيداً فى حياته. وعندما علم الدب الروسى بهذه السعادة فاعتدى على بلاده حتى يحرمه منها.

ـ وقد جعلناه من اليوم الأول يتقيأ دماً. وهأنذا هنا كما ترون. أذهب إلى باكستان لكى أحصل على السلاح لشباب القرية. إننى واثق من أننى سأرى تحرير أفغانستان. وسأربى أحفادى من أجل تحرير بخارى. وستكون أفغانستان قبراً للروس ولكل شيوعيى الدنيا. ثم تكمل الراوية.. الحكاية:

ـ نعم هذه هى الحكاية التى تمزق القلوب تمزيقاً. هذه هى الحكاية التى رواها عمى. هذه قصة هجرة أحد الذين فروا من بخارى. ترى كيف هاجر الآخرون من هناك؟ طوبى لهم. إنهم الآن يربون أولادهم على الجهاد. ويقولون. نحن هربنا دون جهاد. وكان هذا درساً لنا ولغيرنا. وإن شاء الله سيحرر أولادنا وأحفادنا بخارى والبلاد المسلمة الأخرى.

هجرة منور

ومنور هى صديقة مرال. وإن كانت مرال لم تر فى حكايتها سوى كل ما هو خاص. فإن منور امتدت ببصرها إلى المشهد كله. هجرتها كانت فى الشهور الأولى من سنة ١٩٨١ ميلادية. ومن مدينة جلال أباد الشهيرة. وتصف بابراك كارمل بالدمية. ومنور إحدى فتيات عائلات المجاهدين التى كان لها فضل السبق فى حركة إمداد المجاهدين المحاربين فى الجبال بالطعام. إن الهجرة ـ مثل الهجرات السابقة معاناة واضطراب وأمل ـ وهجرة منور قصة هجرة عائلتها أيضاً. بعد أن عرفت السلطات المحتلة أمر إقدام منور وأختها وعائلتها على خدمة المجاهدين. كانت هجرة النساء والأطفال والمسنين فى هذه الأسرة. لأن الرجال مازالوا قادرين على حمل السلاح. وكانوا فى الجبال يحاربون من أجل طرد الشيوعية وإحلال الإسلام فى أفغانستان.

ومنور تصف مشهد الكفاح الرجالى فى الجبال والطرقات ولا تنسى أن تقدم المشهد المنزلى. حيث المرأة تلعب دورها فى الحرب:

ـ عدد النساء والبنات فى بيتنا ـ كما هو معلوم ـ كبير للغاية. وكنا نسير على تنظيم العمل بيننا. بعضنا يغسل الغسيل. ولو كان ذلك فى منتصف الليل. وبعضنا يكوى الملابس. وبعضنا يتولى شئون الأكل. ألم أتحدث عن كى الملابس؟ إنها مسألة أساسية عندنا. لأن من الضرورى تجفيف الملابس حتى الصباح. حتى يمكن إعطاؤها سريعاً لهم ليرتدوها. لذلك فكى الملابس وتجفيفها يعد تنفيذاً لرغبة المجاهدين. إن الرغبة الوحيدة هى أن يستشهد الواحد منهم وملابسه نظيفة. أما أنا فقد كنت آخذ فضيلة معى ونمر على البيوت بيتاً بيتاً نطرق الأبواب لكى نجمع للمجاهدين خبزاً ونضعه فى كيس كبير. ونضعه على ظهر طفل فى التاسعة أو العاشرة من عمره ليذهب به إلى المجاهدين.

وتصل قوات روسيا إلى القرية. ولا يصبح هناك من مفر أمام النساء سوى السفر إلى باكستان. ولن يعدن إلا بعد تحرير أفغانستان. ويتقرر سفرهن عبر طوزخوم. ويبدأن التحرك فى ١٣ مايو. يرتدين ملابس البدو مثلما فعلت مرال وأختها وأمها من قبل. كانت مع منور أمها وكانت فى الخامسة والأربعين. ومنور فى الثالثة والعشرين وأختها فضيلة فى العشرين. وكول جيهان فى الثامنة والعشرين. وولدها خورشيد فى السادسة من عمره ووليس فى الرابعة من عمره. وباسو فى السابعة والعشرين من عمرها. وابنها لم يتجاوز عشرة شهور من عمره. باسو مات والدها وهى مازالت صغيرة فأخذها والد منور وتكفل بتربيتها ثم زوجها لشاب فى الخامسة والثلاثين من عمره اسمه: كولدين. وكان معهن رجل فى الخامسة والستين من عمره هو دليلهن فى السفر. خرجن من البيت فى الصباح الباكر. واستقللن سيارات كان المجاهدون قد غنموها وإن كانت مرال قد هربت من خلال قوافل البدو فإن صديقتها تهرب بالسيارات. لأن القوافل كانت قد منعت من السير. لأنها تستخدم فى التهريب وتسلك طرقاً ليست عليها عمليات حراسة وإجراءات التفتيش.

ويتعرضن للتفتيش ومنور تصف الفتاة الروسية التى قامت بتفتيشهن هكذا:

ـ فتاة شابة فى العشرين من عمرها. فى يدها كلاشينكوف روسى. رأسها مكشوف وعلى كتفيها غطاء منقوش. رباه. كيف لطخت هذه الفتاة نفسها بالأصباغ. وهى مازالت قد الساق. حتى أصبحت كالمهرج فى السيرك؟ فاحت مع صعود الفتاة إلى السيارة رائحة العطور الأوروبية وأحمر الشفاه. كانت تفتشنا من

ناحية وتضحك مع الرجل الذى صعد معها إلى السيارة من ناحية أخرى. وهما يراقباننا. فمى مفتوح على سعته من الدهشة. وأنا أنظر إلى هذه الفتاة التى حرمت من نعمة الحياء. وإن كان الرجل الذى مع الروسية يطلب من البطلة النزول. ولكن ينقذها ضابط أفغانى مهذب ويعيدها إلى السيارة. وعندما توقفهن دورية من جديد. تهتف: يا أهل الأرض! هل تنامون؟ تعالوا وانظروا ماذا يحدث لمسلمى أفغانستان من مصائب! وما أن تنتهى من حكايتها حتى تبدأ رفيقة من رفيقات الرحلة حكايتها. وهذه مجرد حيلة فنية حتى تواصل الحكى.

وتصل إلى باكستان:

ـ والآن.. نعيش ونحيا على الخبز الجاف الذى قد لا نجده ولا نشكو من شىء قط. العكس تماماً. نفضل الموت على الحياة فى أسر الكفر. وننتظر برغبة أكثر جموحاً. ذلك اليوم الذى ترتفع فيه أصوات الانتصار وتنهى الرواية هكذا:

ـ والله متم نوره ولو كره الكافرون.

يقول الدكتور محمد حرب فى باب تصنيفه لهذه الرواية:

ـ رواية تدخل فى حقل الأدب الإسلامى وهى عمل إنسانى أيضاً. إسلامى فى أسلوبه وروحه وفى واقعية تصوير الجهاد ومشاعر الهجرة والمهاجرين وهو عمل إنسانى يقود الناس لمعرفة شعب مظلوم ومعرفة سمو هذا الشعب ورفعته بمحافظته على دينه وعقيدته ونظرته للكون والحياة. فاعلت العقيدة من شأن هذا الشعب الذى حارب ـ وما يزال ـ فى سبيل الله أولاً وأخيراً. ولم تقتصر هذه الحرب الجهادية على الرجال فقط. بل شارك فيها وبفعالية واضحة: النساء والفتيات الأفغانيات من البدو ومن الحضر. وكذلك الأطفال أيضاً. وشارك فيها من لم تساعده صحته وكبر سنه من الرجال والنساء بنياتهم فى الهجرة والجهاد.



وفضلاً عن أننى لا أميل إلى تعبير الأدب الإسلامى رغم وجود رابطة فى المملكة العربية السعودية تحمل هذا الاسم بل وتصدر مجلة أيضاً. يمكن أن يقال إن هناك أدبا كتبه مسلم. أو أدبا يطرح قضية إسلامية. أما منحه صفة دينية فهذا يدفعنا إلى ضرورة الاعتراف بوجود أدب مسيحى وأدب يهودى. وكان المرحوم الدكتور نجيب الكيلانى أول من استخدم تعبير الأدب الإسلامى وذلك فى كتابه: مدخل إلى الأدب الإسلامى. الصادر عن سلسلة كتاب الأمة التى تصدر عن رئاسة المحاكم الشرعية والشئون الدينية فى قطر. جمادى الآخرة ١٤٠٧ هـ. ١٩٨٧م. ولم يكتف الدكتور نجيب الكيلانى بهذا الكتاب التنظيرى. ولكنه كتب عدداً من الروايات الإسلامية كنماذج للأدب الإسلامى منها ليالى تركستان ـ عمالقة الشمال ـ عذراء جاكرتا. عمر يظهر فى القدس. رحلة إلى الله. ويعتبر نفسه من أول الداعين إلى الأدب الإسلامى. ربما كانت هذه التسمية هى المسئولة عن منهج المؤلفة فى الكتابة. فالشخصيات لها بعد واحد. ليس فيها ما فى البشر العاديين من تناقض وتمزق وارتباك وحيرة وتردد. لقد قسمت أبطال الرواية إما إلى مجاهدين وهؤلاء شخصيات كاملة مكتملة فاضلة. يشع الإيمان منهم. وروس وأفغان يتعاونون معهم وهؤلاء أشرار. تمنحهم المؤلفة كل الصفات السيئة التى تخطر أو لا تخطر على بال أى إنسان على الأرض. والحياة فى الواقع تخلو من هذه التقسيمة الفريدة. ذلك أن الطبيعة تخلو من اللون الأبيض فقط واللون الأسود فقط. الأبيض فيه ألف درجة من الأبيض. والأسود هناك كثير من درجاته. إن اختصار الطبيعة البشرية داخل النص الروائى إلى أشرار وأخيار تحرم النص من الدراما الإنسانية فى غناها وتنوعها وتفردها.

معسكر الأرامل

رواية معسكر الأرامل مثل سابقتها مكتوبة بالتركية. وتعتمد على ضمير المتكلم. وترجمتها الدكتورة ماجدة مخلوف تلميذة الدكتور محمد حرب. ومعسكرات الأرامل لا تعيش فيها إلا النساء والفتيات ومعهن الأولاد الذكور الذى لم تتجاوز أعمارهم الثانية أو الثالثة عشرة. كما تعيش فيها النساء والأطفال الذين فقدوا أهليهم. ومع هؤلاء تعيش أمهات وزوجات الشهداء. لا حول لهن ولا قوة. ولا ملجأ لهن سوى الله العلى العظيم. وتقدم إحدى الجماعات الإسلامية فى ناصرباغ المعونات إلى كل أولئك الموجودين فى معسكرات الأرامل منذ عام ١٩٨١. وهو العام الذى تنتهى فيه أحداث رواية الهجرة من أفغانستان. وذلك قبل قيام اتحاد الجماعات الإسلامية الأفغانية. كما أن دولة باكستان توليهم بدورها اهتماما خاصاً. وكل من يعملن فى المعسكر من النساء ممرضات أو حارسات. والرجال الذين يحضرون يكلمون من يريدون فى خيمة منصوبة على باب المعسكر لمدة أربع ساعات كل يوم. هو وقت الزيارة. والرجال يمنعون من دخول المعسكر. وكذلك النساء الغريبات يمنعن من الدخول ما لم يكن هناك سبب يبرر الزيارة.

المعسكر الذى تدور فيه أحداث الرواية اسمه: ناصرباغ وهو واحد من عدة معسكرات موجودة فى أنحاء بيشاور. والبطلة واسمها أيضاً مرال. وهو اسم المؤلفة واسم بطلة الرواية السابقة: «الهجرة من أفغانستان» ومرال تطلب من شقيقها عبد الرازق الذهاب إلى المعسكر لأنها تريد كتابة قصته:

ـ كنت مشتاقة إلى التعرف على أمهات شهدائنا. وزوجاتهم الضعيفات وأطفالهم الأبرياء المساكين. كنت أريد معرفة كل شىء عنهم. ترى كيف استشهد أقاربهم؟ كيف لقى الأخ والأخت والزوج والطفل والعم والأم. كيف لقوا حتفهم فى سبيل الله؟ وكيف ظُلموا؟ وكيف عذِّبوا؟ ثم كيف استشهدوا؟ من الواضح أنها تستخدم ضمير المتكلم «أنا» فى هذه الرواية أيضاً.

تحصل مرال على رسالة من صيدلانية تعرفها موجهة إلى طبيبة فى المعسكر اسمها: أسفر. والراوية منقبة. وتكتب ذلك بمناسبة أنها تعانى من الحر الشديد خلال رحلة الطريق مع شقيقها.



رواية تدخل فى حقل الأدب الإسلامى وهى عمل إنسانى إيضاً. إسلامى فى أسلوبه وروحه وفى واقعية تصوير الجهاد ومشاعر الهجرة والمهاجرين وهو عمل إنسانى يقود الناس لمعرفة شعب مظلوم

عندما تصل إلى المعسكر تكتب:

ـ أجدنى عاجزة عن وصف حقيقة ما رأيته من النافذة الخلفية للعربة التى كنت أركبها. كل الخيام متشابهة. لا تختلف عن بعضها فى شىء. خيام لا نهاية لها. خيام لا تحصى. وبيوت متواضعة مبنية من الطين. كلها تتكون من غرفة واحدة. وأطفال مثل الزهور الأفغانية. أقدامهم حافية ووجوههم ملطخة بالطين. والأرامل أرامل رجال استشهدوا فى الكفاح ضد السوفييت. والبطلة ومن معها يبكين. «لعل دمع عيوننا يطرد الروس من بلادنا. ويبعدهم عنا. ربما ينسينا دمع عيوننا ما نحن فيه من ألم».



وتبدأ مرال فى الاستماع إلى قصص أرامل الشهداء. لأنها عندما وصلت إلى المعسكر اكتشفت أن اليوم هو الجمعة. وهو يوم عطلة. ولذلك فإن الطبيبة التى جاءت إليها لم تكن فى العمل. ولا تجد طبيبة أخرى مكانها. لأنه لا يوجد عمل كثير فى المعسكر. وهكذا جلست تتكلم مع الأرامل اللاتى وجدتهن ورحبن بها. دون معرفة سابقة. وإن كانت مرال قد تركناها فى الرواية السابقة. بعد أن استقرت فى بيشاور بباكستان. فإننا نلقاها وقد عادت إلى البلاد من أجل المشاركة فى الكفاح. صحيح أن السوفييت كانوا ما يزالون فى أفغانستان. ولكنها كانت تتحرك بصورة أفضل من الجزء الأول.

وتبدأ فى الاستماع إلى قصة أرملة الشهيد عماد الدين، ولكن امرأة عجوزا تقول إن لها ثلاثة أبناء يحاربون السوفييت. وعلينا أن نتحمل كل ما يحدث لنا إلى أن تنقشع الغمة ويرحل الروس عن بلادنا. إنها تتجول وسط مائتى خيمة تسكنها الأرامل واليتامى. وكل خيمة مكتوب عليها: «لا إله إلا الله». والنساء يعشن فى جو متقلب يجعن مرة ويأكلن مرة أخرى. وتجلس فى خيمة مع مجموعة من النساء. بينهن فتاة شديدة الجمال اسمها نازلى. وهى وحيدة بلا أسرة تبكى حالها. فتقول لها المؤلفة: لنا ثواب المعاناة إن شاء الله. واحدة من الحاضرات جدة تروى قصتها. وحكاية أفغانستان الأخيرة التى تبدأ باحتلال الكفار لبلادهم. وهى تقصد بهم السوفييت. والخوف أن يتمكنوا من تحويل سكان البلاد عن دينهم. وإن لم يفلحوا مع الجيل الحالى. سيحاولون ذلك ولكن مع الأبناء. ولا حل سوى الجهاد ضدهم. وإن كان الأعداء فى الرواية السابقة هم الشيوعيون فقط. ففى هذه الرواية أعداء آخرون. منهم البرشميون وهم أعضاء حزب برشم، وهو أحد الأحزاب الشيوعية فى أفغانستان. والنساء يصدقن حكايات رجالهن. ومن هذه الحكايات قصة هداية الله. الذى يقبض عليه وسجن فى سجن بجلال أباد وتتمكن أمه من زيارته وتقص وتحكى هذه الزيارات.

ولأن النساء يهربن من أفغانستان. فالرواية الثانية توشك أن تصبح من روايات الطرق والسفر:

ـ الطرق. الطرق. أيتها الطرق التى لا تعرف النهاية أبداً. أيتها الجبال المنحدرة التى يصعب اختيارها. من يدرى هجرة كم ألف من البشر شاهدتها. لابد أنك ستشهدين عودتهم ذات يوم يملؤهم شوق العودة إلى بلادهم. وقد تم الله نوره إن شاء الله. نحن أمام قصة تخرج من داخل قصة. إنه شكل معروف فى تراث الحكى الشرقى. تقرأه فى ألف ليلة وليلة. بالذات فى التراث الهندى حيث يجمع الملك ـ فى سالف العصر والأوان ـ مجموعة من البشر. ويطلب منهم أن يتناوبوا على حكى قصة طويلة له. كل واحد يقدم فصلاً منها.

فى هذه الرواية نقابل الرشوة. من يريد الهروب من أفغانستان لابد أن يدفع رشوة. ومن يريد الحصول على جثة شهيد لابد من دفع رشوة. وإن كان المرتشون وجوههم كالحة. فإن الذين يدفعون الرشوة مضطرون وجوههم تضىء بنور الإيمان. والصغار فى المدرسة تمتلئ قلوبهم بنور الإيمان. فى رواية معسكر الأرامل جرأة أكبر فى مناقشة قضايا كثيرة. إننا نجد واحدة تقول فيها:

ـ لقد حدثنى أخى الأكبر أن اللحية لم تكن مناسبة للعصر. وأن الناس فى كابول يتحدثون عمن يرتدى الشادور.

ترد عليها من تستمع إليها:

ـ إن هؤلاء الشيوخ هم سبب تخلفنا. إن بنات العائلات الغنية كلهن سافرات ومتعلمات والشيوخ يتساهلون معهن. ويغضون الطرف عن أخطائهن. فى حين يجعلون من سفورنا نحن وذهابنا إلى السينما وتدخيننا السجائر إثماً كبيراً. ويقولون إن نار جهنم فى انتظارنا.

وإن كانت هذه تعد مناقشة وليست أفعالاً نراها أمامنا فى رحابة النص الروائى. وتتم قبل وصول طالبان إلى الحكم. وإن كان هذا حال النساء. فماذا عن الشباب؟ تقول الروائية:

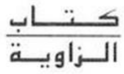
ـ أما الأبناء فقد انقسموا بدورهم إلى ثلاث مجموعات: منهم من يتبع حزب الشعب. ومنه البرشمى. ومنهم من ينتمى إلى حزب الشعلة الخالدة. وهو حزب الصين الشيوعية. وكلهم يحلمون بالثراء. فإذا دب بينهم الخلاف. دبروا المكائد وأوقعوا ببعضهم البعض.

تختلف هذه الرواية عن الأولى أن فيها هوامش تحكى خلفيات الأحداث. ولو جمعت هذه الهوامش وحدها. يمكن أن تقدم موجزاً لتاريخ أفغانستان الحديث. فى ربع القرن الأخير. وإن كان ليس واضحاً إن كانت هذه الهوامش من صنع الكاتبة أم أن المترجمة هى التى أضافتها. حتى تساعد القارئ على الفهم والاستيعاب. وإدراك خلفيات الأحداث. وإن كان بابراك كارميل يحصل على أكبر قدر من الاتهامات فى صلب الرواية. وليس فى هوامشها اتهام له بأنه يهودى. والمطلوب هو إقصاؤه عن الحكم. وطرد الروس من البلاد فى نفس الوقت. ومن يطلب من أى امرأة خلع حجابها. تقول له لسنا نصرانيات. أعيدوا إلينا حجابنا. نريد السمو من جديد.

تعتبر صاحبات الحكايات أن تدخل الله سبحانه وتعالى يمكن أن يحقق لهم النصر فى حكاية قمركول عن بطولة إخوتها. بعد أن يقوم إخوتها ببطولة ويستشهدوا. يدخل الروس بحثاً عن الشهداء:

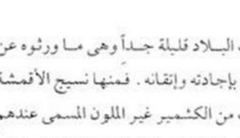
ـ فتش الروس كل أرجاء القلعة تفتيشاً دقيقاً فتشوا











الصناعة والتجارة

والصنائع فى تلك البلاد قليلة جداً وهى ما ورثوه عن آبائهم من غير اهتمام بإجادته وإتقانه . فمنها نسيج الأقمشة الحريرية وعمل صنف من الكشمير غير الملون المسمى عندهم «بتو» بالباء الفارسية والفراء «السكرك» من جلود الحمل فى مدينة كابل . ومنها عمل الأبسطة الملونة الجيدة فى هرات . ومنها الجوخ المسمى ببرك كما أشرنا إليه سابقاً فى قبيلة هزاره . ويوجد فى كابل وقندهار معامل صغيرة لاصطناع المدافع والبنادق والسيوف .

ومعاملات بلاد الأفغان التجارية لم تكن غالباً إلا بينها وبين الهند وبخارى وإيران . فالصادر منها إلى الهند هو الصوف والقطن والفواكه والنقل بأنواعه تحمل على ظهور الإبل . وإلى إيرام البرك والفراء وصنف من النعال وشيلان الكشمير المجلوبة إليها من بلاد كشمير «وعنبر سر» ويجلب إليها من بخارى والهند الجوخ وأقمشة الكتان والقطن والشاى والسكر والزجاج والخزف الصينى والقرطاس والفولاذ والحديد والنحاس والزئبق ودود القز والعقاقير وغير ذلك من إيران الأقمشة والأسلحة . ويوجد فيها معادن كثيرة ولكن الأهالى غير قادرين على استخراجها والانتفاع بها . ومنها معدن الذهب فى قندهار ومعدن الحديد فى بلاد «خست وكرم» ومعدن الياقوت فى كابل ومعدن الحديد والكبريت والياقوت واللازورد فى بدخشان . وغير هذه توجد معادن كثيرة معطلة وهذا ما أردنا بيانه فى كيفية سلطنة الأفغانيين ووضع بلادهم وطرق تعايشهم وسرد قبائلهم والله ولى التوفيق .





قسمت أبطال الرواية إما إلى مجاهدين وهؤلاء شخصيات كاملة مكتملة فاضلة، يشع الإيمان منهم، وروس وأفغان يتعاونون معهم وهؤلاء أشرار، تمنحهم المؤلفة كل الصفات السيئة التى تخطر أو لا تخطر على بال أى إنسان على الأرض

الحديقة، والحجرات والأسقف. فتشوا فى كل مكان بحثاً عن جسد أى واحد من إخوتى الشهداء. لكن ذهب بحثهم سدى. فالله تعالى العظيم الذى سخر النملة لحماية أولئك الذين استشهدوا فى سبيله فى عهد الرسول عليه الصلاة والسلام. هو الذى أعمى أعين الكفار عن أجساد أخوتى الذين استشهدوا فى سبيله حتى لا يتفاخر الكفار بأفعالهم ولا يسخروا أو يمثلوا بأجساد الشهداء.

وتنتهى الرواية بنبوءة.

ـ ستتحرر أفغانستان. وعندئذ سننتشر نحن الصغار فى كل أنحاء الدنيا. ونسارع للجهاد ونكافح إلى أن يرتفع لواء الإسلام خفاقاً فوق الدنيا كلها. الحق معنا. والنصر قريب بإذن الله والسلام. ثم تكتب: تمت بحمد الله وتوفيقه.

من الواضح أن الرواية الثانية أكثر نضجاً من الأولى. وهى رواية أحداث. ولكنها ليست رواية للأصوات التى تقدم أكثر من وجهة نظر واحدة للحدث الواحد. ولكن الصوت فى هذه الرواية الذى يكمل ما حكاه الصوت الذى قبله. حتى تكتمل الرواية فى النهاية.

والآن نلتقى بكاتبة أفغانية ثانية لديها جرأة فى طرح ما تريد قوله. تكتب القصة القصيرة. وهاجرت هى الأخرى من أفغانستان ولكن إلى مكان بعيد هو جنوب فرنسا. وواجهت جماعة طالبان. وإن كنا لن نلتقى بنص لها. ولكن بحديث طويل أجرى معها تتكلم فيه عن قصصها وبلدها وما جرى فيه. بل وتدعو زوجها إلى اللحاق بها فى المنفى. كلامها سابق على المحنة الأخيرة فى بلادها. وربما غيرت التطورات اللاحقة من موقفها. ولكن تبقى شهادتها فى حدود الزمن الذى قيلت فيه.

بدر التمام

التعريف بها والتعرف عليها أولاً: اسمها سبوجماى زارياب مولودة فى كابول سنة ١٩٤٩ بدأت نشر القصص القصيرة وهى فى السابعة عشرة من عمرها. تقول عن تلك الأيام البعيدة:

ـ ورثت عن أبى حب الأدب. كان أبى رجلاً من طراز خاص. لم يشعرنى أبداً أننى مجرد فتاة. ولم يمنعنى من فعل أى شىء. ولم يجبرنى على ترك شىء. كان فى منزلنا تليفزيون عندما كنت طفلة. ولكن أبى كان يقرأ لنا الشعر فى الأمسيات. وقد حفظت هذا الشعر، نقش على قلبى من يومها. كان إذا بدأ أبى فى إلقاء قصيدة. أكملتها أنا حتى آخرها. كنت فى الثالثة أو الرابعة من عمرى فى ذلك الوقت. بعد ذلك كان للشعر الكلاسيكى الفارسى أثر كبير فى رحلتى الأدبية، ومن يومها كانت القصة القصيرة هى النوع الأدبى المفضل عندى، وهى اختراع غربى أدين بحبه للكتاب الأجانب، وخاصة كتاب أوروبا وأمريكا.

التحقت سبوجماى بكلية الآداب ومدرسة الفنون الجميلة بكابول. قضت عاماً كاملاً فى دراسة الأدب فى فرنسا. وعندما عادت لبلادها سنة ١٩٧٣ وقع انقلاب محمد داود العسكرى على ابن عمه الملك، وأنهى الملكية. وكان ذلك بداية لسلسلة من الصراعات. بعد ذلك بخمس سنوات قتل داود فى انقلاب عسكرى آخر. وفى سبتمبر سنة ١٩٧٩ قتل الرئيس نور محمد تراقى على يد نائبه حفيظ الله أمين. الذى اغتالته القوات السوفيتية بعد ذلك بشهرين، ثم نصبوا بابراك كارميل على البلاد.

خلال سنوات الحكم السوفيتى العشرة لأفغانستان عملت سبوجماى مترجمة فى السفارة الفرنسية بكابول. ونشرت بعض أعمالها فى كابول رغم الرقابة. وذلك من خلال الناشر الأفغانى الوحيد فى البلاد كلها وهو اتحاد الكتاب الأفغان. وبعد أن تدهورت الأوضاع فى بلادها بسرعة شديدة سنة ١٩٩١ انتقلت زارياب إلى مونبلييه بفرنسا مع ابنتيها. وبعد أن استولت طالبان على كابول سنة ١٩٩٤ لحق بها زوجها الكاتب الأفغانى المشهور راهنورد زارياب. سبوجماى تكتب باللغة الدارية أحد أشكال الفارسية والتى تشكل مع الباشتون اللغتين الرسميتين فى أفغانستان. واسمها يعنى بدر التمام.

تقول «بدر التمام» فى حديث طويل معها نشر فى مجلة رسالة اليونسكو. التى تصدرها المنظمة الدولية. وتطبع بـ٢٨ لغة من لغات العالم الحية، وأجرت هذه المقابلة معها جاسمينا سوبوفا. وهى صحفية فى مجلة رسالة اليونسكو. تقول فى هذا الحديث:

ـ لقد كنت محظوظة لأننى عشت فى وطنى عندما كان فى بداية تذوق طعم الديمقراطية والتحديث والإصلاحات. وعندما كان يحارب النظام الإقطاعى الذى كان ما يزال قائماً فى بعض المناطق. وفى سنة ١٩٥٤ ألغيت قواعد الزى. ونادراً ما كنت ترى امرأة ترتدى الشادور «الحجاب» فى أى مدينة. واقتحمت المرأة بسرعة كل مجالات الحياة. فأصبحت طبيبة وعضواً فى البرلمان وجندية ومظلية وسائقة حافلة. ربما لم تكن نسبتهن كبيرة. ولكنهن كن متواجدات فى العديد من أوجه النشاط. وكان نظام التعليم فى الجامعة مشتركاً. ضم الشبان والشابات وظهرت أول مدرسة ابتدائية مشتركة. وكنت تستطيع أن تجد فى كابول كل أصناف الكتب من جميع أنحاء العالم مترجمة للفارسية نحن نعيش حياة حرة وراضية. ونحن نعقد الاجتماعات العامة. ونتحدث بانفتاح وننشئ الأحزاب السياسية.

ثم تقفز بدر التمام حتى الآن، تقول عن الوضع الراهن فى بلادها:



ما الذى بقى من وطنى؟! الأرض الزراعية دمرت وزرعت ألغاماً. آلاف الأرامل والأيتام والمشوهين. عاشت فى بلادى الحرب والبرد والجدب والمجاعة

ـ والآن ابتلينا بطالبان الذين لا يعرفون شيئاً عن أفغانستان إنهم طلبة علم دينى. تعلموا فى كتاتيب أفغانستان منذ الصغر. وجاءوا بثورة تدميرية. تدمر كل شىء. لقد سمعت أنهم أحرقوا بساتين الكروم كلها. واقتلعوا كل أشجار الفستق، وقد كان الفستق من أهم صادرات أفغانستان. وكل تصرفات طالبان تحكمها فكرة واحدة: جعل البلد تابعة تبعية تامة. القضاء على الزراعة وعلى نظم الرى. وعلى الاقتصاد لتصبح بلداً مدمراً تدميراً تاماً. كان خراب الروس من الدبابات. وخراب طالبان من الحرق. كنا مبتلين بالتعصب السياسى. والآن أصبح لدينا تعصب دينى. والتعصب أيا كانت طبيعته يعمى البصيرة.



وتقول عن حالة الهجرة من أفغانستان..

ـ إننا شعب شديد الارتباط بأرضه وأسرته. والآن نحن مبعثرون حول العالم. فى أوروبا والولايات المتحدة وكندا واستراليا وآسيا. ومعظم اللاجئين لا يعرفون لغات البلاد التى لجأوا إليها. وقد يستغرق الأمر خمس أو ست سنوات حتى يستطيعوا التأقلم. إنه لأمر شديد الصعوبة أن تجبر على البحث عن ملجأ فى مكان آخر فى العالم. لقد استمرت الحرب عشرين سنة. جيل كامل ضاع وستة ملايين لاجئ أفغانى. إنها صورة مرعبة. إن تشتيت أمة هو أفضل وسيلة لمحوها.

علينا أن نتحرك بسرعة. فسيف الوقت ماض فينا. إن وطنى يفقد جيلاً آخر. لأن الأطفال لا يتعلمون. التعليم حق أساسى لأطفال العالم. لماذا لا يمكن أن يكون حلماً ممكناً لصبايا أفغانستان؟ فلا يسمح لهن سوى بالذهاب إلى الكتاتيب حتى سن العاشرة أو الثانية عشرة. وماذا يتعلمن؟ يحفظن الشعر العربى. والعربية لغة لا يفهمنها والحال ليس بأفضل بالنسبة للصبية. لقد أدى عدم وجود المدرسين والإداريين والتجهيزات إلى تحويل المدارس إلى دور رعاية بلا خدمات تعليمية. هذا دفع الناس إلى وجود مدارس سرية فى كابول. الأمهات تعلمن الفتيات فى البيوت. إنه نوع من المقاومة. ولكن يجب أن تتحلى المرأة الأفغانية بالكثير من الشجاعة حتى تقدم على مثل هذا العمل. لأنه غير قانونى.

إن طالبان ـ تقول بدر التمام ـ تسيطر على ٩٠ بالمائة من البلاد. والأمر لم يتوقف عند استئصال الأقليات العرقية واضطهادها. ولكن الشعب كله أصبح يعيش تحت التهديد المستمر بكل أنواع العقاب والإذلال ومعظم الذين بقوا فى كابول. لم يكن بقاؤهم إلا لضيق ذات اليد فهم يطيعون القوانين ليعيشوا قوانين عبثية بشكل يفوق الخيال.

ولأن المتحدثة قصاصة. فهى تفكر ولكن على شكل حكايات. وتحكى الحكاية التالية:

ـ سمعت أن أحد الأفغان الذى كان يعيش فى باكستان. ثم مات وكانت وصيته أن يدفن فى كابول. فقررت أسرته أن تأخذه فى نعشه إلى هناك. ولكن عندما وصلوا إلى الحدود الأفغانية. أوقفت طالبان الجنازة وأرادوا التحقق من محتويات النعش. حيث إن التهريب كان يجرى على أشده وعندما رأوا جثة الرجل الميت. ووجدوه غير ملتح وهو أمر غير إجبارى فى باكستان. فما كان منهم إلا أنهم قاموا بجلد الجثة ثمانين جلدة عقاباً لصاحبها على أنه كان حليقاً. إنه جنون بلا حدود. جنون مطبق.

ولأنها تعتبر نفسها امرأة أفغانية قبل أن تكون كاتبة. فهى تحلم بإنقاذ المرأة الأفغانية من قبضة هؤلاء المهووسين. ذلك أنه قبل مجىء طالبان إلى حكم أفغانستان كانت المرأة تشكل ٤٠٪ من عدد المدرسين وهو دليل واضح على مستواها الفكرى. أما الآن فهى مستبعدة من المجتمع. إنها فى أزمة شديدة جسدياً وفكرياً ونفسياً. فالمرأة لا يسمح لها بالذهاب إلى طبيب رجل والأسوأ أنها مازالت تباع كرقيق أبيض فى باكستان.

وتنهى بدر التمام هذه المعزوفة الحزينة بتساؤل:

ـ ما الذى بقى من وطنى؟! الأرض الزراعية دمرت وزرعت ألغاماً. آلاف الأرامل والأيتام والمشوهين. عاشت فى بلادى الحرب والبرد والجدب والمجاعة. ملايين اللاجئين يعيشون فى خيام. معظمهم فى باكستان وإيران بدون طعام ولا ماء وفى ظروف معيشية غير إنسانية. وتعود لتتساءل: ما الذى بقى من وطنى؟



هناك أيضاً الكاتبة الأفغانية شكيبة هاشمى المنفية فى باريس التى أعلنت عن رغبتها فى العودة إلى بلادها. هذا فى الوقت الذى يهاجر فيه الجميع ويهربون من البلاد خوفاً من الضربات الأمريكية القادمة. وهى ترغب فى العودة حتى تشد من أزر بلادها فى هذه المحنة. شكيبة هاشمى فى السابعة والعشرين من عمرها. وقد تم نفيها إلى منفاها الباريسى بعد نشرها رواية تدور حول فتاة أفغانية تعانى من الانكسار. وفى الرواية تعارض حركة طالبان وكافة ممارساتها وقد قامت هذه الكاتبة بإنشاء منظمة دولية: أفغانستان الحرة تضم حوالى ١٥ ألف فرنسى و٥ مليون إنسان من العالم. وتقدم هذه المنظمة خدمات تعليمية ومالية لدولتها تشمل إنشاء المدارس والمستشفيات. الغريب أنها رغم كونها منفية فى باريس بسبب معارضتها الشديدة لحركة طالبان إلا أنها تستنكر وبشدة أن يكون لأسامة بن لادن أى يد فى الاعتداءات الأمريكية الأخيرة. ■

جـــدل الأدب والســياســة

هل كان لقعقعات هذه الأحداث المزلزلة التى لاتزال انفجارات قنابلها، تسقط على رؤوس أفقر شعب فى العالم فى أفغانستان، دورها فى منح جائزة نوبل لكاتب يعد أكثر كتاب العالم المعاصرين الكبار غطرسة ورعونة؟

لا يملك المرء إزاء إعلان فوز الكاتب الهندى الأصل، الترينيدادى المولد، البريطانى الجنسية والثقافة، الإنجليزى اللغة، فيديادار سوراجبراساد نايبول Vidiadhar Surajprasad Naipaul، أو V.S. Naipaul إلا أن يتساءل عن مدى براءة التوقيت، ومدى تأثير الأحداث الدامية التى تدور فى عالمنا المعاصر منذ أحداث الحادى عشر من سبتمبر المزلزلة لكثير من الرواسى والتصورات، على قرار الأكاديمية السويدية بمنحه الجائزة. فأحداث الحادى عشر من سبتمبر، وكما ستكشف لنا الأيام التالية، هى بلاشك علامة تاريخية فارقة على نهاية المرحلة التى بدأت بسقوط حائط برلين، وانتهت بسقوط برجى مركز التجارة العالمى واجتياح البنتاجون. فقد كانت المرحلة التى بدأت عقب سقوط حائط برلين هى مرحلة غطرسة انفراد الولايات المتحدة بمركز القوة العظمى وتحكمها فى مقدرات عالمنا المنكوب. وهاهى صدمة تلك الانفجارات المدوية تجعلها تفيق من سمادير الانتشاء بقوتها على عالم تضطر بالتدريج للاعتراف بأنها لا تفهمه، ولا تستطيع الانفراد بقيادته. فهل كان لقعقعات هذه الأحداث المزلزلة التى لاتزال انفجارات قنابلها، أو بالأحرى قنابل أغنى دولة فى العالم، تسقط على رؤوس أفقر شعب فى العالم فى أفغانستان، دورها فى التأثير على قرار الأكاديمية السويدية، بمنح الجائزة لكاتب يعد أكثر كتاب العالم المعاصرين الكبار غطرسة ورعونة، ويوشك أن يكون المعادل الموضوعى فى مملكة الكتاب للولايات المتحدة فى مملكة الأمم؟ أهى مفارقة ماكرة تريد بها الأكاديمية السويدية أن تلفت النظر إلى ما تنطوى عليه الغطرسة من دروس علينا استيعابها وتأملها؟ أم أنها، كما قال بعض المعلقين الأدبيين العرب، نوع من المشاركة السويدية فى المجهود الحربى الغربى فى معركته، أو بالأحرى حملته الصليبية حسب زلة لسان جورج بوش، ضد الإسلام والثقافات الإسلامية؟

تحتمل الإجابة عن أى من هذه الأسئلة النفى والإثبات. فطالما اتهمت جائزة نوبل بأن اختياراتها ليست أدبية محض. وهل ثمة شيء يمكن أن نصفه بأنه أدبى محض فى عالم كل شيء فيه مضمخ بالثقافة وموروثاتها، وبالسياسة وأهوائها؟ خاصة فى مطلع القرن الحادى والعشرين، لأن جائزة نايبول هى أولى جوائز نوبل للقرن الجديد، التى جاء الإعلان عنها، لغرابة المفارقة وسط قعقعات أولى حروب هذا القرن الجديد وأكثرها عبثية وغرابة. إذ تحارب فيها الولايات المتحدة، من سبق أن جندتهم وسلحتهم ودربتهم لمحاربة عدوها القديم، ولمساعدتها فى كسب الحرب الباردة. وهل من المناسب لجائزة بحجم نوبل وتاريخها أن تنزلق إلى مثل هذا المنزلق؟ وأن تختار كاتبا يؤكد ما يسعى الغرب أن ينفيه، وهو عداء الغرب المتأصل للإسلام، وللثقافات غير الغربية. ولا يمكن أن تجد الأكاديمية على قوائم المرشحين لها من هو أكثر عداء للإسلام، أو أكثر شراسة فى الهجوم على كل الصبوات والأحلام التحررية لما كان يعرف باسم العالم الثالث من نايبول. لكن نايبول، والحق يقال، كان على قوائم المرشحين للجائزة منذ سنوات. وهو باعتراف عدد كبير من الكتاب والمثقفين الإنجليز أنفسهم من أعذب كتاب اللغة الإنجليزية نثرا وأرقاهم أسلوبا. ويعتبره الكثيرون أفضل ناثر إنجليزى معاصر، ويبالغ البعض فى اعتباره أفضل من كتب النثر الإنجليزى فى القرن العشرين. وقد لفتت النظر إلى أعماله لغته الصافية، وموهبته الأدبية التى لا مماراة فيها منذ زمن مبكر. فقد أشاد الروائى الإنجليزى الشهير إيفلين ووه Evelyn Waugh بأول كتبه غير الروائية، وهو (الممر الأوسط The Middle Passage) عام ١٩٦٣، قائلاً: «إن السيد نايبول وهو هندى شرقى من ترينيداد يسيطر على اللغة الإنجليزية سيطرة مدهشة، يندى لها جبين الكثيرين من معاصريه الإنجليز الذين لم يبلغوا شأوه فى التمكن من لغتهم».

والواقع أننى أعرف منذ زمن غير قصير أن لغة نايبول الإنجليزية هى نموذج لأرقى ما وصلت إليه البلاغة الإنجليزية المعاصرة من صفاء وعذوبة. فقد وجهنى أستاذى الاسكتلندى، أثناء فترة الطلب فى جامعة لندن فى السبعينيات، إلى قراءته عندما لاحظ رغبتى فى التمكن من البلاغة الإنجليزية، وعانى من إسباغى معايير البلاغة العربية على الجملة الإنجليزية التى تعتمد جمالياتها على معايير مناقضة للبلاغة العربية، مؤكدا لى أنه أبرع من يجسد جماليات اللغة الإنجليزية المعاصرة. لذلك فإننى أعرف من زمن غير قصير أنه جدير بحق بالجائزة، لولا رجعيته وتحيزاته الغربية. فقد فاز بأهم الجوائز الأدبية الإنجليزية بما فى ذلك جائزة «البوكر» الشهيرة عن روايته (فى دولة حرة) عام ١٩٧١. بل حصل على لقب «سير» عام ١٩٩٣ تقديرا لخدماته للأدب وللغة الإنجليزية. وترجع مقدرته اللغوية الفذة، وهى أهم إنجازاته الأدبية بلاشك، إلا أنه وبفضل وعى أبيه باللغة، وتوجيهه إلى الاهتمام بدقتها منذ وقت مبكر فى حياته، كان يمارس تمرينات التذكر لإرهاف ذاكرته اللغوية بشكل يومى منذ كان طالبا فى الجامعة وحتى اليوم. فقد كان يعود إلى مكتبه كل يوم، ويتذكر الكلمات والتعبيرات التى صادفته فى هذا اليوم ويبحث عن المفردات المناسبة لوصفها بدقة وبنفس ترتيب ورودها أو حدوثها. حتى يصل إلى فهم دقيق للناس ولما حدث، ولمعنى ما صادفه، أو ما شارك فيه من لقاءات وحوارات. إنه نوع من التمرين على التذكر والتحليل معا. وقد تابعت مؤخرا شكواه من أنه لم يعد باستطاعته أن يفعل ذلك فى السنوات الأخيرة وأن هذا عنده هو دليل التقدم فى العمر. فإنجاز نايبول الأدبى إذن هو إنجاز ينهض على المثابرة اليومية التى لا أعرف لها مثيلا إلا تلك التى يجسدها أديبنا الكبير نجيب محفوظ فى مثابرته على الكتابة بانتظام لأعوام وعقود. لكننى أعرف فى الوقت نفسه عداء نايبول الشديد للإسلام، ورجعيته المتأصلة.



ومع هذا كله، وربما بسببه، فقد حاولت ألا أسارع باتهام الأكاديمية السويدية بتمكين السياسة من توجيه اختياراتها الأدبية، وأن أتعامل مع نايبول من الناحية الأدبية وحدها، بصرف النظر عن ملابسات الفوز، حتى جاءتنى وأنا أكتب هذا المقال نتيجة جائزة البوكر الأدبية. وجائزة بوكر - وقد سبق أن كتبت عنها للقراء فى العام الماضى - هى أرقى الجوائز الأدبية البريطانية لفن الرواية. تمنح كل عام لأفضل رواية مكتوبة باللغة الإنجليزية. فقد كنت أتابع، طوال الشهرين الماضيين، تعليقات الواقع الأدبى فى انجلترا بعد نشر قائمة الأعمال التى وصلت إلى التصفية النهائية، وجدل النقاد حول الروايات الست التى بقيت بعد التصفية، وتوقع أغلبهم بأن تفوز بها رواية الكاتب الأيرلندى المرموق إيان ماكوين Ian McEwan (كفارة Atonement) لأنها أفضل الروايات الست من الناحية الأدبية. أما إذا ما حاولت اللجنة منح جائزتها لكاتب لم يفز بالجائزة من قبل، لأن ماكوين فاز بها قبل أعوام ثلاثة عن روايته (امستردام)، فإن الفوز سيكون من نصيب رواية (أوكسوجين Oxygen) لدافيد ميلر David Miller. ولكن إعلان الجائزة جاء لصالح رواية (التاريخ الحقيقى لعصابة كيلى The True Story of Kelly Gang) للكاتب الأسترالى المقيم فى الولايات المتحدة الأمريكية بيتر كيرى Peter Carey. وأكد إعلان الجائزة، وتعليقات لجنة التحكيم أن موضوع الرواية المثير للنزعة القومية، والمشيد ببطولات الإنجليز فى هزيمة من يتمرد على سلطتهم فى استراليا وأمجادهم العسكرية الغابرة، هو الذى رجح كفتها، ودفع المحكمين لاختيارها. فالسياق السياسى إذن، وباعتراف المشاركين فى التحكيم لهذه الجائزة المرموقة، يرجح كفة كاتب على آخر. بل ويتيح لرواية أقل براعة من الناحية الأدبية أن تفوز على رواية أكثر منها حذقا وأغنى كشوفا، لأنها تتواءم مع موقف سياسى بعينه.

بعد تصريحات محكمى لجنة البوكر، واعترافهم بأن موضوع رواية كيرى هو الذى رجح كفتها للفوز، ولتذهب المعايير الأدبية الخالصة إلى الجحيم، لم أعد قادرا على تجاهل دور المناخ السياسى السائد فى الغرب فى ترجيح كفة نايبول على غيره من كتاب آخرين كانوا على قائمة الجائزة. وانتابنى الشعور بأن هذا الفوز غير مفصول عن رؤى نايبول العنصرية، وإن كانت لغته الأدبية الراقية هى التى تكسب هذه العنصرية حدتها الجارحة، وتجعلها عنصرية فعالة. وحتى أشفى غليلى، عدت إلى نص إعلان الأكاديمية علنى أعثر فيه على ما يؤكد هذا الشعور أو ينفيه. فوجدت فى الإعلان عددا من المؤشرات التى ترجح كفة الشك ولا تنفيه. لأنه يبدأ أولا بتلك الجملة الموجزة التى تعلن فوزه بالجائزة «لقدرته على توحيد السرد الشيق الحساس بالتمحيص المنزه عن الغرض فى أعمال تدفعنا إلى إدراك حضور التواريخ المقموعة.» إذن فهذه الجملة العامة الملتبسة، تشير فيما تشير إلى أعماله غير الروائية، وهى الأعمال التى تنطوى على



نايبول، لمرارة المفارقة، يعتقد أنه ضحية أكثر منه معتديا، وأنه دفع ثمن شق دروب جديدة، وأن الكثيرين لم يفهموه، وهاجموه بلا مبرر، وقالوا عنه أقاويل حمقاء. وكل جريرته أنه لم يشأ أن يكرر نفسه، أو ينتهج الدروب المطروقة. ويشكو من أن الكثيرين ذوو عقليات محدودة، وإدراك قاصر

Half a Life

(نصف حياة)

V.s. Naipaul
Picador 2001, 224 pp, £ 15.99

In a Free State

(فى دولة حرة)

V.s. Naipaul
Picador 1971, 208 pp, £ 6.9

A House For M.r Biswas

(بيت للسيد بيسواس)

V.s. Naipaul
Penguin Books, 1969, 592pp, £ 7.99

نايبول: الكاتب.. والجائزة

صبرى حافظ



حملاته القاسية على الإسلام والمسلمين، وعلى أفريقيا والأفارقة، وعلى الهند والهنود. ولا تكتفى بالتركيز على أعماله الروائية أو القصصية وحدها. ثم يواصل إعلان الأكاديمية تاكيده على الأعمال غير القصصية: «نايبول جوّاب أدبى للآفاق، لايشعر بانه فى بيته إلا مع نفسه، ومع صوته الفريد الذى لايضارع، ولا يتاثر بالموضات أو الأنماط الأدبية. وصاغ من الأجناس الأدبية المعروفة جنسه الأدبى الخاص، الذى لم تعد معه التفرقة المعهودة بين السردى أو القصصى وغير السردى بذات بال. فقد امتد عالم نايبول الأدبى إلى ما وراء جزيرة ترينيداد وهى من جزر الهند الغربية، واستوعب الهند، وأفريقيا، وأمريكا من الجنوب إلى الشمال، والبلدان الإسلامية الآسيوية، فضلا عن انجلترا. فنايبول هو خليفة كونراد فى متابعة مصائر الإمبراطوريات من الناحية الأخلاقية، وتاثيراتها على البشر. وتنبع سلطة سرده من أنه متجذر فى ذاكرة ما نسيه الآخرون، وتواريخ المندثرين».

إذن فالإعلان نفسه يشير وبشكل واضح، بعد أن ضمن ذلك بشكل غامض وملتبس فى الجملة التمهيدية القصيرة، لا إلى كتابات نايبول الروائية والتى كان من الضرورى فى إعلان جائزة بهذا الحجم أن تقتصر عليها، وهى كثيرة، وإنما إلى كتاباته غير الأدبية التى يمزج فيها الوثائقى بالسردى بأدب الرحلات وأدب المقال، والتى تناول فيها الهند وأفريقيا والعالم الإسلامى الأسيوى. وعندما يستعرض بقية الإعلان عددا من أعماله الأدبية فيشير إلى أعماله القصصية الأولى، وإلى القفزة العملاقة التى حققها بروايته المهمة (بيت للسيد بيسواس) وإلى رائعته (أحجية الوصول) فإنه لا ينسى أن يذكر بالاسم كتابه الأخير الذى كرسه لمهاجمة الإسلام بعنوان مثير Beyond Belief وهو عنوان يمكن ترجمته على انه (مابعد الإيمان) وهى الترجمة الظاهرة أو البريئة، ولكنه يعنى فى الوقت نفسه صرخة الاستهجان الشهيرة عن شىء لايصدق، ولايمكن تصوره لمنافاته للعقل والمنطق، وهذا الشىء المستهجن الذى لايصدق هو الإسلام نفسه، أو بالأحرى اعتناق البعض له. بل إن الإشارة إلى هذا الكتاب فى نص إعلان الأكاديمية تعنى لعب العنوان على المعنيين وتستخدمه فى سياق يبرزهما معا. وذكر هذا الكتاب الأخير بالذات، واللعب على دلالات العنوان المتراكبة فى إعلان الأكاديمية ذاته، هو الذى قطع عندى الشك باليقين، وهو الذى دفعنى بعد تمحيص المسالة برمتها إلى بدء هذا المقال بالطريقة التى بداته بها. وهو الذى أرهف وعيى باننا فى عالم ما بعد الحداثة نعيش دوما على حافة التناقضات والمفارقات الحرجة. فبينما تسعى العولمة لإزالة الحواجز القومية، تستثير الرغبة فى الحفاظ على هيمنتها أشد النزعات القومية تعصبا وبدائية.

والواقع أن اختيار نايبول نفسه هو اختيار مابعد حداثى بكل معنى الكلمة، فهو اختيار مترع بالتناقضات والمفارقات. فنحن بإزاء كاتب يوشك أن يكون التجسيد الحى للقاء هذه التناقضات كلها بشكل صارخ. فهو كاتب نشا فى أسرة معوزة فقيرة، فى جزيرة معوزة فقيرة، ولكنها أسرة تربت على مشاعر فئة اجتماعية عليا، هى فئة البراهمة الهندية. وهو كاتب ينحدر من العالم الثالث، ولكنه كاره له، شديد الانتقاد لسلبياته، ويتبنى رؤى مستعمريه، ويردد عن أبناء العالم وثقافاته أبشع المقولات الاستشراقية والاستعمارية القديمة عنه، وبثقة تبلغ درجة التبجح. وهو كاتب كبير من حيث قدرته اللغوية وبراعته الأسلوبية من ناحية، ولكنه يتسم بضيق الأفق والغطرسة والافتقار للكياسة والتسامح من ناحية أخرى. وهو بارع فى السيطرة على اللغة، ولكنه لايستطيع السيطرة على مشاعره، إذ يتسم بضيق الخلق وسلاطة اللسان. لا يتورع عن الإساءة لآخرين بدم بارد، ويحب إثارة الاهتمام بآرائه الصادمة. فقد وصف تونى بلير - رئيس وزراء حكومة العمال الحالية فى بريطانيا - بانه «قرصان يرأس حكومة مسؤولة عن تفشى ثقافة العامة والأجلاف، التى تفرض نفسها بشكل فج، وتتباهى بانها ثقافة العامة والرعاع» ويستطرد قائلا: «إننى أشعر لأول مرة، منذ خمسين عاما عشتها هنا، بالغم والإحباط من الحكومة، إذ يحزننى استعمالها ألفاظ اللغة الفارغة، وإساءة استخدامهم المستمرة لها». كما هاجم عددا من كبار الكتاب الإنجليز، من جين أوستين إلى إ. م. فورستر - صاحب «الطريق إلى الهند» و«موريس» و«غرفة تطل على مشهد» و«الإسكندرية» وغيرها من الأعمال الأدبية المرموقة - إذ قال عنه إنه شاذ جنسيا ومثير للغثيان، وإنه كتب أدبا رديئا «زبالة» وعاش هو وصديقه الشاذ أيضا مينارد كينز - الاقتصادى الإنجليزى الأشهر - على افتراس الهنود الضعفاء.

لكن نايبول، لمرارة المفارقة، يعتقد انه ضحية أكثر منه معتديا، وأنه دفع ثمن شق دروب جديدة، وأن الكثيرين لم يفهموه، وهاجموه بلا مبرر، وقالوا عنه أقاويل حمقاء. وكل جريرته أنه لم يشا أن يكرر نفسه، أو ينتهج الدروب المطروقة. ويشكو من أن الكثيرين ذوو عقليات محدودة، وإدراك قاصر. ولكن على المرء أن يعيش بينهم. ويشكو كذلك من انتشار الاعتقاد بأن أعماله غير السردية أقل أهمية من أعماله القصصية والروائية، التى يخترعها الكاتب اختراعا. مع أنه يعتقد أن لكل استقصاءاته نفس الثقل ونفس الوزن والأهمية. ويقول إن كانت كتبى قوية فإنها ستبقى. أما إذا كانت ضعيفة فسوف تندثر. ويزعم نايبول أن الرواية انتهت كجنس أدبى، وأن هذا الزمن ليس زمن الرواية. ومع ذلك فإنه نشر هذا العام رواية جديدة هى (نصف حياة Half a Life) بعد سبع سنوات من الانقطاع عن كتابة الرواية. والواقع أن آراء نايبول المتناقضة، وكتاباته غير الروائية التى تتسم بقدر كبير من الرجعية والتحامل هى التى تدفع الآخرين إلى مهاجمته. فقد قال عنه ديريك والكوت - الشاعر الكاريبى الذى فاز بجائزة نوبل للآداب عام ١٩٩٢ وهو مواطن لنايبول من جزر الهند الغربية هو الآخر - «إن نايبول لا يحب الزنوج، وقد أعلن أكثر من مرة أن أفريقيا قارة لا مستقبل لها». لذلك يدعوه الكاتب الهندى الشهير سلمان رشدى بالاستعمارى الأدبى الجديد Literary neo-colonialist.

وقبل أن نتناول دلالات أخذ السياسى بعين الاعتبار فى اختيار نايبول للفوز بجائزة نوبل هذا العام، علينا أن نقدم للقارئ العربى أولا هذا الكاتب الذى لانعرف عنه الكثير. فقد ولد فيديادار سوراجبراساد نايبول، والمعروف الآن بالسير فيديا، فى ١٧ أغسطس ١٩٣٢ فى مدينة شاجواناس بجزيرة ترينيداد من جزر الهند الغربية الواقعة فى البحر الكاريبى. لأسرة من الهنود جاء مؤسسها الأول، وهو الجد، فى صباه من منطقة شرق Uttar Pradesh بالهند فى ثمانينيات القرن التاسع عشر إلى ترينيداد، وتلقى تعليما إنجليزيا بالطريقة الهندوسية، حيث ينحدر من أسرة من البراهمة، وهم طبقة رجال الكهنوت الهندوسى، وهى من الطبقات العليا ضمن نظام الطوائف الهندية الاجتماعية المنغلقة على ذاتها، والتى تعرف بنظام caste. وكان الجد قد أرسل صبيا إلى ترينيداد، ليصبح كاهنا براهمين Brahmin وليتدرب كى يصبح فقيها هندوسيا Pundit أى معلما دينيا، كشيوخ الأزهر عندنا. وبالإضافة إلى دوره الدينى هذا عمل الجد كذلك بالتجارة، وخاصة التجارة فى الأشياء اللازمة لممارسة الطقوس الهندوسية. وتزوج فى مدينة ألدورادو، وهى مدينة هندية خالصة، تعمرها جالية هندية جلبها الانجليز من الهند للعمل فى مزارع القصب مع الزنوج الذين جلبوا إلى هذه الجزر. وأنجب الجد

ثلاثة أبناء، ومات شابا. فعانت أسرته من العوز، واضطر الابن الأكبر للعمل في الحقول لرعاية أمه وإخوته. أما الابن الأصغر، وهو سيبرساد نايبول Seepersad Naipaul المولود عام ١٩٠٦ ـ والد كاتبنا ـ فارسل للتعليم حتى يصبح فقيها هندوسيا كأبيه. ولما أتم الأب تعليمه، لم يعمل بالفقه الديني. وإنما عمل منذ بداية حياته العملية بالصحافة، في جريدة «راعي ترينيداد Trinidad Guardian»، وتزوج في مطلع العشرينيات من عمره، وانجب سبعة من الأبناء (ولدين وخمس بنات) كان كاتبنا هو الابن الثاني للأسرة، بعد شقيقته الكبرى «كاملا»، وإن كان الذكر الأول بينهم. أما الأخ الثاني «شيفا» Shiva Naipaul (١٩٤٥-١٩٨٥) فقد أصبح هو الآخر كاتبا، وإن اختطفه الموت وهو في الأربعين من عمره. وبعد أربعة عشر عاما من العمل بهذه الجريدة، وكان وقتها في السادسة والثلاثين من عمره، نشر مجموعته القصصية الأولى عام ١٩٤٣ بعنوان (جورود يفا وحكايات هندية أخرى Gurudeva and Other Indian Tales).

ويذكر الابن ڤيديا، أو ڤيدو كما كان أبوه يدعوه في رسائله له، وكان في الحادية عشرة من عمره في ذلك الوقت، بشغف قصة هذا الكتاب الذي عاش تفاصيل صناعته وطقوس ولادته داخل بيتهم في «ميناء أسبانيا». يذكر جلب الأب لبروفاته التي كانت تجمع باللينوتيب إلى البيت، وإشراك الابن في عملية تصحيحها. ثم المجيء بنسخ الكتاب الألف إلى البيت، ورص أكوامها في زاوية غرفة المعيشة، ونجاح الأب في توزيع الكتاب الذي بيعت نسخه عن آخرها. ولكنه يذكر في الوقت نفسه أن أباه تلقى كثيرا من الخطابات الغاضبة والمهينة بسببه. اتهمه أصحابها بتشويه صورة الهنود، والإساءة إلى سمعتهم من خلال تصويره لهم في كتابه. وكان أكثر هذه الخطابات إيذاء لمشاعر أبيه خطابا من مسلم مهووس دينيا، ازعج الأب كثيرا، خاصة أن هذا المهووس الديني كما يقول لنا ڤيديا نفسه فيما بعد حينما أعاد نشر هذه المجموعة، وبقية القصص التي كتبها والده بمقدمة منه في طبعة لندنية عام ١٩٧٦، استأجر مساحة في صحيفة «راعي ترينيداد» ونشر فيها نقده لأبيه، وحلى هذا النقد بصورته. وقد أثر هذا الأمر على الأب كثيرا، وترك بعدها العمل بالصحافة، والتحق بوظيفة حكومية عمل فيها في مسح الأراضي الزراعية والمناطق الريفية. ويبدو أن الابن الذي كان ولايزال شديد الغرام بأبيه، قد أسر في نفسه من هذا الوقت ضرورة الانتقام من كل المسلمين فيما بعد. لأن ڤيديا قد أعاد طبع مجموعة أبيه القصصية القصيرة، بعد أن ضم لها بقية القصص التي كتبها بعدها في كتاب بعنوان (مغامرات جورود يفا The Adventures of Gurudeva) ونشرها لدى ناشره اللندني المرموق، وهو الحلم الذي حلم به أبوه طويلا، وهو أن ينشر كتابه في لندن، ولكنه مات دون أن يحققه

هذا هو الأب الذي لعب دورا مهما في حياة ابنه ڤيديا الشخصية والأدبية على السواء. لأن ڤيديا يعترف في مقدمته لمجموعة أبيه أنه سطا على قسم كبير من قصة أبيه الشخصية، أو بالأحرى من سرده السرذاتي الذي دعاه، (لقد سموه موهون)، وبدأ بها إحدى رواياته، وزوده هذا السطو على عمل أبيه باولى نجاحاته الأدبية الكبيرة. لكن علينا ألا نستبق الأحداث.

فقد انتقلت أسرة ڤيديا وهو في السادسة من عمره من مدينة مدينة شاجواناس ذات الأغلبية الهندية، إلى مدينة «ميناء أسبانيا Port of Spain»، وهي النقلة التي أثرت سلبيا عليه، ونزعته من قلب الهند المصغرة والثقافة الهندوسية، إلى عالم خلاسي غريب بعمره مزيج من البيض والزنوج، وتسيطر عليه ثقافة هجينة. ولذلك ركز ڤيديا الصغير في هذا العالم الغريب عليه همه في الدراسة والقراءة. وما أن بلغ الثامنة عشرة حتى كان قد تفوق في دراسته بشكل مكنه من الفوز بمنحة الحكومة الترينيدادية للدراسة الجامعية في بريطانيا عام ١٩٤٩. وفي عام ١٩٥٠، أي منذ نصف قرن بالتحديد جاء إلى بريطانيا التي بقي بها حتى الآن، والتحق بجامعة اكسفورد، ودرس بها الأدب الإنجليزي. وكان أبوه يكتب له مرة أو مرتين في الأسبوع، ويرد عليه بالطبع، في سلسلة من الرسائل التي نشرت قبل عامين بعنوان (خطابات بين أب وابنه Letters between A Father and Son) عام ١٩٩٩. وهي خطابات تزودنا بالكثير من الاستبصارات الدالة لا حول علاقة الابن بابيه فحسب، ولكن حول الكثير من المؤثرات التي كان لها دور مهم في تكوين نايبول الكاتب، وفي صياغة مواقفه وتصوراته.

وتكشف لنا هذه الرسائل عن رغبة ڤيديا الباكرة في الهرب من عالم ترينيداد الضيق والمحدود. وعزمه على ألا يعود مرة أخرى إلى هذا العالم الخانق الذي تركه خلفه. لأنه كان يعي منذ وقت مبكر أن طبيعة المجتمع الذي تعيش فيه تصوغ نوعية التجارب التي تكتب عنها، وأن هناك بعض المجتمعات التي تتسم فيها المغامرة العقلية والمغامرة الاجتماعية معا بالمحدودية، وأن هذا هو حال المجتمع الترينيدادي. ولهذا كان يريد أن يهرب من هذه المحدودية منذ وقت مبكر. فقد كان شديد الشغف بأبيه الذي يشعر أن طموحه الأدبي قد انطمر تحت عبء مطالب الحياة اليومية لأسرة كبيرة العدد. وربما كان هذا هو السبب في إحجامه عن الإنجاب بالرغم من أنه تزوج مرتين. فقد أصر على ألا يتحمل مسئوليات أسرة تؤثر على طموحه الأدبي، كما قتلت مطالب الحياة الأسرية طموح أبيه. كما تكشف لنا هذه الرسائل عن طبيعة عالم المغتربين الهنود، وتقدم لنا سجلا حيا لحركية الأسرة الهندية من الداخل، ومدى حرصها على تعليم ابنائها وتربية مطامحهم ورعايتها حتى تتحقق. فالأسرة الهندية التي تطلع من هذه الرسائل بعلاقات افرادها بعضهم بالبعض، أسرة شديدة التماسك، يحب أفرادها بعضهم البعض ويحرصون على بعضهم البعض. فالكتاب لا يتضمن رسائل الابن لأبيه، والأب لابنه فحسب، ولكنه يتضمن عددا من رسائل الابن لشقيقته الكبرى «كاملا» التي كانت قد تركت بيت الأسرة هي الأخرى، وذهبت للدراسة بجامعة بينارس الهندوسية.



كما تكشف الرسائل عن الشخصية الثانية التي يعدها مع الأب أهم وأعمق من أثرا في حياته، ألا وهي «باتريشيا هيل Patricia Hale» التي التقاها في أكسفورد، بعد عامين من وصوله إليها. وأقام علاقة وطيدة معها منذ عام ١٩٥٢، وكان يقرأ لها بين ١٩٥٢ و١٩٥٥ كل ما يكتبه، وكان أغلب ما يكتبه في هذه الفترة رديئا، كما يقول لنا. ويستمع بإخلاص إلى ردود فعلها ونصائحها، ويقدر لها صبرها، وقدرتها على اكتشاف الجيد فيما يقرأه عليها وفرزه من الخبيث الذي لاقيمة له. وقد تزوجها بعد ذلك. وظل يقرأ لها كل ما يكتبه حتى أيام من وفاتها عام ١٩٩٥. والواقع أن «ڤيديا» كان قد بدأ الكتابة منذ وصل إلى أكسفورد. وأنجز في العام الأول بها روايته الأولى (The Shadow'd Livery) التي سار فيها على نهج روايات إيڤلين ووه واستقى منه أسلوب السرد والبناء فيها، وإن كانت الفكرة له، ورفض الناشر الرواية فرماها «ڤيديا»، وأصيب بالاكتئاب والإحباط لعام كامل. ثم كتب روايته الثانية التي لم تكن افضل حظا من الأولى. ثم التقى بعد ذلك بباتريشيا التي أخذت تنبهه إلى مواطن القوة في نثره حتى ينميها، ومواطن الضعف حتى يتخلص منها.

وبعد ثلاث سنوات من الكتابة والقراءة المستمرة لباتريشيا، وبعد أن حصل على عمل في القسم الكاريبي بهيئة الإذاعة البريطانية، وأخذت بعض أعماله القصيرة في الظهور بها، قبل أول كتابين له للنشر دفعة واحدة، وهما رواية (المدلك الصوفي The Mystic Masseur) التي صدرت عام ١٩٥٧، ورواية (انتخابات ألڤيرا The Suffrage of Alvira) التي صدرت عام ١٩٥٨. وما أن قبلت الروايتان، وإن لم تنشرا بعد، حتى عاد لأول مرة إلى ترينيداد عام ١٩٥٦. ولكنها لم تكن عودة سعيدة، بل تجربة مرّة من المعاناة والعذاب. فقد أرجعته تلك العودة من جديد لمواجهة الفاقة والحرمان، وهو يلمس فقر الأسرة ومشاكلها الاقتصادية. وما أن عاد إلى بريطانيا بعد هذه الرحلة غير الموفقة حتى شرع في كتابة اهم روايات هذه المرحلة الباكرة في حياته الأدبية، وهي رواية (بيت للسيد بيسواس) التي تشكل نقلة جوهرية من هذا العالم المشغول بوطأة السياسي على الفرد والجماعة، وبعلاقات الهيمنة المتوترة بين البلدان المستقلة حديثا وبين المراكز الاستعمارية التي كانت خاضعة لها من قبل من ناحية، وبين الفرد والجماعة المحبطة في هذه البلدان من ناحية أخرى. وهي النقلة التي احتاجت إلى درس وتامل طويلين من الكاتب. لأنه بعد أن عاد من زيارته لترينيداد بعد غيبة ست سنوات عنها، وبعد رحيل أبيه عن الحياة كذلك، لم يشرع في كتابة هذه الرواية المهمة على الفور، وإنما كتب قبلها كتابه (شارع ميجيل Miguel Street) عام ١٩٥٩. ويمكن اعتبار هذا الكتاب، و(علم على الجزيرة A Flag on the Island) عام ١٩٦٧ العملين اللذين ينطويان على المادة السردية التي ينهض منها عالمه كله. تفاصيل الحياة اليومية المألوفة في هذا العالم الكاريبي الرتيب الذي كان يعمر ذاكرة الشاب اليافع عندما غادر ترينيداد في الثامنة عشرة من عمره، والذي أعاد خلقه على الورق من الذاكرة. لأن بنية هذين العملين، اللذين ينطويان على أعماله السردية القصيرة، هي بنية ومضات الذاكرة التي تسعى الكلمات لاقتناص توهجاتها، وأسرها في شبكة الكلمات الدقيقة. وهي بنية سردية تجريبية يتغير فيها المنظور، وتتحول فيها المشاهد من خلال دقتها المشهدية ذاتها إلى استعارات مثقلة بالدلالات. إن نصوص هذين الكتابين القصيرة هي تجارب في اختبار دور الذاكرة، والخيال، والتاريخ، والميراث الثقافي، والوعي الفردي، وكيف يمتزج هذا كله في رؤية فردية ومتميزة. وهي تجارب في الكشف عن معضلة الإنسان الذي تدفعه مقادير الحياة إلى الافتقار إلى الرواسي والجذور في الآن نفسه، وهي التجربة الفلسفية والوجودية العميقة التي تنطوي عليها معظم أعمال نايبول السردية. وكان (شارع ميجيل) كان التدريب الأساسي الذي لابد منه للعمل على روايته الكبيرة (بيت للسيد بيسواس).

وتنهض هذه الرواية الكبيرة التي تقع في ستمائة صفحة، ويعتبرها كثير من دارسي نايبول أهم رواياته، بل واحدة من أهم روايات القرن العشرين، على مادة حياة أبيه الشخصية، وعلى شخصيته التي طالب ابنه يوما باستلهامها في عمل روائي. وهي رواية تتسم ببنية سردية متميزة حيث يلعب فيها الاستهلال والخاتمة دورا مفارقا للسرد ومرافقا له في آن. وتسعى أحداثها السردية الفنية، وراويها المتميز إلى تقديم عالم جنوب ترينيداد



قال عنه ديريك والكوت ـ الشاعر الكاريبي الذي فاز بجائزة نوبل للآداب عام ١٩٩٢ وهو مواطن لنايبول من جزر الهند الغربية هو الآخر ـ «إن نايبول لا يحب الزنوج، وقد أعلن أكثر من مرة أن أفريقيا قارة لا مستقبل لها». لذلك يدعوه الكاتب الهندي الشهير سلمان رشدي بالاستعماري الأدبي الجديد Literary neo-colonialist



وكأنه عالم رحب يمتد بامتداد قارة بأكملها، وليس مجرد جزء صغير من جزيرة صغيرة. لأن ثراء هذا العالم السردى يتيح له هذا العمق والنضج والاتساع معا.



بعد هذه الرواية الكبيرة كتب نايبول رواية أخرى تدور أحداثها فى لندن هى (السيد ستون وتابع الفارس Mr Stone and the Knight's Campanion) عام ١٩٦٣ يسعى فيها إلى تجسيد إنسانية السيد ستون، وهو رجل أعزب فى الثانية والستين من عمره، فى مجتمع يزرى بإنسانيته. ويعيش السيد ستون وحده فى بيت يقع بأحد أحياء لندن المحترمة، حياة تتسم بالدقة والصرامة، واحترام الوقت. تخضع حياته لروتين صارم لا يتغير، على مدار الأسبوع، بل وعلى مدار السنة. فأيام الأسبوع عنده تحددها فساتين الآنسة «مينزيس» التى ترتدى فستانا بعينه كل يوم من أيام الأسبوع، ولا تغير عاداتها فى ذلك أبدا. أما طقوسه السنوية فإنها لاتتغير هى الأخرى، فهو يقضى عطلاته الصيفية فى أوروبا، ويقضى عطلة عيد الميلاد مع أخته «أوليف»، وحفلة الكريسماس لدى عائلة «توملينسون»، بصورة يبدو معها وكأنه يعيش فى عالم قد توقف فيه الزمن. وأخذت العادات والطقوس فيه تقوم بدور عقارب ساعة كونية لا تتغير دورتها. وتتحقق إنسانية السيد «ستون» من خلال اخضاع كل شىء للتساؤل المستمر، ومراقبة السلوك والاتجاهات، والتحرر من ربقة العادات الآسرة، والوعى بالنظام وأهمية الحياد فى الحكم على الأشياء. وتقيم الرواية مقابلتها بين عالم المكتب الصاخب الذى يعمل فى «ستون» وعالم البيت الهادئ الرخى الحميم المعزول. فالرواية توشك من حيث بنائها أن تكون قصيدة روائية بالغة العذوبة والإيقاع. بقدر ما يتقدم فيها السرد بقدر ما تتخلق دلالاته الرمزية والاستعارية، بحيث يتحول السيد «ستون» إلى استعادة قادرة على بلورة جوهر الإنسان الغربى المعاصر ومحنته فى آن.

وفى نفس العام الذى صدرت فيه هذه الرواية نشر نايبول كذلك أولى كتبه المغايرة، وهى تلك التى تمتزج فيها الرحلة، بالسرد شبه القصصى، بالمواد الوثائقية والتاريخية. فقد طلب منه إيرك ولیامز، رئيس وزراء ترينيداد فى ذلك الوقت، أن يكتب كتابا عن منطقة البحر الكاريبى. وكان نتيجة هذا الطلب أن كتب (الممر الأوسط: انطباعات عن خمسة مجتمعات: بريطانية وفرنسية وهولندية فى جزر الهند الشرقية وأمريكا الجنوبية) عام ١٩٦٣. وهو كتاب أعقبته كتب عديدة من هذا النوع الذى يمكن تسميته بأنه نص أدبى مابعد حداثى تمتزج فيه الأجناس الأدبية، حيث يكتب فيه التاريخ بمقدرة القصصى وبصيرته، وتكتب فيها الاسكتشات القصصية ببراعة الصحفى المولع بالتوثيق والمفارقات، وتكتب فيه التعليقات السياسية بلغة الأديب التهكمية اللاذعة، ويتحول فيه أدب الرحلة إلى نوع من السرد الأدبى الراقى الذى تبلغ فيه اللغة درجة عالية من الصفاء والبلاغة، ويمتزج هذا كله فى خليط بعد حداثى لايعرف الحدود بين أجناس الكتابة المختلفة، ويتعمد خلط الأوراق الأدبية جميعها. ويوشك صدور هذا الكتاب أن يكون بمثابة مفترق الطرق فى مسيرة نايبول الأدبية. لأن إنتاجه بعد ذلك توزع بين كتابة هذا النوع الجديد من الكتب، وبين كتابة بعض الروايات والمجموعات القصصية على فترات متباعدة. وقبل أن أنتقل إلى هذا القسم المغاير من إنتاجه الأدبى، سأستعرض بإيجاز بقية أعماله القصصية والروائية. وأهم هذه الأعمال هى (فى دولة حرة In a Free State) ١٩٧١، و(فدائيون Guerrillas) عام ١٩٧٥ و(منحنى النهر A Bend in the River) ١٩٧٩، و(العثور على المركز Finding the Centre) ١٩٨٤ و(أحجية الوصول) ١٩٨٧، و(طريق فى العالم A Way in the World) ١٩٩٤، و(نصف حياة Half a Life) ٢٠٠١.



وإذا كانت الأعمال الروائية الأولى تسعى إلى استقصاء الجدل بين وعى الذات بأنها واقعة فى شرك عالم مشدود بين الواقع السياسى وبين استحالة تحقق الذات الباحثة عن خلاص يحفظ لها كبرياءها وكرامتها، فإن (فدائيون) و(منحنى النهر) تستوعبان العالم السياسى والاجتماعى ضمن سعى الفرد الوجودى لتحقيق كينونته الفردية. وتمحيان فى سبيل ذلك الخط الفاصل بين الذاتى والموضوعى، بين الفردى والجمعى، بين السياسى والفلسفى. فى محاولة «للعثور على المركز» الذى طالما طالبه أبوه بالبحث عنه فى داخل الذات وليس خارجها. لذلك يتكون (العثور على المركز) من نصين سرديين متوازيين ومتكاملين معا. أولهما هو «مقدمة لسيرة ذاتية» وهو كما يؤكد العنوان سجل لسيرة غير مكتملة بالطبع، فكل سعى إنسانى ناقص بسبب نقص القدرة البشرية وإدراكها لمحدودية إمكانياتها، وهو إدراك لا يتحقق إلا مع نضج انتهاء الكهولة والاقتراب من عتبات الشيخوخة. وثانيهما هو «تماسيح ياموسوكرو» يجسد لنا بحث الكاتب عن المعنى من خلال الترحال وجوب الآفاق وتوسيع مداركه وإحساسه ومعرفته بالعالم المحيط به، وهو ترحال يعرض الذات أو بالأحرى يدخلها فى التجربة بالمعنى المسيحى لهذا التعبير، أو بالأحرى بالنقيض المسيحى الذى يتضرع للرب ألا يدخلنا فى التجربة. وتدور التجربة هذه المرة فى عالم غريب نسبيا على عوالم نايبول، وهو «ساحل العاج» فى قلب القارة الأفريقية. وهى موقع تجربة (فى دولة حرة) كذلك التى تدور أحداثها هى الأخرى فى أفريقيا، وتقع بعض وقائعها فى القاهرة والأقصر. ولابد أن وقوع الكثير من أحداث هذه الرواية فى مصر سيرشحها للترجمة للعربية فى موجة ترجمات أعمال الفائزين بنوبل للعربية كالعادة. حيث تجد الذات أنها ليست مشدودة إلى مماثليها، وإنما إلى نقائضها. ومع ذلك فإن هذه النقائض البادية تسعى هى الأخرى لمعرفة منطق هذا العالم الخالى من المنطق. والواقع أن تجربة (العثور على المركز) الشيقة هى تجربة تفكيك الذات الكاتبة نفسها. وهى تجربة ما بعد حداثية بكل معنى الكلمة.

لذلك كان من الطبيعى أن تكون رواية نايبول الكبيرة التالية هى رواية (أحجية الوصول) وهى أكثر رواياته التصاقا بسيرته الذاتية. أو هى الرواية التى تنمحى فيها الفواصل بين الرواية والسيرة الذاتية، لأنها فى حقيقة الأمر رواية بكل معانى الكلمة وإن اعتمدت على الكثير من تفاصيل سيرته الذاتية. أو بالأحرى هى الرواية التى تختبر حدود التجربة الروائية ذاتها، وتوسع هذه الحدود إلى أقصى درجة، وتستخدم هذا كله لمساءلة العالم وطرح قضايا الموت والكمال والفن والتحقق. وراوى هذه الرواية الكبيرة وبطلها هو بالطبع كاتب من ترينيداد يعيش فى بيت ريفى كبير فى انجلترا. ولكنه فى حقيقة الأمر شخصية مزدوجة، تلعب دور الكاتب والمراقب لعملية الكتابة معا. وتتأمل معنى البداية والنهاية فى الكتابة الروائية، بقدر ما تجسد أحداثها طبيعتهما فى الحياة والكون. لأن الكاتب يقترح عدة بدايات محتملة لروايته، ويطرحها للجدل داخل الرواية نفسها، ولكنه مدرك فى الوقت نفسه، أنه ما أن يختار البداية حتى يهرع السرد بعدها إلى نهايته الحتمية. فليس لدى الكاتب ترف اختيار النهايات، كما هو الأمر مع البدايات. وتتجاوز أسئلة الرواية عن العملية الإبداعية حدود البداية والنهاية. لأن الراوى فيها لا يروى عن البطل، بقدر ما يسعى لاستكناه حقيقة الكاتب، وطبيعة العملية الإبداعية ذاتها. فالرواية فى مستوى من مستويات الدلالة فيها هى رواية كاتب يجعل نفسه شخصية روايته الأساسية للتغلغل فى أعماق الشخصية، وأعماق ذاته فى آن. حتى يحل من خلال هذه العملية معضلة الشخصية وحيرة الكاتب معا، فى إدراك معنى الحياة ومعنى الفن ومعنى الوجود. ولا يتساءل الإنسان عادة عن هذه المعانى الكبيرة إلا عندما يفاجأ بصدمة الموت القاسية. والواقع أن صدمة موت «ساتى» ـ شقيقة نايبول الأصغر منه مباشرة ــــ عام ١٩٨٤ هى التى دفعته إلى كتابة هذه الرواية، وكأنه يدرأ بالكتابة عن نفسه الموت، كما فعلت شهرزاد بقصها. وقبل أن ينتهى منها يختطف الموت شقيقه الوحيد «شيفا» عام ١٩٨٥، والذى كان هو الآخر كاتبا نشر سبعة كتب.

آخر روايات نايبول، والتى كتبها بعد انقطاع عن الرواية لسبع سنوات، ونشرت قبل شهرين، هى رواية (نصف حياة). تدور داخل عالمه العقلى والروائى الأثير، عن عالم البشر الذين يعيشون حياة غير متحققة، كما يوحى العنوان.وعن الحياة التى نتوق إليها، ولا نتمكن أبدا من أن نحياها برغم شدة توقنا إليها وإخلاصنا فى هذا التوق. وتدور فى إحدى ولايات الهند المستقلة التى كان يسوسها مهراجا حرم نشاطات حركة الاستقلال، ثم تنتقل بأحداثها إلى الخمسينيات، ومرحلة ما بعد الاستقلال، ثم إلى أفريقيا البرتغالية بعد ذلك. ويهفو بطل الرواية إلى تحقيق التفرد والتميز فى عالم كئيب، وينحدر من أسرة من طبقة الكهنة الهندوسيين، ولكن أباه اعتنق تعاليم غاندى، وتزوج امرأة من طائفة اجتماعية أدنى، فينعزلان معا عن طبقتيهما، فلا طبقته الأعلى تقبل زوجته، ولا طبقة الزوجة الأدنى تقبل زواجها من خارج طائفتها. أما الابن «ويلى» وهو بطل الرواية فإنه مشحون بنوع من الغضب التاريخى للإهانات التى عانت منها أمه بسبب رفض طائفة أبيه لها. ويتوجه «ويلى» إلى انجلترا للدراسة، ويعمل فيها فى هيئة الإذاعة البريطانية، ويندمج فى مجتمع المهاجرين الهنود بلندن. وتجسد الرواية حياة منطقة «نوتينج هيل» البوهيمية فى الخمسينيات بباراتها وملاهيها وبداية مرحلة الانطلاقة الجنسية فيها. وتشكل هذه المغامرات عصب الرواية لأنها تكتشف أهمية الجنس فى حياة الإنسان، وتكشف فى الوقت نفسه عن غربة الإنسان حتى فى أكثر لحظاته الحميمة. وحينما تندلع أحداث الشغب العنصرية الشهيرة فى «نوتينج هيل» يقرر ترك لندن، ويذهب مع «أنا» التى تعرف عليها فى هذه المرحلة إلى أفريقيا البرتغالية التى جاءت منها، وإلى المزرعة التى تركها لها جدها الاستعمارى فيها. وهناك يكتشف «ويلى» الجنس من جديد ويغوص فى عوالمه، لا مع «أنا» فحسب، وإنما مع زوجة مدير مزرعتها، ثم مع العاهرات الأفريقيات الصبايا اللواتى لم يتجاوزن الرابعة عشرة من العمر. وتوشك هذه الرواية أن تكون دراسة نايبول الحميمة للجنس، وأن تكشف لنا فى الوقت نفسه عن سر تعلقه بزوجته الجديدة «نظيرة» التى تزوجها بعد عام واحد من رحيل زوجته الأولى «باتريشيا». وهذه مسألة سأعود إليها بعد قليل.

لكننى أود أن ألتفت الآن، وبعدما أكملت تناولى الموجز، بأى معيار من المعايير، لروايات نايبول التى

منذ نصف قرن بالتحديد
جاء إلى بريطانيا التى بقى بها حتى الآن،
والتحق بجامعة أكسفورد، ودرس بها الأدب الإنجليزى.
وكان أبوه يكتب له مرة أو مرتين فى الأسبوع، فى سلسلة
من الرسائل التى نشرت قبل عامين بعنوان (خطابات
بين أب وابنه وقد لعبت دورا مهما فى تكوين
نايبول وفى صياغة مواقفه وتصوراته



تشكل إنجازه الأدبي الجديد بالتقدير والاهتمام، إلى تناول الجانب الآخر من نشاطه الأدبي، والذى استأثر بما يقرب من نصف كتبه الخمسة والعشرين. ألا وهى تلك الكتب التى يمزج فيها بين صيغ الكتابة المختلفة والتى تقترب من الاستقصاءات التى تدور حول الرحلات واكتشاف الثقافات، والبحث فى الوقت نفسه عن هويته وماهيته وجذوره. والواقع أن هناك ثلاث مناطق أساسية خصها نايبول باستقصاءاته، ويمكن أن نقول إنها كلها تتمحور حول بحثه عن جذوره الهندية، أو هويته الأنجلوهندية إن شئنا الدقة. هذه المناطق الثلاثة هى منطقة البحر الكاريبى، أو جزر الهند الغربية التى انحدر منها، والهند، وعالم آسيا الإسلامى الذى يمتد من أندونيسيا حتى إيران. وقد كتب أكثر من عمل عن كل منطقة من هذه المناطق الثلاثة. بدأ أولا بمنطقة الكاريبى حيث كتب (الممر الأوسط: انطباعات عن خمسة مجتمعات: بريطانية وفرنسية وهولندية فى جزر الهند الشرقية وأمريكا الجنوبية The Middle Passage:) Impressions of Five Societies: British, French and Duch in the West Indies and South America ثم (فقدان الدورادو The Loss of Aldorado) عام ١٩٦٩، وأخيرا (زيارة منطقة الكاريبى من جديد The Caribbean Revisited) عام ١٩٩٥ ثم انتقل للهند حيث كتب عنها ثلاثة أعمال هى: (منطقة من الظلمة An Area of Darkness) عام ١٩٦٤، و(الهند: حضارة جريحة India: A Wounded Civilisation) عام ١٩٧٧، و(الهند: ألف عصيان لحد الآن India: A Million Mutinies Now) وبعد ذلك العالم الإسلامى الآسيوى الذى خصه بعملين أولهما (بين المؤمنين: رحلة إسلامية Among Believers: An Islamic Journey) عام ١٩٨١، وثانيهما (ما وراء الإيمان: رحلات بين من اعتنقوا الإسلام Beyond Belief: Islamic Excursions among Converted People) عام ١٩٩٨. هذا فضلا عن عدد من الكتب التى ضم فيها مقالاته المختلفة والتى تتناول الكثير من جوانب هذه المناطق الثلاثة إلى جانب أفريقيا وعدد من بلدانها المختلفة.

وإذا كان من العسير علينا هنا أن نتوقف عند هذه الكتب العديدة التى تناول فيها كل هذه المجتمعات المختلفة بشكل تفصيلى، والتى تكشف عن رؤاه الفكرية وتصوراته المثيرة للخلاف حولها، فلابد من استعراض بعض آرائه المثيرة للجدل بشأنها بصورة موجزة. لأن هذا الجانب الخلافى من نشاط نايبول الأدبى يحتاج إلى أكثر من وقفة مترينة إزاءه.

والواقع أن نايبول لم يتخل فى تناوله للهند عن طرح العديد من آرائه المتخلفة والمستهجنة عن نظام الطوائف الاجتماعية الهندى، ورغبته فى الحفاظ عليه، برغم وعيه بقسوته الجارحة. لأنه يعتقد أن الهند لا يصلح فيها الوعى الغربى بالفردية. ولا تحب أن تسمح للفرد بحرية الحراك الاجتماعى. فلابد أن يتحرك الفرد فيها مع قبيلته أو طائفته برمتها. لأن القبيلة هى التى تحمى الفرد فى هذا العالم الصعب. ويؤكد فى هذا المجال على أن كارثة الهند الكبرى لم تكن الاستعمار البريطانى، وإنما خمسمائة عام من الغزو الإسلامى والدمار. وأن محاولة تجميل هذا الغزو الدامى، وإضفاء أى صيغة إيجابية عليه تؤدى إلى فقدان الهند لتاريخها. وأن من الزيف أن نقول بأن المسلمين علموا الهنود فن الطهى أو أهمية النظافة، بدلا من الكشف عن حقيقة الدمار الفادح الذى ألحقوه بها، ولاتزال آثاره الدامية فاعلة فيها حتى الآن. فقد دمروا الحضارة الهندية تدميرا ماحقا. دمروا كل شىء، وحكموا الهند بالحديد والنار، وساموا أهلها العذاب، واستعبدوا القرويين وباعوهم فى أسواق النخاسة. وإذا لم يجئ الانجليز إلى الهند، فإن الهند كانت خربت تماما، وتحولت إلى أطلال دارسة. ويعتقد نايبول أن تدمير الإسلام للهند كان تدميرا كاملا، بحيث إنها، وبعد مائتى سنة من إنقاذ بريطانيا لها من براثن الإسلام لاتزال مضعضعة وجريحة، أو بالأحرى «حضارة جريحة» كما يقول عنوان كتابه الثانى عنها.

أما إذا ما انتقلنا إلى العملين اللذين كتبهما عن البلدان الإسلامية الآسيوية، فإن القارئ المسلم ما يلبث أن يشعر بالغم والغيظ عندما يقرأ أيا من هذين الكتابين. ليس فقط لأن نايبول كاتب ذكى حاذق يوظف قدرته اللغوية الراقية، وموهبته فى سرد الوقائع وتصوير الشخصيات، وقدرته على التهكم وبلورة المفارقات، للزراية بكل ما يراه فى العالم الإسلامى، ولكشف ما تنطوى عليه الشخصيات والمواقف من نفاق وتناقض، ولكن أيضا لأنه يعى أنه يكتب لقارئ غربى مستنير، يشاركه الكاتب منظومة معتقداته العقلية وتصوراته الإنسانية التى ترسخت منذ مسيرة النهضة الأوروبية، ويكشف له مدى تناقض كل ما هو إسلامى، من خلال أقوال المسلمين وتصرفاتهم، مع الأسس العقلية والفكرية للحداثة الغربية. ومما يزيد غيظ المسلم وحنقه على كتاباته أن كثيرا مما يطرحه عن واقع المجتمعات المسلمة وتخلفها فيه قدر كبير من الصدق، ومقدار لابأس به من التجنى. ولكن القارئ الغربى لايستطيع التمييز بين الاثنين. ويتصور بسبب

نايبـــــول: لا أنتـــقـــد الـــديـــن

■■ جاء فوز نايبول بجائزة نوبل لعام ٢٠٠١ ليكون حلقة أخرى فى سلسلة الكُتّاب الذين أثار فوزهم بالجائزة جدلاً سياسياً مثل الصينى جاو كسينجيان والإيطالى داريوفو والألمانى جونترجراس. بل يثير فوز نايبول بالجائزة - وقد رُشح لنيلها منذ سنوات عديدة - حساسية سياسية خاصة بالتحديد لما يحمله كتاباه «ما وراء الإيمان» و«بين المؤمنين» من آراء عنصرية ومواقفه الناقدة للأصولية الإسلامية.

فى عام ١٩٩٨ نشرت دار نشر Random house فى لندن كتاب نايبول الشهير «ما وراء الإيمان: رحلة إسلامية بين المتحولين لدين جديد» وهو كتابه الثالث والعشرين ويعد تكملة لكتابه «بين المؤمنين: رحلة إسلامية» الذى نشره عام ١٩٨١ وأجرت مجلة random@ وهى مجلة تصدر على شبكة الإنترنت وتابعة لدار النشر المذكورة مع الكاتب الشهير، هذا الحديث فى شهر يونيو من العام ذاته. وهذه فقرات من هذا الحديث الطويل تعكس اتجاهاته العرقية وتحلل موقفه من الإسلام كما جاء فى كتابيه، أجرى الحديث فى دلهى الكاتب الهندى تارون ج.تيجبال محرر مجلة Outlook الهندية.



* لقد زرت الهند لأول مرة منذ خمسة وثلاثين عاماً. وعدت بعد ذلك مراراً سواء للكتابة أو لقضاء الإجازة. ما هو مصدر ولعك المستمر بالهند؟

- إنها فى الحقيقة تمثل جذورى. إن أسلافى قد ولدوا هنا. ورغم ذلك فقد ولدت لا أعلم شيئاً عنهم خارج حدود أجدادى لأبى وأمى. لم أستطع أن أتطلع لما وراء ذلك. لقد أتيح لى فقط الرجوع قليلاً إلى عائلة جدى لأمى. وبالنسبة لباقى العائلة كان الأمر مجرد ظلام مطلق. إننى حقيقة أحاول أن أكتشف ما أسميه بمنطقة الظلام.

* هلا رجعت بذاكرتك للوراء، ولنقل لعام ١٩٥٠، وهو العام الذى انتقلت فيه للندن، خبرنا ماذا كان عليه ف.س.نايبول حينذاك. لابد أنك كنت صبياً عصابياً يرتحل عبر البحار إلى بلاد غريبة تماماً ساعياً لتحقيق طموحه. أعطنا لمحة عما كان يبحث عنه ذلك الصبى ذو الثمانية عشر عاماً؟

- حسناً، نعم، لقد أردت أن أكون مشهوراً للغاية. لقد أردت أيضاً أن أكون كاتباً: أن أكون مشهوراً بسبب كتابتى. ولكن لغرابة الأمر، لم يكن فى ذلك الوقت لدى أية فكرة عما أريد أن أكتب عنه. لقد كانت أسرتى فقيرة للغاية، ولهذا فقد سعيت بجهد للفوز بمنحة دراسية لانجلترا. وكان ذلك أمرا صعبا للغاية. فالحكومة البريطانية المستعمرة لترينداد هى المسئولة عن المنحة، وكان يفوز بها عدد قليل للغاية، ربما فاز بها ثلاثة أو أربعة بعد حصولى عليها. لقد أردت دراسة الانجليزية فى أكسفورد، ليس بسبب الانجليزية أو بسبب أكسفورد، ولكن لأنها كانت بعيدة عن ترينداد، ولأننى ظننت أننى قد أعرف شيئاً ما عن ذاتى، وأن أجد مادة لكتابتى. لقد جئت انجلترا يملؤنى الطموح والجهل، وهناك أمر آخر هام للغاية. لقد كنت مضطهداً بفكرة حقارة حياتى فى بلد مستعمر. لقد كنت مضطهداً أيضاً لسبب آخر يتعلق بشكل خاص بأسرتى الهندية الهندوسية، وهى المنازعات الأسرية. لقد كان الناس هناك يحكمون ويدينون بعضهم الآخر بناء على أسس أخلاقية. لم يكن مجتمعا متسامحاً - لا العالم الاستعمارى ولا العالم المحدود الذى نشأت فيه، العالم الهندوسى. ولهذا فقد أردت الذهاب بعيداً. لقد كان لدى تصور بأن الناس فى العالم الخارجى الأوسع يقدّرون بسبب كينونتهم. لقد عانيت لسنوات من الفقر الشديد، وعانيت كثيراً لكى أجد عملاً، أو مكاناً لأعيش فيه، أو حتى لكى أجد صوتى الخاص.

* أنجزت ثلاثة كتب عن الهند فى الخمس والثلاثين سنة الماضية. منطقة مظلمة ١٩٦٤، الهند: حضارة مجروحة ١٩٧٧، والهند: مليون متمرد الآن ١٩٩٠، وكلها تحمل ردود فعل متباينة أغلبها غاضبة تجاه الهند، كيف تعلق على ذلك فى ضوء رؤيتك لانبعاث جديد للهندوسية فى الهند، خاصة بعد وصول حزب أصولى للحكم.

- حسناً الانبعاث الهندوسى والأصولية، إن أفكارى حول هذا الموضوع معقدة للغاية. لابد أن نعود إلى حضارة مجروحة، حيث كانت رؤيتى أن الهند القديمة قد تدمرت تقريباً بسبب الغزو الإسلامى، وما يحدث الآن منذ مجيء البريطانيين والاستقلال الذى حدث لاحقاً، كان فقط مجرد نوع من الحياة الهندوسية، ولا يمكن أن نسميه انبعاثاً جديداً. والنهضة ليست فى الحقيقة نهضة بسبب الهندوسية ومعتقداتها، لقد جاءتنا النهضة بشكل غير مباشر من أوروبا. نحن مجرد مظهر للنهضة الأوروبية. لقد مات العالم القديم. ليس معنى هذا أنى لا أهتم به. ولكنى أعنى أنى أريده أن

مهارة السرد وحشد التفاصيل الحسية التي يوظف فيها الكاتب مهاراته السردية، أن كل ما يقدمه له نايبول هو تصوير محايد للواقع الذى يتجول فى فيافيه، وللشخصيات والأحداث التى صادفها فى رحلاته.

والواقع أن براعة نايبول الأسلوبية، واستخدامه لبلاغة اللغة الإنجليزية التى تعتمد على المفارقات والالتفات والتهكم وازدواجية الدلالات هى التى تجعل هجومه على الإسلام فعالا. لأن هذه البراعة الأسلوبية هى أداته لدس السم فى العسل، عسل الوصف الشيق الذى يتالق فيه المشهد وتنبض الشخصية بالحياة من فوق الورق. لنكتشف كيف يخدعه المسلم كاى نصاب محترف، ثم يدير له ظهره ويتوجه للمسجد للصلاة، وكيف يكذب عليه فى وضح النهار، ثم يرفض أن يتناول الطعام لأنه صائم. ويخلص من هذه الملاحظات التى تملأ كتابيه، إلى أنه «ليس ثمة دين أكثر اهتماما بالحياة الدنيوية من الإسلام، وليس ثمة دين آخر يفتح أعين الإنسان على كيف تدور الأمور فى الواقع والمجتمع. . . . وقد حاولت أن أكتشف كيف يمكن للإسلام أن يتجاوز أمور العبادات والطقوس، وأن يصبح خلاقا وثوريا، وأن يتجاوز المعتقدات الدينية، ويمهد لنهضة حقيقية تنفتح على الجديد وتثرى به، كما كان الحال مع المسلمين فى أيام مجدهم الغابرة. . . . لكن الإسلاميين بتصورهم غير التاريخى يخافون من التلوث بافكار الآخرين دون أن يقدموا البديل. وهم يكتفون بدفع البشر لدين ينهض على الإذعان وينتهك الأساسيات الإنسانية البسيطة، ولايستطيع أن يحمى المسلمين من بقية العالم أو يقيم سورا بينهم وبينه» (بين المؤمنين ص ١٦٧).

إن الرد الحقيقى على نايبول فى هذا المجال لابد أن يتم باللغة الإنجليزية التى يؤثر فيها وبها أولا، وعلى أرض العقل والمنطق التى يقيم عليها محاجاته ثانيا. لأن نايبول كاتب يتسم بحدة الذكاء والعجرفة معا. ولم تهزه حقا إلا تلك الحملة التى شنها عليه واحد من أخلص أتباعه له ألا وهو الكاتب الأمريكى المرموق بول ثورو Paul Theroux الذى كتب عنه كتابا مثيرا، فيما يقرب من أربعمائة صفحة، بعنوان (ظل السير ڤيديا: صداقة عبر خمس قارات Sir Vidia's Shadow: A Friendship in Five Continents) عام ١٩٩٨. وكان بول ثورو قد التقى نايبول لأول مرة فى أوغندا فى الستينيات، وكان من أشد المعجبين به، واستطاع أن يستأثر باهتمام نايبول وأن يصبح أحد أصدقائه المقربين. وكتب عنه بعد صداقة وطيدة وطويلة كتابا جميلا بعنوان (ڤ.س. نايبول: مقدمة لأعماله V. S. Naipaul: An Introduction to His Work) عام ١٩٧٢ حلل فيها أعماله الروائية بشكل يتسم بالعمق والحساسية. لكنه وبعد وفاة زوجة نايبول الأولى، ولقائه عام ١٩٩٦ بالصحفية الباكستانية نظيرة هانم علوى Nadira Khannum Alvi وزواجه منها بعد ذلك بوقت قصير، حدثت الفرقة بينهم. لأنه ما أن جاءت نظيرة إلى بيت نايبول فى مقاطعة ويلتشاير حتى أخذت ـ كاى امرأة تريد التخلص من آثار المرأة السابقة وأشباحها التى لاتزال تعمر البيت ـ فى الاستغناء عن كثير مما فى المنزل، بما فى ذلك عدد من الكتب التى كانت به، والتى أهداها أصدقاؤه له. ولما اكتشف بول ثورو أحد كتبه التى أهداها فى طبعتها الأولى لنايبول يباع فى مزاد علنى فى نيويورك، وقد بدأت المزايدة عليه بألف وخمسمائة دولار بسبب أهمية الإهداء، حتى ثارت ثائرته. وانقلب على أستاذه السابق، خاصة عندما انحاز الأستاذ إلى صف زوجته الجديدة ضد تلميذه الوفى، ورفض الإنصات لشكواه.

ويكشف لنا هذا الكتاب الشيق الذى كتبه ثورو، والذى يذكرنا بفصول من «ديوان» العقاد والمازنى، أو «على السفود» للرافعى وغير ذلك من كتب المعارك الأدبية الحامية الوطيس، صفحات مطوية من تاريخ الأستاذ وتصرفاته. ومدى شعوره الداخلى بالمرارة والغرور معا، وتصرفاته التى تتسم بالعجرفة إلى حد أنه رفض أن يخلع حذاءه قبل أن يدخل أحد المعابد فى الهند، لأنه دائما يشكو من قذارة الهند وتفشى الأمراض فيها. فهو إنسان يتسم بضيق الخلق وعدم التسامح.

والواقع أنه إذا كانت كتابات نايبول غير الروائية خاصة كتابات مترعة بالعنف الرمزى الناجم عن التحيز والتعصب وضيق الأفق المدعوم بقدرة خارقة على توظيف اللغة ببراعة لخدمة هذه التحيزات وتبريرها. فإن هذا الكتاب هو نوع من الرد عليها بلغتها وأسلوبها معا. وهو كتاب يستحق أن نتوقف عنده هو الآخر لأنه يكشف لنا عن حقيقة كل من نايبول وبول ثورو معا. والغريب أن تمكن نايبول الشديد من اللغة والقدرة الخارقة على التحكم فيها، وهى كما رأينا بنت تاريخ طويل من المراس والدأب، لم توفرله تلك الطمانينة وراحة النفس التى يمكن أن ترتوى من القدرة على امتلاك اللغة ومطاوعتها له، وإنما زادت من حدة مزاجه، وضيق أفقه، وإحساسه بالغرور والغطرسة. وهذا هو ما جعل فوزه بالجائزة إشكاليا، وما نال من قيمة إنجازه الأدبى الكبير. ■

بل الظروف والمؤثرات!

تارون ج. تيجبال

يدرس، أن نقترب منه بكثير من الرهبة، بكثير من التوقير.

* ما الذى أطلق شرارة كتابك الجديد حول الإسلام (ما وراء الإيمان)، وهو كتابك الثانى حول هذا الموضوع، بعد سبعة عشر عاماً؟

ـ حسناً، إن كل أعمالى تحمل علاقة ما، كل كتاب له علاقة بما يليه. كل شىء يبدأ بمرجعيتى الخاصة. إنى أستكشف لكى أحاول أن أكتشف كل أوجه تلك الخلفية تاريخ العالم الجديد، أفريقيا، إنجلترا، الكثير عن الهند، ثم العالم الإسلامى: العالم الإسلامى خارج حدوده العربية. لقد حفزنى أمران لتاليف هذا الكتاب، الأول: هو أن أنظر مرة ثانية للدول التى ذكرتها فى «بين المؤمنين». الأمر الثانى: هو أن أنقل شيئًا ما من الهند حضارة مجروحة، لأن الجرح الذى وصفته فى هذا الكتاب كان جرح الغزو الإسلامى، الذى لم تشف منه الهند حتى الآن، كما أشعر، ولقد قادنى هذا الدافع فى هذا الكتاب، خلال أسفارى، إلى فهم الحالة العصابية المصاحبة للتحول لدين آخر. إن الإسلام فى جذوره دين عربى بالضرورة. هؤلاء الذين ليسوا عربًا وأصبحوا مسلمين ينظر إليهم العرب بوصفهم متحولين، و الحالة العصابية الملازمة لذلك تجىء من حقيقة أن الإسلام ليس دينا يتمتع الفرد فيه بالوعى الشخصى. إنه ليس فقط مسالة تامل، إنه دين إعلان و تصريح، إنه دين القوانين، بالالتزام الصارم برسول يعد رسولاً خاتمًا. إنه أمر لا يشابهه أى شىء آخر، دعنا نقول، فى الهند ودياناتها القديمة. حينما يصبح شخص ما خارج العالم العربى مسلماً، فإن إيمانه يتطلب منه أن ينبذ كل ماضيه. وبطريقة مشوقة، إذن، فإن ذلك يعد معارضاً للأفكار الحديثة عن التراث، الأفكار الحديثة عن التاريخ والبحث. إن الماضى منفى، وعينى المتحول مثبتتان على مكة: إن ذلك كل ما يشغله. إن البقايا-ليس البقايا، أعنى الأماكن المقدسة فى مكة تصبح هى أماكنه المقدسة، وليس هناك أماكن مقدسة خارجها. إن هذا منتهى الاضطراب العصابى، نبذ كل ما يمثله المرء، كل ما يناضل من أجله. إنه نوع عميق من الكولونيالية، يجب على المرء القول، بل وأعمق لأنه ينطوى على عقوبة دينية.

* هل هذا أمر لصيق بالإسلام، أم أنه الاضطراب العصابى لكل المتحولين من دين لآخر؟

ـ حسناً، لقد تسنى لى فقط دراسة نوعين من التحولات. واحد وهو أهم التحولات فى العالم القديم-و هو تحول العالم من الأديان الكلاسيكية إلى المسيحية، حينما تحول ما يسمون بالوثنيين إلى المسيحية، لقد كان عليهم أن يتخلوا عن معتقداتهم القديمة، ولقد فعلوا ذلك بسهولة تماماً، لأن الأديان الجديدة- سواء الإسلام أو المسيحية كانت مليئة بالأفكار الاجتماعية التى لم تحظ بها الأديان القديمة أبداً. إن أفكاراً مثل الإخاء و فعل الخير و السماحة، فى الحقيقة لم توجد فى ديانة مثل الهندوسية. ولهذا فإن هناك شيئًا ما راديكاليا حول التحول إلى الدين المكتشف بقواعده الجديدة. إن الأمر لا يتعلق بالإسلام وحده. ما أفترض أنه أمر متعلق بالإسلام هو هذا الرفض للتاريخ، التاريخ الشخصى للفرد. هذا الإصرار على أن تكون اللغة المقدسة هى اللغة العربية.

فى ماليزيا هناك الآن جماعة متعصبة تريد أن تكون اللغة العربية هى اللغة الرسمية فى ماليزيا. إنها جماعة صغيرة ولكنها تمثل الطريقة التى يمكن أن يتحرك بها المتحولون.

* وهذا النوع من الانفصال، هل يخلق كل أشكال التصدع فى المجتمع؟

ـ نعم، أعتقد أنك بمجرد أن تبدأ، بمجرد أن تفكر أن تكون متحولاً مثل ذلك، لا يمكن أن تكون مواطناً جيداً أو تقياً بدرجة كافية. ولقد وجدت ذلك أمراً مستحيلاً، حتى فى ماليزيا عام ١٩٧٩، حينما كان الناس يحاولون أن يتخلصوا من ماضيهم الشخصى لأن الأمر عندئذ يبدو وكأنك تحاول أن تجعل نفسك مجوفاً من الداخل مثل كوب فارغ. لقد أرادوا التخلص من عاداتهم العتيقة، مثل عادات الزواج وهى مراسم هندوسية. وأعتقد أنه لو أن علىَّ أن أفكر فى استخدام كلمة للدين فى مكان مثل باكستان، فإنها سترتبط فى الحال بعلاقتها بالسلطة، إنها تستخدم أيضاً كصيغة تهديد.

* لقد سمعتك ذات مرة تقول أن الإسلام الآن بحاجة إلى نهضة. بأية طريقة تعتقد أن ذلك يمكن أن يحدث، إن كان ذلك ضرورياً، ولماذا هو ضرورى؟

إن هذا ما يوقعنا فى مشاكل فى الحال مع الأصوليين الذين يعتقدون أن ما قاله الرسول يجب أن يبقى ملزماً طوال الوقت، بغض النظر عن آلية التغير التى تحكم الحياة. إننا بشكل واضح بحاجة إلى أن ننظر إلى وضع المرأة، وفكرة التسامح مع الأديان الأخرى، التى يجب أن تكون جزءاً من الإسلام المنبعث من جديد. إن النمو والحياة الفكرية يمكن أن يحدثا فقط حينما يكون العقل متفتحاً. ولكن هنا، الأجوبة كلها قد منحت لك. ليس هناك مجال لمزيد من المناقشة، مما يجعل منها ثقافة مغايرة لأية ثقافة أخرى حية و لها القدرة على التكيف مع هذا أو ذاك.

* هل تتوقع مع صدور هذا الكتاب الجديد أية مضايقات من المدافعين عن الإسلام؟

ـ لا أعتقد ذلك. أعتقد أن الناس قد ينتقدوننى، ولكننى حريص جداً ألا انتقد ديناً أو مبادئ دينية أبداً. إننى اتحدث الآن فقط عن المؤثرات الاجتماعية والتاريخية. كل الكتب معرضة للنقد، وهذا ما ينبغى أن يكون. ولكن هذا الكتاب، تذكر، ليس كتاب رأى. فى كتب الاكتشاف التى قمت بتاليفها، كنت أطور أو أعمل باتجاه صيغة أدبية جديدة، فبدلاً من أن يكون المسافر هو أكثر أهمية من الناس الذين يرتحل بينهم، فإن للناس أهميتهم أيضاً. إننى أكتب عن الناس الذين أقابلهم، أكتب عن تجاربهم. ولهذا، فإن هذا كتاب يعبر عن تجربة شخصية.

وسيكون من الصعب جداً أن تجد فيه نقيصة إذا ما قرأته بهذه الطريقة. لا يمكنك أن تقول أنه يسىء لأى شىء. إننى أختبر التجارب الإنسانية و أصنع نموذجاً للتجربة الشخصية. بطريقة ما، يمكنك ببساطة أن تقول أن هذا كتاب قصص، كتاب حكايات. ■

عن مجلة:
@ Random
ترجمة: رانية خلأف



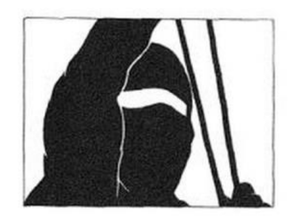
مراكز البيع:

مصر الجديدة: ١٢ ش محمد المهدى . نبيل الوقاد أرض الجولف ت: ٤١٤٧١١٣
مدينة نصر: أرض المعارض بوابة (٩) شارع الفنجرى ت: ٤٠١٦٢٣٠
الزيتون: ١٣ ش عين شمس . ميدان حلمية الزيتون ت: ٢٤١١٣٤٧
عين شمس : ش أحمد عرابى من أحمد عصمت أمام مزرعة الزهراء للخيول ت: ٢٩٦٦٥٦٤
الشرابية: شارع الألايلى ت: ٢٣١٤٣٤٦
المرج: ش ترعة السلطوحية عمارة سعيد شاهين
الحرفيين: ميدان الحرفيين عمارة الربيع ت: ٢٨١٧٨٨٠
شبرا: ٦٤ ش روض الفرج . دوران شبرا ت: ٤٣٢٦٨١٠
ناهيا: ٦٢ ش ناهيا بولاق الدكرور ت: ٣٢٧٢١٨٧
الزاوية الحمراء: ٦ شارع منشية الجمل عمارة العمدة أمام مصنع العلف
العمرانية: ٢ ش عبدالرحمن مطر ت: ٥٦٤٠٨٦٢
إمبابة: ٦٣ ش الوحدة ت: ٢١٠٧٧٢٦
الهرم: ٤٥٦ أول ش الملك فيصل ت: ٥٧٢١١١٨
مصر القديمة: ٦ ش أثر النبى ت: ٥٣٤٠٩٨٧
المعادى: ٢ طريق مصر حلوان الزراعى محطة المطبعة ت: ٥٢٤٦١٦٥
حدائق القبة: ١٤٥ ش مصر والسودان . محطة الجراج ت: ٠١٠/١٤٥٥١٠٧
القلعة: ١ ش سوق السلاح ت: ٠١٢/٣٤٣١٠٦٥
القناطر الخيرية: ٢٥ ش البقلى متفرع من ش ١٤ ٠١٢٤٥٣٥٦٩٩
شبين القناطر: ٩ ش الدلتا
دكرنس: ش مجلس المدينة عمارة م التميمى
العاشر من رمضان: دوار العاشر . طريق الإسماعيلية
الفيوم: ش ٢٦ يولية عدلى يكن سابقا ت: ٠٨٤/٣٤٤٢٢٢
دمنهور: ١٢ ش الشيخ عبدالكريم ت: ٠١٢/٣٤٣١٦٠٦
ميت غمر: ١ ش بورسعيد
سوهاج: ٢١ ش النهضة بجوار عمر أفندى ت: ٠٩٣/٣٢٢٨٩٠
حلوان: ٢٧ ش أحمد بدوى من رايل ت: ٥٥٥٩٨٨٧
المنزلة: شارع عبدالمنعم رياض عمارة الدكتور الخريبى
فيصل التعاون: ٣٥٧ شارع الملك فيصل . محطة التعاون ـ الهرم ت: ٣٨٣٢٠٢٦
بلقاس: ش طريق الحرية . خلف المحكمة
العاشر من رمضان: الحى الأول ت: ٣٦١٢٢٤
العاشر من رمضان: المجاورة ٩ ت: ٣٦٦٧٧٨
مكرم عبيد: ٣٥ شارع أبو داود الظاهرى . مكرم عبيد ت: ٢٨٧٢٦٣١
الأقصر: ش مدرسة الصنايع . السوق التجارى ت: ٣٧٢٠٨٣
السيدة زينب: ٣٨ شارع مراسينا ت: ٣٦٣٠٥٩٠
محرم بك: الإسكندرية ٦ شر أبيدوس من شارع مسجد الحضرى ت: ٠٣-٣٩١٨٤٧٠

العباسية: ١٥ ش العباسية . ميدان الجيش ت: ٥٨٩٣٨٥٠
بهتيم: ٣٢٩ ش ١٥ مايو أمام حى شبرا الخيمة ت: ٢٢٠٨٥٥٥
بنها: ش الكوبرى ت: ٢٢٣٩٧٠
السويس: ٦٦ شارع الجيش ت: ٢٢٨٧٨٠
المحلة الكبرى: ش شكرى القوتلى من ش الجيش
طنطا: ٨٧ ش سعد الدين من ش النحاس ت: ٤٠٨٢٧٤
المنصورة: ش الجمهورية أمام كلية العلوم ت: ٣٧٢٦٤٧٤
كفر الشيخ: ٤ ش الشهيد محمد الدمرداش الشيتانى ت: ٢٢٣٠٨٥
الإسكندرية: ٥٠ ش مصطفى كامل أمام كلية التربية الرياضية . فلمنج ت: ٥٨٠٤٧٩٧
رمادا: برج رمادا بالإسكندرية ت: ٥٤٨٢٩٣٩
صفط اللبن: سنتر الصاوى . شارع التحرير
بنى سويف: ٥ ، ٦ ش أرض المحلج ت: ٣١٥٤١٦
قنا: ش كوبرى دندرة عمارة أحمد عامر ت: ٢٢٣٦٤٨
قنا الجديدة: ش جودى متفرع من ش الأقصر سوق ليبيا أمام البوستة الجديدة.
الزقازيق: ش المديرية عمارة العقدين الكبيرة المنتزة ت: ٣٢٢٣٢٩
أسوان: هيميمى الجبلاوى متفرع من شارع قاضى الجداوى
الإسماعيلية: ٧٦ شارع السكة الحديد ت: ٢٢ ٥٧٦٥
شبين الكوم: ٢ شارع صلاح الدين أبو الخير من شارع الجلاء البحرى
أسيوط: ١٣ ش المدينة المنورة الزهراء
دمياط: ش جنينة سرور أمام الفرن الآلى ت: ٣٢٨٠١٣
كفر الدوار: ١ ش أحمد عرابى ت: ٠١٢/٣٤٣٦٠٧
أبو حماد: ٣٠ ش التحرير برج العزازى ٠٥٥٣٤٠٩٥٤٤
السنبلاوين: ٦ الجيش المصرى ت: ٠٥٠/٦٩٨٥٧٧
كوم حمادة: ش مستشفى المواساة خلف مجلس المدينة
المنيا: ٢١ ش الجمهورية ت: ٠٨٦/٣٥٣٦١٦
كفر الزيات: ش الجيش أمام نادى المعلمين ت: ٠١٠١٩٢٢٤٢٨
العريش: ش ٢٣ يولية أمام بنك القاهرة ت: ٠١٨/٣٢١١٠٩ ٠٦٨٣٦٥٦٥٦
فاقوس: ش الساحة عمارة المتيم . خلف المحكمة ٠١٠١٩٧٧٥٣٢
دسوق: ش الجيش . أمام عمر أفندى
بورسعيد: ميدان المسلة - برج المسلة ت: ٠١٠٥١٣٤١١٤
منوف: ٨ ش ترعة الحشاشة . طريق التأمين الصحى ت: ٦٦٠٠٧٣
بنى سويف الجديدة: ٣٦ شارع أحمد عرابى ت: ٠١٢/٢٨٣٧٢٨
دار السلام: شارع الفيوم أمام مجمع المدارس
الزنانيرى الإسكندرية ١٠٢ ش الزنانيرى - سيدى جابر ت: ٥٤٦٠٩٩٩

ماك على الإنترنت www.maccarpet.com





البراءة والبساطة .. فن المقاومة

عندما تتضح الأمور وتسطع الحقائق يختفى اللون الرمادى، تختفى المساومة والمناورة والمداورة، وتسمية الأشياء بغير أسمائها، فى محاولة لتزييف الوعى وتجميل القبيح بإطلاق أسماء مراوغة على المواقف المائعة.

كل هذه الصفات هى العدو الأكبر للفن الحقيقى الصادق.. الفن البسيط.. البرىء.. البليغ.

والبساطة والبراءة هى حلم ومسعى كل الفنون وكل الفنانين، منذ «خَربَش» الإنسان الأول ولوَّن على جدران الكهوف، وحتى آخر محاولات الفنان الحديث لتجريد الأشكال وصولاً إلى جوهرها الإنسانى الذى يلمس الوجدان فيوقظه ويحركه.

ونحن هنا نشاهد حالة من «الصدق الفنى» تجلَّت فى «بساطة» لوحات على شكل ملصقات كبيرة (٢٠٠سم × ١٤٠سم) نُفِّذت بأسلوب القص واللصق (الكولاّج)، أنجزها طالبات وطلبة السنة الأولى فى كلية الهندسة بجامعة «بيرزيت» الفلسطينية، من خلال عمل جماعى استوحاه الطلبة من الصور التى تنشرها الصحافة اليومية لأحداث الانتفاضة الأخيرة.

عُرضت اللوحات فى الحرم الجامعى لجامعة «بيرزيت» فى نهاية شهر نوفمبر عام ٢٠٠٠، أى بعد شهرين فقط من اشتعال الانتفاضة.

تعالوا ننسى كل هذا الكلام ونشاهد اللوحات، ففيها درس وعبرة لكل فنان يسعى إلى التعبير بصدق عن الحقيقة.

حلمى التونى

تصميم: حنان عمار

تصميم إبراهيم الجندي، إياد أبو السعود، علا كراكرة، وفاء سعادة

تصميم: ريم أبو لطيفة، ملك أبو خلف، أنس خضر، طلعت عواد

تصميم: خـــلود جـرار

تصميم: رجاء شبيطة، منى العشى، إبراهيم غيطان، غادة ثنورة، شهد الوعرى

تصميم: مؤيد إسماعيل، عرفات أبو دهمش، براء زيد

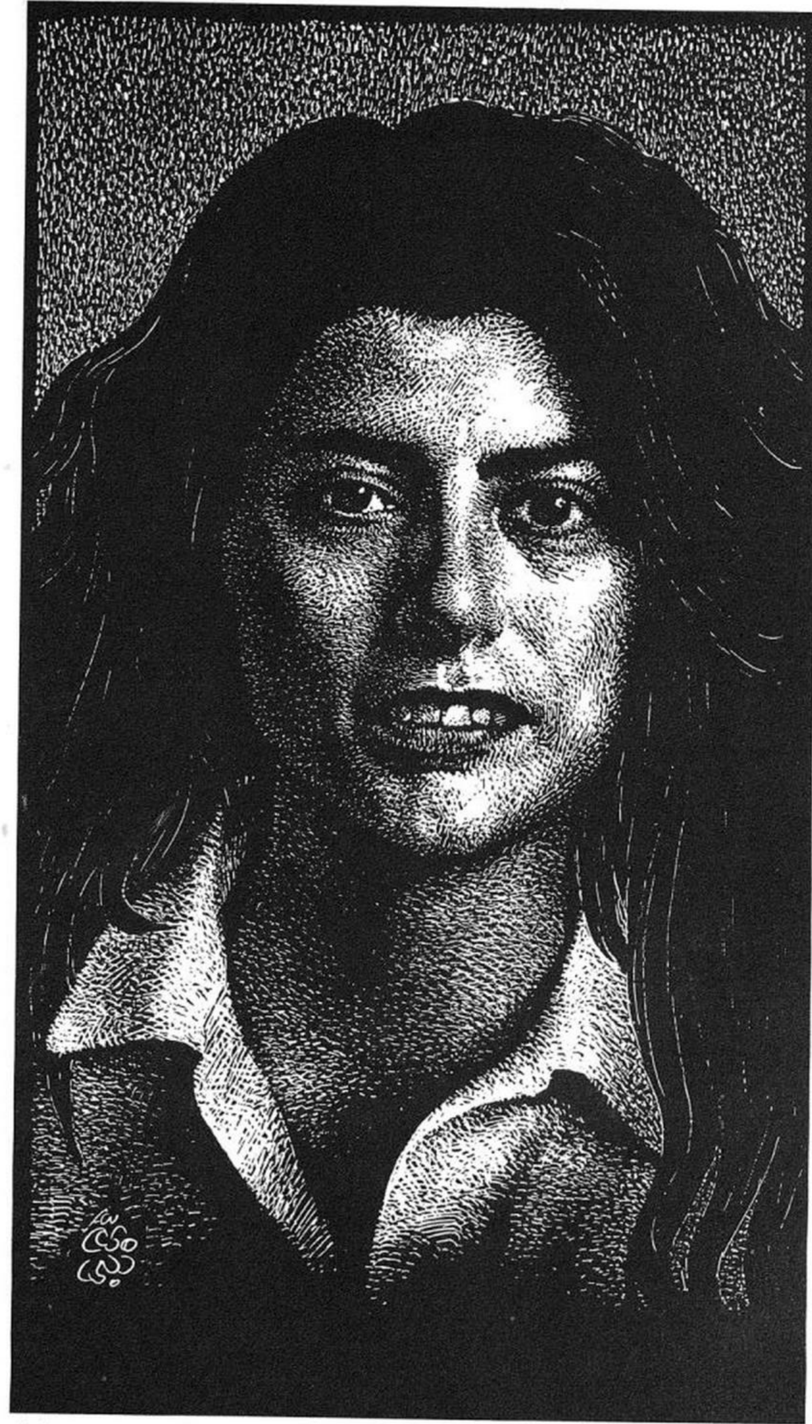
تصميم: رنا الغول، محمد مريش، مراد العتيبي، عمر دهمان

تصميم: حنان عمار، خلود جرار، منال ظاهر، عاصم قاسم، بلال ديب

تصميم: فراس أبو ثويمة، منار صلح، مي علي

تصميم: إبراهيم جاد الله، إيهاب دراغن، علاء الدودة، أمجد سعيد، رأفت صفرى

تصميم: نادر النجار، توفيق الاحمد، مها الصليبى



«عـــام ٢٠٠٠
بعد تحرير الجنوب
اللبنانى من الاحتلال
الإســرائيلى. عــودة
المؤلفة بطلة هذه القصة
إلى معتقل الخيام، خيام،
جحيم بلا اسم ولا وجود،
الذى تحــول إلى مكان
سـيـاحى، حـيث يتـجـول
السـائـحـون بين قـاعـات
التعذيب والاستجوابات،
والخلايا الحقيرة. مفرطة فى
صغرها، قضت فيها البطلة
عشرة أعوام من حـياتها:
ثلث أيامى، ثلث ليالى. وفى
طريقهم استطاع الزائرون
أن يلمـحـوا رجلاً جـاء
لمشاهدة الكارثة، عاد بعد
الأوان: أنطوان لحـد.
وتضيف الراوية: منذ
اثنى عشر عاماً، كان
مصيرانا، مصيره
ومصيرى، قد
تقـاطعـا».

سهى بشارة

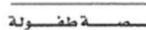
ملحمة من ملاحم المقاومة الوطنية

أمينة رشيد

هذه هي مقدمة القصة، قصة أسرة، تروى محاولة سهى لاغتيال أنطوان لحد في عملية انتحارية اعتقلت بعدها في سجن الخيام لمدة عشرة أعوام، قضت ستة منها في اعتقال انفرادى لرفضها المستمر التعاون مع سلطات السجن وأسيادهم. والقصة كتبتها بعد خروجها من المعتقل، في فرنسا حيث أعطيت لها منحة دراسية. كتبتها لتحرر الكلمات المخنوقة بداخلها وتقص مقاومتها ومقاومة شعبها للاحتلال، مرحلة دامية من تاريخ وطنها، وساعدها في تحرير الكتاب بالفرنسية «جيل باريس» الصحفي الفرنسي في جريدة «لوموند».

هذه أيضًا قصة مكان ـ الخيام، الجنوب اللبناني، لبنان ـ وقصة زمان ـ سنوات الحرب الأهلية في لبنان ومقاومة الجنوب للاحتلال، والصراع العربي الإسرائيلي. وتؤكد الرواية ثقل التاريخ على مصيرها الخاص: هل يؤثر يوم مولدنا على حياتنا كلها؟

أستطيع أن أطرح لنفسى السؤال، إذ أننى ولدت في يوم الخامس عشر من يونية ١٩٦٧ أى في أعقاب هزيمة حزيران ووقوع جزء جديد من العالم العربى تحت احتلال الجيوش الصهيونية وسقوط أحلام ـ أوهام؟ ـ الشعب العربى أجمعه. في أسلوب حى، بسيط ومؤثر، استطاعت الرواية أن تقدم لنا إحدى ملاحم زمننا وترفع من معنوياتنا المفعمة بالإحباط، وتضيف شهادتها التاريخية إلى سلسلة البطولات الحية التى نعيشها الآن بكل قلبنا ووجداننا مع الانتفاضة الفلسطينية الحالية.



قصة طفولة

في البدء تقدم لنا الرواية بطاقتها الشخصية:

«طالبة شيوعية: نشأت في أسرة مسيحية ـ أرثوذكسية، لكن لبنانية قبل كل شىء. كنت مراهقة عندما دخلت في حرب ضد ما كان يمثله (أنطوان لحد)، ضد هذا الوجود الغريب على أرضى، لذلك دفعت الثمن بحريتى. فقد ألقيت في المعتقل، بلا حكم ودون علم لكم من الوقت».

لكن كيف تكونت هذه الهوية؟ هذا ما ترويه قصة طفولة عادية من ناحية، مليئة باللعب والمرح في أسرة ريفية نشأت في الجنوب، في قرية «دير ميماس»، في بيت الجد «حنا» الذى بناه بنفسه، وبه غرفة لكل أسرة من أسر أطفاله تجمعهم في الإجازات الصيفية، وقصة مختلفة من ناحية أخرى، إذ أن الأب الشيوعى فرض نموذجًا آخر على سلوك معيشة الأسرة.

في كتابة حية وماكرة، لكن أيضًا مليئة بالدفء والحنان، تجيد الرواية فن رسم بورتريه كل فرد من أفراد هذه الأسرة. الجد التقليدى والصارم في تعامله مع أفراد الأسرة ومع كل من حوله. الجدة الساخرة التى تتهكم من عدم اهتمام الجد بالأمور العامة، ثم أسرة سهى الصغيرة، زواج الأب والأم الذى تم في ١٩٥٨ ـ ونراها دائمًا حريصة على تحديد الجيل الذى تنتمى إليه ـ ثم إنجاب عدنان وحنان وعمر وسهى، آخر العنقود.

وتتساءل الراوية: هل سمونى سهى (نجمة) كبشارة أمل؟ في دفء فياض، تعبر الراوية عن حبها لكل فرد من أفراد هذه الأسرة، بإيجابياته وسلبياته، وتأثرها بهم جميعًا. عن أبيها، هذا الرجل الذى تقول عنه إنه الرجل السياسى الذى أفضله في لبنان وعن أخيها عدنان، أخذت الاهتمام بالسياسة وبالأمور العامة، وعن أختها حنان، الاستمتاع بالرياضة البدنية وممارستها (مما أفادها في الاقتراب من «مينرفا» زوجة أنطوان لحد، ثم في صراع البقاء بداخل السجن)، وعن أخيها عمر، حب الحياة أما عن أمها، فأخذت في الغالب قوة الشخصية وطاقة العطاء.

رغم اختلاف الآراء بينهن، فللأم وجود آسر في القصة. كانت دائمًا تشاغب الأب على التزامه السياسى، ترفض وجود هذا الالتزام في البيت وفي الحياة الأسرية. كما كانت شديدة الجدية والصرامة في تربيتها لأطفالها. ترفض الكذب وإفشاء أسرار الآخرين والإبلاغ عنها ـ مما درب الفتاة على ممارسة المهام السرية التى تقتضى الصمت ـ كما لا تقبل الضعف والميوعة في إدارة الحياة. وهكذا كانت تعيش، قوية ومرحة، متقبلة لكل ضغوط الحرب في لبنان: انقطاع الكهرباء والمياه، وصعوبة المواصلات، تحولات الحياة تحت الاحتلال. ورغم رفضها لممارسة السياسة، نراها صلبة في مساندة ابنتها المعتقلة، سجنت معها لمدة شهر، وبعد ذلك، عندما اتسعت حركة التضامن العالمى مع سهى، تجوب العالم للمساهمة في الحملة، هى التى لم تكن تعرف إلا الطريق من «دير ميماس» الجنوبية إلى بيروت، وكانت دمشق أكثر البلاد التى زارتها ابتعادًا.



مع الأب عاشت الطفلة علاقة حب وتفاهم صامت، إذ كان الرجل قليل الكلام، ومواظب النشاط، محبًا لعمله، صلبًا في مواصلة نضاله السياسى. ترسم عنه صورة مؤثرة لرجل يترك مسئولية إدارة الحياة اليومية لزوجته ولم يفرط أبدًا في مهامه النقابية والحزبية. كان موظفًا في مطابع الحزب الشيوعى اللبنانى، وتقص الرواية كيف استطاع بعد تدمير مطبعة الحدث في بداية الحرب الأهلية، أن يعمل في مطبعة أخرى وأن يساهم في استمرار نشر جريدة النداء طول مدة الحرب.

طفولة ريفية مثل غيرها، ومختلفة مع ذلك، إذ أن الهم العام تسلل إليها مبكرًا. كانت تلميذة مجتهدة، تحب دروسها، تعمل في الحقل مع أمها، تذهب إلى الحفلات الدينية كطقس جماعى، إذ لم تكن أسرتها متدينة. كانت قرية دير ميماس بعيدة عما يحدث في العالم، لكن فرض العالم نفسه على هذه الأسرة ذات الأب الملتزم، المشارك في الأحداث، والأم الريفية التى لم تكف أبداً عن معايشة أقاربها. كما هزت الأحداث سكون الجنوب اللبنانى بتحوله إلى أرض محتلة، ووجدت المراهقة نفسها تدريجيًا مشدودة إلى قلب التاريخ وسيرورته المتعرجة.

ولدت سهى في عز الهزيمة العربية أمام الجيوش الإسرائيلية واتساع الدولة الصهيونية إلى الجولان والضفة الغربية وسيناء. لم تكن قرية دير ميماس تشير إلى إسرائيل قبل ذلك، رغم اقترابها الجغرافى من الحدود الإسرائيلية وابتعادها عن بيروت. وأيضًا رغم بداية تاريخ الاستيطان الصهيونى القريب من حدود القرية. وتعود بنا سهى إلى بداية القرن العشرين عندما استقر أول المستوطنين اليهود على أراضٍ اشتروها من العرب، بأمانة مشكوك في أمرها، ومساعدة إدمون دى روتشيلد. لم تكن تعرف الراوية، وهى مازالت طفلة، أن في أول قرية إسرائيلية وراء الحدود، توجد صور شاحبة لمن سموا بالرواد. لكن ما كانت تعرفه جيدًا هو حسرة جدتها على الماضى والأراضى المفقودة والقرى التى انتزعت من قاطنيها عند نشأة دولة إسرائيل: كم مرة سوف أسمعها تذكر الجرائم التى ارتكبتها الجيوش الإسرائيلية في زمن أول حرب إسرائيلية ـ عربية.

لم تتحول إسرائيل إلى واقع ملموس إلا في ١٩٧٨ عندما تحتل جيوش تساحال جنوب لبنان، قاذفة عرض الحائط بالقانون الدولى وقرارات الأمم المتحدة. وتروى كيف ذهب بعد ذلك الكثيرون الذين كانوا يعملون في بيروت لكسب قوتهم هناك عند عدونا، لأجر أفضل لكن في ظروف مهينة من التفتيش على نقاط الحدود وفي ظروف عمل منهكة. لكنها تضيف:

«في السنوات الأولى لطفولتى. في بداية السبعينيات، لم يكن أحد يجرؤ على تصور هذا المصير لدير ميماس: الغزو ثم الاحتلال في أقل من عشرة أعوام بعد ذلك».

تذكرنا سهى بالإحباط الذى أصاب العرب في هذه الفترة. بعد هزيمة ١٩٤٨، كانت الجيوش العربية تنتظر الجولة التالية بشغف، متصورة الانتصار وإعادة فلسطين. مما يفسر ضخامة إحباطهم. تصف أيضًا بهاء بيروت بعد انطفاء صوت جمال عبدالناصر في القاهرة:

«كزموبوليتانية، ثقافية، غنية، كانت بيروت منارة الشرق الأوسط. لكنها كانت أيضًا المدينة التى تتسرب منها أصوات زجر مكتوم. كانت الانقسامات تهدد الوفاق الوطنى، وكانت القضية الفلسطينية تثير الجدل، بينما كانت حركة التحرير الوطنى في غاية الحضور بلبنان بعد طردها من الأردن، خلال أزمة سبتمبر الأسود، في ١٩٧٠. وكانت الخلافات تتصاعد بين اليسار واليمين اللبنانى في المدارس الثانوية، في الجامعات، في الشارع، تتكون المنظمات وتنمو تجارة الأسلحة. كان الوضع قابلاً للانفجار».



منذ ذلك الزمن تغيرت الأحوال وهددت الطفولة السعيدة في دير ميماس، هذه القرية التى تقول عنها سهى: لمدة طويلة، كانت لى دير ميماس جنة. لتكتشف الحرب مبكرًا: «اكتشفت الحرب وأنا في السادسة من عمرى».



١٥ سبتمبر ١٩٧٣، يوم عيد في القرية، المرح سائد في بيت الجد: خمس نساء وخمسة وعشرون طفلاً يملأون الدار بضحكاتهم وأغانيهم. الأباء يعملون في بيروت. سوف يلتقون بهم في الغد، لكن في الليل اشتدت القذائف واستمرت الحرب. لن تكون هذه الليلة إلا صخبًا وقصفًا. لمدة اثنتى عشرة ساعة اعتدت الطائرات الإسرائيلية على المخيمات الفلسطينية الموجودة في المنطقة. تتعاقب موجات الطائرات قريبًا من القرية. لا ينام أحد في البيت وانشغلت النساء بالخبز لينسين ما يحدث بينما الأطفال يفترسون الخبز المجهز للعودة إلى بيروت.

سنتان بعد ذلك تلتقى سهى بالحرب من جديد. تضاف إلى معارك الفلسطينيين والإسرائيليين التى أصبحت عادية، المعارك الأهلية بين اللبنانيين، بداية الحرب الأهلية:

«١٣ أبريل ١٩٧٥. ليلة مرعبة من القصف والضوضاء. الكبار يقولون للأطفال ألا يخافوا، ولا يستطيعون إخفاء قلقهم. يتكلمون للحفاظ على معنوياتهم. يقولون لبعضهم البعض إن غدًا سوف يكون كل شىء على مايرام. إن كل شىء سيعود إلى طبيعته، وينتهى ذلك. لا يعرفون أن هذا الليل سوف يدوم خمسة عشر عامًا».

وتستقر الحرب في الحياة

Résistante

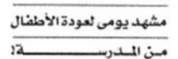
مقاومة

Soha Bechara
écrit avec Gilles Paris, ed. Jc
Latés, Paris 2000



بوحشيتها وجنونها. وتكتشف سهى لامبالاة قصف المدن بالمدنيين. يتعلم السكان ألا يقتربوا من الأشياء الملقاة فى الشوارع والأراضى البور. الطائرات تمزق السماء وتنفجر القاذفات فى الشوارع. يضيع نهائيًا الاستقرار فى حياة المدرسة. يتفتت الزمن. يأتى الآباء لأخذ أطفالهم فى غير المواعيد المعتادة. لا يعرف أحد فى الصباح ماذا سيحدث بعد ذلك. وتحكى سهى الحرب فى الحياة اليومية.

«يوم بعد الظهر، نحن فى طريق العودة، فى السيارة مثل كل يوم خمسة ركاب. فى وسط السير نؤخذ فى تبادل نيران على حافة مخيم صبرا الفلسطينى. اعتاد السائق أن يترك هنا تلميذين. يمتلىء الشارع بالضوضاء والغبار. من حولنا ينتشر الذعر. تنفجر قذيفة وراءنا وقذيفة أخرى أمامنا. فى السيارة يصرخ الجميع. تهتز الأرض. هناك مصابون وربما موتى. يصيح الناس. يهرولون فى كل اتجاه..».



مشهد يومى لعودة الأطفال من المدرسة!

منذ هذه الفترة استقرت قوانين الحرب. تعلم الناس كيف يحمون أنفسهم. يستخدمون المخابىء. يعيشون بلا كهرباء وبلا ماء. يكتشفون الأماكن الآمنة فى داخل البيوت. وحتى فى هذه الظروف القاسية تلاحظ الراوية الاختلاف بين الأغنياء والفقراء:

«يستطيع دائمًا الأكثر ثراء ألا ينقصهم شىء، بمضخاتهم القوية ومحولاتهم. أما الفقراء، فهم بالعكس، مجبرون على سرقة الكهرباء من الخطوط التى لاتزال فى الخدمة وتتضاعف التوصيلات الهجينة، مثل شبكات العنكبوت العملاقة، فى شوارع بيروت..».

تمتلىء الشوارع بمواكب اللاجئين الفارين من مناطق المعارك:

«عندما نترك بيتنا الأول، نحمل معنا مبردنا ومغسلتنا وبعض الأثاث، سريرين وفوتيلات، وسوف تسقط هذه الممتلكات الضئيلة فى دير ميماس حيث تحجز فى انتظار عودتنا. سوف تتبعنا فى الواقع فى جميع منافينا، منهكة وضائعة مثلنا».

فى أسلوب حى، بسيط ومؤثر، استطاعت الراوية أن تقدم لنا إحدى ملامح زمننا وترفع من معنوياتنا المفعمة بالإحباط، وتضيف شهادتها التاريخية إلى سلسلة البطولات الحية التى نعيشها الآن بكل قلبنا ووجداننا مع الانتفاضة الفلسطينية الحالية



فى البدء عادت الأسرة إلى دير ميماس، مثل الكثير من أسر البلدة: نقضى فى القرية هدنة سنة، الأخيرة قبل مدة طويلة. ثم بيروت من جديد فى ١٩٧٦، قبل أن يتحول الجنوب بدوره إلى منطقة محتلة فى ١٩٧٨. مع العمر تكتشف سهى تدريجيًا خفايا السياسة التى تصاحب هول الحرب، الانقسامات اللبنانية، المواقف من الفلسطينيين، المذابح والاغتيالات، وتعى أيضًا أنه رغم مولدها فى أسرة مسيحية وانتمائها لأب شيوعى، إنها لبنانية قبل كل شىء، مستعدة للتعاون مع كل مقاوم أيًا كانت ملته.

خطوات الالتزام

يبدأ الالتزام فى سن المراهقة فى حركات الإغاثة الشبابية: «فى الحرب الأهلية، لا يبحث المرء عن الفعل. فالفعل يلحق به».

تنشط سهى فى البداية مع اتحاد الديمقراطيين الشباب. مع الهلال الأحمر والصليب الأحمر، تساهم فى إغاثة المصابين وإيجاد المأوى للاجئين. تساعد أيضًا فى العيادات الخارجية التى كان ينظمها الحزب فى الأحياء التى يحصل فيها على الأغلبية. تقوم بالغسيل وبعلاج الجروح الطفيفة. ومن خلال هذه الأعمال البسيطة تتعلم القيام بمهام أكثر خطورة: المرور السريع فى عربة إسعاف بين بيروت الشرقية وبيروت الغربية - إذ أن اسم بيروت لم يعد يقال بدون هذه التصنيفات - استخدام جهاز إذاعة مشفر، السهر فى أماكن مهددة، إلخ.

ثم تكتشف الفلسطينيين الذين لم تكن تعرفهم حقًا. كان أحد أقاربها قد مات شهيدًا فى إحدى معارك الفدائيين ونظمت له حركة التحرير مظاهرة كبيرة شهدتها سهى وتأثرت بها:

«إن المشهد الذى أراه آسر للغاية. يمشى الفلسطينيون فى خطوات موزونة. يحملون صورًا كبيرة، وجوه شهدائهم. يلقون زهورًا على ميدان مزين بأعلام تحمل ألوان فلسطين الأربعة: الأسود، الأبيض، الأحمر والأخضر.. اكتشف علما، قضية وشعبًا».

يتزامن هذا الوعى مع تكوين بذور جيش لبنان الجنوبى. تحت إشراف الدولة العبرية يحاول سعد حداد السيطرة على رقع من الأراضى الحدودية.. «فى القرية، تتدهور الأمور. ثم فى النهاية تجد دير ميماس نفسها مدرجة فى منطقة «الأمن» التى اقتطعها تساحال على أرضنا. خطوة جديدة نحو الالتزام بتحرير الأرض».

وتزداد الأمور تركيبًا، منذ ربيع ١٩٧٥، تختلط المعارك بين الإسرائيليين والفلسطينيين بالحرب الأهلية اللبنانية. فى الغرب تصور الناس الأمور على أنها معركة بين الإسلاميين والمسيحيين. لكن فى أسرة سهى كما فى غيرها من الأسر اللبنانية لا ينظر للأشياء من هذه الزاوية. وسهى أيضًا تناقش الوضع مع أصدقائها فى اتحاد الشباب الديمقراطى (القريب من الحزب الشيوعى اللبنانى). تدرك منذ البداية كم أن الحرب كارثة وأن الموت لا يفرق بين مسلم ومسيحى، وأن الأحزاب السياسية تركز على معارك وتفاصيل هينة وتترك الأمور الأهم. قريبة من الحزب الشيوعى، انتماء لجزء أساسى من أسرة والدها، وإعجابًا لا يهتز بهذا الأب وبمثله الأعلى، ولكنها تحدد بدقة ما يربطها بالشيوعيين، ليس شعار صراع الطبقات، بل الفكرة القومية، فكرة الوطن الواحد، المتجاوز الملل والطوائف، فرغم الصراعات المختلفة:

«يستمر الحزب فى الحديث عن وطن للجميع ومواطنين متساوين فى الحقوق والواجبات، ويستقر فى وجدان سهى هذا الخطاب الوطنى: أنا لبنانية قبل كل شىء، ثم هذه الحقيقة الأخرى التى سوف تحدد فعلها المستقبلى، فى نهاية السبعينيات، بعد خمسة أعوام من المعارك، تستقر قناعة بداخلى، أن للبنان عدوا واحدًا، ومحتلاً واحدًا: إسرائيل».

فى هذه الفترة تنتمى أيضًا بشغف لأغانى مارسيل خليفة ومسرحيات زياد رحبانى:

«دون أن يميز أبدًا بين فلسطينيين ولبنانيين، يغنى مارسيل خليفة ألم من فقد أرضه وبيته، ويغرق يأسًا. يغنى حنين حقول التبغ فى جنوب لبنان، المهجورة بسبب الحرب. يغنى تاريخ الخيام التى قذفتها فى ١٩٧٨ الطائرات الإسرائيلية ونهبتها الميليشيات. فى ذاكرتى لم أنشد أبدًا لطائفة أيا كانت. ليست لى ذكريات إلا عن قصائد تغنى لبنان، بلدنا، أرضنا».



١٩٨٢. عملية «السلام فى الجليل» الغزو الإسرائيلى لبيروت، رحيل الفلسطينيين، مذابح صبرا وشاتيلا. مرة أخرى اللجوء إلى دير ميماس، لكن دير ميماس تغيرت. ترى سهى جيشًا يبدو لها لبنانيًا (لم تفهم إلا بعد ذلك أنه فى خدمة الدولة العبرية). تغزو القرية المنتجات الإسرائيلية: تلقائيًا تقرر مقاطعتها. انقسمت دير ميماس إلى نصفين: حلفاء إسرائيل وأعدائها، بعد شهور قليلة تعود الأسرة إلى بيروت. تشترك سهى فى مظاهرتين احتجاجًا على الوجود الإسرائيلى وتقول:

«قد تضاعف تدريبى السياسى فى هذه السنة الرهيبة، ١٩٨٢، وأكدت لى قناعاتى بقسوة.

عمرى خمسة عشر عامًا ومن الآن فصاعدًا مستعدة للانتقال إلى الفعل».

استكمال المسيرة. تشترك فى بعض المظاهرات وتنظم البعض الآخر. تظهر حماسًا فى إلقاء الشعارات يجعل مارا يعلن: «هذه الفتاة ستقوم يومًا بالتأكيد بعملية انتحارية!». لم ترض بنتائج هذه المظاهرات: فمنذ سبتمبر ١٩٨٢، بداخلها شعلة وطاقة للفعل غير مشبعة وتنتظر فرصة للانطلاق، وكما يحدث فى الحياة عندما تتملكنا رغبة قوية فتتجمع حولها كل الانفعالات والأحاسيس وحتى صدف الطريق، ترى سهى تعبئة جميع قواها نحو هذا الهدف الواحد: الانضمام إلى المقاومة السرية ضد الوجود الإسرائيلى فى جنوب لبنان. فتتراكم نماذج النضال، من أول عملية انتحارية تقوم بها شابة لم تتجاوز الثمانى عشرة سنة (سناء محيدلى) إلى استشهاد ابنة خالتها «لولا» (لولا عبود). مثل كل بنات سنها كان يود سهى أن يكون لها محب، يشتركان فى الحياة، ينجبان الأطفال، يكون لهما بيتهما وأفراحهما. لكن الأمثلة التى حولها من علاقات غرامية تعوق الالتزام والفعل جعلتها تستغنى بيسر ما عن هذا الاحتياج.



وأخيرًا يحدث ما سعت إليه طويلاً وكادت تفقد الأمل فيه: موعد مع شخص ما سوف يقود أول خطواتها فى العمل السرى.

ظنت فى البداية أن الدخول فى العمل السرى سيكون سهلاً. أنها سوف تحصل على قنبلة وهدف وينتهى الأمر! لكن سرعان ما أدركت أن الأشياء أكثر تعقيدًا وتحتاج إلى فترة طويلة من التدريب والاختبار. قراءات، تدريب على اللقاءات السرية، إعادة تشكيل الحياة والسلوك اليومى بين ظاهر معلن ووجود فى الخفاء. تضطر حتى أن تخترع قصة حب مزيفة مع شاب من الجنوب لتبرر سفرياتها الكثيرة إلى قريتها.

وربما كان الأصعب التعرف على هذا المجتمع الآخر، هذا المجتمع الذى تغير بفعل الاحتلال، هذا «البلد الغريب فى بلدى نفسها» كما قال الشاعر الفرنسى لويس آراجون عن فرنسا تحت الاحتلال الألمانى. فقد تغيرت أنماط الحياة وسلوك الناس، أيام الأجازات والأفراح (التى انتقلت من أيام الأحد إلى أيام السبت حسب الـ«شباط» العبرى!). على الموائد حل الـ«جونى ووكر» مكان العرق، الارتفاع الفاحش للأجور لمن يعمل عند الإسرائيليين، تحول الجنوب إلى منطقة مجردة من القانون تمر بها كل السلع والصفقات وكل الأفراد غير المرغوب فيهم فى بلدهم، مأوى مثالى، إذ أن جيش لبنان الجنوبى الذى أصبح تحت قيادة أنطوان لحد كان يجند بلا تمييز ولا حرج.

طبعًا لا يتحدث أحد عن المقاومة فى مجتمع

واقع تحت حصار كل أنواع المراقبة والمخابرات. وتحاول سهى فى البداية أن تذوب فى المشهد لمحاولة فهمه. وتتساءل عن علاقة الناس الغريبة بإسرائيل وبالجيش الجنوبى. لا تظن أن الناس يحبون الإسرائيليين. لكنهم يحاولون أيضًا وأساسًا الاستفادة من الوضع. فقد هزهم التاريخ. ومصير السلاح، فى مواجهة مجتمع فقد اتزانه هو الآخر بسبب الحرب الأهلية، يحاولون الانسحاب، وإدارة مصالحهم دون الإفراط فى طرح الأسئلة عن درجة التنازل أو التعاون مع القوى المحتلة التى يتضمنها هذا الموقف.

لم يكن مشروع فعلها قد تحدد بعد. فقط أن تستقر فى الجنوب وتفهم واقعه الجديد وتحمى نفسها قدر المستطاع كابنة لمناضل شيوعى معروف، أصله فى قرية استقرت سمعتها، مناهضة ويسارية. كل ما عليها أن تنقل معلومات إلى بيروت عبر مسئول اتصالها المجهول الهوية الذى لم تنطق أبدًا إلا باسمه المستعار: م. أ. فى البداية ثم رابح. مع رابح تتعلم كيف تجمع المعلومات، وتقيم حركة الوحدات القتالية، تدون أرقامها وترسم مواقعها. فيما بعد عندما يتحدد دورها فى قتل أنطوان لحد سوف يعطى لها السلاح ويعلمها كيف تستخدمه على أرض بور.

فى يوليو ١٩٨٧، سوف تتحدد ثلاثة أهداف: رجال أمن جيش لبنان الجنوبى، الإسرائيليون، أنطوان لحد نفسه. كانت فى هذه الفترة فكرة انفصال الجنوب رائجة، ولذلك راق لمناضلى المقاومة مشروع التخلص من عميل إسرائيل الموالى للفكرة.

تدريجيًا إذن اتضحت ملامح المشروع واهتمت سهى بالبحث عن عمل فى الجنوب. وبفضل الصدفة، وجدت وظيفة مدربة رياضية فى النادى الثقافى الرياضى لمرجعيون البلدة التى كان يعيش فيها أنطوان لحد مع أسرته. ثم علمت أن مينرفا زوجة لحد نفسها كانت تبحث عن مدربة للـ «أيروبيك»، أى الرياضة البدنية على أنغام موسيقية. زوجة قائد الميليشيا فى المنطقة المحتلة! اعتبرتها سهى بحق ضربة حظ، ملأتها بالرضى. فتحدد نهائيًا المشروع: اغتيال أنطوان لحد.

حكاية اغتيال

عندما استقر القرار، تكثفت الأحداث حول هذا الهدف، لقاءات مع رابح، تشكيكه فى البداية بأنها أفضل من يستطيع القيام بالفعل، نجاحها فى إقناعه، موافقته على أن يعطى لها السلاح، ثم يقوم هو نفسه بتدريبها. ولم تكن هذه العقبات أصعبها!

كانت العودة إلى الجنوب والمسدس لصيق جسدها. وإخفاؤه فى جهاز تلفاز قديم. الدخول فى مرحلة صعبة من المراقبة ومن الشكوك. تراقبها الأجهزة المختلفة للجيش وللمخابرات، يشك فيها الجميع، وحتى أنطوان لحد نفسه، بينما تتوطد علاقتها بـ «مينرفا»، وتزداد معاناتها بسبب اضطرارها خوض طريقين فى آن: الطريق الظاهر لشابة ناجحة فى عملها كمدربة للأيروبيك وتعيش نمطًا سطحيًا من حياة المرح واللهو والطريق السرى لمقاومة تحضر نفسها عبرها للقيام باغتيال قائد جيش الجنوب وربما الأصعب من ذلك نفسه شكوك أصدقائها وأسرتها، إذ شوهدت ترقص فى حفل أمام أفراد من الجيش الجنوبى ومن الإسرائيليين. تأتيها نصائح أخوية بالاحتراس فى سلوكها وسمعتها، بينما تعيش هى بسر لا تستطيع أن تفصح به لأقرب الناس.

عاشت هذه اللحظات المفعمة بالمخاطر من ناحية، من الشكوك والتوحد من ناحية أخرى، شاعرة بأن أوان الفعل قد اقترب، ولا يمكن تأجيله أكثر من ذلك. تنتقل دائمًا بالمسدس فى انتظار الفرصة المناسبة. وفى إحدى زياراتها لبيت لحد لم تجرؤ على تنفيذ العملية لأنه كان يأكل معطيًا لها ظهره! وحينئذ تمر بأصعب الامتحانات: امتحانها مع ذاتها. هل هى بالفعل قادرة على تجاوز رفضها الداخلى الأصيل للعنف، وهذا منذ طفولتها، وتدرك مدى صعوبة الاغتيال على النفس، مهما كانت شرعيته فى نظرى. ويلح عليها السؤال: هل هى مؤهلة نفسيًا للقيام بهذه العملية؟

لكن مر أوان التساؤلات وفرض نفسه وقت الفعل. وكانت آخر زيارة لرابح الذى نصحها بكتابة رسالة إلى ذويها. فتكتب الرسالة مع رابح، مفسرة أسباب فعلها: أذكر الحرب الأهلية، الغزو الإسرائيلى، موت أبطالنا، إعجابى فى هذه اللحظة بالانتفاضة التى انفجرت توا فى الأراضى الفلسطينية المحتلة وهذه بالنسبة لى أجمل مثل للمقاومة وهدف أعلى للثورة. وفى صباح رحيلها من بيروت عائدة إلى الجنوب تودع أباها «دون أن أعرف إذا كنت سوف أراه مرة أخرى».



تعيش بعد ذلك بعض الأسابيع من التوتر العالى حتى يوم «العملية». تصف كل تفاصيل هذا اليوم: ملبسها، وصولها إلى بيت لحد، مرورها بأمن المنزل بلا مشاكل، الالتقاء بمينرفا وصديقة أسبانية لها فى الحديقة، ثم فى صالة المعيشة زوج الأسبانية ويلحق بهم جميعًا أنطوان لحد. تصف الجو الاجتماعى المرح، الحديث بالفرنسية، توزيع المشروبات، الأنباء فى التلفاز، مشهد من الانتفاضة، شاب يرمى حجر، مكالمة تليفونية تبدو مزعجة للحد، نظرة غريبة لها. وفى هذه اللحظة، وهى تشعر بهدوء غير عادى، تخرج المسدس من حقيبتها، وتوجه رصاصة أولى نحو لحد الذى يقذف .. يشتمها «يا بنت الكلب». ومع الرصاصة الثانية يقع على الأرض!

«تقف الحياة لحظة فى صالة المعيشة. مندهشة فى البدء، تقطع مينرفا الصمت بالصراخ. تطالب بأعلى الصوت بسلاح لتصفية الحساب معى ومروحية لنقل زوجها. ألقى نظرة دائرية حولى. الصديقة الأسبانية شاحبة وتثبت نظرها علىّ كأنى مجنونة. زوجها، وقد شله الرعب، يبحلق فى وجهى كأن الدور الآن عليه. أنتهز الفرصة لأرمى المسدس فى غرفة النوم المطلة على صالة المعيشة. أريد أن أكسب بعض الوقت. سوف يبحث الحراس عن السلاح تو دخولهم فى الغرفة، وهذا لن يطول. على بعد مترين منى، انبطح جسد رجل الميليشيا على الأرض وتوقف. انتهيت. نجحت فى تنفيذ العملية».

المقاومة الأخرى

بعد «العملية» شعرت الراوية على حسب قولها بسكينة كبيرة. وعرفت فيما بعد أن المحقق سيزار سوف يركز على ذلك فى تقريره بطريقة صعبة التصديق. منذ أن وجدها كانت هادئة، شبه مبتسمة. كيف تم ذلك؟ تفسر الراوية:

«.. حدث لى توا شيء أساسى. تخلصت نهائيًا من قناعى كطالبة لا مبالية وسطحية. كنت قد عشت مدة طويلة فى حالة سكيزوفرينيا، لا أكشف عن نفسى ولا أبوح لأحد بشيء، باستثناء م. أ. ورابح. استمررت شهورًا أكذب، أراوغ، أخدع. منذ أن أطلقت النار على أنطوان لحد، أستطيع أخيرًا أن أقول من أنا وما أفكر فيه».

كانت مع ذلك بداية المحنة الأخرى والمقاومة الأخرى. كانت الاستجوابات اللانهائية ليلاً ونهارًا. وكان التعذيب بالكهرباء والمياه المثلجة والإيماءات الجنسية. وجحيم المكان نفسه، الخيام، فوق التلال. كان معزولاً، مثلجًا فى الشتاء، خانقًا فى الصيف. يظل المعتقلون بلا بطانيات، ملقين على أرض تصعد منها الرطوبة إلى الأجساد المنهكة. هذا السجن اللاإنسانى (وهل من سجن إنسانى؟ أليست السجون الحديثة التى تتميز بوسائل كثيرة للراحة من أكثر السجون التى يحدث فيها الانتحار؟) الخيام، المحصن والمستحيل الهروب منه، الذى كان يديره فى الظاهر جيش لبنان الجنوبى، وتشرف عليه فى الخفاء إسرائيل، متفادية كذلك المساس بصورتها «الديمقراطية» وإزعاج بعض الأصوات الشريفة مثل صوت المحامية «ليا تسيمل». الخيام سجن مثالى للإسرائيليين، بلا عدالة ولا قضاة ولا محامين. فى الخيام يكون المعتقلون منفيين، مخفيين، مشطوبين بسهولة من عالم الأحياء.



فى إحدى زياراتها لبيت لحد لم تجرؤ على تنفيذ العملية لأنه كان يأكل معطيًا لها ظهره! وحينئذ تمر بأصعب الامتحانات، امتحانها مع ذاتها. هل هى بالفعل قادرة على تجاوز رفضها الداخلى الأصيل للعنف، وهذا منذ طفولتها، وتدرك مدى صعوبة الاغتيال على النفس، مهما كانت شرعيته فى نظرى.

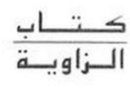
تصف سهى بشارة ليس فقط الظروف المادية الصعبة، بل أيضًا الشروط المعنوية المقصود بها كسر الإرادة وحصار شخصية المقاوم. فكان يوجد فى الخيام مقاومون ضد الاحتلال الإسرائيلى للجنوب وأناس آخرون لا علاقة لهم بالعمليات ويوجدون هنا فقط لاستخراج المعلومات من الفئة الأولى. والحراس أيضًا، كانت من ضمن أعمال حراستهم التجسس على المسجونين والمسجونات. ففهمت سهى منذ البداية ضرورة مقاومة هذه الظروف القاسية من أجل البقاء، وتقرر: ينبغى علىّ الآن أن أركز على الأساس. البقاء.

قررت منذ البداية أن تواجه أصعب تحديات الاعتقال: السيطرة على الوقت ورفض الانتظار الذى يقرض الإرادة. قررت أن تواجه الزمن وألا يضيع منها الوقت وأن تستفيد من كل فرص التعلم: هذا هو الهدف الذى حددته لنفسى عندما دخلت السجن. أحاول أن أستفيد من كل الظروف للتعلم.. أريد أن أستمر مسيطرة على وقتى.

لكن كيف فى ظروف الحرمان من كل شيء السائدة فى المعتقل؟

لا يوجد من كتب إلا الكتب المقدسة فاستفادت من قراءة القرآن واستمتعت بها. لا صحف ولا إذاعة. فقد عرفت بالصدفة فى إحدى جلسات الاستجواب أن أنطوان لحد لم يمت، بل نقل إلى إسرائيل. لكنها لم تشعر بالإحباط عند سماع الخبر، بل بنجاح العملية رغم ذلك، إذ استطاعت أن تظهر: هشاشة النظام الذى أقامه الإسرائيليون، وأن أشهد بأن لا هم ولا حلفاءهم يستطيعون الاستقرار فى أى مكان من المناطق المحتلة.

تستطيع المعتقلات الاستماع إلى مقطوعات من المسلسلات (المصرية!) التى تشاهدها الحارسات ويعدن ابتكار الحبكة المفقودة! وكانت هذه إحدى المهارات المكتسبة. تحكى سهى باستفاضة الكثير مما تعلمته فى السجن ويشبه قصص أدب السجون المعتادة: الاستفادة من كل شيء، كيس من البلاستيك، قطع من ورق ومن أقلام، خيوط سلكية، الشريط الألومنيوم الذى يغلف الجبن، تعلم التواصل مع





نظامهم السياسى

. . وأما كيفية حكومة الأفغانيين: فالحكومة الأفغانية حكومة استبدادية مطلقة ولكن لها نوع مشابه بالحكومة الثورية لأنها لا يمكن إبرام أمر مهم فيها إلا بمشاورة رؤساء القبائل. وهى مؤلفة من أمير وهو سلطان البلاد: ووزير وهو بمنزلة الصدر الأعظم: و«مستوفى الممالك» وهو بمثابة ناظر المالية والداخلية معاً فى سائر الحكومات: و«خازندار» وهو الذى يناط به حفظ النقود الأميرية: و«ايشيك أغاسى باشى» وهو الذى ترفع إليه عرائض المشتكين ويفصل الدعاوى بين المتخاصمين بأمر الأمير: وولاة: وغالب هؤلاء الولاة من العائلة السلطانية ويلقبون بالسردار: وجنرالات وهم رؤساء العساكر وبعض هؤلاء من السردارين: وكتوالين وهم الشحنة أى ضباط البلد. ويوجد فى كل بلد مستوفى نائب عن «مستوفى الممالك» وهو لضرب الضرائب وجمع الأموال الأميرية: ومأمورون وجباة.

وأمير الأفغان ليست له أبهة ملوك الشرقيين وجلالتهم بل يجلس فى ديوان الحكومة المسمى عندهم «دربار» على النمارق الفارسية مع أعيان الحكومة ولا يتميز عنهم إلا بمتكأ يوضع بجانبه ولا يمنع الحاجب والبواب أحداً من الدخول عليه حتى أسافل الناس. ولكل واحد من أهالى البلدان أن يرفع شكواه إليه مكلماً إياه مشافهة رافعاً صوته بدون خجل ولا مبالاة، وهكذا سائر الولاة مع الرعية فى الولايات، ولا يوجد للحكومة الأفغانية قانون سياسى وإنما الحل والعقد وفصل القضايا وتعيين الجزاء وتحديد العقاب وضرب الجزية (أى الجزاء النقدى) والحبس والضرب والطرد. موكول برأى الأمير. وسائر الولاة يفعلون على حسب ما يتراءى لهم.







كان التعذيب بالكهرباء والمياه المثلجة والإيماءات الجنسية، وجحيم المكان نفسه، الخيام، فوق التلال، كان معزولاً، مثلجًا فى الشتاء، خانقًا فى الصيف. يظل المعتقلون بلا بطانيات، ملقين على أرض تصعد منها الرطوبة إلى الأجساد المنهكة

المعتقلات الأخريات، ممارسة الحياكة بإبرة استخرجت من مسمار، إعادة صنع أحجبة عوضًا عن التى تؤخذ من المسلمات الملتزمات لإهانتهن فى إيمانهن.

تجيد أيضًا سهى فن استخراج النقاط المضيئة فى عتمة حياة المعتقل وقسوتها. وهذه تشع من بعض وجوه الصداقات التى أقامتها فى الخيام. كفاح المناضلة التى اختطفت والسلاح فى يدها فى عز عملية ضد إسرائيل. كفاح الشابة الفلسطينية التى نشأت فى معسكرات صبرا وشاتيلا، كان عمرها إحدى عشرة سنة أيام المذبحة واستطاعت البقاء بعد قتل ثلاث من إخوتها، وحنان. المناضلة فى حزب الله. جمال حنان، إصرارها وقوة شخصيتها. وتظهر سهى كيف تكون الصداقة ممكنة رغم اختلاف الديانة والأيديولوجيا، وكيف تجمع المقاومة من التزم بشرف الفعل وتحرير الوطن.

وأجمل كلمات هذه الشهادة المؤثرة هى تلك التى تظهر سهى من خلالها معنى الإبداع فى السجن، وربما معنى كل إبداع! فالإبداع فى السجن لا يكون قتلاً للوقت أو شيئًا من اللهو. يرتبط الإبداع هنا بصنع الحرية، عبر تحرير القول، هو قول فكرنا، بينما كل شىء من حولنا يدعونا للصمت ولنسيان من نحن. وتتحول الأشياء المصنوعة خلسة إلى رسائل وكلمات حب للأقارب وللأصدقاء، لكن أيضًا رسائل سياسية وشعارات لوطننا لقضيتنا. صنعت هكذا سبحة بنواة زيتون سجلت عليها الحروف الأولى لحركة التحرير الفلسطينية وبخبز جاف صنعت جداول للحساب. أما فى فترات السجن الانفرادى حيث تلاشت جميع إمكانيات اكتشاف مواهب الأشياء، تعيش سهى خبرة التجريد التى جعلتها تكتشف الشعر، الشعر الذى لم يكن يهمها فيما قبل، إبداعه، تاليف كتاب ثم كتاب آخر، هنا أيضًا مجرد البقاء.

تبدو حكاية سهى بشارة وكأن الظروف الاستثنائية تخلق المواقف والشخصيات الاستثنائية. وبالفعل رأينا كيف نشأت سهى فى بيئة ريفية، نشأت نشأة الألوف مثلها فى لبنان وفلسطين والعالم العربى والعالم أجمع. وحتى إخوتها الذين نشأوا فى نفس الظروف، فى إطار أسرة أب شيوعية ومناضلة، لم ينتهجوا نفس الطريق. فهل سهى شخصية استثنائية؟ نعم وبلا شك. فما قامت به هو بلا شك فوق الطاقة الإنسانية العادية. خلقتها ظروف تاريخية محددة من الاحتلال والمهانة، لكنها استطاعت بدورها أن تسيطر على شرط وجودها الخاص وتشترك فى مجرى تغيير التاريخ فى وطنها: لبنان.

تعطينا سهى عبر قصتها نموذجًا على الكثير من المستويات. وهذه ليست استثنائية، بل تنادى فينا الحاجة إلى القيمة وإلى الانتماء، إلى الوفاء وإلى الإيمان بقضية، وكل هذا نحتاج إليه فى زمن خلط الأمور وفقدان الوضوح وفوضى المعايير. تجدد سهى معنى الوطن والانتماء إلى الأرض. فتعلمنا قصتها أن الدفاع عن الوطن يعبر اختلاف الديانة والأيديولوجيا، ويحتاج إلى الجرأة والأمانة. تعلمنا أيضًا كيف يستطيع الإنسان السيطرة على جسده ومقاومة الحرمان، كيف تحولت طفلة هادئة، ترفض العنف، إلى قاتلة من أجل قضيتها. تعلمنا كيف يستطيع الإنسان أن يكتشف نقاط النور فى أبشع الظروف قتامة.

والقصة أيضًا شهادة تاريخية مهمة، تذكرنا بعلامات أساسية على طريق الصراع العربى / الإسرائيلى. وهذا الطريق لم ينته بعد، فتتجدد أمامنا كل يوم صوره الدامية وبطولاته الشابة. وهذا يذكرنى بمقال قرأته توا عن كتاب بالفرنسية لإلياس صنبر، المناضل الفلسطينى المقيم فى باريس. يحكى لنا الراوى فى ملك الغائبين، وهذه أيضًا سيرة ذاتية، أن أباه قال له قبل موته فى ١٩٦٧، ستبقى إسرائيل دائمًا شوكة فى حلق العالم. لن يستطيع أحد ابتلاعها، فلا تقلق. نعم، وميراثا ينبغى علينا جميعًا أن نصونه حتى النصر.

وهذه المعانى نجدها فى نضال سهى بشارة. نتحدث كثيرًا فى عالمنا عن الحداثة وما بعدها. وننسى أحيانًا أن الحداثة هى قبل كل شىء رفض الاستبداد والدفاع عن حرية لا تتجزأ، فحريتنا الخاصة وحقوق جسدنا تبدأ بمسئولية وطننا والانتماء إلى أرضنا وناس بلادنا. ■

فى الكتاب والمكتبة والكاتب

وجهة نظر من فرنسا

ناصر الأنصارى



فى مصر عدد الكتب الذى ينشر كلّ عام، يصل إلى حوالى عشرة آلاف عنوان. نصف هذا العدد إما إعادة طبع كتب قديمة أو هى لكتب مدرسية، بينما دولة مثل فرنسا يقترب عدد سكانها من عدد سكان مصر. فإنّ أرقام الإيداع تصل إلى خمسين ألفا كل عام



عند وصولى إلى العمل فى باريس، بدأت أرتاد المكتبات العامة مرة أخرى، فلاحظت التطور السريع والمتلاحق فى المكتبات العامة الفرنسية نفسها من الثمانينيات إلى بداية الألفية الثالثة يصعب تصديقه. فالمكتبة العامة أصبحت تشبه المعارض والمتاحف من حيث مجال الشكل والاهتمام به حتى يكون جاذباً للجمهور من القراء والباحثين. والتسهيلات المتاحة أصبحت لا تقع تحت حصر وتتطور مع التطور السريع فى مجال المعلوماتية وأدواتها، فأصبح الباحث الذى يعدّ أطروحة الدكتوراه والذى كان يقضى عدة أشهر فى أول عمل فى إعداد قائمة لمراجعه يقوم بهذا العمل بفضل نظم المعلومات فى عدة أيام كما أتاحت له شبكة الإنترنت أن يطلع على كل جديد فى مجال بحثه فى جميع أركان العالم. ولتسهيل هذا العمل، أصبحت قاعات الاطلاع مزوّدة بأعداد كبيرة من الحواسب الآلية المتاحة للباحثين والقراء، بل أصبح من حقه أن يعمل على الجهاز الخاص به. ولكل مقعد التوصيلة الخاصة به، أما الإنترنت فهو PC الحاسب الآلى المحمول أو الشخصى متاح داخل المكتبات العامة وإن كانت الأجهزة لا تعمل جميعها على كلّ أوجه البحث، فبعضها وهو الأغلب يتمّ توصيله على المواقع المتخصصة، بمعنى أن الدارس فى كلية الحقوق من حقه الدخول على الأغلب يتمّ توصيله على المواقع المتخصصة، بمعنى أن الدارس فى كلية الحقوق من حقه الدخول على كل مواقع وبنوك المعلومات المتعلقة بالدراسات القانونية وكذلك مكتبات كليات الطب، تجدها تتيح مواقع الإنترنت المتخصصة فى الدراسات الطبية وهكذا..

وبذلك أصبحت جميع الخدمات المكتبية تتطور يوماً بعد يوم وساعة بعد ساعة، وأغلبها متاح مجاناً للطلاب وبعض المكتبات العامة تشترط سداد رسوم سنوية تصل أعلاها إلى حوالى ستين جنيهاً مصرياً سنوياً، أى خمسة جنيهات شهرياً، وهو مبلغ إذا قورن بمستوى المعيشة يصبح ضئيلاً جداً (ثمن فنجان القهوة فى المقهى يصل إلى خمسة جنيهات)، ولعلّ الغرض منه غرض تنظيمى وليس إدرار دخل للمكتبة لأن هذا الدخل لا يمكن أن يتجاوز خمسة أو ستة بالمائة من ميزانية هذه المكتبة العامة.

وأصبح الاهتمام بتشكيل أمناء المكتبات هو الشغل الشاغل للمسئولين فى مجال البحث العلمى.

لقد أيقنت الدول المتقدمة منذ زمن طويل أن القراءة هى أهم وسائل المعرفة وأكثرها تأثيراً وفائدة، فعملت ولاتزال تعمل على تشجيع القراءة عامة والقراءة فى المكتبات العامة بصفة خاصة. ناهيكم عن تشجيع البحث العلمى سواء فى مراكز البحث والجامعات أو فى مجالات العمل الأخرى.

وقد أتاحت لى ظروف عملى الحالية زيارة المكتبات القومية فى بعض البلاد العربية من المكتبة الوطنية فى الكويت إلى دار الكتب فى «أبوظبى» إلى مكتبة الملك عبدالعزيز فى الرياض إلى المكتبة الوطنية فى الجزائر ومكتبة الخزانة العامة فى الرباط. وجميعها تحاول اللحاق بركب المكتبات العامة العالمية ولكن لازالت المسافة كبيرة بل وشاسعة بعضها من حيث الشكل وبعضها من حيث الموضوع والبعض الآخر الذى استطاع أن يحسن الشكل والموضوع من حيث كمية الكتب الحديثة والأجهزة المتطورة؛ فهى لازالت فى أغلب الأوقات تتصارع من أجل الحصول على القراء والمترددين على المكتبة.

ومن الأمور المتعلقة بالمكتبات أيضاً حركة النشر. ففى مصر عدد الكتب الذى ينشر كلّ عام، ومن خلال أرقام الإيداع التى تصدرها دار الكتب المصرية، يصل العدد إلى حوالى عشرة آلاف عنوان. نصف هذا العدد إما إعادة طبع كتب قديمة أو هى لكتب مدرسية، بينما دولة مثل فرنسا يقترب عدد سكانها من عدد سكان مصر. فإنّ أرقام الإيداع تصل إلى خمسين ألفا كل عام علماً بأنّ الكتب المدرسية لها نظام خاص فى الإيداع ولا تندرج فى هذا الرقم.

وحركة النشر فى فرنسا كبيرة جداً وحركة القراءة أيضاً كبيرة، ذلك أنّ الكاتب يكتب لأنّ هذا عمله والناشر ينشر لأنّ هذا مصدر دخله ولا يتعلل أيهما بقلة الدخل أو عدم كفايته. ومن بعض الأرقام الإحصائية المنشورة هذا العام عن عدد الكتّاب، نجد ١٦٢٧ كاتباً يعيشون ممّا يكتبون، أى أنّ مصدر الدخل الرئيسى لهم هو من الكتابة والنشر، وهؤلاء موزّعون كالآتى:

- ثلثا هؤلاء يصل دخلهم إلى ثلاثة عشر الف فرنك فى الشهر، أى حوالى سبعة آلاف جنيه مصرى. وهو دخل أىّ موظف متوسط له أقدمية عشر سنوات.
- حوالى الربع يصل دخلهم إلى أربعة آلاف فرنك فرنسى شهرياً، وهو أقلّ من إعانة البطالة التى تعطيها الشئون الاجتماعية للمتعطلين عن العمل.

وبالطبع يوجد فى أعلى السلم ستون كاتباً يصل دخلهم ما بين سبعمائة ألف ومليون وثلاثمائة ألف فرنك فى السنة.

أما القمة، فهى لعشرة كتّاب أحياء، يزيد دخلهم السنوى عن ثلاثة ملايين فرنك سنوياً، وعدد النسخ من كل كتاب أكثر من مائة ألف نسخة. وعلى رأس هؤلاء، أو صاحب العرش، هو من يطلقون عليه «الفرعون» أى كريستيان جاك Christian Jacq كان عالماً للمصريات ثم تفرّغ للرواية التى يستوحيها من التاريخ المصرى القديم. ويصل دخله من الطبعة الأولى لأىّ كتاب إلى حوالى مليونى فرنك، أما الطبعة الشعبية فتصل إلى مليون ونصف المليون فرنك ومترجم إلى ٣٤ لغة، ومجموعة رواياته عن الرعامسة باعت ١٢ مليون كتاب فى العالم. ووصل دخله إلى أربعين مليون فرنك فى خمس سنوات: يليه فى الترتيب فيليب دلرم Philippe Delerm خمسة عشر مليون فرنك فى السنوات الخمس الماضية، ثم تأتى أميلى نوثومب Amelie Nothomb بنفس الدخل السابق مع توزيع وصل إلى أربعمائة ألف نسخة من أحدث كتبها مع مليون فرنك من الطبعة الشعبية فى كتاب فى المرتبة التالية، وهو Max Gallo الجيب؛ ويأتى كاتب السير الشهير ماكس جالو متخصصا فى كتابة تاريخ وسيرة المشاهير فى التاريخ الفرنسى مثل ديجول ونابليون، ومتوسط توزيع كتبه ربع مليون نسخة؛ ويقف فى المركز التالى فريدريك بايجدير Frederic Beigheder الذى تترجم كتبه إلى عشر لغات أخرى بخلاف الطبعات الفرنسية.



ولكن فى الجانب المظلم من الطرف النقيض، نجد كاتبا شهيرا حائزا على جائزة Jacques وهى من كبرى الجوائز فى مجال الأدب وهو الكاتب جاك برينر Renaudot Brenner، وكان عضواً بارزاً فى كثير من لجان التحكيم الأدبية وقد توفى العام الماضى منسيا من الجميع، حتى ناشريه الذين تكسّبوا من ورائه ساعدوه فى حدود ضئيلة جداً.

وبين النقيضين، نجد أمثلة صارخة مثل كتاب النجمة الشهيرة بريجيت باردو، باع فى العام الماضى أكثر من نصف مليون نسخة، وهو عدد يفوق عشرة أمثال النسخ التى يبيعها كتاب لمؤلف شهير. ومع هؤلاء وأولئك نجد مجموعة أخرى من الكتّاب والروائيين ذوى القيمة الذين استطاعوا أن يجدوا جمهوراً خاصاً بهم ومخلصاً لهم.

ونجد فى فرنسا أيضاً بعض شباب الكتّاب يصيبهم فقدان الأمل أن ينشروا أعمالهم، وفى نفس الوقت يجدون أجهزة الإعلام والقراء يتهافتون على كتّاب آخرين. وتتساءل المجموعة الأولى فى خبث عن السبب: هل هى الموهبة أو هى الصدفة أم أنّ هناك دورا للمجاملات فى ذلك؟

ونجدهم فى فرنسا أيضاً يندبون حظهم عندما يقارنون أنفسهم بالولايات المتحدة الأمريكية أو بريطانيا أو حتى ألمانيا. فعمالقة الكتّاب الفرنسيين يصبحون أقزاماً بالنسبة للكتّاب الأمريكيين حيث إن حقوق المؤلف مرتفعة جداً والمقدمات التى يعطيها الناشر للكتاب لا تقف عند حد. وأبرز مثال هو كتاب السيدة الأولى الأمريكية السابقة هيلارى كلينتون، فقد بلغ المقدم ثمانية ملايين دولار من كتاب غير معروف محتواه بعد. ومثال آخر للكاتب الأمريكى ستيفن كينج Stephen King الذى أقدم على فسخ عقده مع دار نشر اعتاد التعامل معها، وهى فايكينج Viking لأنها رفضت طلبه فى مبلغ مقدم سبعة وثلاثين مليون دولار.

ويندبون حظهم فى فرنسا التى تضع الكتابة فى مقام التقديس ويدّعون أنّ حالة الكتابة سيئة لأن هناك مليونين إمّا يكتبون أو يحلمون بأن يكتبوا، وقد لا تكون الكتابة أى مصدر رزق لهم، وفى المقابل يوجد حوالى ألف ناشر فقط وعدد محدود من القراء(!)، ويقارنون بين رقم الأعمال فى مجال النشر مع رقم الأعمال فى مجال رغيف الخبز الذى يتجاوز عشرين مرة رقم الأعمال فى الكتب والذى هو أربعة عشر مليار فرنك.

أما المؤلف فهو أقل من يحصل على فائدة مادية من كتاب رغم أنه الخطوة الأولى الأساسية فى عملية النشر. وتعرض الإحصائية التالية الردّ على سؤال: أين تذهب نقود الكتاب؟ من سعر الغلاف مضروباً بعدد النسخ المباعة:

- المؤلف ما بين ٨٪ و١٠٪
- الموزع ٢٢٪
- المكتبات (المتاجر) ٣٣٪
- الضرائب ٥٪
- دار الطباعة ١٢٪
- الناشر ما بين ١٨٪ إلى ٢٠٪

وكما نلاحظ، فإنّ الكاتب الذى هو صاحب المعرفة وصاحب الجهد الذهنى المضنى والذى بدونه لا يمكن أن توجد الحياة الثقافية والأدبية هو أقلّ من يحصل على دخل من عمله. والكاتب غير المعروف قد يحصل على مقدم حوالى عشرة آلاف فرنك. أما كتاب الكتب ذات المبيعات الكبيرة فيزيد دخله على ١٠٪ ما زاد على العشرين ألفا. ومع ذلك ١٤٪ عن العشرة آلاف الأولى وتصل إلى ١٠٪ مع التوزيع، ونجد كتّابا ذوى شهرة يحصلون على ٢٠٪.

ونصيب الأسد فى هذه السلسلة هو لذوى الصبغة التجارية، أى المتاجر، والتوزيع ٥٥٪ وهو بالطبع يتحمل نفقة الطباعة التى لا تتجاوز ثلث دخله حتى مع زيادة سعر الورق وأدوات الصناعة الحديثة.

وحتى تكتمل الصورة للقارئ نعرض بعض السلبيات فى مجال نشر الكتب فى فرنسا، حيث إنه وحتى وقت قريب، اشتهرت ثلاث من أكبر دور النشر الفرنسية وهى Gallimard، Grasse، Seuil بأنها تعطى مبالغ كبيرة لأعضاء هيئة التحكيم فى الجوائز الأدبية فى شكل مقدّمات لكتب لم تكتب أصلا ولن تنشر. وذلك حتى تحصل هذه الدور على جوائز لكتبها المنشورة، وهو الأمر الذى يضاعف رقم المبيعات عدة مرات. فالقارئ الفرنسى يقبل بشكل كبير على الكتب التى تحصل على الجوائز الأدبية.. وقد تنبّهت السلطات لهذا الأمر وعالجته بالطريقة التى تمنع أعضاء لجان التحكيم من تقاضى أى أموال من الناشرين.

ومع ذلك، فمازال النقد يوجّه إلى أصحاب دور النشر الكبيرة من جانب الكتّاب، وتتبادل دور النشر التهمة مع الكتاب فتتهمهم والصحفيين منهم بصفة خاصة بأنهم يتقاضون مقدمات كبيرة لكتب تعدّ للنشر ثم لا يقدمون الكتاب ولا يعيدون هذه الأموال، وتضطر دور النشر أحياناً للتغاضى عن ذلك خوفاً من بطشهم إذا ما تمّت مقاضاتهم.

لذلك وصل الأمر ببعض الكتّاب الذين ينشدون الفضيلة والحرية معاً ألا يتقاضوا أى مقدمات، ولكن هؤلاء يحصلون على ١٨٪ إلى ٢٠٪ من المبيعات. بل وصل الأمر بالبعض إلى الاكتفاء بالكتابة والنشر دون البحث عن الوجه المادى، وهؤلاء يجدون فى الكتابة فى حد ذاتها متعة، فأن يقرأ لك الآخرون وأن تصبح معروفاً هى متعة لا مقابل لها. ■

فرانز فانون

صورة مناضل عاش أفكاره

محمد الميلي

فرانز فانون! من هو؟ عندما تطرح هذا السؤال اليوم في الجزائر، على أحد الشبان قد يجيبك: لا أدري، وقد يقول هو اسم شارع أو اسم مدرسة ثانوية للبنات! عندما سألت تلميذة من تلميذات ثانوية «فرانز فانون» عمن يكون هذا الذي سميت به هذه المدرسة الثانوية، أجابت: لعله اسم ضابط فرنسي!

في حين أن اسم فانون كان يتردد، منذ أربعين سنة في كل محفل سياسي وكل تجمع ثوري، بالجزائر وفي البلدان الأفريقية وفي أوساط الزنوج بالولايات المتحدة الأمريكية، وفي عدد من البلدان الأوروبية وفي كامل أمريكا اللاتينية، وفي إيران.. أفلام عديدة خُصصت لحياته أشرف عليها مخرجون انجلو-ساكسون: كما خصص له أكثر من كاتب وفيلسوف دراسات صدرت عند حياته وفكره، أكثرها بالإنجليزية وأقلها بالفرنسية.

وقد استمر اسمه يشغل المثقفين في مختلف أنحاء العالم منذ نهاية الخمسينيات وحتى نهاية الستينيات من القرن الماضي. أما الآن فقليل هم الذين يذكرون اسمه فضلاً عن معرفة فكره والمسار الذي اتخذه، بينما كان اسمه يساوي اسم شي غيفارا شهرة وتألقاً.

أن يُنسى اسم فانون بعد أن كان ذائع الصيت، ليس بالمستغرب، فهو ليس أول ولن يكون آخر من شاع اسمه ثم اختفى، لكن أن يُنسى في الجزائر بالذات، فهذا ما يصعب تفسيره. لقد اقترن اسمه بالثورة الجزائرية التي انضم إليها في وقت مبكر من اندلاعها. التحق بالجزائر قادماً من مدينة ليون عام ١٩٥٣ ليشرف على أحد أقسام مستشفى الأمراض العقلية بمدينة «البليدة»، وهي مدينة تقع في قلب سهول المتيجة الخصبة، على سفح جبل «الشريعة» الذي تغطيه غابات أشجار «الأرز»، التي تمثل ملجأ آمنا للثوار.

كان يساهم في معالجة الجرحى من جنود جيش التحرير، وبعض المصابين منهم بأمراض عقلية. وما لبث أن قدم استقالته إلى الوزير-المقيم العام بالجزائر -وتفرغ للعمل في صفوف جبهة التحرير التي خدمها بفكره وقلمه، حتى اعتبره كثيرون -ولم يكونوا مخطئين- منظر الثورة الجزائرية. وقد كان دوره فريدًا في

Frantz Fanon

(فرانز فانون)

Alice Cherki

Ed. Seuil. Paris 2000 314 PP.

الكشف عن بُعدها الأفريقي، وفي الرد على الذين يعتبرون نشاط الفدائيين إرهاباً. فقد كان الجدل قوياً بين الاستعماريين الذين ينعتون العمل الفدائي بأنه إرهاب، والوطنيين الذين يعتبرونه وسيلة من وسائل الدفاع عن حق مشروع. وهو جدل شغل حيزاً معتبراً من اهتمامات المثقفين منتصف القرن الماضي في الجزائر، مثل الجدل الدائر منذ عقود حول كفاح الشعب الفلسطيني.

ولعل المثقفين العرب، أو بعضهم على الأقل ما زالوا يذكرون الضجة التي أثارها، منذ أربعين سنة، كتاب «فرانز فانون» «Le domries de la tene» الذي خصص أهم فصل من فصوله للحديث عن «العنف» و«العنف في المجال الدولي» وهي ضجة هزت أوساط اليسار في فرنسا وفي أمريكا الشمالية وأمريكا الجنوبية، كما شغلت المثقفين في عدد من البلدان الآسيوية خاصة اليابان وإيران.

فهل تسمح قراءة جديدة الآن في هذا الكتاب، بتقديم إجابات ملائمة عن الأسئلة المطروحة على عوالم اليوم، فيما يتصل بالعنف؟

ليس من السهل الإجابة عن هذا السؤال.. لكن رأيت أن الظرف العالمي الراهن يتطلب التعريف بفرانز فانون، عبر آخر ما كتب عنه من ترجمات. وتعتبر الترجمة التي قدمتها عنه «أليس شركي» «Alice Cherki» التي عرفته عن قرب، أحسن ما أتيح لي أن أقرأه من كتب تناولت سيرته الذاتية ومساره النضالي وطريقته في التفكير وأسلوبه في الحياة.. ظهر هذا الكتاب أواخر العام الماضي بالفرنسية.

ولدت مؤلفة هذا الكتاب، بالجزائر في أسرة يهودية. وقد ساهمت في حرب التحرير الجزائرية. وهي طبيبة نفسانية عرفت فانون عندما التحق بالجزائر، واشتغلت معه في تونس أيضاً. بهذه الصفة المزدوجة تعتبر أحسن من يكتب عن فانون.

والواقع أن هناك أكثر من عامل يجعل الحديث عن هذا الكتاب مناسباً.. الأول: أن التطورات التي عرفتها الجزائر بعد الاستقلال خاصة أحداث العشرية الماضية تؤكد صحة بعض الاستنتاجات التي استخلصها فانون من دراسته للحالة الجزائرية وعدد من الحالات الأفريقية. الثاني: دقة تشخيصه للأمراض التي تهدد الحركات الوطنية، قائدة المعركة من أجل الاستقلال، خاصة بعد أن تتولى الحكم فقد حذر من الإبان من الأخطار التي تتهددها، ونبه إلى ما يترتب عليها من أوضاع متردية.

ذلك أن تكهنات فانون لم تكن نتيجة تحليل مخبري، لكنها كانت خلاصة دراسة ميدانية وملاحظات دقيقة، حللها بعين المفكر وخبرة المحلل النفساني.

وهذا هو ما يفسر الصدى الواسع الذي لقيه آخر كتبه في جميع أنحاء العالم، عندما صدر في الثلث الأخير من عام ١٩٦١. بل إن تعبير الصدى الواسع لا يعطي صورة دقيقة عن الأثر الذي أحدثه: فقد كان له مفعول قنبلة. بيعت منه مئات الآلاف من النسخ، سواء في الطبعة الفرنسية التي كتب بها أو في الترجمة الإنجليزية، زيادة عن مبيعات ترجماته إلى خمس عشرة لغة. وقد نسب بعضهم ذلك الصدى الواسع إلى المقدمة التي كتبها جان بول سارتر الذي كان في ذروة تأثيره. لكن الحقيقة أن العامل الأساسي الذي جعل كتاب «معذبو الأرض» يلقى ذلك الاستقبال، هو أنه صدر في وقت «ملائم» ليسد فراغاً ويستجيب لتطلعات ضخمة، ويرد في الوقت نفسه عن أسئلة كانت موضوع جدل بين مثقفي العالم الثالث.

فقد صدرت طبعته الأولى بعد أن انتصرت كوبا في كفاح طويل ضد باتيستا، وبرز للعالم اسم فيدال كاسترو وشي غيفارا. وكانت مصر بقيادة جمال عبدالناصر تَحُثُّ المسير لتصنع مشروعها التحرري النهضوي، على طريقة ثورة اجتماعية تستخلص العبرة من درس الانفصال الذي هز الجمهورية العربية المتحدة؛ بينما كانت شعوب أمريكا اللاتينية تتطلع للتحرر من قبضة الاحتكارات الكبرى كما فعلت كوبا.



إذن كان الوقت ملائماً لاستقبال كتاب فانون. ويتمثل أحد عوامل نجاحه في اللغة التي اعتمدها لتبليغ أفكاره إلى المعذبين في الأرض، وذلك ما جعل عدداً من المعلقين يعتبرونه دعوة إلى أممية جديدة على مستوى العالم الثالث. فقد توجه بخطابه إلى الشعوب المضطهدة، ولم يتوجه به إلى الغرب، فهو يطلق في ختام خطابه صرخة هي: «يجب أن نهاجر أحلامنا، أن نتخلى عن معتقداتنا وصداقاتنا التي سبقت. لا يجوز أن نضيع وقتنا في دعوات عقيمة ومحاكاة تبعث على الغثيان. لنغادر أوروبا هذه التي تتحدث دوماً عن الإنسان في نفس الوقت الذي تقتله فيه تقتيلاً، كلما اعترضها في أي مكان من أنحاء العالم.

لقد مرت قرون عرقلت خلالها أوروبا تقدم الناس الآخرين، واستعبدتهم وسخرتهم في خدمة أغراضها وتشييد أمجادها: قرون أخذت فيها بمخانق الإنسانية كلها تقريباً، بعنوان مغامرة حضارية روحية.. انظروا لها الآن: إنها تتارجح بين التفكك النووي والانحلال الروحي».

بهذه الصرخة يطبع فانون خاتمة كتابه.. لغة القطيعة هذه ترفض منطق «اللحاق بالغرب».

١٨ سنة يقطع المحيط الأطلسي ليقاوم الألمان

لكن ما المسار الذي أفضى بفانون إلى هذه النهاية؟

ولد فرانز فانون، فرنسي الجنسية بالمارتينيك يوم ٢٠ يوليه ١٩٢٥. يعتبر بورجوازي المنشأ، لأن أباه كان مفتش جمارك، رغم وضعيته الاجتماعية الممتازة قياساً لأبناء جلدته، فقد كان «كازيمير فانون» والد فرانز، لا يفوته تذكير أمثاله، في ذكرى سقوط الباستيل التي يحتفي بها رسمياً كل عام كما هو الشأن في كل المستعمرات الفرنسية، بأن الرق كان ما يزال معمولاً في المارتينيك وقت أن تخلصت فرنسا من النظام الملكي.

بعض هذا الإحساس المرهف ورثه فرانز عن أبيه: فكان يتعاطف مع كل مضطهد، ويثور ضد كل معتد. من يقرأ كتاباته النارية في خضم حرب التحرير الجزائرية، دون أن يعرفه عن قرب، يتصوره عاطفياً، شديد المبالغة عندما يطالب شعوب العالم الثالث بأن تمارس قطيعة تامة مع الغرب. مواقفه تبدو مثالية، طوباوية غير قابلة للتطبيق. في حين إنه كان، منذ صغره الباكر، يرفض أنصاف الحلول، فلا يمكن أن يُتهم بالديماغوجية.

كان المحيط الأطلسي كله يفصل بين بلده وفرنسا «الوطن الأم»، ومع ذلك قرر أن يقطعه ليلتحق بالمقاومة الفرنسية ويحارب النازية، ولما تجاوز الثامنة عشرة.. لم يخبر أحدا من أقاربه بما استقر عليه عزمه.. اختار يوم احتفال الأسرة بعرس أخيه الأكبر، ليختفي عن الأنظار بعد أن اختلس من خزانة أبيه قطعتين من القماش الفاخر، حتى يتحصل من بيعهما على الثمن المطلوب دفعه لمن يحمله سراً في قارب يوصله إلى الدومنيك حيث كان يوجد بعض الديغوليين.

كانت الحرب العالمية الثانية، والنزاع بين الجنرال ديجول والمارشال بيتان موضوع نقاش بين التلاميذ الملونين. كان هناك من يرى أنه غير معني بهذه الحرب التي تهم البيض فقط، لكن فانون كان له رأي آخر، حسبما سجله بعض رفاقه، فقد رد على المقولة السابقة، بقوله: «كلما تعرضت كرامة وحرية الإنسان للخطر، فنحن معنيون بها، كلنا بيضاً وسوداً وصفراً، كلما كانت الحرية والكرامة مهددة في أي مكان فأنا ملتزم بالدفاع عنها، دفاعاً لا رجعة فيه».

هكذا ارتبط فانون منذ الثامنة عشرة بتواريخ عالمية، وقضايا عالمية، فعَبَر المحيط الأطلسي مغامراً ليحارب ضد الألمان، وأصيب بجروح في جبهة القتال.

لم يتمتع كثيراً بالسلم حين عاد إلى جزيرته سالماً بعد أن كان يتصور أنه سوف يقضي في الحرب، ويبدو أن تجربته تلك جعلته يعزف عن الإقامة بالمارتينيك، التي وجد فيها «عدد السراويل أكثر من عدد الرجال» حسب تعبيره.

التحق بمدينة ليون حيث درس الفلسفة وعلم النفس، نَهَمُهُ إلى المعرفة ولهفته للتعرف على العالم دفعاه إلى عدم الاكتفاء بدراسة الطب الذي هو موضوع منحته.

في ليون تعرَّف على الأستاذ Tosquelles الأسباني الذي كان من المعارضين لنظام فرانكو، نعرف من خلاله وجهاً آخر من وجوه الديكتاتورية. لم يكن قد تجاوز آنذاك اثنين وعشرين عاماً.. وما أن ينهي دراسته، ويتخرج، ثم يلتحق بمدينة «البليدة» من الجزائر، مشرفاً على قسم بمستشفاها الخاص بالأمراض العقلية حتى يكتشف وجهاً آخر من وجوه الاستعمار الاستيطاني.

لذلك لم يتردد في أن يتعاطف مع كفاح الشعب الجزائري في وقت مبكر من عمر الثورة المسلحة، خصوصاً وقد اكتشف من خلال معالجته المرضى الجزائريين وبفضل تطبيقه أسلوب الأستاذ Tosquelles الأسباني، أن

بعض عـوامل الجنون فى الجـزائر مـرتبط بالاستعمار.

هذا المسار من الحرب العالمية الثانية إلى حرب الجزائر مروراً بفترة الإقامة فى «ليون» الفرنسية، يكشف عن تسلسل» منطقى» فى حياة فانون النضالية. تسلسل يؤكد أن الرجل ظل وفياً لنفسه، ملتزماً بقناعاته. فهو قد حارب فى صفوف الجيش الفرنسى المقاوم، دون أن يكون مؤمناً بوجاهة الحرب التى شارك فيها. عندما توفيت أمه، عام ١٩٨١، أى بعد مرور عشرين سنة على وفاته. عثرت أسرته على رسالة كان وجهها لها تدل على ما كان يشعر به آنذاك. فقد جاء فيها:

«.. مر عام على مغادرتى لمدينة (فور دى فرانس ـ عاصمة المارتينيك ـ) لماذا؟ فعلت ذلك من أجل الدفاع عن مثُل أعلى ميت.. أصبحت أشك فى كل شىء حتىّ فى نفسى. فيما إذا استحالت عودتى وجاءكم نبأ موتى فى مواجهة العدو، لا تقولوا إنه مات من أجل قضية نبيلة.. هذه الأيديولوجية المزيفة التى يختفى وراءها اللائيكيون والسياسيون البلداء. لا يجوز أن تخدعنا. لقد أخطات. لم يكن هناك ما يبرر قرارى المفاجئ فى أن أدافع عن الفرنسى المعمر فى الوقت الذى لا يهتم فيه هو بالأمر. غداً سوف أذهب متطوعاً فى مهمة خطرة.. أعرف أننى سوف أموت».

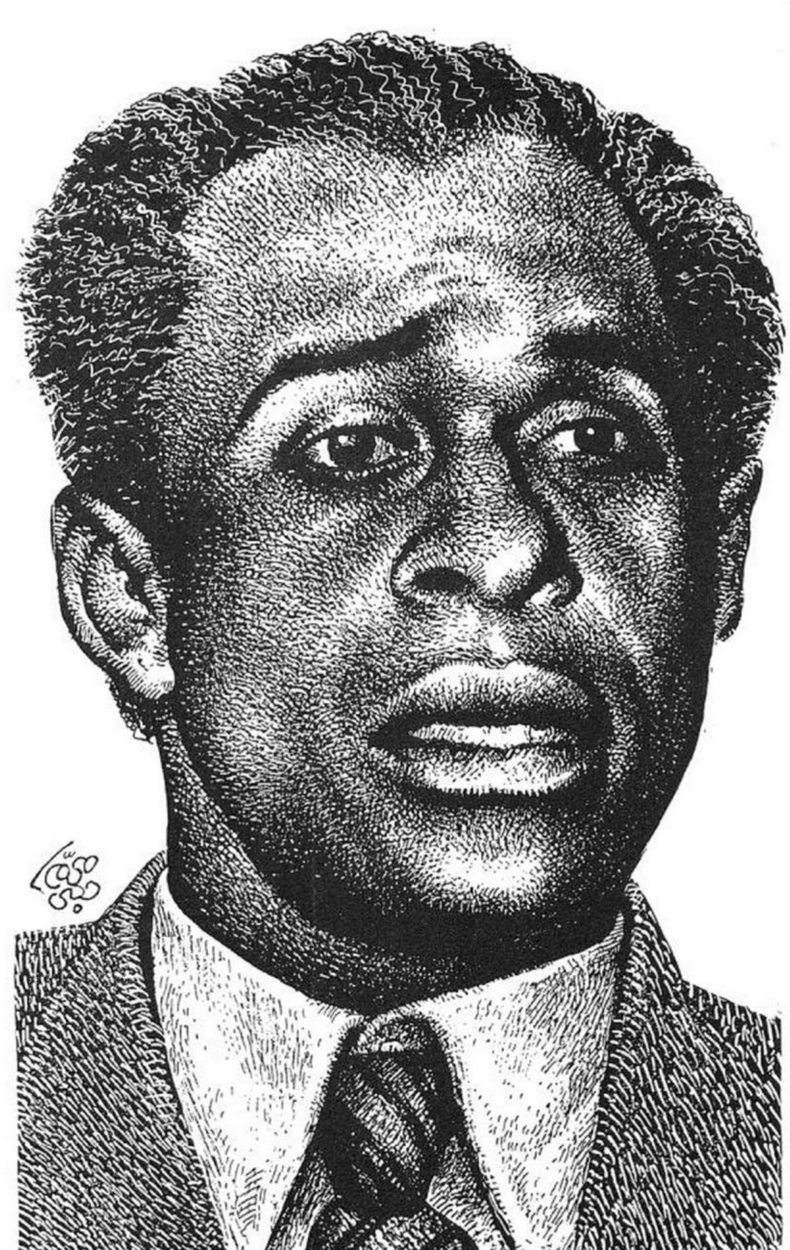
كان فى إمكانه ألا يتطوع فى مهمة يعرف أن فيها حتفه: لكنه تطوع وفاء لالتزامه بمبدأ كان يؤمن به وهو الدفاع عن حرية وكرامة الإنسان. هذه الرسالة التى كتبها وهو لم يتخط عتبة العشرين عاماً، تكشف عن واحد من أهم الخطوط التى تبلور شخصيته وعن الهاجس الذى ما فتىء يسيطر على حياته القصيرة: التمزق بين خيبة الأمل فى الإنسان والإيمان به وحبه قبل كل شىء وبعد كل شىء.

ولاشك أن بعض المعاملة التى لقيها بعد التحاقه بالمقاومة ضد الألمان قد جعلته يلمس أن البيض الذى يحارب فى صفوفهم، كانوا يدافعون عن مصالحهم قبل أن يدافعوا ـ مثله ـ عن كرامة وحرية الإنسان.

بعد أن شارك فى تحرير «الألزاس» الفرنسية، أرسلته قيادته إلى ميناء «طولون» الحربى الذى وصله قبل إعلان النصر بأسبوع تقريباً. كانت احتفالات الانتصار شديدة الوقع على نفسه الحساسة. كان سكان المدينة، خاصة بناتها، يهتفون للجنود الأمريكان، وكانت البنات والنساء يتهافتن على الرقص معهم، وكن يرفضن الرقص مع الملون ولو كان بطل حرب تحريرهم.

يمكن أن نتصور مدى الألم الذى عصف به أمام هذا اللون من التمييز العنصرى، هو الذى حارب النازية التى قامت على مقولة تفوق عرقى. تجربته الأليمة هذه بالإضافة إلى بعض معاناته فى مدينة «ليون» التى التحق بها طالبا وعمل بها، أنضجته وأهلته لأن يصدر عام ١٩٥٢ كتاب «بشرة سوداء.. أقنعة بيضاء» (Peau noire mes ques bloues) فهو كان يرفض الاحتماء بالأقلية الزنجية فى مدينة «ليون»، كما فعل زملاؤه: كان يقول لزملائه: «كلما قلَّت لقاءاتنا، كلما كان ذلك أفضل». كان يريد أن يزول التمييز القائم على اللون من الوجود.

عندما وجه مخطوط كتابه السابق الذكر إلى دار نشر «لوسوى» طلب منه أحد المشرفين ـ وهو «فرانسيس جانسون» (Francis Jeanson) أن يقابله فى مكتبه بباريس. عندما دخل فانون مكتبه

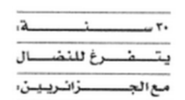


من المراهقة حتى الموت



بادره «جانسون» بامتداح كتابه. فما كان من فانون إلا أن قال له: «تقصد أنه كتاب لا بأس به مادام قد كتبه زنجي»!

جاء رد فعل الناشر سريعاً وحاداً وبليغاً: أشار إلى الباب، بمعنى «اطلع بره». أدرك فانون حينئذ أن مخاطبه كان جاداً في قوله، بل وتأكد أنه لا يحتمل بأنه يتهم باحتقاره للزنوج. وأسفر هذا اللقاء العاصف عن تفاهم وود وصداقة.



كان فانون مثل كل مرهف حس، شاعري العاطفة، سريع الانفعال، عنيف ردود الفعل، حالماً يندفع بحماس للدفاع عما يؤمن به، متفائلاً بانتصار قضيته، وقد يخيب أمله من جراء سلوك أو تصرف أو عبارة، فينقلب متشائماً، سوداوي المزاج، كافراً بكل شيء، دون أن يتخلى عن التمرد في كل الحالات.

وقد يكون من المناسب هنا تصحيح عبارة وردت في الرسالة الموجهة لأسرته عام ١٩٤٥ من جبهة القتال، والتي يندد فيها بـ«اللائيكيين»، فقد يفهمها بعض من يقرؤونها ممن لا يعرفون «فانون» أنه ضد «اللائيكية» التي تعني عند كثيرين في المجتمعات الإسلامية اليوم، «الإلحاد». كلا.. لأن فانون كان يشير بذلك إلى الأوضاع الفرنسية خلال الجمهورية الثالثة التي عاشها وقرأ عنها طفلاً ومراهقاً، والتي تميزت بالصراع بين الكنيسة واللائيكية. ثم إن فانون رغم نشأته في وسط مسيحي، تأثر ببعض قيمه، كان يجهر بأنه ملحد ولا يؤمن إلا بالإنسان.



ما زلت أذكر أول يوم رأيته فيه. كان ذلك خلال مارس ١٩٥٧، كنا مجتمعين في قاعة التحرير حول «عبدالرزاق شنتوف» المسئول عن صحيفة «المقاومة الجزائرية»، فجأة دخل علينا القاعة شاب بالغ الأناقة، رياضي الجسم، في عينيه تساؤل، وعلى شفتيه ابتسامة، بشوش الوجه، تنتقل عيناه بسرعة من واحد لآخر، بينما كان يشد على يد كل منا بحرارة مصافحاً، تطفح من هيئته جاذبية تجعلك تتعلق به قبل أن تعرفه، سألت عبدالرزاق: من يكون؟ أجاب: ألم تعرفه؟ هذا هو فانون.

انضم إلى هيئة التحرير..

تلك هي بداية تعرفي على أحد الرجال الذين طبعوا عصرهم وتركوا رسالة لمن يأتي بعدهم. وهي نفس الفترة تقريباً التي تعرفت بها على بعض الفرنسيين الذين التحقوا بجبهة التحرير الوطني، مثل الدكتور بيير شولي، وسيرج ميشال الذي أصبح فيما بعد مستشار لومومبا السياسي.

وهكذا جمعتنا الصدف حيناً من الزمن، منذ مارس ١٩٥٧، وتعززت الصلة بعد ذلك، خاصة منذ شهر يونية من نفس العام.

عملنا معاً ضمن هيئة تحرير «المقاومة الجزائرية» في ربيع ١٩٥٧ لم يستمر طويلاً. ذلك أن القيادة التنفيذية لجبهة التحرير واجهت مشاكل معقدة في بداية تلك السنة، أثناء ما عُرف بـ«معركة الجزائر العاصمة»، التي اغتيل أثناءها أبرز عناصرها وهو العربي بن مهيدي. قرر الأعضاء الباقون على قيد الحياة، أن يلتحقوا بالخارج لإعادة ترتيب الأوضاع على ضوء المستجدات. في هذه الفترة قررت قيادة الجبهة توحيد الصحف الناطقة باسم جبهة التحرير في صحيفة واحدة هي «المجاهد». وتقرر أن يكون مقرها في مدينة تيطوان، شمال المملكة المغربية. صدر الأمر إلى الذين عينوا أعضاء في أسرة التحرير لأن يلتحقوا بتيطوان. تنفيذاً لهذا القرار التحق من تونس كل من فرانز فانون ومحمد الميلي. غادرنا تونس معاً إلى روما ثم مدريد ثم تيطوان.

كانت تلك الرحلة هي بداية التعرف الحقيقي على فانون إنساناً ومفكراً. قضينا بروما يومين بمعية المرحوم آيت حسن وهو محام تعرفت عليه بالعاصمة الجزائرية عام ١٩٥٦، قبل أن يلتحق بالخارج. (أصيب في انفجار قنبلة بألمانيا الغربية، وجهتها له المخابرات الفرنسية. وقد توفي متأثراً بالجراح التي خلفتها).

ثم مكثنا في مدريد خمسة أيام. وفي تيطوان كنا، فانون وأنا نشترك في غرفة واحدة خصصت لنا في الفيللا التي كانت أسرة التحرير تقيم بها، والتي تتشكل من رضا مالك، محيي الدين موساوي، علي مارن، علي عسول، سليم، بو عبدالله، زهير إيحدادن، بالإضافة إلى اللذين قدما من تونس. كان فانون في هذه الفترة شديد التفاؤل بالمستقبل.

في تيطوان أتيح لي أن أعرف عنه ما لم أكن عرفته: كان كثير المطالعة، قليل النوم، صارماً مع نفسه، ودوداً مع زملائه، يخاطبك كند، فلم أشعر منه بذرة تعال، ولم ألمس لمعَيَّه أي أثر للاعتداد بنفسه والتباهي بمؤهلاته أو الزهو بأفكاره.

كان قليل الخروج من مقر إقامتنا، مثله في ذلك مثل سائر زملائه، (ماعدا اثنين كانا ممنوعين من الخروج لأسباب لم نحاول معرفتها).

طيلة فترة تيطوان ظل فانون متساوياً مع نفسه، شديد الحماس، كبير التفاؤل: ألم يصبح جزائرياً قلباً وقالباً؟ ألم يتحدث باسم جبهة التحرير عندما عقد ندوة صحفية في تونس بمناسبة واقعة مللوزة البشعة، التي نسبها الفرنسيون لجيش التحرير ونسبتها جبهة التحرير للجيش الفرنسي. (لكن تبين فيما بعد أنها لم تكن من عمل الفرنسيين، وقد، أثر فانون، عندما اطلع على الحقيقة تأثراً بالغاً).

إن فانون إذ أصبح ضمن فريق «المجاهد» الصحيفة التي تشرف عليها مباشرة أعلى هيئة في جبهة التحرير، كان يشارك في توجيه الثورة. ألم يكن عبان رمضان، تلك الشخصية العملاقة، يناقشه كند دون أن يشعره بأنه هو المسئول وفانون تابع؟ (والواقع أن سلوك عبان رمضان ذاك مع فانون كان هو نفس سلوكه مع أفراد أسرة التحرير).

وتجدر الإشارة هنا إلى أن فانون قد فوجئ عندما التحق بمستشفى «البليدة» في الجزائر، عندما تبين أنه لا يوجد لدى الجزائريين أي تمييز ضد الملونين. اعتبره الجزائريون واحداً منهم حتى من قبل أن ينضم إلى جبهة التحرير ويصير وجهاً من أبرز وجوهها. يؤكد ذلك مثالان: المثال الأول رواه لي فانون بنفسه في تيطوان: حدث أول التحاقه بالجزائر - وقبل اندلاع ثورة نوفمبر ١٩٥٤ - وكان مساعده يترجم له ما تقوله مريضة جزائرية لا تعرف الفرنسية؛ اندهشت الجزائرية وقالت لمساعده: ماذا يحسب نفسه؟ لماذا يتظاهر بعدم معرفة العربية لأنه تعلم لغتهم وتردد على مدارسهم؟ لم يخطر على بالها إطلاقاً أنه غير جزائري. المثال الثاني ترويه «أليس شركي» في كتابها عن فانون. كان يجلس في سيارته مع زميل له، يدخن سيجارة. كان الزمن رمضان. مر بهما جزائري بادره قائلاً: عيب. المطلوب منك ألا تدخن في نهار رمضان - لم يخطر على باله أنه غير مسلم.



لكننا نظلم فانون إذا نحن تصورنا أن تقبل الجزائريين له بصورة عفوية، واحتضانهم له بوصفه واحداً منهم هو السر الأساسي في انجذابه إلى حركة التحرر الوطني. فقد شاهد قبل اندلاع الثورة المسلحة من مظاهر التمييز العنصري ضد الجزائريين ما جعله يتبين مدى تطابق معركتهم من أجل التحرر والاستقلال مع المعركة التي ما فتئ يخوضها منذ سن الثامنة عشرة من أجل انتزاع حرية الإنسان وصيانة كرامته.

وقد قاده المسعى الخاص الذي اعتمده في معالجة المرضى النفسيين الجزائريين إلى التعرف على البيئة التي نشأوا فيها والتقاليد التي شبوا عليها فاكتشف وجود هوية ثقافية جزائرية تختلف كلية عن المزاعم الاستعمارية بأن الجزائر فرنسية.

من هنا كان انخراطه في النضال الجزائري مبكراً، نابعاً من مجموعة تلك العوامل، ولم يكن يخضع لأي حساب شخصي. وهذا ما يفسر أيضاً فهمه المبكر لآليات النضال ضد الاستعمار، وإدراكه المعمق لطبيعة الثقافة الوطنية ودورها في صناعة رفض الاحتلال. وقد ساعدته مهنته وتخصصه من جهة، وتأثره بمدرسة أستاذه Tosquelles في الطب النفسي من جهة أخرى على فهم المسار الذي أخذه الكفاح الجزائري. وقد ظهر ذلك على الأخص في المقالات والدراسات التي كان يكتبها لصحيفة «المجاهد» كما ظهر في كتابه (L'an v de la Zevolution elgenieure) (الثورة الجزائرية في عامها الخامس) الذي نشر في طبعات لاحقة تحت عنوان: (Socialogie d'une Zevolution) (سوسيولوجية ثورة)، ومن هنا فقد استحق وصف «منظمو الثورة الجزائرية».

لكن لنرجع إلى الوراء قليلاً، إلى الفترة الفاصلة بين مرحلة تيطوان، (صيف ١٩٥٧) ومرحلة تونس التي بدأت مع انتقال مقر المجاهد إلى تونس منذ ٩ أكتوبر ١٩٥٧.

في ٢٠ أغسطس ١٩٥٧ اجتمع المجلس الوطني للثورة الجزائرية بالقاهرة. وكان متوقعاً أن يكون ذلك الاجتماع مناسبة لضم عناصر أخرى لعضوية ذلك المجلس. وكان هناك من يتوقع أن يكون فرانز فانون ضمن الأعضاء الجدد في مجلس الثورة.

اتخذ ذلك الاجتماع عدة قرارات كان لها تأثير كبير على الاتجاه الذي أخذته جبهة التحرير بعد ذلك، مثل إلغاء مبدأ «أولوية السياسي على العسكري» وإلغاء مبدأ «أولوية الداخل على الخارج».

عندما غادرنا تيطوان لم تكن قرارات مجلس الثورة قد بلغتنا.

في مدريد التي مكثنا بها بضعة أيام في طريقنا لتونس، تسربت بعض الأخبار عن اجتماع القاهرة عن طريق بعض القادة الذين كانوا موجودين في مدريد. كانت مدريد من أهم القواعد الخلفية لجبهة التحرير في أوروبا: من خلال أسبانيا كانت تمر الأسلحة التي توجه إلى المناطق الغربية من الجزائر. كانت أسبانيا فرانكو تمنح تسهيلات معتبرة لجبهة التحرير، نظراً للعداوة المستحكمة بين فرنسا «الجمهورية» وأسبانيا الفاشية». وكان نظام فرانكو معروفاً بأنه نظام بوليسي صارم. وكنت قد لاحظت، أول مرة وصلنا إلى مدريد قادمين من تونس (يونيو ٥٧) وجود مصورين في المطار يلتقطون صور كل الذين يغادرون الطائرة. عندما سألت ممثل جبهة التحرير في أسبانيا الأخ بوقادوم عن معنى ذلك أفهمني أن ذلك هو النظام المتبع هنا. وذلك يعني أن نظام فرانكو لم تكن تخفى عليه أية تحركات عبر التراب الأسباني فكيف إذا تعلق الأمر بانتقال الأسلحة إلى شمال المملكة المغربية.

خلال مكوثنا بمدريد في الطريق لتونس هذه المرة، (سبتمبر ١٩٥٧) اجتمع بعض قادة الجبهة مع بعض ممثلي الثورة في أوروبا يتقدمهم الأخ عمر بوداود الذي كان مسئول اتحادية جبهة التحرير في أوروبا، يرافقه «فرانسيس جانسون» الذي كان يتولى تهريب الأموال التي يجمعها المناضلون بفرنسا إلى بنوك أوروبية. وجانسون هذا هو نفسه الذي تولى نشر أول كتب فانون عام ١٩٥٢ كما سبقت الإشارة لذلك. وكان قد تعاطف مع الكفاح الجزائري وساهم في التعريف بشرعيته لدى الرأي العام الفرنسي إذ كان قد نشر في العام الثاني للثورة كتاباً ألفه بمعية زوجته عنوانه: «L'Algerie hiro la lir» (الجزائر الخارجة على القانون) تعرض فيه للفظائع التي ارتكبها الجيش الفرنسي أثناء حرب الاحتلال في القرن التاسع عشر.

أذكر جيداً ذلك اليوم، أو بعبارة أدق تلك الليلة. كان الجو حاراً، وكنا نتمشى فانون وأنا، في أحد شوارع مدريد الواسعة. كان فانون يتحدث كعادته بطلاقة وانفعال. لم يصدر عنه تعليق صريح على قرارات اجتماع القاهرة، أو ما يدل على تذمره من قيادة الجبهة؛ لكن التشاؤم كان يطبع بعض المقاطع من حديثه،

كان فانون مثل كل مرهف حس، شاعري العاطفة،
سريع الانفعال، عنيف ردود الفعل، حالماً يندفع بحماس للدفاع عما يؤمن به،
متفائلاً بانتصار قضيته





دليل خيبة أمل، ذلك لا يعنى أنه كان يعلق أهمية كبرى على انضمامه للقيادة، لكنه يعنى - فيما أتصور وحسبما استخلصته من حديثه آنذاك - أنه أحَسَّ بنوع من التمييز الذى عانى منه قبلاً، سواء عندما كان جندياً أو بعد أن استقر به المقام فى مدينة «ليون»: ألا يكون السبب الحقيقى لاستبعاده هو كونه ليس جزائرياً بالأصالة.



كان فانون يثق ثقة مطلقة بعبان رمضان وكان معجباً به أشد الإعجاب: لكن عدم حصول هذا الأخير على الأغلبية عند التصويت على اقتراح إلغاء المبادئ التى اعتمدت فى مؤتمر الصومام، أغسطس ١٩٥٦، وهى المبادئ التى كان يدافع عنها عبان ويتمسك بها، جعل فانون يشك فى القيادة، إذ لم يؤيد موقف عبان فى اجتماع القاهرة إلا شخص واحد. ولعل هذا ما دفع فانون إلى أن يتساءل ذلك المساء، عما إذا كان هناك قائد خفى، هو القائد الحقيقى الذى يمسك بكل الخيوط دون أن يظهر للعيان، ولم يخطر بباله أن تكون الحقيقة أبسط مما تصور، لأن الحقيقة لم يتبينها إلا بعد ذلك، ويمكن تلخيصها فى أن التكتل الذى حدث ضد عبان رمضان كان نتيجة التقاء مصالح بعض القادة العسكريين الذين وجدوا الفرصة سانحة لأن يحتكروا السلطة دون الآخرين من جهة، زيادة على تدنى المستوى الثقافى لعدد من العناصر القيادية من جهة ثانية، وغياب قادة من وزن العربى بن مهيدى ومصطفى بن بوليد من جهة ثالثة.

بعد أن أبدى فانون شكه ذلك، راح يتحدث عن تجربته الفكرية بإسهاب، خاصة ما استفاده من أستاذه الأسبانى Tos quelles الذى كان قد أرانى، فى تيطوان كتاباً له، كان يقرأ فيه دائماً قبل أن ينام: واستطرد فى شرح نظرياته، ثم صارحنى بأن نشأته المسيحية لم تقنعه بوجود الله، وأنه لا يؤمن إلا بالإنسان.. وإذا خاب الأمل فى الإنسان ماذا يبقى؟ إلا أنه لم يلبث أن يتدارك: الإنسان هو القيمة الأساسية، القيمة القصوى.

إن عدم وقوع فانون فى فخ اليأس المطلق يرجع فى تقديرى إلى عاملين: حيويته المتدفقة التى لا تجد متنفساً لها إلا فى الحركة والعمل والجهد من ناحية، ورهانه على أفضل ما لدى الإنسان من ناحية أخرى. كان دائم التطلع لفهم ما يجرى فى العالم، كان شديد النهم لمعرفة آخر ما صدر من كتب والاطلاع على أحدث الإبداعات، سريع الحركة كأنه يريد أن يسابق الزمن، وكان لديه إحساسًا بأن الزمن لن يمهله حتى يقول كل ما لديه. وليس من محض الصدفة أن يكون ضمن آخر ما كتب قبل وفاته: «آخر دعائى هو: اجعل منى يا جسمى إنسانًا دائم التساؤل».



بعد العودة إلى تونس رحت أستعرض ما قاله لى فى مدريد، محاولاً تأويله على ضوء كتاباته وسلوكه بعد أن تغيرت ظروف عملنا: فقد أصبح كل منا يعيش مع أهله، ولم نعد منقطعين عن الزوجة والولد كما كنا فى تيطوان. لاحظت أن سلوك فانون لم يتغير، بل لقد كان من رأيه أن يظل أعضاء أسرة التحرير منقطعين عن أسرهم، متفرغين للعمل فى نفس المكان الذى يقيمون به، تمامًا كما كنا فى تيطوان. إلا أن فكرته هذه لم ترق لمعظمنا، ولما شاهد عبان رمضان أن الأغلبية ضد رأى فانون، سايرنا وترك كلاً منا يعيش فى سكن خاص مع أسرته.

ظل فانون فى تونس متمسكًا بأسلوب العمل الذى درج عليه: يحاول إنجاز أكثر ما يمكن من عمل فى أقل ما يمكن من الوقت. أدركت على ضوء ذلك كله أن عضويته فى مجلس الثورة لم تكن تهمه، لما تضفيه عليه من وجاهة أو تمنحه من سلطة، فهو لا يحب المظاهر ويكره التسلط ويعتبر التواضع أساس التعامل مع من يعملون معه: كانت علاقته مع رفاقه قائمة على الإقناع والاقتناع، فلم يكن يعمل شيئًا لا يقتنع به، ولم يكن يلزم غيره بعمل شىء لمجرد أنه هو الذى أصدر الأمر به: كان يفضل الحوار والجدل بالتى هى أحسن، كل ما كان يهمه فى عضوية المجلس الوطنى للثورة الجزائرية، هو أن الموقع القيادى يتيح له فرصة أكبر لتحقيق ما يؤمن به من مُثُل، ويعطى مسعاه مزيدًا من الفعالية لتغيير الأفكار والارتقاء بالنفسيات وتهذيب الممارسات.

صرخة المعذبين فى الأرض

لم يتجاوز حضور فانون داخل الثورة الجزائرية الأربع سنوات، لكن عطاءه الفكرى كان من العمق والوفرة، وتأثيره كان من السعة والانتشار ما جعله يبدو فى نظر كثيرين هو المنظر الوحيد للثورة الجزائرية أولاً وللثورة على مستوى العالم الثالث بعد ذلك.

فقد عرفنا استعداد فانون، وهو وشيك الخروج من المراهقة، للتفاعل مع قضايا الإنسان وأبعادها العالمية، عبر تطوعه للحرب فى صفوف «فرنسا الحرة». إلا أن مظاهر التمييز العنصرى جعلته يبحث عن مجال آخر لخدمة قضايا الإنسان. بعد مرور أقل من عامين على التحاقه بالجزائر، وجد ضالته فى الثورة الجزائرية الوليدة يؤوى جرحى جيش التحرير، ويعالج بعض من أصيب منهم بأمراض نفسية. كانت سن فانون آنذاك ثلاثين سنة، هو عام باندونغ، وقد مرت سنة على سقوط ديان بيان فو وانتصار الجنرال جياب الفيتنامى فى تلك المعركة الحاسمة ضد الجيش الفرنسى، يوم ٨ مارس ١٩٥٤، الذى هو الذكرى التاسعة لمجزرة ٨ مارس ١٩٤٥ التى ذهب ضحيتها خمسة وأربعون ألف قتيل من الجزائريين.

وما إن اندلعت المعركة المسلحة فى نوفمبر ١٩٥٤ حتى التحق عدد من الجزائريين الذين حاربوا فى فيتنام بجيش التحرير الجزائرى. فيمكن القول بأن فانون كان، من خلال ذلك كله، على صلة بمظاهر عالمية لصراعات كانت تبدو محلية. فإذا أخذنا فى الاعتبار حساسيته المرهفة وذكاءه الحاد أدركنا مدى سرعة استيعابه لمعطيات عالمية لم تكن قد اتضحت بعد لكثيرين من أمثاله. ولهذا لا نستغرب عندما نعرف أن فرانز فانون كان قد فكر آنذاك فى أن يؤلف كتابًا عنوانه: «الجزائر - جنوب أفريقيا» لأنه أدرك ما بين النظامين من أوجه شبه، من حيث الاستيطان والتمييز العنصرى. وفى الوقت الذى كان يعقد فيه فانون هذه المقارنة، كان عبان رمضان - أحد أبرز الوجوه الثورية الجزائرية - يحلم بواقعة يكون لها صدى ديان بيان فو، على أن يكون ميدانها شارع إيزلى (وهو شارع أوروبى ضخم يقع فى قلب عاصمة الجزائر)، كما كان يحلم بإقامة مناطق محررة فى الأرياف على غرار ما فعله الماريشال تيتو فى يوغسلافيا أثناء الحرب العالمية الثانية. لذلك يمكن القول بأن بذور تفكير «عالمثالثة» ظهرت بالجزائر خلال السنتين الأوليين للثورة المسلحة، وليس من المستبعد أن تكون بدايات التفكير فى حركة ثورية على مستوى العالم الثالث قد ظهرت عند فانون أول احتكاكه بالكفاح المسلح فى الجزائر، نظرًا لاستعداده منذ سن الثامنة عشرة للدفاع عن حرية الإنسان فى أى مكان من العالم: وكل ما هناك أن تجربته الجزائرية جعلت هذا الالتزام يخرج من نطاق المشروع الفردى إلى مشروع عالمى يسع العالم الثالث كله، وهو المشروع الذى تبلور عام ١٩٦١ فى كتاب (Les demnis de la tene)، الذى وضعه فى فراش مرضه ومات دون أن يشهد تأثيره عالميًا.

كان فانون حريصًا على أن يَتَوَلَّى جان بول سارتر كتابة المقدمة لكتاب يعرف أن لغته سوف تصدم، لأنه يعتبر مثل تلك اللغة ضرورية وأمرًا مستعجلاً، «بل لعل الأوان قد فات» حسبما سجلته المؤلفة التى تشرح المقصود بذلك: «إنه يقصد بأن الأوان قد فات سياسيًا، لكنه يومئ أيضًا إلى أنه يعرف بأنه سوف يموت عما قريب». وفعلاً فقد اختطفه الموت فور صدور الكتاب، ولما يتجاوز ستة وثلاثين عامًا.

أما فوات الأوان سياسيًا فلعله إشارة إلى أن ما لاحظه فى بلدان أفريقية استقلت، وما شاهده من صراعات داخلية بين قادة جبهة التحرير أقنعه بأن كتابه جاء متأخرًا وأنه لن ينجح فى تصحيح الانحراف الذى ذر قرنه منذ ١٩٥٧.



أحدث الكتاب ضجة كبرى: فهو يختلف عن كتاباته السابقة التى كان يتوجه بها إلى اليسار الفرنسى: فهو فى كتابه الأخير يتوجه إلى رفاقه فى الجزائر وفى أفريقيا وفى عموم العالم الثالث.



وفى ذلك تقول «أليس شركى» صاحبة الكتاب عن سيرة فانون الذاتية، ما يلى: «يتوجه فانون فى هذا الكتاب إلى المستعمرين «بفتح الميم» الذين يكافحون ضد الاستعمار، والذين عاش معهم منذ أن انضم لجبهة التحرير. كتبه لرفاقه الجزائريين والأفارقة. كان يريد تحذيرهم من أخطار تهدد كل حركة وطنية يَقْتصرُ مشروعها على تحرير التراب الوطنى دون أن يتناول الأوضاع الاجتماعية.. كان يريد أن ينقل لهم ما عاشه وما فهمه من خلال النشاط الثورى. إنه يتحدث انطلاقًا من التاريخ الراهن عن انغماسه فى هذا التاريخ الذى أكسبه تجربة كان لزامًا عليه أن يبلورها.. إن مجموع الكتاب تحليل دقيق لتصفية الاستعمار، وتساؤل عن مستقبل العالم الثالث وخاصة فى القارة الأفريقية، مع توجيه الانتباه إلى أمريكا اللاتينية وكوبا على الخصوص». لعل هذا ما جعل الكتاب يحظى بالاهتمام الواسع على اختلاف ردود الفعل التى أثارها: فهناك من مجَّده، وهناك من انتقده، وهناك من رفضه جملة وتفصيلاً، لكن لم يوجد هناك من لم يهتم به.

إن الصرخة التى وجهها فى خاتمة الكتاب والتى ترجمنا أهم فقرة منها فى مطلع هذا العرض، تعتبر إنذارا لكل المضطهدين، يرسم لهم طريق الخلاص حسب رؤيته التى هى مزيج من المثالية المسيحية والاندفاع العنيف من أجل قلب كل الأوضاع لفائدة الفئات المحرومة.

إن تلك الصرخة بالإضافة إلى تحليله للمازق الذى يصطدم به البلد المستعمَر، والذى لا يمكنه أن يخرج منه إلا بالعنف، فهمها كثيرون على أنها تمجيد للعنف المطلق. وهذا ما دفع بعض المعجبين به من تلامذته، مثل «أزولاى» إلى الابتعاد عنه، إذ قال هذا الأخير: «لم أعد أفهم مواقفه». فى حين أن فانون كان يشع حبًا وسخاء نفس، حسب كل الذين عرفوه، فكيف يمكن أن يكون داعية عنف مدمر. إن فرانز فانون يحلل الحالة الاستعمارية من داخل الكائن الذى استلبه الاستعمار. وهذا ما تحاول أن تقوله «أليس شركى» عندما تكتب لتوضيح ذلك: «إن تصفية الاستعمار بوصفها زمنًا لفوضى مطلقة مدعوة لأن تسفر عن ميلاد إنسان جديد. إن الكائن المستعمَر الذى أصبح «شيئا» وتحول أداةً وصار مجبورًا على أن يصبح حيوانًا فى بعض الأحيان وشرًا مطلقًا، صار بصدد استعادة إنسانيته من خلال ممارسته للنشاط التحررى».

وفعلاً فإن البغضاء التى يولدها الاستعمار لدى المضطهدين، لا تستطيع أن تشكل بمفردها برنامجًا لثورة أو مشروعًا مجتمعيًا لحركة تحرير. لأن المضطهدين الساخطين الحاقدين على المحتل إذا كانوا يشكلون قوة انقلابية، فإنهم لا يستطيعون وحدهم أن يتحولوا إلى حركة تحرر حقيقية. إذ أن هذه لا تتم إلا من خلال اللقاء بين الطلائع الثورية القادمة من المدينة والجماهير الريفية التى تشكل خامة عذراء قابلة للثورة لأنها لم تتلوث بالثقافة الاستعمارية.

مثل هذا اللقاء فى نظر فانون هو الذى يضمن تجنب المطبات فى تسيير أمور الدولة بعد الاستقلال: إذ أن التجربة «تدل على أن المهم فى بلد مختلف ليس هو أن يكون هناك ثلاثمائة شخص (يقصد ربما برلمان أى لجنة مركزية) يبحثون ويقررون، لكن المهم هو أن يفهم المجموع أسباب القرارات ويتخذوها عن وعى، ولو أدى الأمر إلى أن يستغرق ضعفى أو ثلاثة أضعاف الوقت الذى تستلزمه الحالة الأولى»، حسب تعبير فانون، ولم



يغب عنه أن مثل هذا الأسلوب يؤدى إلى مناقشات خلافية حادة وإلى البطء فى تحقيق التغييرات المطلوبة. إلا انه يرى ذلك ضروريًا لانه يمثل جزءًا لا يتجزأ من عملية التحرر، ويساعد على توسيع آفاق العقل وجعله أكثر قابلية لفهم الإنسان. فى نفس الوقت الذى يؤدى فيه إلى الخروج من التصور البدائى فى تقييم الأشياء والحكم عليها وتقسيمها إلى «خير» مطلق و«شر» خالص. مثل هذا الأسلوب يسمح فى التصور الفانوني بأن يشترك كل أحد جماعيًا فى اتخاذ القرار دون أن يكون ساذجًا أى سريع التأثر بما يقوله الآخرون.

انطلاقًا من هذا «التصور المثالى» الذى يأخذه عليه بعض منتقديه، يطالب بالفصل التام بين الشأن السياسى والمسئوليات الإدارية. ونفس هذا المنطق هو الذى يدفعه إلى أن يعارض فى إنشاء جيش محترف، ويجعله يطالب بهجرة المدينة إلى الريف: إذ أن الفكر الوطنى ينتهى إلى مأزق إن هو لم يكن موضوع شرح معمق ونقاش يُثْرِى بحيث يتحول إلى ضمير سياسى واجتماعى. فإذا كان بناء جسر مثلاً لايفضى إلى توسيع مُدارك الذين يعملون فيه وتعميق وعيهم، فلا كان الجسر. وليستمر الناس فى عبور النهر على القوارب أى فوق ظهر الدواب، كما كانوا يفعلون قبلاً.

بناء على ذلك يندد ببورجوازية البلدان الأفريقية التى تحاول محاكاة البورجوازية الغربية ليس فى مسارها العام الذى بنت به بلدانها، ولكن تقتصر على محاكاتها فى الاستهلاك والأنشطة الطفيلية، ومن ثم فهى لا تضيف شيئًا ولا تحقق إبداعًا فى مجالات الاقتصاد والصناعة والزراعة.

فلسفة العنف:

رد فعل ضد عنف

المجتمعات أمس واليوم

إن اللهجة التى اعتمدها فرانز فانون مضافة إلى مثاليته وحديثه عن العنف كعنصر تطهير وعامل تحرر، ألّبت عليه جهات وعناصر كان يفترض فيها أن تؤيده. فهناك أكثر من مفكر يسارى أخذ عليه هجومه على الغرب، وانتقد نظريته فى «ثورية الطبقة الفلاحية». مثلما فعل «جان لاكوتور» الذى اعتبر أن فانون يريد أن يقيم حضارة جديدة على العنف والعرق واحتقار تاريخ الشعوب الأوروبية. وكذلك «جان دانيال» الذى أشاد بإنسانية فانون لكن أخذ عليه سعيه لتطبيق تحليل نفسى للعنف على المجال السياسى، وإن كان يعترف بأن مثل هذا المسعى لا يخلو من صحة. كما تعرض فانون لنقد عنيف من طرف بعض الماركسيين الفيتناميين.

تدافع المؤلفة عن فانون مستعملة نوعين من الحجج: أولهما أن الذين انتقدوه لم يفهموا قصده، وثانيهما: أن منتقديه قرأوا فانون ونظروا إليه من خلال المقدمة التى كتبها جان بول سارتر والتى حرفت العنف الفانونى ونقلته من دائرة الشعب والمجتمع، إلى دائرة الفرد الوجودى. بالنسبة لعدم فهم المنتقدين لما قصده فانون، ترى بأن هذا الأخير لم يطالب بإعادة النظر فى مكاسب الحداثة التى تحققت فى إطار الثقافة الغربية. كما ترى أن فانون لم يتوجه بالخطاب إلى أوروبا فى هذا الكتاب، وإن كانت هذه غير غائبة، فهو لا يطالب بأوروبا مثالية، ولا يرى بأن الثورة فى الغرب تمر بالعالم الثالث كما كان يرى عدد من الأوروبيين الذين تبنوا قضايا العالم الثالث والمفاهيم التى انطلقت من بندونغ.



وعن ثورية الطبقة الفلاحية ترى «أليس» أن فانون استخلص نظريته من تجربته الجزائرية: فالحركات الوطنية بالمدن، فشلت بصيغها المختلفة وتعرضت للانقسامات: ومرجع ذلك إلى أن تلك الحركات تمثل البورجوازية الصغيرة فى المدن والطبقة العاملة الناشئة. والفرق بين هذه والطبقة الفلاحية فى الريف أن الأولى كان من الممكن أن تندمج فى المنظومة الكولونيالية بخلاف الثانية. أى الفلاحية فهى لا يمكن أن تندمج فى نظام قائم على إقصائها. وإذ يشيد فانون بالطبقة الفلاحية فهو يرى أنها يمكن أن تخدم الثورية كما يمكن لها أن تناصر الرجعية.

الواقع أن ملاحظة المؤلفة لا تخلو من وجاهة. لكن غاب عنها عامل مهم يفسر الخطأ الذى وقع فيه فانون عند تقييمه للطبقة الفلاحية، يتمثل فى أن فانون كان يفتقد إلى أداة تاريخية ضرورية لفهم مسار الحركة الوطنية فى مجموعها. فسكان الأرياف ـ مثل سكان المدن ـ كانوا موضوع عمل دعائى هو مزيج، فى آن واحد، من: العمل التنويرى والتوعية السياسية أولاً، وإثارة الحنين إلى الماضى والتاريخ العربى ـ الإسلامى وأمجاده ثانيًا، مع استعمال لغة لا تخلو من التهريج والغوغائية والديماغوجية ثالثًا.

أما بالنسبة للمقدمة التى كتبها سارتر والتى أدت إلى تحريف العنف الذى يقصده فانون، فالمؤلفة تستشهد على ذلك بالفقرة التالية من فقرات المقدمة:

«إن قتل أوروبى يعنى إصابة هدفين بحجر واحد: لأنه يؤدى إلى التخلص فى نفس الوقت من ظالم ومظلوم، فلا يبقى إلا رجل ميت ورجل حر» ثم تعقب على ذلك قائلة: «إن هذه الصيغة تقلص المواقف الفانونية لأنها تظهرها كما لو كانت تبرز القتل الفعلى الفردى»، وليس العنف الذى يقصده فانون، لأن ما يقصده فانون هو عنف المجتمعات المسلط على الأفراد الذى يمنع الاعتراف بوجودهم، ويمحو مستقبلهم. فالعنف الثورى والحالة هذه تعبير عن الرغبة فى التغيير ودعوة إلى التحرر على مستوى الأمة، فهو يتحدث عن عنف المجتمع بصفة عامة، أى كل مجتمع يعانى من العنف، وليس المجتمع الواقع تحت نير الاستعمار فقط. فهو يرى أن أى مجتمع، ولو كان مستقلاً، عندما لا يعترف لأفراده، وخاصة فئاته المحرومة، بحرية التعبير وحرية الرأى، يعتبر مجتمع عنف: هذا العنف الذى يهمشهم يولد لديهم العنف الذى يمكنهم من امتلاك القدرة على التعبير الحر.



صودر الكتاب فى فرنسا بمجرد صدوره مما جعل الناشر الفرنسى يكتب محتجًا: «إن هذا الكتاب تحليل تاريخى وسوسيولوجى على المستوى العالمى، فأى شىء فيه يعتبر مسًا بأمن البلاد».

ومع ذلك فقد انتشر خبره وذاع صيته ولقى اهتمامًا كبيرًا فى أفريقيا وفى أمريكا الشمالية وأمريكا الجنوبية، وفى اليابان وفى إيران. فقد كتب Takeshi Ebisake عام ١٩٨٢ ما يلى: «كان فانون له وزنٌ كبير فى اليابان بفعل الجو الاجتماعى والمناخ السياسى خلال سنوات الستين. فقد عرف اليابان نفس التيارات التى عرفتها الحركات الطلابية فى الولايات المتحدة وفى ألمانيا الغربية، وخلال ربيع براغ، والكفاح الصعب الذى قاده شى غيفارا فى أمريكا اللاتينية. لقد كانت تلك الفترة حساسة ومتجاوبة مع المقولة الفانونية».

إلا أن الازدهار الاقتصادى الكبير الذى عرفه اليابان والذى احتوى أحزاب اليسار، أدى إلى التعتيم على فانون الذى اختفى اسمه بعد الستينيات، أى عندما أصبح اليابان يستغل البلدان الآسيوية حسب نمط الاستعمار الحديث.

على أن اليابان بعد ذلك عرف تطورًا جعل مجتمعه يعانى هو الآخر من الشرخ الاجتماعى بفعل قانون المنافسة الذى لا يرحم. وفجأة انبعث من جديد اسم فانون فى المجتمع اليابانى. ذلك أن تحكم التكنولوجيا العليا فى الاقتصاد حَوّل الإنسان هناك إلى أداة صماء فى آلة ضخمة، وأصبح حتى الأطفال والمراهقون يخضعون لوتيرة شرسة فى التعليم وفى التربصات، حتى يواجهوا حمى المنافسة التى لا تعترف إلا بالإنتاجية والفعالية التى تقدر بنوعية وكمية السلع دون أى اعتبار للإنسان بوصفه مشاعر وأحاسيس. وقد أسفر هذا الوضع عن عنف خارق، بلغت معه نسبة انتحار الشباب وقتل الآباء مستوى يبعث على الحيرة.

فى ظل مثل هذا الوضع تكتسى قراءة فانون من جديد أهمية خاصة، بل تقدم إنارة كبيرة لمن يرفض أن يكون جسم الإنسان وعقله خاضعًا لقوانين البيروقراطية ومنطق الإنتاجية ونداء الموت.

ونفس القراءة الجديدة لفانون تسمح بإنارة الطريق لعدد من المجتمعات الأوروبية وغير الأوروبية. صحيح أن الاستعمار التقليدى لم يعد له وجود. لكن ظاهرة التهميش التى حللها فانون فى الإطار الاستعمارى، تواجهنا اليوم عندما نشاهد وجود عالمين داخل المجتمع الواحد، يهمش أحدهما الآخر. إن مجتمعاتنا اليوم تجمع على إدانة العنف، لكنها تفرزه باستمرار وعلى عدة مستويات.



أما فى إيران فقد انتشر فكر فانون بواسطة مؤرخ وعالم اجتماع إيرانى، هو على شرياتى الذى تتلمذ على جاك بيرك فى نهاية الخمسينيات، ودخل السجن عدة مرات فى عهد الشاه. وقد سعى هذا العالم الاجتماعى والمؤرخ إلى أن يجعل من الإسلام الشيعى قوة رقى وتقدم، بما يغرس قيم الإسلام فى قلب الحداثة. وقد وجد فى كتابات فانون ـ على الرغم من أنها ملحة ـ مادة للحوار، كانت موضوع مراسلة بين الرجلين. فقد كتب له فانون ردًا على مراسلة سبقت من على شرياتى، يقول: «.. حتى وإن كنت لا أشاطرك مشاعرك فيما يتصل بالإسلام، فإنى أقدر فكرتك القائلة بأن الإسلام يملك أكثر من أية قوة اجتماعية أو أيديولوجية أخرى، القدرة على مناهضة الاستعمار ويَتَمتّعُ بطبيعة مناهضة للغرب. إنى أتمنى أن يتمكن مثقفوكم من أنْ ينفخوا الحياة فى الجسم الجامد والمخدر للشرق الإسلامى حتى يستعيد شعبه الوعى ويؤسس إنسانًا آخر لحضارة أخرى. إنى لأخشى أن يؤدى العمل على إحياء روح التعصب الدينى إلى أن تبتعد الأمة فى صيرورتها عن مستقبلها، وتنكفئ على ماضيها». أليست تلك إشارة إلى عوامل تفضى إلى نفق العنف الأعمى.

وإذا كان على شرياتى قد توفى عام ١٩٧٧، فإنه عرّف إيران بأفكار فانون وخاصة فيما يتصل بحجاب المرأة فى الجزائر. حتى إذا قامت الثورة الإسلامية عام ١٩٧٩، ظهرت ملصقات ضخمة تقول: «الشادور فى عين الاستعمار»، وتحت ذلك اسم فرانز فانون بمثابة توقيع. وعندما سئل رجل الشارع فى إيران: من يكون فرانز فانون؟ كان الجواب: لست أدرى، لكنه أحد رجالنا ولا شك!

تغييب متعمد

إذا كان ذلك هو مدى تأثير فانون على مستوى العالم، فما هو تفسير النسيان الذى لفه فى جزائر اليوم؟ الجزائر التى تبنته وارتضته أحد الناطقين باسمها حيًا، وواراه ترابها ميتًا.

مثل هذا النسيان لا يمكن أن يكون إلا نتيجة تغييب متعمد. لاحظت ذلك Jrene Gendzier، وهى أمريكية فى كتابها عن فانون الذى صدر عام ١٩٧٣ بعنوان (Franty Fanon, a critical Srudy) عندما كانت تجمع مواد كتابها هذا، زارت الجزائر فى صيف ١٩٧١، والتقت مع مسئولين وكوادر جزائريين، خرجت من لقاءاتها تلك بانطباع واضح يتلخص فى أن الذين التقت معهم يتفقون على تجنب الحديث عن آراء فانون وأفكاره السياسية، فى نفس الوقت الذى ينكرون فيه أى تأثير لفانون على قادة الثورة الجزائرية، وخاصة ابن بلة وبومدين، ما هو تفسير هذا التغييب المتعمد لفانون فى الجزائر؟

يفسر ذلك أمران يكمل أحدهما الآخر: الأول: أن فانون فى كتابه الأخير «المعذبون فى الأرض» ندد بالبورجوازية الوطنية فى البلدان الأفريقية، وفضح سلوكها وطبيعة المطالب التى ترفعها: فالمطالبة بتأميم الاقتصاد والتجارة الخارجية، لا يعنى ـ فى نظره ـ أنها تريد تسخير الاقتصاد لخدمة مجموع الشعب، ولكنه يعنى أن تحل محل الأوروبى الذى كان يحكم. وبما أنها لا تملك إمكانيات الأوروبى الفكرية، فإنها تقصر نشاطها الاقتصادى على استغلال موقعها لاشتراط عمولات على الصفقات المبرمة مع الأجنبى. وهى لا تفكر فى استثمار «أرباحها» داخل الوطن، بل تهربها إلى بنوك الخارج. ثم إن فانون تكهن بمصير الأحزاب التى قادت معركة التحرير فى أفريقيا، (بما فيها الجزائر) عندما صور تداخلها وتشابك مصالحها مع الأجهزة الحكومية والإدارية، وعندما حذّر من أن تقتصر مهمتها على تعبئة المناضلين فى المناسبات الرسمية والأعياد الوطنية والمهرجانات الفلكلورية.

ثانيًا: كان العام الذى زارت فيه «إيرين جنزبيبى» الجزائر للاتصال بمن عرفوا فانون، هو عام تأميم المحروقات والشروع فى وضع أسس النهضة الاقتصادية التى كان الرئيس بومدين أعلن عن محاورها الكبرى فى حديث مطول إلى «المجاهد»، عام ١٩٦٨.

وذلك يعنى أن الرئيس بومدين، الذى عرف فانون، لم يكن فى حاجة إلى مرجعية فكرية، فانونية أو غيرها، تمنحه نوعًا من الشرعية، فقد أصبح يعتبر نفسه وبرنامجه هو المرجعية.

ذلك هو الإطار الذى برز فيه الاتجاه إلى التقليل من أهمية الفكر الفانونى على أساس أن الثورة الجزائرية هى التى خدمت فانون، «فهو المدين لها، وليست هى المدينة له».

ويمكن أن نضيف لذلك بأن فانون كان يمثل آنذاك، قيمة انقرضت وشعلة فكرية ثورية انطفأت. لقد هاجم من يمثلون الغرب وقيمه كما هاجم ممثلى الأنظمة المستقلة، حيًا، فانتقموا منه بعد أن أفقده الموت إمكانية الدفاع. ■

كتاب الزاوية



ثياب الأفغان وملابسهم

جميعهم سواء كانوا من سكان الأخبية أو البوادى يلبسون من الألبسة خشنها فأرباب البادية يصنعون ثيابهم من نوع اللباد على هيئة غريبة بكمين طويلين يشبهان خرطوم الفيل يصلان إلى الأرض ويسمى عندهم «كوسى» ولهم أيضاً ثوب آخر من هذا النوع يصل إلى الفخذين بكمين قصيرين يسمى «صدرية» وهؤلاء قلما يبدلون ثيابهم قبل البلاء. وسكان المدن يصنعون ثيابهم من الجوخ الغليظ المعروف عندهم ببركر فيتخذون منه جبباً ضيقة الأكمام قصيرتها ويتقبّون بأقبية من القماش الملوَّن المعروف بالشيت. وغالب الأفغانيين يعتمون بعمامة زرقاء وأما السردارون والعظماء فغالباً يعتمون بشيلان الكشمير ألواناً. وسكان البلاد الحارّة يحتذون النعال ويتخذون صدريات ويلبسون أقمصة تنتهى إلى نصف الساق واسعة الأكمام. وغالبهم يتحزم بأحزمة عريضة تشغل ما تحت الصدر إلى الفخذين. وغالب القبائل لا يحلقون رؤوسهم وبعضهم يتخذون ضفيرة طويلة من شعورهم.

أما نساؤهم فإنهنّ يلبسن ألبسة طويلة ويتمنطقن بمناطق تقرب من الثدى حتى يرى بارزاً. وغالب نساء القبائل الساكنة فى الجبال يقطعنَ شعور أذنابِ الخيول ويصلنها بشعورهنَّ. ونساء قبيلة الغلجائى يحبكن شَعور نواصيهنَّ ويشكلنها بشكل قرص ثم يسدلنه على الجبهة فيمتدّ إلى الصدغين فى العرض ويستر الأنف طولاً كأنما هو بُرقع مستدير ويعلقن فى آذانهنَّ حلقات غليظة ثقيلة من الفضة والحديد والنحاس والبللور.

وأمراء الأفغان لا يجلسون على المنصات والكراسى وليس لهم من الأبهة والعظمة ما لغيرهم من الأمراء.





بعد اعتداءات نيويورك وواشنطن

مفهوم جديد "للأمن الإنساني"

عادل أبو زهرة

يبدو أن حادثة تدمير مركز التجارة العالمي وجانب من وزارة الدفاع الأمريكية باستخدام طائرات مدنية ومن خلال عملية انتحارية يضع دول العالم جميعًا أمام معضلة شديدة التعقيد فيما يتعلق بمفهوم الأمن على المستوى الدولي وعلى المستوى المحلي، كما يجعلنا ننظر إلى مبلغ المائة مليار دولار الذي رصدته الحكومة الأمريكية لمحاربة الإرهاب أو للانتقام من هؤلاء الذين جرحوا كبرياء الدولة الأعظم نظرة مشوبة بالدهشة، لذا سعيت من جانبي للبحث فيما لدي وبين يدي من أبحاث عن مفهوم جديد للأمن الإنساني.

لقد شاركت بأنصبة متفاوتة من الجهد في الإعداد لبعض المؤتمرات الدولية المهمة التي نظمتها الأمم المتحدة خلال السنوات العشر الماضية مثل: مؤتمر حقوق الطفل، ومؤتمر حقوق الإنسان، ومؤتمر البيئة والتنمية، ومؤتمر السكان والتنمية، ومؤتمر التنمية الاجتماعية، ومؤتمر المرأة والتنمية، ومؤتمر المستوطنات البشرية، ولقد أتاح لي ذلك الاطلاع على أوراق بحثية ووثائق وتقارير وتوصيات صدرت عن هيئات مختلفة وكان على رأس هذه الهيئات منظمات الأمم المتحدة مثل اليونسكو واليونيسيف وبرنامج الأمم المتحدة للبيئة وبرنامج الأمم المتحدة الإنمائي ومنظمة الصحة العالمية، ومنظمة الأغذية والزراعة وغيرها من الهيئات ذات الطبيعة العالمية وكان من أكثر ما أثار اهتمامي في هذه الوثائق وتلك التقارير هو ترابط وتعقد الهم الإنساني وتكامل الرؤية لكل ما يواجه الإنسانية من مشكلات. كما لفت انتباهي تبلور مفهوم جديد للأمن الإنساني.



ظل مفهوم الأمن لفترة طويلة للغاية تفسيرًا ضيقًا بأنه أمن حدود الوطن من العدوان الخارجي، أو بأنه حماية المصالح القومية في السياسة الخارجية، أو بأنه الأمن العالمي من حدوث حرب نووية وفي إطار هذا التفسير الضيق ضاعت الشواغل المشروعة للناس العاديين الذين كانوا يلتمسون الأمن في حياتهم اليومية، وبالنسبة لكثيرين منهم كان الأمن يرمز إلى الحماية من خطر المرض والجوع والبطالة والجريمة والصراع الاجتماعي والقمع السياسي والمخاطر البيئية، وبانحسار الحرب الباردة يستطيع المرء أن يرى الآن أن هناك صراعات كثيرة موجودة داخل الأمم وليس بينها، وبالنسبة لمعظم الناس ينشأ الشعور بانعدام الأمن نتيجة للمشكلات المتعلقة بالحياة اليومية أكثر مما ينشأ نتيجة للخوف من حدوث مشكلات عالمية.

هل سيكون لديهم ولدى أسرهم ما يكفي لإطعامهم؟ هل سيفقدون أعمالهم؟ هل ستكون شوارعهم وأحياؤهم آمنة من الجريمة؟ هل سيعذبون على يد حكومة قمعية؟ هل سيكونون ضحية للعنف والاضطهاد بسبب جنسهم أو ديانتهم أو لونهم أو أصلهم العرقي؟

وفي التحليل الأخير الأمن البشري هو طفل لم يمت، ومرض لم ينتشر، ووظيفة لم تلغ، وتوتر عرقي لم ينفجر في شكل عنف، ومنشق لم يتم إسكاته، الأمن البشري ليس انشغالاً بالأسلحة بل هو انشغال بحياة الإنسان وكرامته. إن الأمن البشري قضية ذات طبيعة عالمية وهو مهم للناس في كل مكان الأغنياء والفقراء على السواء، حيث هناك تهديدات مشتركة بالنسبة لجميع الناس مثل البطالة والمخدرات والجريمة والتلوث وانتهاكات حقوق الإنسان، قد تختلف حدة



هذه المشكلات من بلد إلى بلد، لكن جميع هذه التهديدات ظاهرة متنامية.

الأمن البشري محوره الناس، حيث يتعلق بالكيفية التي يحيا بها الناس في مجتمع من المجتمعات وبمدى حريتهم في ممارستهم خبراتهم الكثيرة وبمدى وصولهم إلى الفرص الاجتماعية والفرص الاقتصادية، وبما إذا كانوا يعيشون في صراع أم في سلام، ومن الممكن القول بإن الأمن البشري له جانبان رئيسيان فهو يعني أولاً السلامة من التهديدات المزمنة مثل الجوع والمرض والاضطهاد، وهو يعني ثانيًا الحماية من الاختلالات المفاجئة والمؤلمة في أنماط الحياة اليومية سواء في البيوت أو في الأعمال أو في المجتمعات المحلية، وفقدان الأمن البشري يمكن أن يكون عملية بطيئة أو يكون حالة فجائية، ويمكن أن يكون من صنع الإنسان نتيجة لاختيارات سياسية خاطئة أو يمكن أن ينبع من قوى الطبيعة أو قد يكون مزيجا من هذين معًا، مثلما يحدث عادة عندما يؤدي تدني البيئة إلى كارثة طبيعية تعقبها مأساة بشرية، لكن من المهم عند تعريف الأمن عدم معادلة الأمن البشري بالتنمية البشرية، فالتنمية البشرية مفهوم أوسع نطاقًا حيث تعني عملية توسيع نطاق خيارات الناس، أما الأمن البشري فمعناه أن يكون باستطاعة الناس أن يمارسوا اختياراتهم في مأمن وبحرية، وأن يكون بوسعهم أن يثقوا نسبيًا في أن الفرص المتاحة لهم اليوم لن تضيع تمامًا في الغد، وهناك صلة بين الأمن البشري والتنمية البشرية، فالتقدم في مجال من هذين المجالين يعزز إحراز تقدم في المجال الآخر ولكن الفشل في أي مجال منهما يزيد أيضًا من حدة خطر الفشل في المجال الآخر.

وفشل التنمية البشرية أو محدوديتها يؤديان إلى تراكمات من الحرمان البشري تأخذ شكل الفقر أو الجوع أو المرض أو تفاوتات مستمرة في الوصول إلى القوة وإلى الفرص الاقتصادية، وهذا بدوره يمكن أن يفضي إلى العنف، وعندما يتصور الناس أن أمنهم المباشر مهدد فإنهم يصبحون عادة أقل تسامحًا مثلما يتضح من المشاعر المناهضة للأجانب والعنف الموجه ضدهم في أوروبا، أو عندما يرى الناس تآكل مصدر رزقهم أو في حالة التعرض للقمع وللظلم التي قد تؤدي إلى الاحتجاج العنيف على الاستبداد. فالأمن البشري كما هو واضح ليس مفهومًا دفاعيًا كما هو الحال بالنسبة لأمن الحدود أو الأمن العسكري، بل إنه مفهوم تكاملي يعترف بشمولية مطالب الحياة.

لقد كان هناك دائمًا مكونان رئيسيان للأمن البشري: التحرر من الخوف والتحرر من الحاجة، ولكن المفهوم يميل الآن ناحية المكون الأول، لذا فقد آن الأوان للتحول من المفهوم الضيق للأمن القومي إلى المفهوم الأعم والأشمل للأمن البشري، فالناس في الأمم الغنية يلتمسون الأمن من خطر الجريمة ومن حرب المخدرات ومن انتشار مرض مثل نقص المناعة «الإيدز» ومن تدني التربة وارتفاع مستويات التلوث ومن الخوف من فقدان أعمالهم، ومن دواعي قلق كثيرة تظهر عندما يتفكك النسيج الاجتماعي، أما في الأمم الفقيرة فيحتاج الناس إلى التحرر من التهديد المستمر الذي يمثله الجوع والمرض والفقر وعدم وجود المأوى تضاف إليها نفس التهديدات التي تتعرض لها البلدان الصناعية.

إن الشعور بالأمن الاقتصادي يتطلب وجود دخل أساسي مضمون من عمل منتج ومجز أو من شبكة للضمان الاجتماعي تؤسسها الدولة، لكن طبقًا لهذا المفهوم لا يوجد غير ربع سكان العالم هم الآمنون اقتصاديًا، ففي بداية ١٩٩٣

كان أكثر من ٣٥ مليون شخص فى البلدان الصناعية الغنية يبحثون عن عمل وكانت نسبة عالية منهم من النساء، والشباب هم الذين يكونون على الأرجح عاطلين عن العمل، ففى الولايات المتحدة فى عام ١٩٩٢ بلغ معدل بطالة الشبان ١٥٪ وفى المملكة المتحدة ١٤٪ وفى إيطاليا ٢٣٪ وفى إسبانيا ٣٤٪ وكثيرًا ما يتفاوت معدل البطالة أيضًا حسب الأصل العرقى، ففى كندا يبلغ معدل البطالة بين السكان الأصليين حوالى ٢٠٪ وهو ضعف النسبة بين الكنديين الآخرين، وفى الولايات المتحدة يبلغ معدل البطالة بالنسبة للسود ضعف المعدل بالنسبة للبيض وحتى أولئك الذين لديهم عمل قد يشعرون بعدم الأمان إذا كان عملهم مؤقتًا فحسب، ففى عام ١٩٩١ فى فنلندا كان ١٣٪ من المستخدمين عمالاً مؤقتين، وكانوا ١٥٪ فى اليونان و١٧٪ فى البرتغال و٢٠٪ فى استراليا و٣٢٪ فى إسبانيا.

والمشاكل أكبر وأكثر حدة بالطبع فى البلدان النامية حيث معدل البطالة العلنية المسجلة يتجاوز ١٠٪ وحيث معدل البطالة الإجمالى ربما يكون أكثر من ذلك بكثير، أما بالنسبة للشباب فى أفريقيا فى الثمانينيات فكان معدل البطالة المعلنة أعلى من ٢٠٪ وهو أحد العوامل الرئيسية وراء التطرف الدينى فى بلدان مثل الجزائر، أو وراء التوترات العرقية فى بلدان مثل كينيا.

كما تتزايد أعداد الفقراء أيضًا فى الدول الغنية والدول الفقيرة ففى كل من الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبى يعيش حوالى ١٥٪ من الناس تحت خط الفقر ويتفاوت الفقر أيضًا حسب الأصل العرقى، ففى ألمانيا بينما قدر متوسط نسبة الفقر على الصعيد الوطنى بما يبلغ ١١٪ تبلغ نسبة الفقر بين المقيمين فى البلد المولودين فى الخارج ٢٤٪، ولكن أشد المشاكل حدة موجودة فى البلدان النامية حيث يعيش أكثر من ثلث الناس تحت خط الفقر، بينما يعيش أكثر من بليون على دخل يومى يقل عن دولار واحد.

ومن أشد آثار انعدام الأمن الاقتصادى فى مدينة مثل نيويورك الذين لا بيوت لهم، فزهاء ربع مليون شخص من سكان المدينة وأكثر من ٨٪ من الأطفال السود عاشوا فى مأوٍ مؤقتة على مدى السنوات الخمس الماضية، ولندن لديها حوالى ٤٠٠ ألف شخص مسجلين على أنهم لابيوت لهم، وفرنسا لديها أكثر من نصف مليون شخص، ١٠ آلاف منهم فى باريس، والوضع أسوأ بكثير فى البلدان النامية، ففى كلكتا وداكا ومكسيكو يشكل أكثر من ٢٥٪ من السكان ما يسمى أحيانًا بالسكان الطوَّافين.

أما الأمن الغذائى فيعنى لدى جميع الناس فى جميع الأوقات إمكانية الحصول ماديًا واقتصاديًا على الغذاء الأساسى، وتوافر الأغذية عمومًا فى العالم ليس مشكلة فحتى فى البلدان النامية زاد نصيب الفرد من إنتاج الأغذية بنسبة ١٨٪ فى المتوسط خلال عقد الثمانينيات، ويوجد ما يكفى من الأغذية لتزويد كل شخص فى العالم بحوالى ٢٥٠٠ سعر حرارى يوميًا وهو قدر يتجاوز الحد الأدنى الضرورى بمقدار ٢٠٠ سعر حرارى، لكن المشكلة تكمن فى سوء توزيع الأغذية وفى نقص القدرة الشرائية، فهناك حوالى ٨٠٠ مليون نسمة فى العالم يعانون من الجوع، وفى أفريقيا جنوب الصحراء يعانى حوالى ٢٤٠ مليون شخص من سوء التغذية، وفى جنوب آسيا يولد ٣٠٪ من الأطفال وهم ناقصون فى الوزن وهذه نسبة عالية جدًا ودليل محزن على عدم كفاية إمكانية الحصول على الغذاء لاسيما بالنسبة للمرأة التى كثيرًا ما تكون آخر فرد يأكل فى الأسرة.

أما عن الحديث عن الأمن الصحى، فلابد أن نشير إلى أن الأسباب الرئيسية للوفاة فى البلدان النامية هى الأمراض المعدية

> الأمن البشرى هو طفل لم يمت، ومرض لم ينتشر، ووظيفة لم تلغ، وتوتر عرقى لم ينفجر فى شكل عنف، ومنشق لم يتم إسكاته، الأمن البشرى ليس انشغالا بالأسلحة بل هو انشغال بحياة الإنسان وكرامته

والطفيلية التى تقتل حوالى ١٧ مليون شخص سنويًا من بينهم ٦,٥ مليون يموتون نتيجة لالتهابات الجهاز التنفسى الحادة، ٤,٥ مليون يموتون نتيجة لأمراض الإسهال، ٣,٥ مليون يموتون نتيجة للسل، ومعظم هذه الوفيات مرتبطة بسوء التغذية وبالعيش فى بيئات غير سليمة لاسيما شرب مياه ملوثة تتسبب فى حدوث حوالى بليون حالة إسهال كل عام.



أما أهم عناصر الأمن البشرى فهو ما نسميه بالأمن الشخصى، ففى الأمم الفقيرة والأمم الغنية على حد سواء تتعرض حياة الإنسان بدرجة متزايدة لتهديدات وتأخذ هذه التهديدات أشكالاً عديدة مثل:

* تهديدات من الدولة (التعذيب البدنى والملاحقة نتيجة اعتناق آراء مخالفة للرأى السائد).
* تهديدات من جماعات أخرى من المواطنين (التوتر العرقى).
* تهديدات من أفراد أو عصابات ضد أفراد آخرين أو ضد مجموعات أخرى (الجريمة والعنف فى الشوارع).
* تهديدات موجهة ضد المرأة (الاغتصاب والعنف المنزلى).
* تهديدات موجهة إلى الأطفال (إساءة معاملة الأطفال).
* تهديدات موجهة إلى النفس (الانتحار وإدمان المخدرات).

فى كثير من المجتمعات أصبحت أرواح البشر أكثر تعرضًا للخطر مما كانت عليه فى أى وقت مضى، ويتمثل أحد أهم مصادر القلق فى الجريمة، لاسيما الجريمة التى تتسم بالعنف، ففى عام ١٩٩٢ تم إبلاغ الشرطة فى الولايات المتحدة عن ١٨ مليون جريمة، وهذه الجرائم تسفر عن خسائر اقتصادية كبيرة قدرت قيمتها بمبلغ ٤٢٥ بليون دولار سنويًا، وقد ارتفع عدد الجرائم المبلغ عنها فى ألمانيا فى العام نفسه بنسبة ١٠٪، وفى النصف الثانى من الثمانينيات تضاعف معدل جرائم القتل فى إيطاليا والبرتغال، وفى ألمانيا أصبح ثلاثة أمثال ما كان عليه.

وكثيرًا ما ترتبط الزيادة فى الجريمة بالاتجار فى المخدرات، ففى كندا يعانى سنويًا ٢٢٥ شخصًا من بين ١٠٠ ألف شخص من جرائم مرتبطة بالمخدرات، وفى أستراليا يعانى ٤٠٠ شخص من تلك الجرائم.

وفى النصف الثانى من الثمانينيات تضاعفت تقريبًا الجرائم المرتبطة بالمخدرات فى الدانمارك والنرويج وزادت أكثر من ٣٠ مرة فى اليابان.

والجريمة والعنف من حقائق الحياة أيضًا فى البلدان النامية، إذ يقتل أربعة أطفال كل يوم فى البرازيل، حيث زادت جرائم قتل القصر بنسبة ٤٠٪ فى العام الماضى، وفى كينيا أبلغ عن ٣٣٠٠ جريمة سرقة سيارات فى عام ١٩٩٣، وذلك بزيادة قدرها ٢٠٠٪ بالقياس إلى عام ١٩٩١، وحتى فى الصين نجد أن الجريمة المتسمة بالعنف والاغتصاب آخذة فى التزايد.

وتمثل حوادث الصناعة وحوادث المرور مخاطر شديدة أيضًا، ففى البلدان الصناعية تعتبر حوادث المرور السبب الرئيسى لوفاة من تتراوح أعمارهم بين ١٥ و٣٠ عامًا، مع وجود بعض أعلى معدلات الإصابة فى بلجيكا وكندا والنمسا والولايات المتحدة، أما فى البلدان النامية فإن حوادث المرور هى السبب فى ٥٠٪ على الأقل من مجموع الوفيات الناجمة عن الحوادث، وقد كان معدل الوفيات على الطرق السريعة فى جنوب أفريقيا يبلغ ١٠٠ ألف حالة فى عام ١٩٩٣، وهو ثلاثة أمثال عدد الوفيات الناجمة عن العنف السياسى هناك.



وقد زاد أيضًا العنف فى مكان العمل، ففى عام ١٩٩٢ تعرض أكثر من مليونى عامل فى الولايات المتحدة لاعتداء جسمانى فى أماكن عملهم، بينما تعرض حوالى ٦,٥ مليون آخرين للتهديد بالعنف، وتعرض ١٦ مليونًا للمضايقة بشكل ما، وقد بلغت قيمة تكلفة كل ذلك من حيث العمل الضائع والمصروفات القانونية أكثر من ٤ ملايين دولار، وكان حوالى سدس الوفيات التى حدثت أثناء العمل نتيجة للقتل، ومن أسوأ التهديدات الشخصية تلك التهديدات التى تتعرض لها المرأة، فالمرأة ليست آمنة ولا تعامل معاملة مساوية للرجل فى أى مجتمع من المجتمعات، فانعدام أمن المرأة الشخصى يتبعها من المهد إلى اللحد، فهى فى الأسرة آخر من يأكل، وهى فى المدرسة آخر من يتعلم، وهى فى العمل آخر من يعين وأول من يفصل، وهى تتعرض لإساءة المعاملة بسبب جنسها من طفولتها وحتى بلوغها مرحلة النضج، صحيح أن المرأة تحصل الآن على تعليم أفضل وتدخل سوق العمل، وكثيرًا ما تكون الطرف الرئيسى فى الأسرة الذى يكسب دخلاً، وملايين من النساء أصبحن الآن يعلن أسرهن، بحيث يمثلن الثلث فى العالم ككل، وما يصل إلى النصف فى بعض البلدان الأفريقية، حيث تنتج المرأة حوالى ٩٠٪ من الأغذية ولكن مازالت هناك مؤشرات كثيرة مذهلة لانعدام أمن المرأة وللعنف البدنى الذى يمارس ضدها، فقد قدر مؤخرًا أن ثلث الزوجات فى البلدان النامية يتعرضن للضرب، وذكر أن امرأة من بين كل ٢٠٠٠ امرأة فى العالم اغتصبت، وفى الولايات المتحدة أبلغ عن أكثر من ١٥٠ ألف حالة اغتصاب فى عام ١٩٩٣ وحده، والتحرش الجنسى فى العمل شائع، وفى الهند طبقًا للجمعيات النسائية فإن هناك حوالى ٩ آلاف حالة وفاة تحدث سنويًا بسبب المهر، وتقدر الحكومة أن الرقم كان ٥٠٠٠ حالة فى عام ١٩٩٢.

ويتعرض الأطفال لإساءة المعاملة بأشكال كثيرة، ففى الولايات المتحدة ذكر مؤخرًا أن حوالى ثلاثة ملايين طفل يتعرضون لإساءة المعاملة والإهمال، وفى عام ١٩٩٢ لقى حوالى ٧٠٠٠ طفل فى الولايات المتحدة (بمعدل ٢٠ يوميًا) حتفهم نتيجة لإصابتهم بطلقات نارية.

وفى البلدان النامية يجبر الفقر أطفالاً كثيرين على تولى أعمال شاقة فى سن صغيرة للغاية، وكثيرًا ما يكون ذلك على حساب صحتهم، وفى البرازيل يقضى أكثر من ٢٠٠ ألف طفل حياتهم فى الشوارع، وحتى التقديرات المتحفظة تقدر العدد الإجمالى للمومسات من الأطفال فى تايلاند وسريلانكا والفلبين بما يبلغ ٥٠٠ ألف مومس.

غاية التنمية واستدامتها

يولد الناس جميعًا ولديهم قدرات وإمكانيات كامنة، وما الغرض من عملية التنمية إلا تهيئة بيئة يستطيع الناس فيها أن يوسعوا من نطاق قدراتهم، ويمكن فيها زيادة حجم الفرص للأجيال الحاضرة والأجيال المقبلة على حد سواء.

إن نموذج التنمية المستدامة يقدر الحياة البشرية فى حد ذاتها، فهو لا يقدر الحياة لمجرد أن الناس يمكنهم إنتاج سلع مادية مهما كان ذلك أمرًا مهمًا، ولا يقدر حياة شخص ما أكثر من تقديره لحياة شخص آخر، فلا ينبغى أن يكون مصير طفل حديث الولادة أن يحيا حياة قصيرة أو بائسة لمجرد أنه

مفهوم جديد للأمن الإنساني

ولد في الطبقة الخطأ أو البلد الخطأ، أو قدر له أن ينتمي إلى الجنس الخطأ. فالتنمية يجب أن تمكن جميع الأفراد من توسيع نطاق قدراتهم إلى أقصى درجة، وتوظيف تلك القدرات أفضل توظيف ممكن في جميع الميادين الاقتصادية والاجتماعية والسياسية.

والحفاظ على البيئة هو أقوى حجة كي تكون التنمية مستدامة أو قابلة للاستمرار وحماية البيئة هي التي تضمن فرصًا للأجيال المقبلة تماثل تلك التي نعمت بها الأجيال السابقة، وهذا الضمان هو أساس الاستدامة. لكن هذه الاستدامة لا يكون لها أى معنى إذا كانت تعني استدامة فرص الحياة البائسة والمعوزة، إذ لا يمكن أن يكون الهدف هو العمل على استدامة البؤس والحرمان. ولا ينبغي لنا أيضًا أن نحرم من هم أقل حظًا اليوم من الاهتمام الذى نحن على استعداد لمنحه للأجيال المقبلة.



إن النموذج التنموى الذى يجب الترويج له هو الذى يفسح مكان الصدارة لتلبية احتياجات البشرية جمعاء ويرفض الاستغلال والتبذير وتمجيد الإنتاجية كغاية في حد ذاتها. لكن هناك من جهة أخرى كرد فعل لنموذج التنمية الصناعية الشوهاء من تطرف وأنكر تمامًا فائدة النمو الاقتصادى. لكن التحليل المتزن للأمور يرفض التطرف في الجانبين، حيث يبدو واضحًا أن النمو وفقًا لنمط محدد أمر ضرورى مادامت أنه توجد في العالم مستويات معيشية منخفضة جدًا. لكن يبقى الشرط الجوهرى هو عدم القبول بأى نمو عشوائى لمجرد كونه نموًا، فلا يوجد ما يبرز أى تقدم اقتصادى إذا لم يكن ذلك التقدم مؤديًا إلى تحسين نوعية الحياة أو الرفاهية الاجتماعية، ومن الممكن التخطيط لتنمية تفي بالاحتياجات الحيوية والضرورية للناس وتحسن ظروف معيشتهم. وفي نفس الوقت تتعامل مع الموارد بحكمة ومع مكونات البيئة باحترام، أى الترويج لتنمية تحترم قدرات المحيط الحيوى على الاستيعاب. إن التنمية المستدامة تعني أن يكون لدينا التزام أخلاقي بأن نفعل من أجل الأجيال التي ستخلفنا ما نفعله لأنفسنا وهذا معناه أنه يجب استخدام الموارد على نحو لا يتسبب في ديون ايكولوجية عن طريق استغلال ما يوجد في الأرض بإفراط، فكل الديون المؤجلة ترهن الاستدامة سواء كانت ديونًا اقتصادية أو ديونًا اجتماعية أو ديونًا ايكولوجية، لأن هذه الديون هي اقتراض من المستقبل، فهي تسرق من الأجيال المقبلة خياراتها المشروعة، والأمم الفقيرة لا تستطيع - ولا ينبغي لها - أن تقلد أنماط الإنتاج والاستهلاك الموجودة لدى الدول الغنية، وهذا قد لا يكون بأى حال ممكنًا أو مستصوبًا بالرغم من أوجه التقدم في مجال التكنولوجيا، فتكرار أنماط الشمال في الجنوب سيتطلب عشرة أمثال القدر الحالي من الوقود الحفرى، ويتطلب ثروة معدنية تعادل ما هو موجود حاليًا ٢٠٠ مرة، وفي غضون أربعين عامًا ستتضاعف مرة أخرى هذه المتطلبات مع تضاعف سكان العالم، ومن الواضح أن أساليب حياة الأمم الغنية يجب أن تتغير، فالشمال لديه حوالي خمس سكان العالم وأربعة أخماس دخله، وهو يستهلك ٧٠٪ من مصادر الطاقة الموجودة في العالم، ويستهلك ٧٥٪ من معادنه، و٨٥٪ من أخشابه، فإذا كان المجال الأيكولوجي يسعر تسعيرًا كاملاً ولم يكن مجانيًا لما استطاعت أنماط الاستهلاك هذه أن تستمر، والتنمية المستدامة معنية بنماذج الإنتاج والاستهلاك الماديين التي يمكن تكرارها، وهذه النماذج لا تعتبر الموارد الطبيعية سلعًا مجانية تنتهب بالإرادة الحرة لأى فرد أو لأى جيل أو لأى أمة، فهي تفرض سعرًا على هذه الموارد يعكس شحتها النسبية اليوم وغدًا، ومن ثم فهي تعامل الموارد البيئية القابلة للنفاد مثلما تعامل أى أصول شحيحة أخرى، وتعني بسياسة الإدارة الرشيدة للأصول، وكذلك تفعل في إدارة أصول مصادر الطاقة غير المتجددة، ويثير مفهوم التنمية المستدامة مسألة ما إذا كانت أساليب الحياة الحالية مقبولة، وما إذا كان هناك أى سبب يدعو إلى انتقالها إلى الأجيال المقبلة، فنظرًا إلى أن الإنصاف فيما بين الأجيال يجب أن يسير جنبًا إلى جنب مع الإنصاف داخل الجيل الواحد فقد يكون إجراء عملية تشكيل كبرى لأنماط دخل العالم وأنماط استهلاكه شرطًا مسبقًا وضروريًا لأى استراتيجية صالحة، والصلة الوثيقة بين الفقر العالمي واستدامة تنمية العالم يتعين أيضًا تحليلها بعناية إذا كان المراد لمفهوم التنمية المستدامة أن يكون له أى معنى حقيقي، فالفقراء للغاية الذين يكافحون في سبيل البقاء اليومي كثيرًا ما يفتقرون إلى الموارد اللازمة لتجنب انحطاط بيئتهم، وفي المجتمعات الفقيرة ما يكون معرضًا للخطر ليس هو نوعية الحياة بل الحياة نفسها، والفقراء ليسوا منشغلين بحالات الطوارئ المدوية مثل تغير مناخ الأرض أو استنزاف طبقة الأوزون، بل هم مشغولون بحالات الطوارئ الصامتة مثل المياه الملوثة والأرض المتدنية النوعية التي تعرض رزقهم وحياتهم للخطر، وما لم تعالج مشاكل الفقر لا يمكن ضمان الاستدامة البيئية، وإذا كانت الاستدامة تعني أن يدوم الغنى للأغنياء ويدوم الفقر للفقراء فهي استدامة غير منصفة وغير عادلة ولا معنى لها. ■


مصر للطيران
KARNAK
الكرنك
يسر الكرنك للخدمات السياحية
ان تعلن عن اسعار خاصه لرحلاتها الداخلية
على خطوط مصر للطيران المنتظمه
الاقامة ٤ ايام خلال شهرى اكتوبر و نوفمبر ٢٠٠١
شرم الشيخ جم
شيراتون بالافطار ٥١٠
سوفتيل بالافطار ٦١٠
هوليداى ان نصف اقامة ٥٧٥
عايدة (٤ نجوم) نصف اقامة ٤٦٥
الغردقة جم
موفنبيك الجونا بالافطار ٥٤٠
سوفتيل نصف اقامة ٥٨٠
بالم بيتش نصف اقامة (٤ نجوم) ٥٢٠
الاقصر جم
موفنبيك بالافطار ٦٥٠
ميركير ان بالافطار (٤نجوم) ٤٣٠
اسوان جم
سارة بالافطار (٤ نجوم) ٤٩٥
اسوان و الاقصر نيو كتاركت + ميركير ان الاقصر بالافطار جم ٥٤٠
برامج متميزة للعمرات و الحج الى جانب رحلاتنا الخارجية
الحجز و الاستعلام :
الفرع الرئيسى / ش قصر النيل ٥٧٩٠٤٦٥ / ٥٧٥٠٨٦٨/ ٥٧٥٠٧٣٩
الكرنك مدينه نصر (امام الحديقة الدولية) ٢٧١٨٠٣٨
الكرنك موفنبيك المطار ٤١٨٣٧٢٠
مكتب مصر للطيران . جليم . الاسكندرية ٥٨٢٦٩٩٤
ومكاتب الكرنك بكل من : الزقازيق / شبين الكوم / بورسعيد / الغردقة / الأقصر / اسوان

الرعب البيولوجى!

القصة حقيقية

أحمد توفيق

عقب أحداث ١١ سبتمبر الماضى فى نيويورك وواشنطن وما تلاها من هجوم أمريكى على مواقع حركة طالبان ومعسكرات أسامة بن لادن فى أفغانستان، اجتاح الولايات المتحدة وأوروبا «رعب» التعرض لهجوم بيولوجى غامض بعد اكتشاف حالات عديدة من الإصابة بمرض «الإنثراكس» أو «الجمرة الخبيثة»، وعادت وسائل الإعلام إلى استخدام مصطلحات كانت منسية مثل الحرب البيولوجية والإرهاب البيولوجى وغيرها.

والكتاب «الرواية» الذى نعرض له ليس جديدًا، فقد صدرت طبعته الأولى عام ١٩٩٤، لكنه تناول قصة حقيقية يقول مؤلفها إنه لم يغير شيئًا من وقائعها عدا الأسماء.

وتدور القصة، التى اختار لها المؤلف الأمريكى ريتشارد بريستون عنوان «المنطقة الساخنة»، فى معامل الجيش الأمريكى، حيث تتم دراسة الأوبئة وأساليب الحرب البيولوجية. وفى هذا الإطار فإن الكتاب يبدو متواكبًا مع الأحداث والتطورات الراهنة.

كهف الوطاويط

بداية الكتاب قوية مفزعة. رجل فرنسى اسمه شارل مونيه يعيش فى قرية غربى كينيا، حيث يعمل خبيراً فى أحد معامل السكر. ومن البداية نعرف أن الرجل سيموت ميتة شنيعة.. المهم هو كيف يحدث هذا. إن الأطباء يذكرون أقل القليل عن المريض لكنهم لم ينسوا مرضه قط، لأنه ما من طبيب يرى علامات أمراض (مستوى الأمان الحيوى الرابع)، ويستطيع نسيانها..كان هذا عام ١٩٧٩ حين بدأ مرض الإيدز يشق طريقه إلى أمريكا عبر ما يعرف بطريق كينشاسا.. وهنا يذكرنا المؤلف بأن مرض الإيدز مميت لكنه ليس سريع العدوى، وقد وضعه الأطباء ضمن ما يسمى بأمراض (مستوى الأمان الحيوى الثانى): بمعنى أنه يمكنك أن تعيش مع مريض إيدز وتأكل معه دون أن يصيبك شىء.

يقرر مونيه يوم الكريسماس أن يذهب مع إحدى صديقاته إلى «ماونت إلجون»، وهو بركان خامد على حدود كينيا وأوغندا، غير بعيد عن السودان. هناك وسط غابات الأمطار يوجد متنزه عام يمكن للمرء أن يخيم فيه، وربما يتسلى باللعب مع القردة. فى تلك الليلة أمطرت السماء، فقضيا الليل فى الخيمة، إلا أنهما فى الصباح تسلقا الجبل إلى حيث كهف كيتوم. كان الكهف مظلماً بالطبع، لكنهما على ضوء الكشافات استطاعا أن يريا أن أرضه مغطاة بفضلات الوطاويط. وكانت بالداخل مفاجآت سارة لا بأس بها: الكثير من الوطاويط وفضلاتها.. جثث أفيال متحللة.. صخور مدببة تتدلى من السقف.. ترى هل لامس مونيه براز الوطاويط أو أدمى يده بالصخور؟.. من الصعب على المرء أن يعرف هذا الآن.

بدأ الصداع فى اليوم السابع من هذه الجولة.. كان أسوأ صداع يمكن وصفه، وبدا كائنا يمرح خلف محجرى عينيه، ولم يستجب لأى مسكن من أى نوع، ثم بدأت آلام الظهر والقىء العنيف. وأثار ذعر مديرة المنزل أن شخصيته ذاتها تغيرت.. بدا أكثر غضباً وخمولاً لكنه لم يهلوس قط..وظل يعرف أى يوم هذا وأين هو.. كان على رفاقه أن ينقلوه إلى (نيروبى) حيث العناية الطبية أفضل. وهكذا ـ على متن الطائرة الصغيرة ـ يجلس ذلك الرجل الوحيد ممسكاً بكيس للقىء.. من الواضح أنه مريض لكن بأى شىء؟.. إنه يبعد الكيس عن فمه فترى على شفتيه سائلاً لزجاً أحمر مع مسحة سواد كأنما كان يمضغ البن.. عيناه بلون الياقوت، ووجهه كله يتدلى من جمجمته كأنما سيسقط بعد قليل..رائحة الدم تملأ الطائرة سيئة التهوية، والكيس يمتلئ فيناوله للمضيف ويفتح كيساً آخر.. إن القىء الأسود علامة على أن الفيروس الآن فى أعلى درجات التكاثر.. إنه يحاول أن يحول مونيه إلى فيروس كبير، وفى هذه اللحظة تعج قطرة واحدة من دم مونيه بمائة مليون فيروس. ثم بدأ نزف الأنف وبدا كأنه سيستمر للأبد.. المناديل الورقية تتلطخ على الفور، فيتخلص منها ويستعمل مناديل أخرى. الآن يفقد الرجل شخصيته لأن خلايا مخه تتحلل.. لم يعد السؤال من هو، ولكن السؤال ماذا هو.. لقد صار صموتاً متوتراً غير راغب فى الإجابة عن الأسئلة..

يستقل سيارة أجرة إلى المستشفى.. قسم الطوارئ.. إن القنبلة الفيروسية بداخله بلغت التمام وعلى وشك الانفجار فى أية لحظة.. فجأة ينهار ويسقط على الأرض، ومن حوله بركة من الدم تخرج من كل فتحات جسده.. ثم سمع الجميع صوت الغشاء المخاطى المبطن لأمعائه وهو ينفصل بالكامل ليغادر جسده. لقد أتى الفيروس على عائله، وصار عليه أن يجد عائلاً جديداً.

وجاء دكتور موزوك الطبيب الشاب، وحاول أن يدخل منظار الحنجرة فى حلق الرجل. استنشق الكثير من الدماء، وتلوثت يداه وثيابه، ثم جاءت ممرضة بكيس من الدم.. حاولوا أن يجدوا وريداً فى ذراع المريض لكن كان هناك شىء ما خطأ.. إن الدم يخرج من حول الثقب الذى تصنعه الإبرة فى كل مرة. وكف موزوك عن المحاولة كى لا ينزف الرجل ما بقى من دمه من ثقوب الذراع. وفى الساعات الأولى من الصباح توفى مونيه.. قاموا بتشريحه فأثار دهشتهم أن احشاءه تبدو كأحشاء جثة مرت عليها أيام، وكان الرجل مات من الداخل قبل أن يموت فعلاً. كتبوا فى التقرير أنه توفى بـ (فشل كبدى متفاقم) لأنهم لم يجدوا كلمات تصف الهول الذى رأوه بداخله، وتم دفن الرجل فى قبر لم يعد أحد يذكر أين هو.



بعد تسعة أيام من هذا بدأ ظهر الدكتور موزوك يؤلمه.. ثم بدأ التدهور السريع كما حدث لمونيه. قام أحد أطباء المستشفى ـ سيلفرشتاين ـ بفصل مصل الدكتور الشاب وأرسل عينة منه إلى السى دى سى ـ مركز مكافحة الأمراض ـ فى أطلنطا بالولايات المتحدة، وعينة إلى معامل جنوب أفريقيا.

وجاءت المكالمة الأولى من جنوب أفريقيا: إن دم الطبيب الشاب يعج بفيروس ماربورج. لم يكن سيلفرشتاين قد سمع عن ماربورج قط، لذا فتح مرجعاً طبياً ليعرف ما هو. ماربورج مدينة فى ألمانيا شهدت هذا الوباء عام ١٩٦٧ وقد بدأ من مصنع للأمصال يستخدم كلى القرود الخضراء المستوردة من أوغندا. لقد تفشى الوباء إلى حد أن كثيرا من الأطباء حسبوا هذه نهاية العالم.

إن ماربورج فرد من عائلة فيروسات تعرف باسم فيلوفيروس Filovirus أى الفيروسات الخيطية، ويبدو منظرها كحفنة من المكرونة السباجيتى التى سقطت على الأرض، ولهذا السبب حسبه الألمان أولاً فيروس الكلب الذى يبدو كرصاصة، فكأنما هو فيروس كلب استطال قليلاً، ثم عرف العلم فيما بعد أننا نتحدث عن عائلة مستقلة تماماً من الفيروسات. وإلى نفس العائلة ينتمى فيروسان آخران هما إيبولا زائير وإيبولا سودان، والأول أخطر فيروس معروف لأنه يقتل تسعة من كل عشرة يصابون به.

حاول رجال منظمة الصحة العالمية طويلاً معرفة من أين جاءت هذه القرود من أفريقيا بالضبط، لكن السؤال ظل بلا جواب حتى عام ١٩٨٢، حين عرف أحد الأطباء البيطريين أن مصدر هذه القرود هو متعهد كان يجلب القرود من أوغندا، وكان البيطرى يستبعد القرود التى لا تبدو على ما يرام، على أساس أنها ستقتل فيما بعد، لكن المتعهد ـ عديم الضمير ـ كان يحتفظ بهذه القرود فى جزيرة صغيرة ببحيرة (فكتوريا) على أمل أن يعيد تصديرها ثانية.. أى أن الجزيرة صارت معملاً حراً يمارس فيه الفيروس تجاربه، ويتطفر ويطور من قدراته.. من الغريب أن هذه المنطقة بالذات هى التى نشأ فيها داء الإيدز، وانتقل ـ بشكل ما ـ من القرود إلى الإنسان، وهناك قرى فى تلك المنطقة أزالها الإيدز من الخارطة تماماً. لم يهتم أحد بما يعرفه البيطرى لأن المسألة كانت ذات صبغة سياسية، فأوغندا لا ترغب فى فقد دخلها من تصدير القرود، وهو مبلغ لا بأس به.

نتيجة لهذه القراءات ـ وبناء على طلب سيلفرشتاين ـ أغلقت الحكومة الكينية المستشفى، وقامت بعزل الحالات الموجودة فيه فعلاً. لكن الدكتور موزوك تماثل للشفاء.. لقد استعاد وعيه ببطء ولكن بثبات، ويبدو أن فترة المرض مرت به كنوم طويل بلا أحلام.

فى الفترة التالية تشير أصابع الاتهام إلى كهف كيتوم، لأن هناك حالة أخرى من داء ماربورج دخلت ذات المكان. ويذهب فريق من الباحثين هناك بحثاً عن مصدر الفيروس لكنهم يبوءون بالفشل. إن الطبيعة معقدة جداً ولا تتصرف ببساطة أبداً، ولسوف نكتشف هذه الحقيقة أكثر من مرة فى هذا الكتاب.



إن القنبلة الفيروسية بداخله بلغت التمام وعلى وشك الانفجار فى أية لحظة.. فجأة ينهار ويسقط على الأرض، ومن حوله بركة من الدم تخرج من كل فتحات جسده.. ثم سمع الجميع صوت الغشاء المخاطى المبطن لأمعائه وهو ينفصل بالكامل ليغادر جسده



The Hot Zone

(المنطقة الساخنة)

Richard Preston

Anchor Books, 1995, 422pp.

جيش يحارب الفيروسات

ينتقل الكتاب إلى الولايات المتحدة عام ١٩٨٣ .بالتحديد إلى ثورمونت ـ ميريلاند، حيث نتعرف على الميجور نانسى جاكس، الطبيبة البيطرية العسكرية. إنها تعد الإفطار لأطفالها قبل الذهاب لعملها، لكنها تجرح يدها بسكين المطبخ، فتضمد اليد وتنسى الأمر.

ندخل معها القاعدة التى يتوسطها مبنى من الخرسانة بلا نوافذ تقريباً. هناك انابيب تهوية على السطح تخرج الهواء المرشح من المعامل المعزولة. هذا هو معهد جيش الولايات المتحدة لبحوث الأمراض المعدية أو ما يطلقون عليه اختصاراً اسم USAMRIID وهو اختصار طويل بدوره. ومهمة المعهد أن يطور أبحاث الحرب البيولوجية.. لقد كان المعهد قبل عام ١٩٦٩ يصنع تلك الأسلحة، حتى أصدر نيكسون امراً يمنع تطوير الأسلحة البيولوجية داخل الولايات المتحدة ـ أو هذا ما يقوله الكتاب ـ من ثم صارت مهمة المعهد تطوير اللقاحات والأمصال والمضادات الحيوية. تمشى نانسى عبر ردهة مستوى الأمان الحيوى صفر.. ثم مستوى الأمان الحيوى ٢.. ثم ٣.. ثم ٤. ولسبب ما لا يوجد مستوى رقم ١.. لقد بدأت العمل فى المستوى رقم ٢ وكان عليها أن تتلقى الكثير جداً من اللقاحات ضد الحمى الصفراء والتولاريميا والجمرة وحمى الوادى المتصدع.. إلخ.. لذا طلبت رسمياً أن تترقى إلى المستوى الرابع مباشرة لأن اللقاحات أتعبتها جداً، والمستوى الرابع يعتمد على البذلات الواقية لا اللقاحات، لأن كل أمراضه لا لقاحات ولا علاجات لها..

كانت تعمل فى مشروع الإيبولا حالياً.. وهو فيروس نزفى خيطى تمت نسبته إلى نهر الإيبولا.. أحد روافد نهر الكونغو. كان أول اندلاع لوباء إيبولا عام ١٩٧٦ فى خمسين قرية، وقتل تسعة من كل عشرة مصابين. إن المرض شبيه بمرض ماربورج وإن كان أعتى منه بمراحل.وكان الإيبولا هو أخشى ما يخشاه العاملون فى المعهد، وكانوا يعتبرون المتعاطين معه مجانين. المشكلة أنه ما من واحد يعرف أين يعيش الإيبولا فى الطبيعة.. ولا يعرفون كيف ينتقل من شخص لآخر.. على الأقل كانت نانسى تعرف من ملاحظاتها على القردة أنه ينتقل عبر الدم والهواء. والغريب أن هذا الفيروس المخيف الذى لا لقاح ضده، لم يحدث أى وباء شامل، برغم أنه يستطيع السفر جواً وأن يغطى الكرة الأرضية، ولربما أباد الحياة بسهولة.. إنه ينجز فى عشرة أيام ما يحتاج الإيدز إلى عشرة أعوام كى ينجزه.. كلما عرف المرء أكثر عن الفيروسات الخيطية، كلما بدأ يراها لا كطفيليات ولكن كحيوانات مفترسة، تتوارى هنالك بين السافانا ووراء الأشجار منتظرة لحظة الهجوم.

الآن نرى عملية الاستعداد لدخول قسم الإيبولا التى تمر بها نانسى مع رئيسها.. تنزع ثيابها كلها حتى الداخلية منها.. ترتدى بذلة شبيهة ببذلات الجراحين.. تلصق شرائط لاصقة حول فتحات الأكمام والأرجل وحول خصرها.. إن الشرائط اللاصقة مهمة جداً فى هذه المهنة ولولاها ما وجدت. تمر بغرفة تغمرها الأشعة فوق البنفسجية، ثم بمجموعة طقوس شبه دينية من التعقيم، حتى تصل للمرحلة الأخيرة التى تدخل فيها بذلة فضاء كاملة، وتضع القناع. المشكلة فى هذه البذلات وكعب أخيل الخاص بها هو وقاية اليدين.. لأن القفازات من المطاط وتتعامل مع أجسام قاطعة كالإبر والمباضع..وبرغم أنها تلبس ثلاث طبقات من القفازات فالخطر ما زال داهماً. يمكن اعتبار هذه البذلات ـ كما تصفها نانسى للمستجدين ـ شرنقة تحوى العالم الطبيعى داخلها، فإن تمزقت تسرب العالم الساخن إلى الداخل، والضغط داخل البذلة عال لمنع تسلل شيء، فإن حدث تمزق تساوى الضغط الخارجى والداخلى، عندها يجب تثبيت شريط لاصق على مكان التمزق بسرعة..ويتم لف الشريط اللاصق حول الكاحلين كأنه بكرة للاستعمال عند اللزوم.

أخيراً تدخل إلى المستوى الرابع ذاته الذى يحمل بابه علامة إنذار (الخطر الحيوى).

ويفصله عن العالم الخارجى قفل هوائى وباب فولاذى. كما أن الهواء بالداخل سالب الضغط حتى لا يخرج منه شيء وإنما يدخل. تتحرك مع رئيسها حركة خاصة ينظر فيها الطرفان إلى بعضهما متحفزين.. العينان فى العينين.. كأنهما يتأهبان لمباراة مصارعة. هذه هى طريقة الحركة فى المستوى الرابع، لأنك يجب أن تعرف أين زميلك بالضبط.. ماذا يفعل.. وماذا يحمل فى يده.

الآن نرى أقفاص القرود التى تم حقنها بالفيروس المميت. إن السلالة التى تحقن بها القرود، قد قتلت ممرضة تلوثت بالدم أثناء عنايتها براهبة كاثوليكية عام ١٩٧٦. وعلى القرود التى هلكت يمكنك أن ترى علامة الموت بالإيبولا: الوجه الخالى من التعبير والعينين الحمراوين والأنف الدامى. أخطر جزء هنا هو حمل قرد حى تحسبه ميتاً، لأن هذه القرود قوية شرسة وتعض، وعضة قرد مصاب بالإيبولا معناها الموت بلا نقاش. كذلك يتم التشريح بالمقص فقط، دون استعمال المبضع أو أية أداة حادة لأن المبضع يمكنه تمزيق القفاز فى يدك، قبل أن تشعر بأى ألم. تبدأ التشريح وتجد المنظر المألوف: إن القرد ملىء من الداخل بالدماء.. هنا تشعر بشىء بارد يلمس جلدها.. تنظر لتكتشف أن القفاز مثقوب.. تتنحى وتنزعه لتجد أن قفاز البذلة ذاته مثقوب !.. تغادر الغرفة وتخضع فى صبر لإجراءات التعقيم البطيئة توطئة لأن تخرج إلى العالم الخارجى.. فى سرها تدعو الله ألا يكون القفاز الداخلى كذلك مثقوباً.. خاصة مع الجرح فى يدها !. أخيراً تنزع القفاز الأخير لتجد أن يدها غارقة فى الدم.. لقد لوث دم الإيبولا يدى ! لن يلبثوا أن يحملونى إلى الغواصة، والغواصة هنا هى اسم التدليل للمشرحة، لأن بابها المعدنى المحكم يذكر الرجال بأبواب الغواصات. ثم تكتشف أن مصدر الدم هو الجرح فى يدها..وبرغم هذا تملأ القفاز بالماء فقط لتتأكد من أنه ليس مثقوباً.. لو كان كذلك فهى نهايتها. لحسن حظها كان القفاز سليماً.

ماذا أصاب القردة؟

تنتقل الأحداث إلى رستون ـ فيرجينيا، حيث نرى وحدة الحجر الصحى للأوليات. إن الولايات المتحدة يصلها سنوياً ستة عشر ألفاً من القردة لمختلف الأغراض، وعلى عاتق هذه الوحدة تقع مسئولية الحجر الصحى لكل هذه القردة قبل توزيعها. تلقت الوحدة يوم ٤ أكتوبر عام ١٩٨٩ شحنة من الفليبين تتكون من مائة قرد، وقد جاءت من مزرعة قرب العاصمة مانيلا. إنها قردة ضخمة تدعى باسم (كرا) لأنها تصدر عند الصراخ صيحة كأنها: كرا.. كرا.

تم وضع القردة فى أقفاص لكن لوحظ أن عدداً كبيراً منها ـ نحو تسعة وعشرين ـ بدأ يموت فى الأسبوعين التاليين. كانت جفونها تتهدل وتصاب بفقدان شهية تام ثم تتدهور بسرعة. ويقدر مدير المستعمرة فى البداية أن السبب هو خلل فى جهاز التكييف. ثم يثبت التشريح أن القردة ماتت بنزيف داخلى وأن طحالها متضخم.. لكن ما السبب؟. وكى لا ينتقل المرض إلى باقى القرود يتم إعدام قاطنى القاعة F التى ظهرت فيها الوفيات بجرعة عالية سامة من الغاز المنوم. لكن المرض يظهر فى وحدات أخرى بعيدة.

يحمل المدير عيناته إلى USAMRIID فى فورت دتريك. ويخبرهم هناك بأنه يشك فى أن القردة تعانى نوعاً من حمى القرود النزفية SHF وهو مرض لا ينتقل للبشر لكنه يفتك بالقرود فتكاً. يأخذ الرجال العينات إلى المستوى الثالث، وهو مستوى أمان لا يتطلب منك ارتداء ثياب فضاء، بل يلبس الأطباء هناك ما يشبه ثياب الجراحين. ويتم زرع العينات فى أنابيب خاصة تحوى خلايا كلية القرد، وتترك كى تتخمر. هنا



الجزيرة صارت معملاً حرا
يمارس فيه الفيروس تجاربه،
ويتطفر ويطور من قدراته..
من الغريب أن هذه المنطقة بالذات هى التى نشأ فيها
داء الإيدز، وانتقل ـ بشكل ما ـ من القرود
إلى الإنسان، وهناك قرى فى تلك المنطقة
أزالها الإيدز من الخارطة تماما



الرعب البيولوجي

يلاحظ الفنى توماس جيسبرت مشهداً غريباً: إن الأنابيب لم تعد تحوى خلايا بل سائلاً عكراً أبيض. يستدعى رئيسه فيعتقد هذا أن المزارع تلوثت بالبكتريا وفسدت.. لكن رائحة المزرعة لا تدل على التخمر.. يفتح الأنبوب ويشمه جيداً.. لا شيء..! .. لا شيء.. يوصيه الرئيس بأن يفحص المزارع تحت المجهر الإلكترونى، الذى هو أحد بصراً وأقدر على اختلاس النظر إلى الكون الداخلى الرهيب..

لم يكن جيسبرت يفكر إلا فى انتهاء ساعات العمل، كى ينطلق لصيد الوعول، ولم يكن يعرف أن الفيروسات الخيطية تتناسخ لفترة تتراوح بين ثلاثة إلى ثمانية عشر يوما.. بعدها يبدأ الصداع..

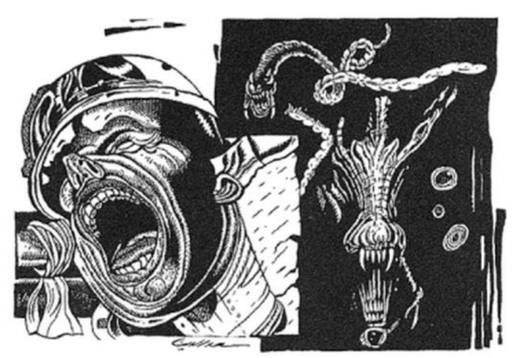


وحيداً فى معمله بعد عودته من العطلة، جلس جيسبرت يقطع العينة باستعمال السكين الماسية الحادة، وهى سكين قادرة على أن تشطر خلايا الدم إلى شطرين بل وتقسم الفيروسات نفسها. حين فرغ من تقطيع العينات راح يلتقط بعضها من الماء باستعمال عصا صغيرة ألصق بطرفها هدب عين.. هدب عين امرأة من العاملات بالمعمل، وكانت أهدابها لزجة تسهل التقاط العينات من الماء. الآن يدخل إلى المجهر الإلكترونى المهيب فى الحجرة.. يجلس ويضيء الأنوار فيتحول المكان إلى غرفة قيادة سفينة فضاء. تظهر له الخلايا على الشاشة، والدرس الذى تعلمه من عمله هنا هو أنه مهما صغر مجال الفحص فالأمور معقدة بما يكفى.. لا يوجد شيء واضح أو سهل فى الطبيعة..كل شيء مختلط مربك..

ولكن.. لحظة.. ثمة شيء خطأ فى هذه الخلية.. إنها ليست مريضة بل هى مدمرة بالكامل.. إنها مليئة بكل أنواع الخيوط وكأنها كيس ممزق امتلأ بالحبال.. وتقلصت معدته، وهو ما يعرفه علماء الفيروسات هنا باسم عامل الغثيان Puke factor، ويدل على الذعر الوحشى حين يكتشف المرء فجأة أنه يتعامل مع فيروس من المستوى الرابع.. إنه رأى هذا المشهد من قبل.. رآه فى الخلايا التى دمرها فيروس ماربورج.. رباه !.. لو لم يكن هذا ماربورج فهو - بلا شك - فيروس خيطى.. وأنا شممت الأنبوب عدة مرات !.. كم فترة حضانة الفيروس؟.. لقد شممت الأنبوب من عشرة أيام فهل أشعر الآن بصداع؟.. لا صداع.. لكن ليس معنى أنه لا صداع فى اليوم العاشر أننى لن أشعر به فى اليوم الحادى عشر..

وبرغم الوضع المثير للهلع، فإنه لم يستطع إلا أن يحبس أنفاسه انبهاراً بجمال هذا القاتل الشبيه بثعبان الكوبرا.. هذا وجه الطبيعة ذاته.. ميدوسا الإلهة اليونانية المخيفة مجردة عارية أمامه.

بدأ القلق يغمر القيادات فى المركز. لو كان هذا (ماربورج) فمن المؤكد أن الوباء سينتشر فى فرجينيا ما لم يتم حصاره. كل الأطباء الذين شرّحوا القرود وكل من شموا الأنبوب مرشحون للإصابة بالفيروس المخيف. وقال الكولونيل - رئيسه المباشر - إن عليهم التأكد من أن هذا ماربورج حقاً. لو كان عليهم إحداث حالة هلع فى الولاية؛ فمن الخير أن يتأكدوا مما يقولون.



فى الظلام وفى أعمق أعماق المستوى الرابع، مرتدياً بذلة رواد الفضاء، جلس د. جارلنج يجرى تجاربه. إن المكان غير محبب للمصابين برهاب الأماكن المغلقة (كلوستروفوبيا)، لكن الرجل كان قد اعتاد الظلام والوحدة من زمن. كان عليه أن يعمل فى الظلام لأن التجربة تتضمن ظهور تألق خافت فى الشريحة التى وضع عليها خلايا القردة الميتة، إذ يتم خلطها بثلاث عينات مصلية: العينة الأولى أخذت من د. موزوك.. الثانية من مريض قتله الإيبولا سودان.. الثالثة من ممرضة قتلها إيبولا زائير. لم تتوهج العينة الأولى ولا الثانية.. لكن الثالثة توهجت.. إذن لم يكن هذا ماربورج.. القردة التى جاءت من الفليبين مصابة بإيبولا زائير.. أخطر حمى نزفية عرفها العلم. ولم ينتظر جارلنج حتى يغادر المستوى الرابع بل أبلغ النتائج لرئيسه بهاتف الطوارئ؛ بل وكتب النتائج على قطعة من الورق الذى لا يتخلله البلل ووضعها فى درج مُلِئ بمحلول مطهر، وهذا الدرج يمكنه الخروج من المستوى الرابع إلى العالم الخارجى بعد ما يتم تطهير محتواه.

بسرعة وسرية

الآن حان وقت إبلاغ الجنرال فيليب راسل قائد الوحدة بالكارثة، طبعاً مع إغفال تفاصيل بسيطة مثل الرجلين اللذين شما الأنبوب، لأن هذا سيدفعه إلى الانفجار فى سيل من السباب ينتهى بقذف المخطئين إلى ما يشبه الحجز الانفرادى لمدة أربعين يوما، وهى ليست بالضبط تجربة سهلة لأن كثيرين يدنون من الجنون بسبب خبرة كهذه.

وفى مكتبه ميز الرجل الصور الرهيبة على الفور، وطلب «خبراءه». وهنا نقابل من جديد وسط المجتمعين مع الجنرال، نانسى جاكس الطبيبة البيطرية العسكرية، التى ترقت فى عملها، وصارت من الخبراء المرموقين فى فيروس إيبولا والقادرين على العمل ببراعة فى المستوى الرابع. إن السؤال الأخطر الذى يطرح نفسه هو: ماذا لو لم يكن هذا الفيروس الخيطى هو الإيبولا؟.. ماذا لو كان نوعاً جديداً غير معروف أشد فتكاً وأسرع انتقالاً؟. لم يكن هناك أكثر من خيارين: محاصرة القرود والانتظار حتى تموت من تلقاء نفسها، أو الإسراع بإعدامها وتطهير المكان وحرق الجثث. وكالعادة - كما يحدث فى الولايات المتحدة دائماً - كانت هناك مشكلة تضارب اختصاص الإدارات.. إن الـ CDC (مركز السيطرة على الأمراض) يتلقى تمويلاً من الكونجرس، وهو المؤهل شرعياً لتولى هذا الأمر، بينما الجيش لا حق له فى مكافحة الإيبولا على أرض أمريكية، لكنه القادر على ذلك.. هذا التضارب بين المؤهل والقادر قد يجلب الوبال، ويحتاج إلى رأى المحامين، لكن الجنرال قال إنه سيتبع سياسة محددة: «سنفعل كل شيء ثم نطلب الصفح فيما بعد.. هذا أفضل من طلب الإذن ومنعه عنا..لا تسأل محامياً أبداً عما إذا كان بوسعك عمل شيء.. سنفعل ما هو ضرورى، وعلى المحامين بعد هذا أن يقولوا لماذا هو قانونى».

وكان عليهم بعد هذا إجراء مكالمات لا حصر لها مع وزارة الدفاع والزراعة والسلطات الصحية لفرجينيا، واستدعاء كل شخص فى البلاد يعرف معنى كلمة (إيبولا). عليهم أن يمسكوا العصا من منتصفها: فلا يحدثوا ذعراً لا داعى له، وإلا امتلأت الشوارع بسيارات المهاجرين الفارين من رستون، ولظهرت أمهات يصرخن أمام عدسات التليفزيون: أين أطفالى؟. كما أنه من أهم الأمور ألا تعرف الصحافة شيئاً عن بذلات رواد الفضاء الواقية. على فريق العمل - من ناحية أخرى - ألا يجازف بأن تتسرب العدوى خاصة وهم على مقربة من واشنطن نفسها. وكانت الأولويات - على طريقة الكلام العسكرية المختصرة - كما يلى:

١- سلامة الجمهور.

٢- القتل الرحيم Euthanasia للحيوانات قدر الإمكان.

٣- جمع العينات العلمية.

الهدف: تحديد السلالة ومعرفة كيفية انتقالها.

وفى عملية سرية تشبه الاختطاف يقومون بنقل بعض جثث القردة - فى أكياس بلاستيكية مزدوجة تم رش خارجها بالكلوراكس - من وحدة الحجر الصحى للأوليات إلى المعهد.

المشكلة الآن هى نقل بيئة المستوى الرابع إلى حجر القردة، حيث تبدأ عمليات القتل الرحيم Euthanasia للقردة كلها، والتى صار عددها فى الوحدة لا يقل الآن عن خمسمائة. إنها تشبه قلب مفاعل نووى وزنه ثلاثة أطنان، وعندما يحترق الوقود كله فى قلب المفاعل، فإن المرض سيبحث عن وقود آخر. وكانت رائحة الوحدة الآن قد صارت كأنها من جهنم لأن العاملين كفوا عن غسيل الأقفاص، ولم يعد أحد يجسر على الدخول.. لقد تحولت البناية برمتها إلى منطقة ساخنة، وكان عليهم أن يزودوها بقفل هوائى وممر تتم فيه مراحل التعقيم التدريجية.. كل هذا دون أن يلاحظ الجمهور العادى - والصحافة طبعاً - شيئاً !.

وهكذا تقف نانسى تصدر تعليماتها للرجال الذين سيدخلون معها إلى المنطقة الساخنة:

- «لا تترك الدم على قفازك.. يجب أن تغسله فوراً، لأنه فى وجود الدم لن تميز أبداً أى تمزق فى القفاز..القردة شرسة وسريعة الحركة، ويمكنها أن تثب إلى وجهك متشبثة بأطرافها الأربع والذيل حول عنقك، فلو عضتك لكانت نهايتك مؤكدة.. خذ الحذر منها.. لابد من عشر دقائق راحة كل ساعة لأن الشخص المتعب لا يتوخى الحذر.. لابد من أن تتوقف كل عشر دقائق لتتفحص بذلة زميلك.. هل تمزقت فى مكان ما؟..البطارية التى تنظم الضغط داخل البذلة تعمل ست ساعات، وعليك المغادرة قبل أن تنتهى وإلا صرت فى مأزق مخيف..ملحوظة أخيرة: أنتم ستظلون داخل البذلة طويلاً فلا تفرطوا فى شرب السوائل والقهوة قبل العمل».

بدأ القلق يغمر القيادات فى المركز.
لو كان هذا (ماربورج) فمن المؤكد أن الوباء
سينتشر فى فرجينيا ما لم يتم حصاره.
كل الأطباء الذين شرّحوا القرود وكل من شموا الأنبوب
مرشحون للإصابة بالفيروس المخيف.
وقال الكولونيل - رئيسه المباشر - إن عليهم
التأكد من أن هذا ماربورج حقاً!

في الداخل كانت الفوضى في كل مكان، وقطع البسكويت ملقاة على الأرض.. إن القرود الثائرة الغضبى ألقت بالبسكويت في كل مكان، ورسمت ببرازها على الجدران رسالة غامضة للجنس البشرى. وبدأ الرجال يطعمون الحيوانات الجوعى لأنه لا داعى لتعذيبها أكثر من هذا قبل الموت، وكما قال أحد القادة لرجاله:

«هذه الحيوانات منحت حياتها للعلم، ثم تورطت في هذا الشيء، ولم يكن ما حدث خطاها.. لا أريد أن تتعاطفوا مع القردة، لكنى لا أريد أن تسخروا منها، وتذكروا أننى أستطيع أن أكون قاسياً».

ولاحظوا ـ في هلع ـ أن أنوف أكثر القردة كانت تنزف، وأن الدم كان يتجمع تحت بعض الأقفاص. لقد ضرب الوباء المبنى بأسره.

شرع الرجال يمرون على الأقفاص.. يثبتون كل قرد بعصا معدنية طويلة، ثم يفرغ أحدهم طلقة من الكيتامين في جسده، وهذا يكفى لجعله يغرق في نوم عميق، بعد هذا يتم إخراج القرد من القفص وحقنه في القلب بمادة T-61 السامة التي تستعمل للقتل الرحيم.. لابد من إصابة القلب بالإبرة من أول مرة، وإلا صحا القرد وأتى بحركات هائجة مؤذية. لا يمكن بدء تشريح قرد أمام القردة الأخرى أبداً لأن هذا يؤدى لحالة شغب عامة. بعد هذا يتم أخذ عينات من الدم والكبد والطحال، توضع في أنابيب خاصة، ويتم وضع الجثة في أكياس واقية.. بعد قليل ستتحول الجثة إلى عصيدة من الدم والهلام والفيروس الذى انتهى من الفتك بكل الخلايا. ومن حين لآخر كان أحد الرجال ينزع شريطاً لاصقاً ويثبته على تمزق أو ثقب في بذلة زميله.

أثناء عملها تتعرض نانسى جاكس لحادث رهيب، إذ تغرس الإبرة في عروق قرد فينهض من سباته، ويتشبث بيدها بقوة ويقرب اليد إلى فمه.. إنه يحاول أن يعض!.. صرخت وطلبت العون فهرع أحد الرجال ليقيد القرد جيداً، بينما يغرس فيه أحد الرجال محقناً يحوى المزيد من الكيتامين.

لا ينسى الرجال كذلك هروب قرد شرس من قفصه، وكيف بحثوا عنه في الغرفة مراراً وحسب البعض أنهم رأوه يفر من الباب.. لكن الحقيقة أن الذعر بلغ منهم مبلغه حتى تخيلوا هذا. كان القرد داخل الغرفة متوارياً خلف الأقفاص، وفر من كل محاولات اصطياده بشبكة، فكانت أحكم سياسة هي سجنه في الغرفة، لأن التعامل معه معناه الموت الأكيد.

التطهير

لم يمرض جسبيرت ولا رئيسه، وهما الرجلان اللذان وجدا الفيروس أول مرة، وبدا أنهما سيعيشان إلى أن يطلقا عليه اسماً. وتم القبض على القرد الهارب وقتله، وهكذا انتهت المهمة.. صار الآن على فريق التطهير أن ينظف المبنى ويرشه بالمطهرات، وأن يزيل القاذورات التي خطتها القردة على الجدران. بعد هذا يأتون ببكتريا غير ضارة لكنها صعبة التدمير اسمها باسيلس سبتيليس نيجر.. هذه البكتريا تستخدم كمقياس على جودة التعقيم: فلو لم تمت كان العمل ناقصاً. ثم يأتي الجنود بأوعية كهربية ينثرونها في أرجاء البناية، ويسخنونها جميعاً، ثم يلقون في كل وعاء ببلورات تحدث مع الحرارة سحباً كثيفة من الفورمالدهايد. ويتصاعد الغاز ليتخلل كل شيء.. يدخل الأدراج والخزانات، ويتسرب إلى أجهزة الكمبيوتر. إنهم يعرفون أنه لا يوجد شيء اسمه التعقيم الكامل في الطبيعة لأن الحياة تجد مهرباً دائماً، لكن فناء البكتريا باسيلس سبتيليس يعنى ـ إلى حد ما ـ أن المهمة تمت. وفي هذا اليوم صارت وحدة حجر الرئيسيات في رستون، المكان الوحيد في العالم الذى ليس به أثر للحياة.. لا شيء على الإطلاق.

وهنا يتساءل الأطباء: لقد جاءت كل القردة المريضة في رستون من الفليبين، فلو كان الفيروس أفريقياً فما الذى يفعله في الفليبين؟. لماذا لم يصب أى متعامل مع القردة بالمرض هناك؟. ولماذا لم يصب أى واحد بالمرض في فريقنا؟. كان الطبيعة جاءتنا مكشرة عن أنيابها عازمة على قتلنا، وفي اللحظة الأخيرة ابتسمت ابتسامة غامضة وابتعدت. إنها ابتسامة الموناليزا التي لا يفهم أحد معناها بالضبط.

لقد أوقفت الـ CDC استيراد القردة إلى الولايات المتحدة لفترة طويلة. ومبنى الحجر الرهيب خال حتى لحظة نشر الكتاب. لقد انضم إيبولا رستون غريب الأطوار الى إخوانه ماربورج وإيبولا زائير وإيبولا سودان. وبرغم أنه لا يقتل الناس إلا أنه من الواضح أن إيبولا رستون أخطر أفراد المجموعة بسبب سهولة انتقاله، ولربما يبدل خواصه يوماً ما ليصير قادراً على عدوى البشر وقتلهم، عندها سيكون هو وباء النهاية للجنس البشرى. ويعتقد العلماء أنه جاء من غابات الأمطار الأفريقية إلى الفليبين مع حيوانات استوردها بعض أثرياء الفليبين، أو ربما هو قرد واحد حمل عدداً محدوداً من الفيروسات من أفريقيا إلى تلك المزرعة قرب مانيلا.

ويرى الكاتب أن الفيروسات النزفية التي عاشت طويلاً في غابات الأمطار ثم قررت الخروج لنا، هي انتقام تلك الغابات من الإهانة البيئية التي لحقت بها في عصرنا هذا. فمن هذه المناطق خرج الإيدز ومعه تلك الفيروسات الخيطية المفزعة.

لقد ازدهر إيبولا هنا.. تغذى.. كشر عن أنيابه...ثم عاد ليغفو في غابات الأمطار، لكنه سوف يعود.

ومن جديد تتكاثر علامات الاستفهام حول الحرب البيولوجية التي يبدو أن الولايات المتحدة ظلت تراها في كوابيسها طويلاً، واستعدت لها بعناية. لكن الكتاب يصارحنا بحقيقة مفزعة هي أن ثماني ساعات تفصلنا عن أخطر فيروسات غابات الأمطار، لأن الطائرات تحمل الناس إلى كل مكان بأسرع ما يمكن، ولا يمكن تصور ما قد يحدث من دمار لو أن انتحارياً في فترة حضانة الإيبولا ـ مرحلة آلام الظهر والرشح ـ تنقل في المدن الأمريكية، ودخل عدة بارات وأكل في عدة مطاعم ودخل أكثر من دار سينما. إن نهاية العالم ليست بالصعوبة التي نتخيلها أحياناً. ■



في أخلاق الأفغان وطبائعهم

إن معظم الشعوب المستوطنة لتلك الأقطار وأكثرها عدداً هو الجنس الأفغاني ومقرّه جنوب البلاد والشرق الجنوبى منها.

والخُلُق الغالب في هذا الجنس هو الحقد والضغينة والتشوق للانتقام واقتحام المحاربات والتهوّر في المخاصمات والمنازعات لأدنى الأسباب وأن صورهم الظاهرة تحكى خليقتهم هذه وتنبئ عنها فإن وجوههم على الدوام عابسة. وقلما يوجد بينهم البشوش وإن كان يظهر في بعض معاملتهم الحلم والتؤدة وكذلك خشونة لغتهم وغلظ أصواتهم يدلان على هذه الخليقة وعلى الفظاظة وغلظ الطباع. ولهم ميلٌ عظيمٌ للنهب والسلب وشنّ الغارات وإثارة الفتن. وبما ارتكز في طباعهم من الشجاعة والإقدام والميل الطبيعى إلى المحاربة أرشدتهم الطبيعة من قرون إلى ترتيب نظامهم العسكرى على هيئة تقرُب من النظام الموجود في هذه الأزمان.

وأن كثيراً منهم كانوا وإن كانوا قد مالوا إلى الإقامة في المدن والقرى كأهالى قندهار وقزنه وجلال آباد وغيرها إلا أنهم كبقية إخوانهم الذين لم يزالوا في الخشونة حيث لم يأخذوا جانب الترف والرفاهية بل يسلكون في تعيشهم طرق التخشن والتقشف ويقنعون من اللذات باليسير حتى أنهم يأكلون الضأن بجلده. فإنهم بعدما يذبحونه يحرقون صوفه ثم يجففونه ويدّخرونه للأكل ولا يتناولون الأطعمة بالملاعق ولا يضعون أوانى الطعام على الخوان بل يأكلون على الأرض بأيديهم. وليس لهم عناية بتنظيف ألبستهم وأبدانهم ولا يهتمون بنظافة مساكنهم وحجراتهم وتطهير مدنهم من الأوساخ.



أزمة الطاقة في الولايات المتحدة

وهل ينتقل إلى دول أوبك جانب من أعبائها؟

حسين عبدالله

تدفع الولايات المتحدة كل عام نحو ١٠٠ مليار دولار سدادا لفاتورة وارداتها من البترول. فقد بلغ استهلاكها من المنتجات البترولية عام ٢٠٠٠ نحو ١٩,٥ مليون برميل يوميا (ب/ى) بينما لم يتجاوز إنتاجها المحلى منه ٩ ملايين ب/ى، وبذلك ارتفع اعتمادها على الاستيراد إلى نحو ٥٤٪ من احتياجاتها البترولية. وإذ يتوقع أن يرتفع استهلاكها بحلول عام ٢٠٢٠ إلى نحو ٢٥,٨ مليون ب/ى بينما لا يتجاوز إنتاجها المحلى منه ٩,٣ مليون ب/ى في العام المذكور، فإن اعتمادها على الاستيراد يمكن أن يرتفع من نحو ١٠,٥ إلى نحو ١٦,٥ مليون ب/ى، وكنسبة مئوية من نحو ٥٤٪ إلى ٦٤٪ من إجمالى الاحتياجات المحلية.

وإذ يتوقع أن يقترن بذلك العجز في المصادر المحلية للبترول ارتفاع أسعاره العالمية، فإن فاتورة الاستيراد يمكن أن ترتفع إلى مستويات شاهقة. ومن هنا يبدو أن الولايات المتحدة قد عكفت على تدبير وسائل تمكنها من تأمين احتياجاتها المتزايدة من البترول وبأسعار مناسبة، وهذا ما ينطوى بالضرورة على الضغط على الدول المصدّرة للبترول بقصد توفير الكميات اللازمة والإبقاء على سعر منخفض مساندة لاقتصادها وللاقتصادات الغربية التى تستورد ثلاثة أرباع الواردات البترولية العالمية. وبلغة أكثر صراحة فإن الولايات المتحدة أخذت تبحث عن كيفية نقل جانب من عبء الفاتورة المتصاعدة لوارداتها البترولية، ولواردات المجموعة الصناعية الغربية بالتبعية، إلى الدول المصدرة للبترول وأغلبها دول نامية تعتبر عائداتها البترولية العمود الفقرى في تمويل احتياجاتها الجارية وبرامجها التنموية.

وقد بدأت مؤشرات ذلك الاتجاه في الظهور أولا بالجولات التى قام بها وزير الطاقة الأمريكى وطاف خلالها بأهم الدول المصدّرة للبترول في مستهل عام ٢٠٠٠ وذلك بهدف الضغط عليها لزيادة الإنتاج وخفض الأسعار. ثم وهذا هو الأخطر، بحادثين لم يمض عليهما أكثر من شهرين ويستهدفان محاكمة دول أوبك طبقا للتشريعات الأمريكية وإخضاعها لقوانين العقوبات الأمريكية. وكان أول الحادثين صدور قرار من قاض فدرالى في ولاية ألباما ضد أوبك مدعيا أنها تتواطأ بهدف تقييد حرية التجارة في البترول وذلك بالمخالفة لقوانين مكافحة الاحتكار الأمريكية. والثانى قيام عضوين من أعضاء مجلس الشيوخ الأمريكى بالتقدم بمشروع قانون يستهدف تمكين وزارة العدل الأمريكية ووكالة التجارة الأمريكية من إقامة الدعوى القضائية ضد أية دولة أجنبية، بما في ذلك الدول أعضاء أوبك، وذلك في حالة وجود اتفاق ينطوى على تواطؤ Collusion لتحديد أسعار البترول أو حجم إنتاجه.

ولم تكن هذه هى المرة الأولى التى يصدر فيها الادعاء الذى تضمنه قرار القاضى الفدرالى في ولاية ألباما. فقد صدر قرار مماثل في عام ١٩٧٩ ولكن محكمة الاستئناف في سان فرانسيسكو رفضت تأييده عام ١٩٨١ على أساس أنه ليس من اختصاصها النظر في مشروعية التصرفات السيادية لدول أجنبية ذات سيادة، كما تأكد هذا الاتجاه بحكم لاحق للمحكمة الأمريكية العليا. وقد استندت محكمة الاستئناف في قرارها المذكور إلى أن «السيادة الدائمة للشعوب والأمم على ثرواتها الطبيعية يعطيها الحق في أن تمارس استغلالها بما يحقق مصالح شعوبها.. وأن مساندة الولايات المتحدة لهذا المبدأ تنبع من قيامها بتنمية أراضيها ومواردها باعتبارها دولة ذات سيادة». وبناء على ذلك تسقط حجية القرار الذى أصدره قاضى ألباما لمخالفته لأحكام قضائية أمريكية ذات مستوى أرفع.

أما مشروع القانون الذى تقدم به عضوا مجلس الشيوخ الأمريكى (السناتور هيرب كوهل والسناتور مايك دوين) فلا تخفى طبيعته السياسية، كما تكمن دوافعه الحقيقية في المشاكل السياسية المحلية. كذلك لا يخفى أن مثل هذا الاتجاه يناقض أبسط المبادئ القانونية المعترف بها والتى تضمنتها العديد من قرارات الأمم المتحدة وأقرت فيها حقوق السيادة التى تتمتع بها الدول بالنسبة لمواردها الطبيعية. وليس من حق دولة، كبر شأنها أم صغر، أن تقاضى منظمة دولية تجارية تدافع عن المصالح المشتركة للدول التى أنشأتها. ومن الغريب أن يخرج السناتور كوهل لكى يحرض ضد أوبك بقوله إن الشعب الأمريكى يعانى كل يوم من مصاعب حقيقية نتيجة لتصرفات أوبك. كذلك يتابع السناتور دوين نفس النغمة التحريضية بقوله إنه طالما تركت أوبك لكى تتحكم في العرض العالمى للطاقة فإن علينا أن نتوقع المزيد من الصدمات والمزيد من المشاكل التى يعانى منها المستهلك الأمريكى.

والواقع أن الارتفاع الذى شهدته أسعار المنتجات البترولية في الأسواق الأمريكية خلال عام ٢٠٠٠ لم يكن مرجعه شحة أو نقص في العرض العالمى للبترول الخام. فقد كان البترول الخام المعروض في الأسواق الأمريكية يزيد على الاحتياجات، وإنما كان مرده أساسا، وكما سنبين فيما بعد، إلى قصور البنية الأساسية لقطاع الطاقة الأمريكى، وهو ما أدى إلى وجود أعناق زجاجات في بعض المنتجات المكررة مثل البنزين وغيره من مصادر الوقود. ويأتى في مقدمة أسباب القصور ما اتسمت به قوانين ونظم حماية البيئة الأمريكية من صرامة، وهو ما أدى إلى إلحاق الضرر بصناعة تكرير البترول التى فقدت نحو ٢,٧ مليون ب/ى من طاقتها على مدى السنوات العشرين الماضية. كذلك زاد من حدة المشكلة ما أصاب شبكات التوزيع المحلية من قصور وعجز عن مجاراة الاستهلاك المحلى المتزايد. وقد يتكرر الارتفاع الحاد في أسعار البنزين في الأسواق الأمريكية خلال صيف ٢٠٠١ لنفس الأسباب التى ذكرناها وليس للقصور في العرض المتاح من البترول الخام، ومع ذلك يلقى اللوم على أوبك.

فجوة الطاقة الأمريكية

من إجمالى الاستهلاك العالمى للطاقة بكافة مصادرها في عام ٢٠٠٠ والذى بلغ نحو ٨٧٥٣ مليون طن بترول معادل Ton of oil equivalent (Toe) انفردت الولايات المتحدة باستهلاك نحو ٢٢٧٩ مليون طن وهو ما يعادل نحو ٢٦٪ من الاستهلاك العالمى. وبعبارة أخرى فإن استهلاك الولايات المتحدة من الطاقة بكافة



مصادرها في العام المذكور كان يزيد على إجمالي إنتاج البترول وسوائل الغاز الطبيعي في دول أوبك مجتمعة بنحو ٥٠٪. وبوحدات قياس مختلفة، فقد ارتفع استهلاك الولايات المتحدة من الطاقة خلال الفترة ١٩٨٠–٢٠٠٠ من نحو ٧٨ إلى نحو ٩٨ كوادرليون (Quadrlion= Quad) وحدة حرارية بريطانية (British thermal unit=Btu كوادرليون = واحد صحيح وعلى يمينه ١٥ صفرا)، وهو ما يعادل نحو ٤٨ مليون ب/ى، أو ربع الاستهلاك العالمي من الطاقة عام ٢٠٠٠.

وفي مقابل هذا النمو السريع في استهلاك الطاقة ارتفع الإنتاج الأمريكي خلال الفترة ١٩٨٠–٢٠٠٠ من نحو ٦٧ Quad إلى ٧٢ Quad لكي تعاني الولايات المتحدة من فجوة عجز بين الإنتاج والاستهلاك تزايد اتساعها من نحو ١١ Quad إلى نحو ٢٧ Quad (أو ما يعادل نحو ١٣ مليون ب/ى) خلال الفترة المذكورة. بل إن الزيادة التي حققتها بعض مصادر الطاقة المحلية كالفحم والطاقة النووية لم تستطع تعويض الانخفاض المطرد في الإنتاج المحلي من الزيت الخام الذي تراجع من ١٠,٩ مليون ب/ى إلى ٩ ملايين ب/ى خلال الفترة ١٩٨٠–٢٠٠٠، لكي تتسع فجوة العجز البترولي من ٦,٢ مليون ب/ى إلى نحو ١٠,٥ مليون ب/ى، ولكي تقترب قيمة فاتورة الواردات البترولية من ١٠٠ مليار دولار كما ذكرنا.



وكانت كفاءة الطاقة في الولايات المتحدة قد تحسنت بفضل ما قامت بوضعه وتنفيذه من برامج صارمة لترشيد الطاقة وتحسين معاييرها، إنتاجا واستهلاكا، عقب حركة تصحيح أسعار البترول التي تحققت بفضل حرب أكتوبر ١٩٧٣ كذلك اقترن بتلك البرامج اتجاه الاقتصاد الأمريكي، شأنه شأن باقي الاقتصادات الصناعية الغربية، إلى إحلال الصناعات ذات الكثافة الخفيفة في استهلاك الطاقة محل الصناعات الكثيفة في استخدامها. وبذلك انخفض حجم الطاقة المستخدمة لإنتاج ما قيمته دولار واحد (بقيمة ثابتة) من الناتج المحلي الإجمالي GDP من نحو ١٨ ألف وحدة حرارية بريطانية (Btu) عام ١٩٧٣ إلى نحو ١٠ آلاف وحدة عام ١٩٩٩. ومع ذلك لا تزال الولايات المتحدة الأكثر إسرافا في استهلاك الطاقة بين نظائرها في المجموعة الصناعية الغربية، إذ لا يتجاوز حجم الطاقة المستهلكة في الاتحاد الأوروبي لإنتاج ما قيمته دولار نحو ٧٨٠٠ Btu . وبالنسبة للبترول بصفة خاصة لا يتجاوز استهلاك الاتحاد الأوروبي ثلثي ما تستهلكه الولايات المتحدة بالنسبة لكل وحدة من وحدات الناتج المحلي الإجمالي.

وإذ لا يتوقع أن تتحسن كفاءة الطاقة في الولايات المتحدة خلال المستقبل المنظور بنفس المعدلات التي تحققت إثر صدمة الأسعار خلال عقد السبعينيات، فإن استهلاك الولايات المتحدة من الطاقة بمختلف مصادرها يمكن أن يرتفع من نحو ٩٨ Quad وحدة حرارية بريطانية عام ٢٠٠٠ إلى نحو ١١٤ Quad عام ٢٠١٠ (وهو ما يعادل نحو ٥٧ مليون ب/ى بترول معادل) بمعدل نمو ١,٥٪ سنويا في المتوسط. وتشير الدراسات المتاحة إلى أنه ما لم يرتفع الإنتاج المحلي من البترول خلال السنوات العشر المقبلة، وهو احتمال ضعيف حتى على فرض فتح المناطق المغلقة للاستكشاف البترولي كما سنوضح فيما بعد، فإن الولايات المتحدة سوف تحتاج لاستيراد نحو ٣٨ Quad (كلها تقريبا بترول وغاز طبيعي) وهو ما يعادل نحو ١٨,٥ مليون ب/ى بترول معادل، أو ثلث استهلاكها الكلي من الطاقة بحلول عام ٢٠١٠.

أما إذا امتد أفق المستقبل إلى عام ٢٠٢٠ فيتوقع أن يرتفع استهلاك الولايات المتحدة من الطاقة بكافة مصادرها إلى نحو ١٢٧ Quad أو ما يعادل ٦٢ مليون ب/ى بترول معادل، بمعدل نمو ١,١٪ سنويا في المتوسط خلال الفترة ٢٠١٠–٢٠٢٠ وبذلك تزداد فجوة العجز الكلي في الطاقة، وبصفة خاصة في البترول الذي تشير أغلب الدراسات المتاحة إلى أن الإنتاج الأمريكي منه سوف ينخفض من نحو ٩ ملايين ب/ى عام ٢٠٠٠ إلى نحو ٨,٧ مليون عام ٢٠١٠ ثم يتعافى قليلا عند مستوى ٩,٣ مليون ب/ى بحلول ٢٠٢٠. بينما يتوقع أن يرتفع الاستهلاك الأمريكي من نحو ١٩,٥ مليون ب/ى عام ٢٠٠٠ لكي يبلغ نحو ٢٢,٦ مليون ب/ى عام ٢٠١٠ ونحو ٢٥,٨ مليون ب/ى عام ٢٠٢٠ وبذلك تتسع فجوة العجز البترولي من ١٠,٥ مليون ب/ى إلى نحو ١٦,٥ مليون ب/ى خلال الفترة ٢٠٠٠–٢٠٢٠.

كذلك تعاني الولايات المتحدة من عجز في الغاز الطبيعي، وإن كان أخف مما هو عليه الحال في البترول. ولعل مما يطمئن الولايات المتحدة أن جارتها كندا تتمتع بوفرة في احتياطات وإنتاج الغاز الطبيعي وإن تكلفته فيها أقل منها في الولايات المتحدة مما يؤمن احتياجاتها المستقبلية منه، كما سنوضح فيما بعد.

بلغة أكثر صراحة فإن الولايات المتحدة أخذت تبحث عن كيفية نقل جانب من عبء الفاتورة المتصاعدة لوارداتها البترولية، ولواردات المجموعة الصناعية الغربية بالتبعية، إلى الدول المصدرة للبترول وأغلبها دول نامية تعتبر عائداتها البترولية العمود الفقري في تمويل احتياجاتها



ولا تحقق الولايات المتحدة فائضا في غير الفحم الذي ارتفع إنتاجه المحلي خلال الفترة ١٩٨٠–٢٠٠٠ من ٨٣٠ مليون طن إلى ١١١١ مليون طن. غير أن استهلاكه المحلي قد شهد نموا أسرع إذ قفز خلال الفترة المذكورة من ٧٠٣ ملايين طن إلى ١٠٨٠ مليون طن، وبذلك تقلص الفائض القابل للتصدير من ١٢٧ مليون طن إلى ٣١ مليون طن خلال الفترة المذكورة.

وتثير الفجوة البترولية المتزايدة مخاوف الولايات المتحدة، إذ ترغمها على الاعتماد على مناطق غير مستقرة سياسيا مثل منطقة الشرق الأوسط التي تعتمد عليها لتوفير نحو ٢٢٪ من وارداتها البترولية، ويتوقع أن تتزايد تلك النسبة مستقبلا. وبالطبع تتناسى الولايات المتحدة أن سياستها المؤيدة تأييدا مطلقا للعدوان الإسرائيلي تعتبر من أهم أسباب عدم الاستقرار في المنطقة.

قصور البنية الأساسية للطاقة

ولا تنتهي مشاكل الولايات المتحدة عند حدود اتساع فجوة استيراد الطاقة، بل تعاني بنية الطاقة الأساسية من تهالك أجزاء مهمة فيها ومن قصور في الاستثمار اللازم لتجديدها وتوسيع إمكانياتها بما يجعلها تواكب الزيادة المطردة في الاستهلاك المحلي. ومن ذلك ما تبين أثناء أزمة الطاقة الأخيرة في ولاية كاليفورنيا من أوجه القصور في محطات توليد الكهرباء وخطوط نقلها وتوزيعها وأيضا في خطوط أنابيب نقل الغاز الطبيعي. فقد اتضح أنه على الرغم من وجود فوائض للطاقة في بعض الولايات الآن إمكانيات نقلها إلى الولايات التي تعاني من عجز فيها يصطدم بعجز في خطوط النقل. كذلك تعاني صناعة البترول الأمريكية من قصور مماثل في تدبير الاستثمار اللازم لرفع كفاءتها. فمعامل التكرير، فضلا عن تقادم الكثير منها، صارت تعمل بكامل طاقتها معظم أيام السنة مما أدى إلى إرهاقها وتوقف الكثير منها توقفا غير مخطط. كذلك الحال بالنسبة لخطوط أنابيب نقل البترول التي تعمل بكامل طاقتها لدرجة تعذر معها نقل البترول المتوفر في الخليج الأمريكي إلى الولايات الواقعة في وسط القارة نتيجة لامتلاء تلك الخطوط.

وسوف نحاول فيما يلي إلقاء الضوء على بعض ما تعانيه الولايات المتحدة من مشاكل في قطاعات الطاقة الأساسية وهي البترول والغاز الطبيعي والكهرباء، وإن كانت القطاعات الثلاثة تشترك في مشاكل رئيسية وهي عدم توفر الاستثمار الكافي لتوسيع إمكانياتها ورفع كفاءتها.

مشاكل قطاع الكهرباء

يبلغ استهلاك الولايات المتحدة نحو ٣,٦ تريليون كيلووات ساعة سنويا، وهو ما يعادل نحو ٦ ملايين ب/ى بترول معادل. وعلى حين كان ذلك الاستهلاك ينمو بمعدل ٣٪ سنويا في المتوسط خلال السنوات العشر الأخيرة، فإن معدل نمو إمكانيات توليد الكهرباء لم يتجاوز ١,٥٪ سنويا في المتوسط مما ألجأ الولايات المتحدة إلى استيراد جانب من احتياجاتها من جارتها كندا. لذلك وأخذا في الاعتبار أن الكثير من محطات توليد الكهرباء في الولايات المتحدة قد تجاوز عمره الافتراضي، فإن ما يعمل منها يشغل بما يتجاوز الأحمال المقبولة فنيا، وهو ما يؤدي إلى توقف غير مخطط وبالتالي توزيع انقطاع الكهرباء بالدور على مختلف الأحياء مما يعرف اصطلاحا ب Rolling black-out . ذلك لأن الكهرباء على خلاف البترول لا يمكن تخزينها في وقت انخفاض الطلب لكي تستخدم في أوقات ارتفاع الطلب. ومن هنا ينبغي الاحتفاظ بوحدات لتوليد الكهرباء تكفي لمواجهة حمل الذروة الذي يتمثل في أعلى مستوى يبلغه الاستهلاك الكهربائي في أية لحظة ليلا أو نهارا طوال العام. وفي الولايات المتحدة تقع تلك اللحظة في العادة خلال أشهر الصيف نتيجة لكثافة استخدام أجهزة تكييف الهواء. ففي العام الماضي بلغ التفاوت في الذروة الشهرية للطلب على الكهرباء نحو ٣٠٪ إذ بلغت تلك الذروة ٢٤٥ مليار كيلووات ساعة في ابريل بينما ارتفعت إلى ٣٣٠ مليار كيلووات ساعة خلال أغسطس. ومعنى ذلك أنه يلزم لمواجهة تلك الفجوة إقامة محطات لتوليد الكهرباء تبلغ طاقتها نحو ٧٠ مليار وات Gigawatt أو ما يعادل ١٠٪ من إجمالي القدرة المركبة في الولايات المتحدة. ومع أن بعض المناطق تحتفظ بوحدات لتوليد الكهرباء تزيد على احتياجاتها الآن وجود اختناقات في شبكة نقل الكهرباء يعوق نقل الفائض إلى ولايات مجاورة تعاني من انقطاع التيار في أوقات الذروة. ومن أمثلة ذلك عدم إمكانية نقل فائض الكهرباء من شرق كندا إلى ولاية نيويورك التي اضطرت إلى الاعتماد على إمكانياتها المحلية لمواجهة نحو ٨٠٪ من احتياجاتها بدلا من الربط الكهربائي مع مناطق الفائض. وقد فتح الترخيص بتجارة الجملة في التيار الكهربائي المجال لنقل الفوائض عبر مسافات طويلة بين الولايات والمدن بحيث ارتفع حجم تلك التجارة من لاشيء تقريبا عام ١٩٩٤ إلى نحو ٨٠٠ مليار كيلووات ساعة عام ١٩٩٩. وإذ تقدر الاحتياجات الجديدة من الخطوط اللازمة لمواجهة الطلب المتزايد على الكهرباء في الولايات المتحدة على مدى السنوات العشر القادمة بنحو ٣٠ ألف ميل، إلا أن ما تم التخطيط لإقامته بالفعل لا يتجاوز ربع تلك المسافة. كذلك تعاني الشبكة القومية لخطوط الكهرباء من انقسامها إلى ثلاث شبكات إقليمية كبرى وهي الشرق والغرب والجنوب. ومع أن شبكتي الشرق والغرب ترتبطان كل على حدة بالشبكة الكندية كما ترتبط الشبكة الجنوبية بالمكسيك، إلا أنه لا يوجد من خطوط الضغط العالي ما يربط بين الشبكات الأمريكية الثلاث، وهذا ما يضعف قدرتها على تبادل الفوائض وتغطية العجز فيما بينها. ويرجع هذا الانقسام إلى أن شبكات الكهرباء بدأت تاريخيا على أسس محلية بحيث تخدم كل شبكة احتياجات الولاية أو المدينة التي أنفقت على إقامتها. أما الآن، وإدراكا لأهمية الربط بين مناطق الفائض ومناطق العجز فإن السياسة القومية للطاقة National Energy Policy تستهدف إخضاع إقامة خطوط الضغط العالي لإشراف الحكومة الفدرالية.

وتعتمد الولايات المتحدة في الوقت الحاضر على الفحم لتوليد ما يقرب من نصف احتياجاتها من الكهرباء (ومع ذلك ترفض الانضمام لبروتوكول كيوتو الذي يستهدف تحجيم المبثعثات الكربونية الملوثة وتلقي اللوم على الصين والهند لكثافة استخدامهما للفحم كما تطالبهما بالالتزامات كيوتو رغم أنهما معفيان منها باعتبارهما دولتين ناميتين).

مشاكل الغاز الطبيعي

بلغ استهلاك الولايات المتحدة من الغاز الطبيعي عام ٢٠٠٠ نحو ٦٤٠ مليار متر مكعب bcm بينما لم يتجاوز إنتاجها المحلي منه نحو ٥٤٧ bcm. وبذلك بلغ صافي وارداتها من الغاز الطبيعي في العام المذكور نحو ٩٦ bcm عبرت كلها تقريبا حدود كندا التي تتمتع باحتياطات تبلغ نحو ١٨٠٠ bcm يمكن استخلاصها بتكلفة تقل عن نظيرتها في الولايات المتحدة. وقد ظلت فجوة الاستيراد في الولايات المتحدة تتسع بحيث ارتفعت خلال الفترة ١٩٨٠–٢٠٠٠ من نحو ٨,٥ bcm إلى ٩٦ bcm، كما يتوقع أن تستمر في الاتساع خلال المستقبل المنظور. فوفقا للدراسات المتاحة، ونظرا لما يتمتع به الغاز الطبيعي من مزايا بيئية وكفاءة في توليد الكهرباء وغيرها من الاستخدامات، يتوقع أن يبلغ استهلاك الولايات المتحدة بحلول عام ٢٠٢٠ نحو



٩٨٠ bcmوهو مـــا يزيد بنحـــو ٥٠٪ فـــوق استهلاكها الحالى، بينما لا يتوقع أن يتجاوز إنتاجها المحلى منه نحو ٨٠٠ bcm وبذلك تتسع فجوة الاستيراد إلى نحو ١٨٠ bcm أو ما يقرب من مثلى حجمها الحالى.

ويتوقع أن يتجه نحو ثلثى الزيادة المتوقعة فى استهلاك الغاز الطبيعى خلال الفترة المذكورة إلى قطاع الكهرباء بحيث يرتفع نصيب الغاز فى توليد الكهرباء خلال الفترة ٢٠٠٠-٢٠٢٠ من نحو ١٨٠ bcm إلى نحو ٣٠٠ bcm . ويرجع هذا النمو السريع فى التوليد باستخدام الغاز الطبيعى إلى ما يتمتع به الغاز من صفات بيئية حميدة، وأيضا نتيجة للثورة التكنولوجية التى طورت نظام الدورة المركبة المعتمدة على الغاز وارتفعت بفضلها كفاءة التوليد بنحو ٥٠٪ منذ عام ١٩٩٠.



ومع أن السياسة القومية للطاقة تستهدف، فى الأجل البعيد، تنشيط الاعتماد على الطاقة النووية والتوليد باستخدام الفحم بعد تنقيته من المبتعثات الملوثة، إلا أن معارضة أنصار البيئة سوف تشتد صلابة، وهو ما ينطوى على مساندة قوية لاستخدام الغاز الطبيعى كبديل آمن وأنظف بيئيا. والواقع أن الغاز الطبيعى سوف يحتاج لمثل هذه المساندة، إذ تتأثر تنمية حقوله وحجم إنتاجه بمستوى السعر السائد فى الأسواق. وعلى سبيل المثال فقد ظل سعره عند رأس البئر فى الولايات المتحدة يتراوح بين ١,٥-٢ دولار لكل مليون وحدة حرارية بريطانية منذ عام ١٩٨٦ ومن ثم لم يتجاوز عدد الآبار التى تم استكمالها نحو ٩٠٠٠ بئر سنويا فى المتوسط. فلما قفز السعر عام ٢٠٠٠ إلى نحو ٣,٦٠ دولار قفز معه عدد الآبار التى استكملت فى العام المذكور من نحو ١٠ إلى ١٥ ألف بئر. ولا تقتصر تلك الحالة على الولايات المتحدة وحدها، بل ينبغى أن يرتفع سعر الغاز الطبيعى فى أسواق تصديره فى المناطق الأخرى بحيث يضمن تحقيق ربح يناظر على الأقل ما يحققه إنتاج وتصدير البترول والذى تتخذ أسعاره فى العادة مؤشرا لأسعار الغاز ولكن الأرباح الصافية للغاز تقل كثيرا عنها فى حالة البترول نتيجة لعوامل فنية واقتصادية لا مجال لشرحها.

وفى الوقت الحاضر، يعانى قطاع الغاز الطبيعى فى الولايات المتحدة من التقلب الشديد فى مستوى الاستهلاك تبعا لاختلاف فصول العام، إذ يستخدم جانبا كبيرا منه فى القطاع المنزلى وبصفة خاصة فى التدفئة المنزلية. ومن ذلك أن استهلاك الغاز الذى بلغت ذروته فى هذا القطاع خلال يناير من العام الماضى عند ٢٦ bcmلم يتجاوز ٣,٤ bcm خلال شهر يوليو من العام المذكور. ومن هنا يلزم لمواجهة أوقات الذروة الاحتفاظ بمخزون كاف وذلك بالإضافة إلى تشغيل الحقول بمعدلات مرتفعة. وفى العام الماضى تزامنت موجة قارسة البرودة مع تشغيل خطوط نقل الغاز من حقوله إلى مراكز استهلاكه بكامل طاقتها فى دفع أسعار الغاز إلى مستويات عالية. وهذا ما تسبب أيضا فى تقاعس تجار الغاز عن الاحتفاظ بمخزون كاف لارتفاع السعر، مما أدى بدوره إلى تصعيد السعر للمستهلك النهائى وارتفاع الشكوى حول وجود أزمة للطاقة فى الولايات المتحدة.

هل ينتقل إلى دول أوبك جانب من أعباء الأزمة الأمريكية؟

شرحنا فيما تقدم عينة من المشاكل الناتجة عن قصور البنية الأساسية لقطاع الطاقة فى الولايات المتحدة. ومن الواضح أن تلك المشاكل ترجع إلى عوامل داخلية وليست راجعة إلى الدول التى تستورد منها الولايات المتحدة احتياجاتها من الطاقة كما تدعى الأصوات المنادية بإخضاع دول أوبك للقضاء الأمريكى بحجة مخالفتها لقوانين مكافحة الاحتكار.

والسؤال الذى يطرح نفسه الآن هو : ما الذى يمكن أن ينعكس من تلك الأزمة على الدول المصدرة للبترول وبالأخص الدول العربية عموما ودول الخليج بصفة خاصة؟

يخضع العرض العالمى للبترول الخام لعدد من المحددات يأتى فى مقدمتها الطلب على البترول وسعره. كذلك يتحدد العرض بالإمكانيات الإنتاجية المتاحة فى الحقول فى وقت معين. وليس معنى توافر احتياطات بترولية كبيرة أن يصبح من السهل زيادة الإنتاج فور ارتفاع الطلب، إذ يلزم تنمية الحقول المكتشفة وتزويدها بالوسائل القادرة على استخلاص البترول من باطن الأرض ومعالجته وتخزينه وضخه حتى سطح الناقلة أو موقع المصفاة. وحتى إذا توفرت الامكانيات الإنتاجية فإن معدل الإنتاج لا يصح أن يتجاوز المستوى الذى تحدده الاعتبارات الفنية، وهو ما يعرف بالحد الأعلى لمعدل الإنتاج الرشيد Maximum efficient rate (MER) . ومن شأن المبالغة فى الإنتاج فوق هذا المستوى الإضرار بالخزان الأرضى والتأثير سلبيا على حجم ما يمكن استخلاصه من البترول على مدى عمر الحقل وهو ما يعرف بمعامل الاستخلاص Recovery Factor . كذلك يتحدد العرض بسياسة الدولة المنتجة للبترول ومدى حاجتها إلى البترول لمواجهة استهلاكها المحلى، أو لتصديره تحقيقا لمورد نقدى يلبى احتياجاتها المالية، أو للاحتفاظ به لمواجهة احتياجات أجيال المستقبل. ويدخل فى هذا الإطار السياسة الجماعية التى تقررها أوبك بالنسبة لتحديد سقف الإنتاج وتوزيع الحصص بين الأعضاء تبعا لمستوى الأسعار السائدة فى الأسواق العالمية.



وفى ظل السيطرة شبه المطلقة لشركات البترول العالمية خلال الفترة التى أعقبت الحرب العالمية الثانية وحتى مطلع السبعينيات كان حجم الإنتاج يتحدد بما تقرره تلك الشركات استجابة للطلب العالمى المتسارع بقصد إعادة بناء اقتصادات الدول الصناعية التى دمرتها الحرب. وكانت احتياطات الشرق الأوسط جاهزة، خاصة بعد أن تدنت أسعار البترول خلال تلك الفترة فى صورتها الحقيقية إلى نحو ٧٠ سنتا للبرميل بدولارات عام ١٩٤٧، ومن ثم ارتفع إنتاج البترول العربى من نحو مليون ب/ى عام ١٩٥٠ إلى نحو ٢٢,٥ مليون ب/ى عام ١٩٧٩ وهو عام الذروة. ومن هنا يمكن اعتبار البترول العربى شريكا فعليا فى النهضة الصناعية التى تحققت فى أعقاب الحرب العالمية الثانية.

فهل تتكرر التجربة مرة أخرى خلال المستقبل المنظور بحيث تمارس المجموعة الصناعية الغربية بقيادة الولايات المتحدة الضغط على الدول المصدرة للبترول لضخ احتياجاتها من البترول مع الإبقاء على أسعاره عند مستوى منخفض مساندة لاقتصادات الدول الصناعية؟

تستهدف توجهات الهيئات البحثية الغربية أن تقوم أوبك بدور المنتج المكمل Residual producer، بمعنى توسيع طاقتها الإنتاجية، وخاصة فى منطقة الخليج العربى، بحيث تقوم بسد الفجوة بين الإنتاج خارجها وبين الاحتياجات العالمية المتزايدة من البترول، وبالأسعار التى تلائم مصالح الدول الغربية التى تستورد نحو ثلاثة أرباع الواردات البترولية العالمية.

وكما يتضح من الدراسات المتاحة، يتوقع أن ترتفع الطاقة العالمية لإنتاج البترول من نحو ٧٩ مليون ب/ى عام ١٩٩٨ (مقارنة بإنتاج فعلى ٧٥ مليون ب/ى) إلى نحو ١١٥ مليون ب/ى عام ٢٠٢٠. ووفقا لتلك التوقعات ينبغى أن ترتفع طاقة أوبك الإنتاجية من نحو ٣٤ مليون ب/ى عام ١٩٩٨ إلى نحو ٥٩ مليون ب/ى عام ٢٠٢٠. وبذلك يرتفع نصيب بترول أوبك الموجه لسد احتياجات العالم من نحو ٤٤٪ عام ١٩٩٨ إلى ٥١٪ عام ٢٠٢٠.

وفى داخل أوبك توجد ست دول فقط ممن سيكون لديها القدرة على توسيع وتنمية طاقتها الإنتاجية بحيث ترتفع من نحو ٢٧ مليون ب/ى عام ١٩٩٨ إلى نحو ٥٠ مليون ب/ى عام ٢٠٢٠. وهذه الدول الست هى السعودية والإمارات والكويت والعراق وإيران، ثم فنزويلا. أما باقى أعضاء أوبك، فلا يتوقع أن تتجاوز طاقتها الإنتاجية مجتمعة نحو ٩ ملايين ب/ى خلال الفترة ٢٠١٠-٢٠٢٠، وإن تغير نصيب كل دولة فى ذلك المجموع.

وإذا أضيف إلى الدول الأربع العربية داخل مجموعة الستة الكبار من سوف تسعفه احتياطياته من البترول للمساهمة فى الإمدادات العالمية مثل عمان والجزائر وليبيا، فإن إنتاج البترول العربى يمكن أن يرتفع من نحو ٢٠ مليون ب/ى فى الوقت الحاضر إلى نحو ٤٠ مليون ب/ى بحلول ٢٠٢٠. وبإضافة إنتاج إيران المقدر بنحو ٥,٥ مليون ب/ى عام ٢٠٢٠، فإن المنطقة العربية، ومعها إيران، يمكن أن تمد العالم بنحو ٤٠٪ من احتياجاته، أو ما يعادل ٦٠٪ من الصادرات البترولية العالمية خلال العام المذكور.

هذه هى توجهات أغلب الهيئات البحثية الغربية والتى تفترض أن أوبك سوف تلعب دور المنتج المكمل، وأن إمكانياتها البترولية سوف تتسع لكى تفى باحتياجات العالم المتزايدة عند الأسعار المتدنية التى تبنتها افتراضات تلك الهيئات.

غير أن وكالة الطاقة الدولية IEAالتى تضم وتخدم مصالح الدول الصناعية الغربية، تتبنى توجها مختلفا، وهو فى نظرنا الأقرب للواقع. إذ تفرق الوكالة بين ما تطلق عليه البترول التقليدى والبترول غير التقليدى Unconventional Oil. وتتوقع الوكالة أن يبلغ إنتاج البترول التقليدى ذروته فى منتصف العقد الثانى من القرن الواحد والعشرين (أى حوالى ٢٠١٥) ليبدأ بعد ذلك مرحلة النضوب الطبيعى تدريجيا. وتصنف الوكالة تحت تعريف البترول غير التقليدى ما يمكن تقديره فى الوقت الحاضر مثل السوائل التى تستخلص من الغاز الطبيعى بغير الطرق الصناعية المعقدة NGLsومثل فوائض التكرير Processing gains والبترول المستخلص من الطفل البترولى Oil shale ومن رمال القار Tar sands ومن الفحم والكتلة الحيوية..إلخ، وتتوقع الوكالة أن يرتفع إنتاج البترول غير التقليدى، والذى يمكن تقديره فى ضوء الظروف السائدة فى الوقت الحاضر، من نحو ٩,٣ مليون ب/ى عام ١٩٩٦ إلى نحو ٢٠ مليون ب/ى عام ٢٠٢٠.

فى ضوء هذا التعريف يبلغ إجمالى العرض العالمى من البترول بنوعيه نحو ٧٢ مليون ب/ى عام ١٩٩٦، موزعا بين ٦٢,٧ مليون ب/ى بترولا تقليديا، ونحو ٩,٣ مليون ب/ى بترولا غير تقليدى.

أما ما يحتاجه العالم لكى يفى باحتياجاته البترولية عام ٢٠٢٠ فتقدره وكالة الطاقة الدولية بنحو ١١١ مليون ب/ى يفى البترول التقليدى منه بنحو ٧٢ مليون ب/ى، كما يفى البترول غير التقليدى، والمعروفة مصادره حاليا، بنحو ٢٠ مليون ب/ى، ويبقى بعد ذلك نحو ١٩ مليون ب/ى وهو ما ينبغى توفيره من مصادر غير تقليدية وغير معلومة فى الوقت الحاضر Unidentified unconventional oil.

وإذ يتركز اهتمام الهيئات البحثية الغربية بمصالح الدول الصناعية الغربية، فإنها تتوقع أن يرتفع استهلاكها البترولى بحلول عام ٢٠٢٠ إلى نحو ٥٥ مليون ب/ى، وأن تبلغ فجوة العجز فى ذلك الاستهلاك نحو ٣١ مليون ب/ى (منها نحو ١٦,٥ مليون ب/ى فى الولايات المتحدة). وإذ ترى تلك الهيئات أيضا أن المجموعة الصناعية الغربية سوف تعتمد على دول أوبك الواقعة فى منطقة الشرق الأوسط لتوفير نحو ٧٦٪ من وارداتها البترولية بحلول ٢٠٢٠، وأن المنافسة قد تحتدم للحصول على البترول من جانب الدول النامية، فإنها تدعو الدول الصناعية الغربية لاتخاذ التدابير اللازمة لمواجهة مثل هذا الموقف.

ولا يبقى بعد ذلك إلا أن تستعد الدول المصدرة للبترول، وبصفة خاصة دول الخليج العربى ومعها باقى الدول العربية، لكى تقاوم الضغط الذى قد تمارسه عليها المجموعة الصناعية الغربية بقيادة الولايات المتحدة، سواء بقصد تحميل حقولها ما لا تحتمله من الإنتاج فوق طاقتها مما ينطوى على الإضرار بمعامل الاستخلاص، أو بقصد الإبقاء على أسعار البترول عند مستويات منخفضة خدمة للاقتصادات الغربية التى تستوعب ثلاثة أرباع الواردات البترولية العالمية. ■



من الغـــلاف إلي الغـــلاف

قرات (من الغلاف إلي الغلاف) عدد الشهر الماضى من مجلة وجهات نظر. واود أن اهنئكم بالتوفيق الذى يحالفكم دائمًا في الإشراف علي إصدار هذه المجلة الراقية. وهو جهد كبير أعرف قدره، وأعهد فيكم الموهبة والكفاءة والقدرة علي القيام به.

مقال هيكل رائع جدًا، عميق وشامل ودقيق ومفيد للغاية. كذلك مقال (الصياد) بالغ الأهمية ويحتوى علي معلومات قيمة. أعانكم الله.

مع أطيب التحيات ووافر الاحترام والتقدير.

عبد القادر الإدريسى
المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة
الربـــاط



أفـــضل مـــقـــال

أعتبر نفسى أحد القراء «العاشقين» لمجلة «وجهات نظر» منذ صدور عددها الأول في فبراير ١٩٩٩، وحتى الآن ودائمًا ما تحظى المقالات المنشورة فيها بإعجابى الشديد.

وقد قرأت في عدد أكتوبر الماضى من المجلة مقال الأستاذ الكبير محمد حسنين هيكل بعنوان «حريق أمريكى وعالمى» الذى أعتقد أنه افضل مقال على الإطلاق تناول ما حدث في ١١ سبتمبر الماضى في واشنطن ونيويورك والملابسات المحيطة بذلك. وقد أبدى عديد من معارفى الأجانب إعجابهم بالمقال بعد أن أبلغتهم بمحتوياته. وأتساءل هل أطمع في ترجمة إنجليزية لهذا المقال القيم؟

عمرو السالم
القاهرة



السـفـارة البـريطانيـة وعـبـد الناصـر

باعتبارى قارئًا مستديمًا لمجلتكم الرائدة التى تخاطب قطاعاً من صفوة المثقفين ويهمنى كما يهم باقى القراء الحفاظ على المستوى المتميز لما ينشر بها، أرجو استرعاء النظر إلى الأخطاء الآتية والتى جاءت فى مقال السيد/ خالد الحروب عن «دور السفارة البريطانية فى زعزعة نظام عبدالناصر» والمنشور بالعدد ٣٣ الصادر فى أكتوبر الماضى.

أولاً: جاء بالفقرة الأخيرة من صفحة ٥٠ «وقد استطاع إيدن إقناع روزفلت ايزنهاور الرئيس الأمريكى. وصحة الاسم كما تعلمون هو دوايت أيزنهاور.

ثانياً: جاء بالفقرة الأخيرة من العمود الثالث بصفحة ٥٢ «يروى دونالد لوجان انه غادر لندن صبيحة يوم ٢٢ ديسمبر ١٩٥٦ برفقة.....» ولا يمكن أن يكون هذا التاريخ صحيحاً لأن الاعتداء الثلاثى بدأ فى ٢٨/١٠/١٩٥٦ وأن اتفاق سيفر لابد أن يكون قد تم فى وقت سابق.

ثالثاً: جاء فى الفقرة الأولى فى نهاية العمود الأول من صفحة ٥٣ «لكنه كان مضطراً لأن ينفذ تعليمات مرؤوسيه فى الخارجية فى لندن، وأعتقد أن المقصود هو رؤسائه وليس مرؤوسيه.

رابعاً: الجملة الأخيرة من العمود الرابع بصفحة ٥٣ «مستشاراً سياسياً لقائد قوات الحلفاء» تكرر ورودها فى أول العمود الأول من صفحة ٥٤.

إننى على قدر سرورى لصدور هذه المجلة التى ملأت فراغاً ثقافياً فى وقت راجت فيه الصحف والمجلات الصفراء، يجىء حرصى على دقة المعلومات والبيانات التى تنشر بها.

على دبوس
عضو مجلس الإدارة المنتدب
المصرف العربى الدولى



بين ثقـافـة المقـاومـة وأزمـة الســويس

لدى ملاحظات على بعض أخطاء تاريخية وردت فى مقالين فى عدد اكتوبر ٢٠٠١ من المجلة، أوجزها فيما يلى:-

- المقال الأول هو: «ثقافة المقاومة» للدكتور حسن حنفى:

* أشار الكاتب إلى «قوانين يوليو الاشتراكية ١٩٦٢-١٩٦٣»، والواقع أن أول هذه القوانين (أو على الأصح القرارات) صدر فى يوليو ١٩٦١.

* ذكر أن الثورة اليمنية قامت فى ١٩٦٤، وهذا خطأ، فثورة اليمن قامت فى ١٩٦٢، وبالتحديد فى ٢٦ سبتمبر من العام المذكور.

* مؤتمر باندونج عقد فى ١٩٥٥ وليس ١٩٠٥ كما ورد بالمقال (وأعتقد أن هذا خطأ مطبعى).

* أشار إلى «حرب الاستنزاف ١٩٦٩-١٩٧٠»، والواقع أن حرب الاستنزاف بدأت بعد فترة قصيرة من وقوع النكسة فى ١٩٦٧ أو فى أوائل ١٩٦٨ على أقصى تقدير.

* أشار الكاتب إلى «قرارات سبتمبر ١٩٨٠ والتى أدت إلى تصفية رأس النظام فى أكتوبر ١٩٨٠» على حد قوله - والسنة التى يقصدها الكاتب هنا هى ١٩٨١ وليست ١٩٨٠.

- المقال الثانى بعنوان: «دور السفارة البريطانية فى زعزعة نظام عبد الناصر» للأستاذ خالد الحروب:

* ذكر الكاتب أن الرئيس عبد الناصر أعلن تأميم «شركة» قناة السويس فى ٢٦ يونيه «حزيران» ١٩٥٦، وهذا خطأ طبعًا، والتاريخ الصحيح هو ٢٦ يوليو «تموز» ١٩٥٦.

* أشار إلى السفير البريطانى فى تلك الفترة مرة على أنه «مايكل تريفلين» ومرة أخرى على أنه «همفرى تريفليان»، والاسم الأخير هو الصحيح. وبالمناسبة كانت الصحف تكتب اسمه هكذا: تريفليان (Tre-velyan).

* يقول الكاتب: «استطاع إيدن إقناع روزفلت أيزنهاور الرئيس الأمريكى...»، وهذا خطأ آخر، فالرئيس المقصود كان اسمه دوايت أيزنهاور.

* أشار الكاتب إلى موشيه ديان على أنه وزير الدفاع الإسرائيلى آنذاك، وفى موضع آخر من المقال يقول إنه كان رئيس الأركان الإسرائيلى. وديان كان بالفعل رئيس الأركان فى ١٩٥٦، كما كان وزير الدفاع أثناء حرب ١٩٦٧.

* وزير الخارجية الفرنسى فى تلك الحقبة كان اسمه «كريستيان بينو» (Pineau) وليس «بينيو»، كما جاء بالمقال.

* يشير الكاتب إلى «غزو الاتحاد السوفيتى لتشيكوسلوفاكيا فى أوج أيام حرب السويس...»، وهذا خطأ، فالدولة التى كان المفروض أن يذكرها الكاتب هنا هى المجر وليس تشيكوسلوفاكيا، وشكرًا.

د. شعبان عبد العزيز عفيفى
كلية الدراسات التجارية - الكويت



التـجــربـة الإيرانيــة

طالعت بشغف واهتمام مقال «إيران.. من الرصاصة إلى صندوق الانتخابات» بمجلتكم «وجهات نظر» للدكتور محمد الرميحى، فى عدد شهر سبتمبر الماضى. حيث برهن من جديد على النظرة الثاقبة للكاتب وسعة الأفق والفهم المعمّق الذى يمتاز به قلمه من خلال إسهامه وإثرائه للفكر العربى المعاصر مدعمًا بمنهجية ثقافية رائدة وصفاء ورقة تكتنز العِبَر وتختزن الفكر.

إن قراءَة كل حرف من المقال تساهم فى استجلاء الغامض والإفصاح عنه بشفافية تنتشل الحقيقة من بئرها العميقة كى تغدو نبعًا مشاعًا.

ولقد أرسلنا نسخة من المقال إلى إيران لتطّلع عليه النخب الفكرية والأدبية.

على جنتى
سفير الجمهورية الإسلامية
الإيرانية فى الكويت



الطريق الصحيح للنهضة

فى البداية أحب أن أوجه شكرى الخاص للأستاذ الفاضل محمد حسنين هيكل الذى يمتعنا بمقالاته التى نستكشف بها الواقع ونستشف بها المستقبل، كما أوجه الشكر لكل العاملين على إخراج وردة القراء «وجهات نظر».

لقد قرأت بشغف مقال الأستاذ: سلامة أحمد سلامة (ليس بالمال وحده ينهض الفكر العربى) ولى تعليق على المقال لأن الموضوع يحتل اهتمام كل عربى. الكل يتفق على أن النقطة الفاصلة فى عملية النهضة العربية هى الديمقراطية وليست بالطبع الديمقراطية الشكلية ولا ديمقراطية النباح، ولكن ديمقراطية التغيير وتداول السلطة. فقد تتصور بعض الأنظمة أنها تمنح شعوبها الديمقراطية عن طريق النقد على صفحات الصحف ولكن ذلك لا يعدو كونه ديكورًا زائفًا لمولد أسيادى من رعاة الديمقراطية المعهودة فى وطننا العربى الشقى.

نحن فى حاجة إلى ديمقراطية تحترم حقوق الإنسان، حقه فى الحياة، حقه فى التعبير عن رأيه باى صورة كانت سواء كان بالإضراب أو الاجتماع أو الكتابة والنشر.

وحين تتوافر الديمقراطية بشقيها السياسى والاجتماعى «العدالة الاجتماعية»، نستطيع أن نتخلص من عيون المجتمع العربى وخاصة ونحن نعانى من عدة مشكلات أهمها:

١- الأمية الأبجدية والثقافية: حيث تعانى من ارتفاع نسبة الأمية الأبجدية، فمصر على سبيل المثال بها ٤٩٪ غير متعلمين ناهيك عن الأمية الثقافية بين المتعلمين أنفسهم.

٢- تنامى الفكر الرجعى - الذى تتبناه تيارات متعصبة باسم الدين وزادت تلك المشكلة حين اعتمدت السلطة فى بداية السبعينيات عليها للقضاء على تيار اليسار وكافة العقول المستنيرة من مختلف التيارات وتجلت خطورة تلك التيارات بهجومها على نجيب محفوظ، واغتيال فرج فودة، وإقامة دعاوى الحسبة، والتفريق بين الأزواج، وآخرها كانت قضية د. نوال السعداوى وشريف حتاتة، وقبلهما كانت قضية د. نصر أبوزيد ود/إبتهال يونس، وغيرها من حملات التكفير والتشهير ضد كل مفكر تجاسر بعرض فكره.

٣- التخلف العلمى والتكنولوجى

المشكلة الثالثة والتى تحتاج منا جهود عملاقة، عملية البحث العلمى وضع التكنولوجيا لا استيرادها، فإذا أخذنا على سبيل المثال مصر تجد أن ميزانية البحث العلمى فيها أقل من ٢,٠٪ وفى المقابل ميزانية إسرائيل فى نفس المجال ٣٪ من الدخل القومى، والمؤسف أن ٨٠٪ من ميزانية البحث العلمى بمصر مخصص للمرتبات والبدلات رغم وجود ثروة بشرية هائلة فى مصر.

فهل سنحقق نهضتنا المرجوة بالحرية والعدالة والتكنولوجيا أم سنبقى على منطق الطبلة والربابة؟!

عصام شعبان حسن تريك
كلية الخدمة الاجتماعية - الفرقة الثالثة
جامعة أسيوط

عـــــروض مـــوجـــزة

كتب عربية

المرأة الكويتية والمشاركة السياسية

محمد منيف محمد العجمي

بيروت: دار الجديد، ٢٠٠١، ٢١٥ صفحة



أصل الكتاب دراسة أكاديمية حصل بها صاحبها على درجة الماجستير فى العلوم السياسية، ولذا فهو يبدأ بباب نظرى يدرس مفهوم المشاركة الشعبية والمشاركة السياسية ودوافعها وأشكالها ومعوقاتها. ثم يدرس فى فصل تالٍ مكانة المرأة عبر العصور وموقف الإسلام من المشاركة السياسية. ثم يقدم نماذج تطبيقية للمشاركة السياسية للمرأة فى مصر واليمن ولبنان والمغرب. وفيما يتصل بالكويت يشير المؤلف إلى أن أول وجود حقيقى للديمقراطية فيها كان فى أبريل ١٩٢١ حين تشكل أول مجلس للشورى وضم ١٢ شخصًا. لكن هذه التجربة لم يكتب لها الاستمرار. وبعد سنوات قليلة تم انتخاب مجلس لبلدية الكويت عام ١٩٣٤، ثم مجلس للمعارف عام ١٩٣٦، وتم حل المجلسين عام ١٩٣٧، وفى عام ١٩٣٨ تم انتخاب مجلس تشريعى استمر عامًا ونصفًا ثم تم حله ليتشكل مجلس للشورى من ٤١ عضوًا. وفى عام ١٩٦١ وضع الدستور الكويتى فى عهد الشيخ عبد الله السالم الصباح جاء فى المادة السادسة منه أن نظام الحكم فى الكويت ديمقراطى وأن السيادة للأمة التى هى مصدر السلطات جميعًا. وفى عام ١٩٦٣ تمت انتخابات أول مجلس للأمة فى تاريخ الكويت، ثم كان ثانى مجلس عام ١٩٦٧، والثالث عام ١٩٧١، والرابع عام ١٩٧٥. واستمرت المسيرة الديمقراطية الكويتية التى شهدت عديدًا من الأزمات الدستورية، وشهدت الحياة السياسية الكويتية مناقشات مستمرة حول دور المرأة فى المشاركة السياسية وأهمية هذه المشاركة، وكانت هناك عدة اتجاهات: اتجاه إسلامى مناوئ لحق المرأة فى الانتخابات والتشريع واتجاه وسط يدعو إلى تلافى الصدامات وتأجيل مناقشة المسألة، واتجاه متردد تراوح بين التأييد والرفض والشرعية وعدم الشرعية، واتجاه مؤيد مضاد للاتجاه الإسلامى، وكانت أول مناقشة داخل مجلس الأمة للحقوق السياسية للمرأة فى الفصل التشريعى الثالث من عام ١٩٧٣.

ويرصد المؤلف من دراسات سابقة معوقات مشاركة المرأة الكويتية فى الحياة السياسية، وهى: معوقات تتصل بنقص الوعى لدى المرأة الكويتية والحركة النسائية هناك، ومعوقات اجتماعية تتصل بطبيعة المجتمع الكويتى التى تغلب عليها القبلية والتقليدية والتدين، ومعوقات قانونية حيث لا يجيز القانون الكويتى للمرأة حق الانتخاب والتشريع.

وعبر دراسة ميدانية وتطبيقية على عينات مختارة ينتهى الباحث إلى ضرورة أن تأخذ المرأة الكويتية حقها كمواطن فى التصويت فى الانتخابات البرلمانية والبلدية، وتعزيز دور المرأة فى الجمعيات الأهلية والنقابات المهنية مما سيكون له أثره فى تهيئة المناخ الاجتماعى لقبول فكرة إشراك المرأة فى الحياة السياسية. ويوحى الباحث بضرورة أن تسلط أجهزة الإعلام الأضواء على قضايا المرأة، وأن تتضمن مناهج التربية موضوعات تساهم فى تنمية الوعى السياسى لدى النشء.

□ □ □

تاريخ المسرح عبر العصور

مجيد صالح بك

القاهرة: الدار الثقافية للنشر، ٢٠٠١، ٢٨٥ صفحة



يرد البعض بدايات المسرح إلى المصريين القدماء، إلى حوالى ٣٢٠٠ق.م، أى قبل المسرح الإغريقى بوقت طويل، وإن كان آخرون يرون أن هذا الشكل من الدراما التى كانت تقدم فى هيئة طقوس بالمعابد تميزت بسذاجة وبساطة لا تؤهلها لأن تندرج ضمن فنون الدراما المسرحية.

المؤلف يرى أن أقدم ما عرفه الغربيون هو المسرحيات اليونانية وكانت موادها الأساطير اليونانية القديمة، كما نجدها فى الإلياذة والأوديسة اللتين كانتا المصدر الأول لمعظم الآداب المسرحية فى مراحل لاحقة، وإن كان بعض الباحثين لاحظ تشابهًا كبيرًا بين الأوديسة وإحدى قصص الأدب المصرى القديم بما يعنى أن «هوميروس» تأثر بالأدب الفرعونى.

ومثل الفراعنة، فإن العروض المسرحية اليونانية ظلت حبيسة بين جدران المعابد وكان هدفها التقرب للآلهة بعرض الأساطير الدينية، ولم توجد صور واضحة للتطور الدرامى إلا مع الخطوات الجسورة التى بدأها إيسخيلوس وسوفوكليس ويوربيدس الذين عنوا بالتراجيديا حتى جاء «أريستوفانس» حوالى عام ٤٤٥ ق.م، وبدأ كوميدياته الساخرة التى وصلت إلى نحو ٤٤ مسرحية عالج فيها شتى الموضوعات بالملهاة، وقد قلده كثيرون ممن جاءوا بعده فى المسرح الرومانى.

ويشير المؤلف بعد ذلك إلى المسرح الغربى فى العصر الوسيط وتأثره بانتشار المسيحية التى حرَّم معتنقوها فى البداية فن المسرح واعتبروه من التقاليد الوثنية وأنه يفسد الشباب ويؤدى إلى انحلال أخلاقهم مما أدى إلى تدهور فن المسرح، لكن المسرح شهد تطورًا سريعًا اضطلع به القساوسة الذين بدأوا يقربون المعتقدات المسيحية للناس عبر دراما دينية سرعان ما تضافرت معها مشاهد لا دينية ليصبح المسرح نصف دينى ولينتشر فى أوروبا جميعًا، ولم يعد الممثلون من رجال الدين وخدام الكنيسة، بل صاروا ممثلين محترفين، واستمرت المسرحية الأخلاقية حتى القرن السابع عشر حين بدأ الناس يملون النصائح والمواعظ ويطلبون معالجات لمشكلات حياتهم، وتطور المسرح تدريجيًا فى هذا الاتجاه حتى ظهر شكسبير فى النصف الثانى من القرن السادس عشر ليشهد المسرح نهضته العظيمة على يديه ويستمر تطوره بظهور هنريك إبسن وإليوت وتشيكوف وسينج وبيرانديللو وبرنارد شو وغيرهم.

وبعد استعراضه للمسرح وتطوره فى العالم، يقدم لنا المؤلف دراسة نقدية وتاريخية للمسرح المصرى وروادة واتجاهاته، عارضًا لإنجازات مارون نقاش ويعقوب صنوع وسليم نقاش ويوسف خياط وسليمان قرداحى وعثمان جلال وأبو خليل القبانى وإسكندر فرح وسلامة حجازى وجورج أبيض وفرح أنطون ومحمد تيمور وغيرهم، ويعرض لنماذج من الأعمال التى قدمها هؤلاء واضعًا إياها تحت منظار النقد سواء فى التيار الدرامى أو الشخصيات أو لغة الحوار أو فنون الحركة والأداء، حتى وصلنا إلى الطور الثانى من تطور المسرح المصرى والذى تبرز فيه أسماء مثل توفيق الحكيم ويوسف وهبى وعلى أحمد باكثير وترجمات طه حسين وخليل مطران والمسرح الشعرى عند أمير الشعراء أحمد شوقى ثم مسرح محمود تيمور وعزيز أباظة ثم مرحلة تالية شهدت أعمال عبدالرحمن الشرقاوى وصلاح عبد الصبور وسعد الدين وهبة، وإن كان فات المؤلف فى دراسته القيمة أن يعرج على أعمال محمود دياب وميخائيل رومان ويوسف إدريس وعلى سالم، وهم أيضًا من العلامات المهمة فى مسيرة المسرح المصرى المعاصر.

□ □ □

المعممون فى ساحة الغناء والطرب

عبدالنور خليل

القاهرة: دار الهلال، ٢٠٠١، ٢٩٥ صفحة



المعممون الذين يدور حولهم موضوع الكتاب، هم المطربون الذين درسوا فى الأزهر الشريف أو تتلمذوا على مشايخه وعلمائه الأفاضل، وكانت دراستهم وتخطيطهم لمستقبلهم يشير إلى أنهم سيعتلون منابر الوعظ والخطابة فى ساحات المساجد، أو حلقات الإنشاد وقراءة القرآن الكريم فى الموالد والمناسبات الدينية، فإذا بهم يصيرون نجوماً فى ساحات الغناء والطرب.

المؤلف يتناول حياة هؤلاء وتأثيرهم فى مجال الموسيقى والغناء، بدءًا بـ«أمير الغناء المصرى» عبده الحامولى وانتهاءً بالموسيقار الراحل الشيخ سيد مكاوى.. مروراً بسيد درويش وسلامة حجازى والقصبجى وزكريا أحمد وحامد مرسى وصالح عبدالحى.

لا يفوت المؤلف وهو يتناول سيرة عبده الحامولى الذى ساد ساحة الغناء والطرب طيلة النصف الأخير من القرن التاسع عشر وتجديده لفن «الدور»، أن يشير إلى العلاقة التى جمعته بالمطربة «ألمظ» أو سكينة سليم، وكانت أشهر قصص الحب فى تلك الأونة وقد ظهرت على الشاشة الفضية فى فيلم خالد.

أما الشيخ سلامة حجازى فقد بدأ منشداً فى المناسبات الدينية وحلقات الذكر فى ليالى الإسكندرية، وصدح صوته البديع من فوق مئذنة جامع الأباصيرى والمرسى أبوالعباس. ثم انتقل إلى الغناء فى الأفراح وبين فصول الروايات التى عرضتها فرقة يوسف خياط بالإسكندرية، وحين عرض عليه خياط أن ينضم إلى الفرقة رفض معتبراً «أن التشخيص مكروه عند الأئمة ورجال الدين»، وتعددت مسارات الشيخ سلامة حتى صار صاحب فرقة ورائداً للمسرح الغنائى المصرى.

ومن عباءة الشيخ سلامة حجازى خرج سيد درويش، فنان الشعب وثورة المصريين فى عام ١٩١٩، الذى غنى معه بسطاء الناس فى الأزقة والحوارى، والذى فصله الأزهر لأنه يغنى فى الأفراح، لكنه بقى يحمل لقب الشيخ حتى بعد أن خلع الجبة والعمامة وارتدى البدلة والطربوش، وبقى الأثر الذى تركه سيد درويش فى الموسيقى المصرية خالداً إلى اليوم شاهداً على عبقريته الفذة ورغبته الدائمة فى التجديد والابتكار، ورؤيته

عروض موجزة

للفن وكيف يمكن أن يصوغ وجدان الجماهير ويشاركها أفراحها وأحزانها.

ويستمر المؤلف في سرد السيرة والأثر للسلسلة الذهبية منتهياً بملحن «الليلة الكبيرة» و«يا مسهرنى» و«الأرض بتتكلم عربى» الشيخ سيد مكاوى.

□ □ □

الدين والسلام عند كانط

فريال حسن خليفة

القاهرة: مصر العربية للنشر، ٢٠٠١، ١٦٢ صفحة



ما يستحق البحث هو أن نرى كيف يمكن للعقل الإنسانى أن يستمر فى معرفة الله؟

هذا ما شغل «كانط» فى إطار بحثه فى علم اللاهوت وتصنيفاته، ويميز «كانط» بين اللاهوت العقلى واللاهوت التاريخى والأول معرفة مؤسسة على العقل، أما الثانى فمعرفة مؤسسة على الوحى، وينحاز بشكل واضح للنوع الأول إذ يرى أن اللاهوت التاريخى - المستند إلى الوحى - يمزق وحدة الجنس البشرى فى أشكال إيمانية متعارضة.. «ولا يمكن أن تتوحد هذه العقائد التاريخية لأن توحدها معناه أن تنشأ عقيدة تاريخية جديدة تميز ذاتها عن العقائد التاريخية السابقة».

ربما يوحى هذا الذى قاله «كانط» بعدم إيمانه المطلق بالوحى، لكن «كانط» ينفى عن نفسه هذا الاتهام معززًا دفاعه بتصورات نظرية عن الإيمان العقلى، وتشير المؤلفة إلى فروق أساسية بين رؤية كانط ورؤية جان جاك روسو، إذ لم يكن روسو ناقدًا للنقل والتقليد فحسب، بل انتقد الوحى والرسالات التى جوهرها الحقيقى هو الشعور، والشعور طبيعى وفطرى عند البشر.. «فالموجود الأسمى (الله) وقانون الطبيعة فطريان فى كل قلب».

لهذا يقف روسو موقفًا سلبيًا من كل الأديان السماوية والمعتقدات غير السماوية، رافضًا أى وسائط بين الله والإنسان.

أما «كانط» فيرى فى الإيمان التاريخى، إيمان الوحى المسبق، خضوعًا وسلبية، إيمان يرى الوحى والأوامر الإلهية دليلاً للتعامل مع الله وليس الإنسان، فيحول الدين إلى خدمات وعبادات وطقوس وشعائر، وهو إيمان يرتبط بقاؤه بالتقليد والنقل، ويعتمد فى ثبوت صدقه على المعجزات والأسرار، وجميعها - حسبما يقول «كانط» - نوافل لا لزوم لها فى الدين الأخلاقى.. «لأنه إيمان يقوم على استعداد القلب ليحقق الإنسان كل واجباته الإنسانية نحو البشر بوصفها أوامر إلهية».

والإيمان التاريخى عند «كانط» يغرق البشر فى طوفان من الطقوس الجوفاء التى تخلق روح التعصب عند الشعوب بحيث لا تتنفس إلا القتل والمذابح، «وتضع الشعوب فى حالة حرب مع جميع الشعوب الأخرى». إذ تسعى كل عقيدة لتوسيع دائرتها الخاصة واجتذاب أتباع جدد إليها وهو ما يسميه «الانفتاح السلبى للعقيدة»، وهو سلبى إذ لا يقوم على الحرية والعقل والاختيار، وإنما يشجع التعصب الذى يغيب العقل. والمؤلفة تشير إلى أحداث معاصرة ألهبت نيرانها روح التعصب الدينى والعقائدى مثل الحروب فى البوسنة والهرسك والشيشان والحرب الأفغانية والعراق وإيران وشمال السودان وجنوبه والهند وباكستان والصراع بين اليهود والمسلمين.. إلخ.

والإيمان الأخلاقى كما يسميه «كانط» مجرد من دواعى الصراع والحروب لأنه لا يقوم على تعصب لعقيدة بعينها، بل يقوم أساسًا على الإرادة الحرة فى الاختيار التى تسعى إلى تحقيق الخير الأقصى الذى يفترض وبشكل مبدئى وجود الله وخلود النفس، والدين الأخلاقى عملى يقدس الله ويحبه، ليس بالاحتفالات والطقوس والشعائر - كما يقول كانط - وإنما بعمل ما يريده نحو إسعاد ذواتنا والبشرية وتحقيق الخير لها، أما البشر فبواعثه مردها أيضًا الإنسان الذى يفتقر إلى الإيمان الأخلاقى الذى تربطه بالعقل علاقة قوية، ولذا فإن السلام الذى يقيمه الدين الأخلاقى بين البشر سلام دائم تسنده أسس أخلاقية.

□ □ □

معجم الأساطير المصرية

إيزابيل فرانكو

ترجمة: ماهر جويجاتى

القاهرة: دار المستقبل العربى، ٢٠٠١، ٣٦٤ صفحة



يشرح هذا المعجم عديداً من الألفاظ والمصطلحات التى يتكرر ذكرها فى كل دراسة عن مصر القديمة، فلا يكتفى بذكر المعنى وإنما يضعه فى سياقه التاريخى والعقائدى فتتضح الصورة بجلاء، وهو حين يحدثنا مثلاً عن متون الأهرام لا يكتفى بالإشارة إلى أنها أولى الكتابات الدينية التى وصلت إلينا والتى كانت تتلى أثناء مراسم دفن الملك وتعود أصولها إلى أزمنة سحيقة، إنما يشير إلى مضمونها الذى اكتنفه أحياناً بعض الغموض، وهو يشير إجمالاً إلى الأدوار التى تضطلع بها الحجرات التى يمر بها المتوفى، حيث يرتقى الملك من حجرة الدفن إلى الحجرات الجنائزية عبر عديد من الممرات تشمل السرداب أو مملكة أوزيريس حيث يولد من جديد بانتقاله إلى الحجرة التى ترمز إلى الأفق فى انتظار لحظات البعث.

أما أوزيريس فقد كان إله الخصوبة ونمو النبات وصار أحد الآلهة الرئيسية فى مجمع الآلهة المصرية، وقد تزوج من أخته إيزيس وكانت مصر من نصيبها، أما الصحراء فكانت لـ«ست» و«نفتيس» مما أثار حسد أخيه «ست» فقتله وقطع جسده ١٤ قطعة ألقى بها فى مواضع شتى من النيل، لكن زوجته الوفية إيزيس جمعت أشلاءه ووهبته الحياة من جديد ليهب لها حورس الابن الذى ورث ملك أبيه وحارب لاسترداد عرشه، وهى واحدة من أشهر الأساطير المصرية القديمة، والمعجم لا يكتفى بسرد القصة وإنما يقدم دلالاتها ودوافع المشاركين فيها، وارتباطها بالمعتقد المصرى القديم.

ونلاحظ مثلاً: أن فكرة الثالوث وهى أساسية فى المسيحية وجدت عند المصريين القدماء إذ عرفت «شراكة» تجمع بين ثلاثة كيانات إلهية تمثل أسرة تضم الأب والأم والابن، وكان لذلك دلالته الرمزية، إذ مثل الإله الأب الجانب الذكورى الممثل للقوة والخصوبة، ومثلت الأم الجانب الأنثوى برقته وحنانه ومثل الابن النتاج الشاب المنبثق منهما والذى يمثل تجديد قوى الحياة تجديداً أبدياً.

كما عرف الفراعنة أيضاً «الثامون» وهى جماعة من ثمانية كيانات إلهية تضم أربعة ضفادع مذكرة وأربعة ثعابين مؤنثة وهى تجسد كل إمكانات الخلق، وقد بجَّل المصريون القدماء عديداً من الحيوانات والطيور منها القرد والتمساح والبقرة وأبوقردان والثور والصقر وغيرها، وبعضها تمثلته الآلهة واتخذت هيئته.

أما «مصر» فكانت انعكاساً فى عالم البشر للنظام الكونى كما أسسته الآلهة، كانت هى أرض القطرين مرادفة للحضارة وهى نقيض الصحراء التى تأتى منها الاضطرابات والمخاطر، وقد أدرك أهل مصر منذ البداية أن النظام لا يمكن أن يسود إلا اذا توحدت الدلتا والوادى بزعامة ملك واحد.

وإلى جانب مئات الألفاظ والأسماء والمصطلحات يضم المعجم ملحقاً بأسماء الآلهة والأماكن ورسما لعلاماتها الأكثر شيوعاً.

□ □ □

النهايات: الهوس القيامى الألفى

ديتر شمرلنج

ترجمة: ميشيل كيلو

دمشق: دار قدمس

٢٢٤ صفحة، ٢٠٠٠



يعنى اندثار العالم نهاية التاريخ، ومنذ الطفولة البشرية كانت الأسطورة تتحدث عن نهاية العالم وفنائه ثم انبعاثه من جديد، كيف بدأت الأمور وكيف ستنتهى، وما منبع الرؤى حول تلك النهاية، وكيف تشكلت تلك المقولات التى تمس المصير الإنسانى.

كتاب «النهايات.. الهوس القيامى الألفى» يحاول أن يجيب عن تلك التساؤلات عبر أحد عشر فصلاً تتناول جذور هذه الرؤى منذ السبى البابلى مروراً برؤى العصور الوسطى ثم رؤى عصر التنوير وانتهاء برؤى العصر العلمى والآمال الخائبة التى تمخضت عنها.

ينطلق الكاتب من فلسطين وما حدث فيها خلال العصر ما قبل المسيحى عند منعطف القرن السابع قبل الميلاد، أى منذ انهيار المملكة الأشورية على يد بابل، واستيلاء نبوخذ نصر الثانى على مملكة يهوذا والقضاء عليهم تماماً.

يستمر المؤلف فى سرده التاريخى مروراً إلى اختراع الطباعة وهو الاكتشاف الذى أدى إلى انتشار الكتابات الدينية، فكان بين المطبوعات نبوءات وتنجيمات وتخيلات عن زوال العالم مستقاة من علم الفلك، وأشعل ذلك الاحتقانات الاجتماعية والسياسية ذات الصلة بالأفكار الدينية، وحدد كثيرون موعداً لنهاية العالم، ومع بدء القرن الثامن عشر حدث تحول أساسى فى فهم العالم والحياة أضعف التوجه الدينى نحو العالم الآخر وأحل محله توجهاً جديداً موضوعه العالم الدنيوى استناداً إلى اكتشافات كوبير نيكوس وجاليليو وفلسفات ديكارت وسبينوزا ولوك وهوبز، ووجدت الكنيسة نفسها مجبرة على الدفاع عن معتقداتها التى فقدت كثيراً من قيمتها بفضل المجهودات الفلسفية.

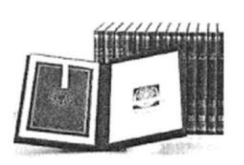
ويواصل المؤلف سرده وصولاً إلى العصر العلمى حيث يصور لنا الكارثة الرهيبة التى تهدد الأرض بفعل الانفجارات النووية والنفايات السامة والنمو السكانى الانفجارى وتدمير البيئة وأخيراً موجات الاستنساخ التى لن تقف القوانين التى تفرضها الدول للحد من الاستمرار فى تجاربها، وهى صرخة

تحذير يطلقها المؤلف فى مواجهة ضياع الماهية الروحية إذا ما واصل الإنسان سيره على درب القيم النفعية للعلم، والتى ستفضى به حتماً إلى الهلاك.

□ □ □

موسوعة الحديث الشريف
جمع جوامع الأحاديث والأسانيد
ومكنز الصحاح والسنن والمسانيد

إشراف: على جمعة محمد وأحمد معبد عبدالكريم
لندن: جمعية المكنز الإسلامى
١٩ جزءاً، ٢٠٠١.



تشمل الموسوعة صحيح البخارى وصحيح مسلم وسنن أبى داود وجامع الترمذى وسنن النسائى وسنن ابن ماجه وموطأ الإمام مالك. وسيتضمن إصدارها الثانى كما يأمل الناشرون جميع الكتب والأجزاء الحديثية المسندة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم محققة تحقيقاً علمياً ومصححة ومضبوطة.

وتشتمل الموسوعة على فهرس للمحتوى يشرح الألفاظ الغريبة ومجموعة من الفهارس الفنية تصل إلى عشرين فهرساً حول الأسانيد والمتون، ولأول مرة يتم الجمع بين الطباعة والقرص المدمج بهذه الصورة لاستغلال الإمكانات الهائلة للحاسب الآلى فى مجال سرعة البحث وتخزين المعلومات.

وتمثل موسوعة الحديث أحد أنشطة جمعية المكنز الإسلامى التى أنشئت كوقف علمى بهدف تشجيع التراث الإسلامى ومساندته ونشره بكافة الوسائل.

وهى أدق وأصح نظام لترتيب واسترجاع البيانات الواردة فى كتب الحديث النبوى جعلها مصدراً ومرجعاً للبحث العلمى الرصين الذى من شأنه فتح الأبواب لعصر جديد فى علوم الحديث فى ثلاثة مجالات:

فى مجال النص حيث يتم مقابلة أهم الطبعات المعتمدة لكل كتاب، وما أمكن الحصول عليه من المخطوطات خصوصاً ما كان قبل القرن السابع لأهميتها. وإثبات جميع الفروق والاختلافات بين هذه النسخ، ثم تتم تصفية هذه الاختلافات والترجيح بينها بالدليل وصولاً إلى أقرب نص كتبه المصنف، ثم يتم ضبط النص بالشكل وتصحيحه للوصول إلى نص دقيق خال من الأخطاء قدر الطاقة.

وفى مجال الفهارس، فإن فهارس الموسوعة مميزة إذ تم تصنيفها نوعياً بحيث يمكن للباحث أن يقف على مادته بدقة وسرعة، إذ تم تخصيص فهرس لكل من الآيات والأطراف العامة للأحاديث والأحاديث القدسية والأحاديث المسماة بحيث يمكن الوقوف على جميع مواطن المعلومة فى جميع الكتب بدقة. وفهارس أخرى تعتمد على البحث الدقيق ومنها فهرس الرواة وفهرس الغريب الذى يحدد جذر الكلمة ثم يقف على المعنى الملائم فى استخدام الكلمة.

وفى مجال الطباعة تم طبع النصوص بشكل أنيق لتكون بداية العودة بالطباعة الإسلامية إلى عهدها السابق مستخدمة أفضل الحروف المطبعية ومضاهية أجمل المخطوطات والكتب القديمة، وبذلك جاءت مجموعة الحروف المطبعية متضمنة أشكالاً وهيئات لم توجد قط فى الكتب المطبوعة قام بتطويرها وترقيمها طاقم من خبراء الخط العربى.

□ □ □

أضواء على الثقافة العلمية

تحرير: عصام الحناوى
القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة ٢٠٠١، ٢٤٠ صفحة



يضم هذا الكتاب مجموعة من الدراسات لعدد من المهتمين بالدراسات العلمية بينهم الدكاترة سمير حنا صادق وأسامة أمين الخولى ومصطفى إبراهيم فهمى ومحمد رءوف حامد ويحيى الرخاوى وأحمد شوقى وآخرون.

وحافز الدراسات أن أعضاء اللجنة العلمية بالمجلس الأعلى للثقافة رأوا أن الوقت قد حان لإلقاء أضواء على الثقافة العلمية ودورها فى تشكيل مجتمع مصر المستقبل ووضعها فى ظل المتغيرات الدولية الحديثة، وبين موضوعاته ما يحلل الثورات العلمية والتكنولوجية التى بزغت فى القرن العشرين، ومدى الاهتمام الذى توليه أجهزة الإعلام للثقافة العلمية، إن مفهوم الثقافة العلمية وإشاعة منهج التفكير العلمى بين الأطفال وفى ثنايا برامج التعليم المدرسى كما يشير الكتاب دعامة أساسية لنهوض مصر المستقبل وتفاعلها مع عصرها.

□ □ □

كتب أجنبية

The Soul of Latin America The Cultural and Political Tradition

(روح أمريكا اللاتينية.. التراث السياسى والثقافى)
Yale University Press, 2001, 417PP, £ 27.50



إذا كان لأمريكا اللاتينية أو لأى مكان روح فأين تكون هذه الروح؟ إنها على الأرجح ستكون فى الثقافة والإبداع الخاص بهذه القارة. لقد تغيرت أمريكا اللاتينية كثيراً فى خلال عقود قليلة من الزمن فبعد حكم عسكرى وديكتاتورى ساد القارة كلها تقريباً لفترات طويلة، تعرضت دول القارة لموجة ديمقراطية عاتية بحيث أصبحت هناك ١٩ دولة ديمقراطية من إجمالى ٢٠ دولة. أما الدول غير الديمقراطية حتى الآن فهى كوبا بينما كان الوضع فى عام ١٩٧٩ هى: ٤ دول ديمقراطية والباقى ديكتاتوريات.

يتناول المؤلف فى هذا الكتاب الإسهامات الثقافية والسياسية للقارة ويتوقف كثيراً عند كتابها الكبار فى الماضى ويتناول لماذا فشلت أمريكا اللاتينية فى تبنى الحداثة بنفس الطريقة التى يتبناها الغرب. ويرد بأنه ربما كانت للحداثة طرق أخرى. ويقول إن أمريكا اللاتينية لم تفقد قطار الحداثة إلا أنها ربما أبحرت فى طريق مختلف.

ولكن الكتاب لا يُحدث القارئ عن ذلك. إن تعريف الحداثة أمر ملتبس فهناك من يعتقد أن الطريقة الأمريكية هى النموذج الأولى بالاحتذاء فى الحداثة لكن هناك من يسأل هل تطبيق عقوبة الإعدام وعدم وجود نظام حكومى للرعاية الصحية فى أمريكا من دلائل الحداثة؟

ويتابع المؤلف التطور الثقافى والسياسى فى أمريكا اللاتينية منذ استقلال دولها عن إسبانيا والبرتغال والمسيرة الطويلة تجاه الديمقراطية ومحاولة القارة التميز عن الغرب خاصة الولايات المتحدة.

ويخلص إلى أن الديمقراطية حطت رحالها أخيراً فى أمريكا اللاتينية ولكن لابد من دعم الولايات المتحدة لهذه التجربة ومساعدتها على النمو والنضج اقتصادياً وسياسياً.

□ □ □

Churchill

(تشرشل)
Roy Jenkins
Macmillan, 2001, £ 30.00



حسبما قاله مؤلف هذا الكتاب روى جنكنز الوزير العمالى البريطانى السابق، فإن هناك ما لا يقل عن ١٠٠ كتاب تتناول سيرة حياة ونستون تشرشل رئيس الوزراء البريطانى الراحل، والذى قاد بلاده فى أحلك سنواتها خلال الحرب العالمية الثانية. وقد تحول تشرشل إلى أسطورة أكثر منه سياسياً فى التاريخ البريطانى وحسب المؤلف فإن مقارنة تشرشل بأى رئيس وزراء بريطانى تلاه تبدو كما لو كانت المقارنة بين رجل دولة «تشرشل» وتلاميذ فى المدرسة «رؤساء الوزراء الآخرون».

ورغم أن الكتاب يتناول نواحى كثيرة من حياة تشرشل الشخصية وانغماسه فى الشرب والمراهنات، إلا أنه يركز بشكل رئيسى على التحديات التى واجهته خاصة خلال الحرب. ويفرد المؤلف صفحات عديدة للحديث عن اجتماع الحكومة البريطانية الحاسم فى شهر مايو عام ١٩٤٠ لاتخاذ قرار بشأن إمكانية التفاوض مع هتلر. وكانت الحكومة منقسمة على نفسها، وبينما أيد بعض الوزراء الفكرة، فإن تشرشل رفضها بعنف وانفلات أعصاب معتبراً إياها مهادنة للنازى وبيعاً للمبادئ الديمقراطية. وهو الموقف الذى سيجر عليه فيما بعد اتهامات من جانب مؤرخين بريطانيين اعتبروا أن موقف تشرشل هذا أدى إلى استمرار الحرب سنوات فى حين أنه كان من الممكن أن تنتهى بسرعة دون أن تخسر بريطانيا الآلاف من أبنائها.

لكن روى جنكنز يعتبر موقف تشرشل مسألة مبدأ ويقول إن الزعيم البريطانى أثبت مرة أخرى رفضه لسياسة المهادنة التى اتبعها سلفه نيفيل تشمبرلين. ويشير إلى أن تشرشل كان يستخدم عواطفه لإقناع الناس بمواقفه «وهو فى هذا مثل الرئيس الأمريكى السابق بيل كلينتون».

وبالنسبة للمؤلف، فإن تشرشل هو أعظم رئيس وزراء بريطانى إنه فى رأيه يتفوق على جلاد ستون الذى كان جنكنز قد كتب سيرة ذاتية له من قبل، ويشير إلى أن تشرشل نموذج يجب احتذاؤه بالنسبة لأى زعيم يواجه حربًا.

□ □ □

عروض موجزة

Peace Makers: The Paris Conference of 1919 and its Attempt to end War

(صناع السلام.. مؤتمر باريس ١٩١٩ ومحاولة إنهاء الحرب)

Margaret Macmillan

J. Murray, 2001, 574PP., £ 25.00

ربما لم يحظ مؤتمر عالمى بالاهتمام والدراسة من جانب المؤرخين كما حظى مؤتمر فرساى فى باريس عام ١٩١٩ الذى انعقد بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى تحت شعار صنع السلام فى العالم.

وأهمية هذا الكتاب أنه يسرد ربما بتفاصيل أكثر من اللازم الطموحات شديدة التفاؤل التى سبقت انعقاد المؤتمر، ثم النتائج التى خرج بها والتى يعتبرها بعض المؤرخين من بين الأسباب غير المباشرة لاندلاع الحرب العالمية الثانية، بل هناك من يقول إن ما يحدث فى الشرق الأوسط حاليًا وما حدث فى جنوب أوروبا خلال عقد التسعينيات من القرن الماضى يعتبر من نتائج ذلك المؤتمر.

قدم الرئيس الأمريكى ودرو ويلسون إلى المؤتمر برؤية طوباوية لعالم جديد يسوده السلام ويجرى من خلال إعطاء الشعوب المقهورة حق تقرير المصير.

لكن مداولات المؤتمر كانت مختلفة تمامًا عن تلك الأحلام، فقد أصرت فرنسا على روح الانتقام من ألمانيا والتى اعتبرت بدورها أن ما يحاول المؤتمر فرضه عليها لن يؤدى إلى السلام، بل سيكون مجرد هدنة ستعمل من خلالها أن تستعيد ما فقدته من أراض وكرامة لفرنسا. ورغم محاولات البريطانيين والأمريكيين إقناع فرنسا بالتراجع عن بعض شروطها التعجيزية ضد ألمانيا إلا أنها أصرت لينتهى المؤتمر، وقد خسرت فيه ألمانيا كرامتها، بل جزءا من سيادتها. وفى الوقت نفسه لم يعر المؤتمر اهتمامًا كبيرًا لمطالب الدول المقهورة الواقعة تحت الحماية البريطانية والحماية الفرنسية، بل إن الرئيس الأمريكى نفسه اقتنع بوجهة نظر بريطانيا مثلا فيما يتعلق باحتلالها لمصر.

وحتى الفكرة الطموحة لويلسون بإنشاء عصبة الأمم لم تحظ بموافقة الكونجرس الأمريكى، كما أنها حملت منذ بدايتها بذور فنائها، فقد كانت منتدى للدول القوية، ولذلك لم تستطع أن تفعل شيئًا عندما غزت إيطاليا الحبشة وظل العالم يتفرج على وحشية جيش موسولينى ضد الأحباش.

□ □ □

Muhammed Ali's Greatest Fight: Cassius Clay vs the United States of America

(أعظم معارك محمد على: كاسيوس كلاى ضد الولايات المتحدة الأمريكية)

Howard L Bingham and Max wallace

Robsons Books, 2001, £16.95



يتحدث الكتاب عن معركة واحدة من معارك الملاكم الأسطورى محمد على كلاى. هذه المعركة لم تكن داخل حلبة الملاكمة مثل معاركه الأخرى، لكنها كانت أمام ساحات المحاكم وضد السلطات الأمريكية ذاتها. فقد رفض محمد على فى عام ١٩٦٦ أن ينضم للخدمة العسكرية للقتال فى فيتنام قائلاً إن ضميره لا يسمح له بقتال اناس لا يعرفهم ولم يتعرضوا له باى اذى، ثم إنه لا يعرف حتى أين تقع فيتنام.

هذا الموقف غير العادى من جانب ملاكم أسود اعتنق الإسلام وكان قد بدأ يسير على طريق النجومية والشهرة حرك الجميع ضد كلاى. ووجد محمد على نفسه معزولاً، حيث لم تقف أى وسيلة إعلام تقريبًا معه.

وكما كتب محمد على بعد ذلك بسنوات، فإنه لم يكن يعرف كيف يواجه الموقف الذى أصبح من خلاله عدوًا للمؤسستين السياسية والرياضية فى أمريكا. لكن النصر المعنوى لمحمد على جاء عن طريق داعية الحقوق المدنية الأمريكية مارتن لوثركنج الذى امتدح شجاعة محمد على قائلاً: لقد أقلع عن الشهرة وتخلى عن ملايين الدولارات من أجل أن يقف الموقف الذى يحتمه عليه ضميره.

وفى ٨ مايو ١٩٦٦ تم توجيه الاتهام إلى محمد على من جانب هيئة محلفين فى هيوستن وكان عددهم ٢١ محلفًا بينهم أسود واحد فقط، وخلال فترة محاكمته التى استمرت طيلة شهر يونيو مورست ضغوط شديدة على الملاكم الشهير الذى رد على ذلك قائلاً: فى حلبة الملاكمة أتطلع للفوز فى معركة نظيفة، أما فى الحرب فإن الهدف هو القتل واستمرار قتل الناس الأبرياء. لقد قيل إن أمامى بديلين السجن أو الذهاب للجيش، لكننى أقول إن هناك بديلاً ثالثًا وهو العدالة التى لو سادت فلن يكون هناك سجن أو انضما م للجيش.

وكان محمد على فى أعماق نفسه يتوقع أن يصدر ضده حكم بالسجن وأعد نفسه لذلك. وبالفعل لم يخب ظنه: فقد صدر ضده حكم بالسجن لمدة ٥ سنوات وغرامة عشرة آلاف دولار، ثم كان القرار الأشد قسوة والذى اعتبره كثيرون أسوأ من السجن، وهو مصادرة جواز سفر محمد على كلاى. لقد كان على محمد على أن يستانف ضد الحكم بالسجن لكن نزع جواز سفره كان يعنى منعه من السفر وتحطيم مستقبله فى الملاكمة بعد أن كان قد تم منعه من ممارستها داخل الولايات المتحدة.

وكان رد محمد على على كل ذلك هو.. لقد تخليت عن لقبى كبطل للعالم فى الملاكمة وعن ثروتى وربما عن مستقبلى.. إن هناك رجالا عظماء كثيرين مروا بمثل هذه الاختبارات من أجل معتقداتهم الدينية وأنا واثق أننى سانجح فى هذا الاختبار. وهو بالفعل ما تحقق بعد ذلك.

□ □ □

Mo Mowlam: The Biography

(مومولام: سيرة ذاتية)

Julia Langdon

Warner, 2001, 322PP, £ 7.99



تمثل الوزيرة العمالية البريطانية السابقة مومولام التى شغلت منصبى وزيرة شئون أيرلندا ثم وزيرة شئون مجلس الوزراء فى حكومة رئيس الوزراء البريطانى تونى بلير الأولى حالة خاصة للغاية بين السياسيين البريطانيين خاصة من حزب العمال.

فمومولام كانت لديها شعبية كاسحة بين صفوف أعضاء حزب العمال وبين المواطنين العاديين لكنها لم تكن تتمتع بمثل تلك الشعبية بين موظفى الحكومة خاصة الكبار منهم الذين يظلون فى مواقعهم بينما تتغير الحكومات وتتعاقب. وهذا كان أحد أسباب مازق مومولام. الأمر الآخر أنها لم تكن سياسية أو دبلوماسية فقد ظلت سنوات طويلة من حياتها السياسية فى المعارضة، لذلك عندما وصلت للوزارة عام ١٩٩٧ مع وصول العمال للحكم لأول مرة منذ ١٩ عاماً وقعت فى مشاكل كثيرة بسبب صراحتها وجرأتها غير العادية، الأمر الذى جلب عليها انتقادات شديدة خاصة من العاملين داخل وزارتها. واتهمها البروتستانت فى أيرلندا الشمالية بانها تتحيز للكاثوليك ضدهم وقاطعها كثير من الزعماء البروتستانت لمجرد أنها تجرأت وانتقدت سلوكهم ومواقفهم السياسية. وعندما لم يجد بلير مفرآ من نقلها إلى وزارة شئون مجلس الوزراء التى لم تجد نفسها فيها على الإطلاق. فهى سيدة تحب الحركة والتعامل مع الجماهير. لذلك قررت أنها سوف تعتزل السياسة مع الانتخابات البرلمانية فى يونيو الماضى وهو بالفعل ما حدث.

□ □ □

Egypt: Civilization in the Sands

(مصر.. حضارة فى الرمال)

Pauline and Philippe de Flers

Distributed by the AUC Press, 460PP., LE. 150



منذ ما قبل التاريخ، امتدت حضارة مصر الفرعونية إلى خارج نطاق وادى النيل ووصلت إلى المناطق التى تحيط بالوادى سواء كان يقطنها البدو أو المزارعون أو جماعات الصيد والقنص. وترك المصريون فى هذه المناطق آثارا عظيمة مازال الباحثون وعلماء المصريات يتسابقون لاكتشافها.

وهذا الكتاب يطرق بابًا جديدًا نوعًا ما، فهو يتحدث عن أصول غير معروفة للحضارة المصرية، وهى أصول موجودة على حافة الصحراء. والجزء الأول من الكتاب يأخذنا فى رحلة عبر عديد من الواحات تمتد من الشمال للجنوب، فمن سيوة البعيدة ذات الملامح الأسطورية إلى الواحات البحرية بمومياواتها الذهبية إلى الفرافرة على حدود الصحراء إلى الداخلة التى تعتبر البوابة المؤدية للصحراء وأخيرًا الخارجة التى يقول الكتاب إنها كانت منفى، كما أنها البوابة الثانية إلى الصحراء.

أما الجزء الثانى من الكتاب، فإنه يتناول ما يصفه ببيئة معادية ومخيفة، وهى الصحراء ذاتها التى تتالف من خليط من الرمال والصخور، لكن من خلال صور رائعة التقطها المؤلفان لهذه الصحراء المصرية، وحديثهما عن علاقتها بالحضارة الفرعونية، تتحول هذه الصحراء إلى شىء محبب للقارئ.

□ □ □

تاريخ

تاريخ فلسطين في أواخر العهد العثماني

عادل مناع

بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ٢٠٠١

يعالج هذا الكتاب تاريخ فلسطين خلال المرحلة الانتقالية منذ وفاة السلطان العثماني سليم الثاني حتى أواخر القرن السابع عشر ثم في مراحل التوسع الأوروبي والاندماج في النظام الاقتصادي العالمي، ويتابع الكتاب في تلك المراحل التاريخ السياسي والاقتصادي والاجتماعي لفلسطين.

جماعة الأهالي.. منشؤها، عقيدتها، ودورها في السياسة العراقية

مظفر عبد الله الأمين

عمان: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠١

هذا الكتاب في الأصل دراسة جامعية نال بها المؤلف درجة الماجستير عام ١٩٧٩ من جامعة درهام البريطانية، وهي تبحث في نشأة جماعة الأهالي بين عامي ١٩٣٢ و١٩٤٦، وهذه الجماعة لم تكن حزبًا سياسيًا بالمعنى الدقيق وإنما تجمعًا لأفراد ذوي آراء وميول واتجاهات متشابهة يجمعهم ما اتفقوا على تسميته بالديمقراطية الاجتماعية أو الشعبية ولعبوا دورًا فاعلاً في النضال ضد المحتل البريطاني وسلطة الانتداب.

بروتوس مازال حيًا

بدر عبد الملك

دمشق: دار المدى، ٢٠٠١

يحلل المؤلف ظاهرة الاغتيالات السياسية تاريخيًا ويقدم أمثلة على وجودها منذ بدء الخليقة وشهدتها جميع الحضارات من يونانية وبابلية وفرعونية وغيرها مفسرًا أسبابها الفكرية والاجتماعية، ويقدم أشهر عمليات الاغتيال في العالم.

دستور في صندوق القمامة

صلاح عيسى

القاهرة: مركز القاهرة لدراسات حقوق الإنسان، ٢٠٠١

يشرح المؤلف قصة دستور ١٩٥٤ الذي أهملته ثورة يوليو ١٩٥٢ والظروف السياسية التي أدت إلى تجاهله بعد إعداده، ويتضمن الكتاب وثيقة مسودة للدستور عثر عليها المؤلف في سلال وثائق مهملة، وهو ما يركز عليه المستشار عوض المر رئيس المحكمة الدستورية العليا السابق في تقديمه للكتاب.

Christians and Jews in the Ottoman Arab World.. The Roots of Sectarianism

(المسيحيون واليهود في العالم العربي العثماني: جذور المذهبية)

Bruce Masters

Combridge UP, 2001, 240PP, £ 35.55

يبحث المؤلف تاريخ المسيحيين واليهود في الأقاليم العربية من الإمبراطورية العثمانية، وكيفية تطور هويتهم كغير مسلمين عبر أربعمائة عام. ففي بداية هذه الحقبة في القرن السادس عشر كان المجتمع تحكمه الهوية الدينية بحيث عاش غير المسلمين داخل هيراركية تقيمها الشريعة الإسلامية. أما في القرن التاسع عشر وتجاوباً مع التأثيرات الغربية فقد حدث تحول جذري، إذ قام صراع بين المسلمين والمسيحيين في مختلف أرجاء الامبراطورية متحديًا للهيراركية التقليدية. ذلك الصراع هو الذي حدد مظاهر التوتر في الخطاب القومي والديني الذي ساد في الدول العربية التي تأسست على أنقاض الامبراطورية بعد الاستقلال.

A History of Inner Asia

(تاريخ آسيا الداخلية)

Svat Soucek

Cambridge, 2000, 384PP., £ 16.95 (pb)

مقدمة قصيرة ويسيرة في تاريخ آسيا الداخلية أو آسيا الوسطى. فمنذ سقوط الاتحاد السوفيتي وتفككه عام ١٩٩١ تجدد الاهتمام بتلك الجمهوريات التي انبثقت عنه، والتي تثير قضايا سياسية ودينية واقتصادية وثقافية مختلفة.

هذا الكتاب يروي تاريخ السبع دول التي تُعرف اليوم باوزبكستان وكازاخستان وكيرجيستان وطاجيكستان وتركمانستان ومنغوليا وستيكانج، وذلك منذ أن دخلها الإسلام عبر مختلف سلالات الحكم التي تعاقبت عليها، وإلى أن تعرضت للغزو الروسي. الكتاب يحتوى على خرائط وجداول زمنية توضيحية.

The War for Palestine: Rewriting the History of 1948

(الحرب من أجل فلسطين: إعادة كتابة تاريخ ١٩٤٨)

Avi Shlaim, Eugen Rogan (editors)

Edward Said (aferword)

Cambridge, 2001, 256PP., £13.95

مجموعة من كبار المحللين ينتمون لتوجهات متباينة يقدم كل منهم إعادة نظر في تاريخ حرب ١٩٤٨، معتمدين على مصادر تاريخية أولية في محاولة لتقديم رؤى وتعبيرات مغايرة لهذه اللحظة المهمة من تاريخ المنطقة. فعلى سبيل المثال يشارك رشيد خالدي بفصل عن أسباب فشل الفلسطينيين في عام ١٩٤٨، ويكتب بني موريس عن الخروج الفلسطيني عام ٤٨، ثم تكتب ليلا بارسونز عن علاقة الدروز بمولد إسرائيل، ويشارك تشارلز تريب بفصل عن العراق وحرب ٤٨.. كيف كانت مرآة عاكسة لاضطراب النظام العراقي في ذلك الوقت. ويكتب فواز جرجس عن موقف مصر من حرب ١٩٤٨ بين الصراع الداخلي وطموحاتها الإقليمية.

وفي ختام الكتاب يقدم إدوارد سعيد مقالاً عن نتائج تلك الحرب الفاصلة.

A Broken Trust : Herbert Samuel, Zionism and the Palestinians

(هيربرت صموئيل والصهيونية والفلسطينيون)

Sahar Huneidi

Foreword by Walid Khalidi

I.B. Tauris, 2001, 348PP

شغل هيربرت صموئيل منصب أول مندوب سامي بريطاني في فلسطين في الفترة بين ١٩٢٠ و١٩٢٥ أثناء وقوع فلسطين تحت الانتداب البريطاني، وهو يعتبر أيضاً ثاني يهودي بعد دزرائيلي يشغل مثل هذا المنصب الرفيع في تاريخ الحكومة البريطانية.

وفي خصوصية الصراع الصهيوني الفلسطيني اعتبر المؤرخون البريطانيون التقليديون أن موقف هربرت صموئيل كان حيادياً وغير منحاز في إدارة هذا الصراع. ولكن في هذه الدراسة الوثائقية تؤكد سحر هنيدي عكس هذا المفهوم، وتبين أن كل الإجراءات السياسية والاقتصادية والإدارية التي اتخذها صموئيل أثناء حكمه لفلسطين كانت مصممة على تهيئة الوضع لقيام دولة يهودية كاملة في أرض فلسطين.

تراث

الطبقات الكبير لابن سعد

تحقيق: على عمر

القاهرة: مكتبة الخانجي، ٢٠٠١

أول طبعة كاملة للكتاب في ١١ جزءًا لواحد من أبرز مؤرخي القرن الثالث الهجري الذي جاب حواضر عديدة يطلب العلم من شيوخها فزار الكوفة ومكة المكرمة والمدينة المنورة، وألف الطبقات الكبير والطبقات الصغير وكتاب التاريخ وكتاب الحيل وهو يخصص قسمين من كتابه لسيرة الرسول ﷺ وقسمه الأخير للنساء أما باقي الأجزاء فللصحابة والتابعين.

المسعودي

عزيز العظمة

بيروت: رياض الريس للنشر، ٢٠٠١

يضم الكتاب ستة أقسام تدور جميعها حول حياة هذا العالم العراقي الذي درس على بعض كبار عصره كالطبري وابن دريد وأبو بكر الرازي، وقد ترك كتابين شهيرين هما «مروج الذهب» و«معادن الجوهر» و«كتاب التنبيه والإشراف»، والمؤلف يقدمه بوصفه ممثلاً لمعارف عصره وقرنه العاشر.

تربية وتعليم

The Art of Teaching Reading

(فن تعليم القراءة)

Lucy McCormick Calkins

Peter Cunningham (Photographer)

Longman, 2000, 580, $ 36.00

مرجع مفيد للمدرسين والمعلمين، يقدم مجموعة كبيرة من مبادئ وطرق تدريس القراءة في الفصول الدراسية، ويستعين بأمثلة عملية عديدة. مؤلفة الكتاب أستاذ المقررات والتدريس في كلية المعلمين بجامعة كولومبيا، ولها سلسلة من الكتب الشهيرة في هذا المجال.

Thinking Skills and Early Childhood Education

(مهارات التفكير والتعلم في الطفولة المبكرة)

Patrick Costello

David Fulton Pub., 2000, 160pp., £16.00

يقيم المؤلف أهداف التعليم في الطفولة المبكرة ويركز على تنمية المهارات الفكرية، وخاصة التفكير النقدي والقدرة على المناقشة. ثم يتحدث عن الطرق التي يمكن للمدرسين أن يستخدموها لتربية هذه المهارات في الأطفال من خلال تدريس قضايا شخصية واجتماعية وأخلاقية للأطفال الصغار.

خرائط

Cairo Maps 2002: The Practical Guide

(خرائط القاهرة ٢٠٠٢: الدليل العملي)

The American Univercity in Cairo Press, 2001, 52PP., L.E 20

الطبعة الثالثة بعد المراجعة من الكتيب الذي تنشره الجامعة الأمريكية في القاهرة والذي يحتوي على مجموعة من الخرائط التي توضح أهم أحياء وشوارع القاهرة. تحتوي هذه الطبعة على سبع وثلاثين خريطة وفهرس بأسماء الشوارع ومواقعها وفهرس بمواقع بعض الوزارات والمكاتب الحكومية ومحطات مترو الأنفاق وقاعات الفنون والمراكز الثقافية والسفارات وبعض الأندية الرياضية والمستشفيات والفنادق.

أما الخرائط نفسها فمقسمة حسب الأحياء ومبين عليها أسماء الشوارع وتضم أحياء وسط المدينة والعتبة والقاهرة الإسلامية والزمالك والمهندسين والدقي وجاردن سيتي والمنيل والجيزة والمعادي ومصر الجديدة ومدينة نصر وشبرا والعباسية ورمسيس.

رواية وأدب

أجملهن

عبد السلام العجيلي

بيروت: رياض الريس للنشر، ٢٠٠١

رواية جديدة تحكي قصة شاب عربي يزور النمسا للمرة الأولى ويلتقي بالفتاة التي يراها أجملهن، ومن خلالها يتعرف على عقلية المرأة الأوروبية واهتماماتها وطرائقها في التعبير عن ذاتها، ويقارن بين موروثه الثقافي والمعرفي والإنساني، وما تعبر عنه هذه الفتاة.

الخلوة الملكية
أنطوان الدويهي
بيروت: دار النهار، ٢٠٠١

نص جديد لمؤلفه بعد أربعة نصوص سابقة هي كتاب الحالة وحديقة العجز ورتبة الغياب، وهو في معظمه يسبح في أجواء الحنين إلى الجذور والأصول رافضًا مفردات الهجر والغياب والغربة.

■■■

براري الخراب
علي عبد الله سعيد
دمشق: دار آرام، ٢٠٠١

يسعى المؤلف إلى تفكيك اللحظة الراهنة والانتقال بمسارها متابعًا اضطرابه الذي يشي باضطراب العصر كله، ويبقى هو مجرد شاهد ومراقب لحياة تتهاوى منذ موت الأب في واحدة من الحروب الخاسرة.

■■■

حياة (٩٩ قصة قصيرة جدًا)
حياة أبو فاضل
بيروت: رياض الريس للنشر

مجموعة قصصية ترصد حياة امرأة منذ الطفولة وحتى النضج عبر ٩٩ قصة قصيرة جدًا لا تتجاوز أكبرها العشرة أسطر، وهي قصص تشبه المذكرات تبدأ من طفولة المؤلفة ببراءتها وسذاجتها إلى المراهقة فالنضج وانعكاس الأحداث الجسام مثل الحرب الأهلية في لبنان على الصبية في كل مرحلة.

■■■

متواليات باب ستة
سعيد بكر
القاهرة: دار الهلال، ٢٠٠١

اعتمد المؤلف البطل أو الحادثة محورًا لإبداع مشاهده أو متوالياته، ليرسم عالمًا قصصيًا ثريًا بالتضاريس النفسية والاجتماعية، وأبطاله منطلقين يتصرفون بحرية وجرأة والمؤلف يتتبعهم ويرصد سلوكهم بحيادية أقرب إلى التسجيلية التي هي من صنعه في نهاية المطاف.

■■■

نصف عين
نجلاء علام
القاهرة: هيئة الكتاب، ٢٠٠١

رواية قصيرة تعتمد على جملة سردية قصيرة تعتمد أساسًا على أسلوب استعادة الماضي أو الفلاش باك، وتجري بنا في أجواء معاصرة لأحداث سياسية عربية مؤثرة مثل الغزو العراقي للكويت وآثاره الانعطافية الهائلة على الأوضاع في المنطقة.

■■■

Half a Life
(نصف حياة)
V.S. Naipaul
Picador, 2001, 224PP, £15.99

أحدث رواية صدرت للكاتب الهندي الأصل فيديا نايبول الحاصل على جائزة نوبل للآداب للعام الحالي، وهي تعد نموذجًا للطابع الذي ميز معظم أعمال نايبول السابقة، فهي تحتوي على مزيج من السيرة الذاتية والقصصية في مجال البحث داخل العوالم المنصفة والشخصيات المحطمة لهؤلاء الأفراد الذين نشأوا في مستعمرات بريطانيا نائية ثم سافروا لتلقي العلم في العاصمة البريطانية في مرحلة ما بعد التحرر من الاستعمار.

"سياسة"

استراتيجية العولمة
روبرت غروس
تعريب: إبراهيم يحيى الشهابي
الرياض: مكتبة العبيكان، ٢٠٠١

يقدم الكاتب سبلاً للتعاطي مع العولمة بوصفها تعبيرًا عن مرحلة تاريخية من تطور البشرية، محاولاً إظهار النتائج الإيجابية والسلبية وما تواجهه الشركات العالمية من تحديات تنافسية كبرى، ويعرض كتاب ضمن سياقه العام للتداعيات الاقتصادية في المنطقة الآسيوية وآثارها على العالم وارتباط ما جرى بالعولمة.

■■■

الأسطورة والصهيونية والانتفاضة الفلسطينية
السيد ياسين
القاهرة: ميريت للنشر والمعلومات، ٢٠٠١

يهدف الكتاب إلى تحليل أشكال الخطاب الصهيوني ونقده لكشف ما يتضمنه من أكاذيب وتلفيق، وهو يحلل ضمن فصول الكتاب شهادات المثقفين عرب حول رؤيتهم لمستقبل الصراع، ومن بين هؤلاء عبد الوهاب المسيري، وأحمد صدقي الدجاني، ومحمود عباس، وقدري حفني، ومحمد السيد سعيد، وعلي أومليل، ومحمد الرميحي، والصادق المهدي، وآخرين.

■■■

الخيار النووي في الشرق الأوسط
بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠١

يضم الكتاب أعمال الندوة التي نظمها مركز دراسات المستقبل بجامعة أسيوط، وهو يتضمن مساهمات علماء باحثين وخبراء في هذا المجال، وقد انصبت الجهود أساسًا على دعم مبادرات لإخلاء منطقة الشرق الأوسط من أسلحة الدمار الشامل، وفرض عقوبات على الدول التي ترفض الانضمام إلى معاهدة حظر انتشار الأسلحة النووية وإخضاع منشآتها للتفتيش.

■■■

عشية الانتفاضة
قيس عبد الكريم
تيسير خالد
صالح زيدان
بيروت: شركة التقدم العربي للصحافة والنشر، ٢٠٠١

دراسة تحليلية للمثلث الشرق أوسطي وأزمته الكبرى «القضية الفلسطينية» والصراع على الأرض المحتلة وموقع الانتفاضة الباسلة داخل هذا الصراع، لكن الرؤية الأشمل كما تقدمها الدراسات تعطي أهمية أكبر للمشكلات السكانية والتنموية في الوطن العربي، وتختص إحدى الدراسات بسكان فلسطين وإمكانيات تطوير الانتفاضة وتعزيز مكاسبها، فيما تركز دراسة ثالثة على المجتمع الإسرائيلي بتكوينه الديموجرافي ومواقفه العدائية وأهدافه التوسعية.

■■■

Globalization and the Politics of Development in the Middle East
(العولمة وسياسات التنمية في الشرق الأوسط)
Clement M. Henry and Robert Springborg
Cambridge Up, 2001, 246PP, £12.95

يبحث المؤلفان موقف الدول المختلفة في الشرق الأوسط من التهديدات والفرص التي تقدمها قوى العولمة في العالم المعاصر، ويتم التناول من خلال تحليل الهياكل الحكومية وهياكل المجتمع المدني والنظم المالية في البلاد التي يتم دراستها، ويتوصل المؤلفان إلى حكم عام مضمونه أن هناك علاقة ارتباط إيجابية بين الأداء الاقتصادي وعملية التحول نحو الديمقراطية، بمعنى أنه كلما كانت سياسة الدولة ليبرالية، كلما كان اقتصادها أكثر فعالية في تجاوبه مع العولمة.

"سيرة"

في الخيمة الأخرى.. صفحات من الذاكرة
طلال ناجي
بيروت: دار الرواد، ٢٠٠١

فصول من مذكرات نائب الأمين العام للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين يبدؤها من الطفولة حيث شهد الإرهاصات الأولى لاغتصاب الأرض وانتهاك الحقوق الفلسطينية وتخريب الديار وتحويل الشعب الفلسطيني إلى لاجئ خارج أرضه أو غريب فوقها، ثم يواصلها بالانعطافات المهمة من أيلول الأسود في الأردن والحرب الأهلية اللبنانية وعملية اجتياح بيروت، عارضًا للعلاقات مع الأنظمة العربية والخلافات بين التنظيمات الثورية ذاتها.

■■■

ماري عجمي
ميشال جحا
بيروت: رياض الريس للنشر، ٢٠٠١

كتاب عن الرائدة النسائية التي ساهمت في المطالبة بحقوق المرأة في التعليم والعمل ضمن قواعد الأخلاق الفاضلة، يتناول الكتاب سيرة حياتها ومعاركها ونجاحاتها ونضالها ضمن كوكبة أخرى من المناضلات السوريات وإن بزتهن ماري بوصفها أديبة صاحبة أسلوب رفيع.

■■■

Frantz Fanon: A Biography
(فرانتز فانون: سيرة حياة)
David Macey
New York: Picador, 2001, 640pp., $ 40.00

شكلت كتابات فرانتز فانون نبض الثوار من أبناء العالم الثالث في صراعهم ضد الاستعمار الأوروبي، والسود في مقاومتهم للاضطهاد العنصري في عقود الخمسينيات والستينيات والسبعينيات من القرن العشرين. ولم يكن كتاب فانون الأشهر «البائسون في الأرض» مرجعًا للشعارات الثورية فحسب، ولكنه كان بمثابة دليل عملي لكل ثائر، يعينه على التخلص من العجز إزاء المستبدين الأقوياء ويزوده بالشجاعة والثقة بالقدرة على التحرر من خلال استخدام العنف المسلح.

وهذا الكتاب يقدم ترجمة لحياة فانون القصيرة - حيث توفي بمرض اللوكيميا، وهو بعد في السادسة والثلاثين فيركز على طفولته وتعليمه وعمله كطبيب نفسي ثم الفترة الكبيرة التي أمضاها في الجزائر وتونس، حيث لعب دورًا بارزًا في المقاومة الجزائرية للاستعمار الفرنسي وكان تقريبًا المتحدث باسم الثورة الجزائرية.

"شعر"

تأبط منفى
عدنان الصائغ
السويد: دار المنفى، ٢٠٠١

ديوان يضم ٧٦ قصيدة تعتمد على التكثيف واقتناص اللحظات الشعرية الخاطفة هاجسها المنفى والوطن والعزف على أوتار الغربة وهمومها والحنين الدائم للوطن.

■■■

تحته كنز لهما
حسين وحسن خليفة
بيروت: دار الهادي، ٢٠٠١

ديوان واحد لأخوين توأمين وهي التجربة الثانية لهما بعد ديوانهما الأول لأخوين يكتبان الشعر برؤية ولغة ومشاعر متطابقة، تستند في مجملها إلى معرفة فقهية أساسية وإبحار في علوم القرآن والتراث البلاغي والشعبي.

"صحافة"

صحافة وسياسة، سورية في القرن العشرين
نصوح بابيل
بيروت: دار رياض الريس، ٢٠٠١

يسرد المؤلف أحداثًا عايشها - بوصفه صحافيًا وكاتبًا سياسيًا - كانت لها آثارها في التاريخ السوري المعاصر، بعضها مثلت انعطافات مهمة في مسار سورية مثل الانقلابات العسكرية، برؤية مراقب ومتابع للحدث من داخله.

■■■

قـــــــراءات جـــــديـدة

مدخل إلى الإخراج الصحفى
سعيد الغريب النجار
القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠١

يدرس المؤلف الشخصية الإخراجية للصحف الصادرة فى مصر واستخدامها للعناصر الطبوغرافية لتأكيد أسلوبها المميز خصوصًا بعد ما دخلت الصحف المصرية عصر التكنولوجيا الرقمية مما أتاح أمام المخرجين الصحفيين معالجات عديدة ومتنوعة للعناصر الجرافيكية، ويسد الكتاب ثغرة مهمة فى مجال الدراسات الإعلامية.

"طـب وعلوم"

الحجامة الحديثة
ميلينا عبد الله
ترجمة: محمد فكرى أنور
القاهرة: مكتبة مدبولى، ٢٠٠١

يعرف الناس فى منطقة الخليج طريقة الحجامة فى العلاج، والتى تعتمد على شفط الدم الفاسد من مواضع معينة فى الجسم لتخليص الجسم منه، لكن المؤلفة تنصح فى «حجامتها الحديثة» بضرورة التعرف على نقاط الوخز وعلى الخطوط العصبية، ومواضع مرور هذه الخطوط فى كل أجزاء جسمنا.

■■■

القولون العصبى مرض العصر
حسن فكرى منصور
القاهرة: دار القرآن

٢٥ نصيحة يقدمها المؤلف للوقاية من أمراض القولون التى يشكو منها ملايين البشر والتى تعود فى معظمها إلى أسباب نفسية وعصبية، والمؤلف طبيب متخصص يقدم نصائحه ليس فقط لكيفية المقاومة والوقاية التى هى خير من العلاج، ولكن أيضًا لطرق العلاج وأهم الوصفات الطبيعية، وكذلك الأعشاب التى تفيد فى علاج أمراض القولون والبلهارسيا والأميبا وغيرها.

■■■

تكنولوجيا السكر والحلوى
إبراهيم محمد حسن
القاهرة: دار الفجر، ٢٠٠١

يتناول المؤلف عبر أربعة أبواب موضوعات تتصل جميعًا بصناعة السكر وإنتاج الشيكولاتة والمواد الخام المستخدمة فى صناعة الحلوى وأحدث التكنولوجيات التى دخلت إلى هذه الصناعة التى تبلغ استثماراتها فى مصر أكثر من ٤,٥ مليار جنيه ويعمل بها أكثر من ٣٠٠ ألف مواطن.

■■■

The Mysteries Within: A Surgeon Reflects on Medical Myths
(الألغاز التى فى الداخل: أفكار جراح عن الخرافات الطبية)
Sherwin Nuland
Simon & Schuster, 2000.286PP., $ 24.00

المؤلف جراح مخضرم وصاحب مؤلفات عديدة تمزج ما بين الطب والعلم والثقافة والتاريخ. وفى هذا الكتاب يروى لنا نيولاند كيف أن الخيال الشعبى فى القدم كان يشخص أعضاء الجسم مثل القلب والمعدة والطحال والكبد، وكأن لكل عضو من هذه الأعضاء شخصية مستقلة. ومن خلال قراءته للتاريخ الطبى الغربى يبين لنا نيولاند كيف أثرت هذه الخرافات على النظريات الطبية لمدة طويلة من الزمن.

"فكـر"

الشعر والفكر.. أدونيس نموذجًا
وائل غالى
القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠١

يقدم المؤلف إعادة قراءة لإنتاج أدونيس الشعرى الذى تميز بارتباطه الواضح بالسياحات الفكرية والفلسفية، وهذه هى أول دراسة فلسفية عن تجربة أدونيس الفكرية وإنجازه الشعرى.

■■■

الغرب والإسلام
رسول محمد رسول
عمان: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠١

عن نظرة الغرب العدائية للإسلام وهى النظرة التى بدأت تشيع مع انتشار مقولة صمويل هنتنجتون عن صراع الحضارات، المؤلف يحلل هذه العلاقة وجذورها التاريخية وكيفية تعديلها لخدمة الإنسانية والإنسان.

■■■

عمائم وطرابيش
سعيد اللاوندى
القاهرة: دار إنجى مصر، ٢٠٠١

يلقى المؤلف أضواء على عدد من كبار المفكرين والأدباء المصريين الذين عاشوا فى باريس، حيث التقى بعدد من أصدقائهم ومعارفهم وكثيرين ممن اقتربوا منهم وتعرف على الأماكن التى كانوا يرتادونها، وكيف كان وقع الحضارة الغربية عليهم، من هؤلاء الإمام محمد عبده، والفقيه الدستورى عبد الرزاق السنهورى، وتوفيق الحكيم، وسلامة موسى، وطلعت حرب، ومصطفى كامل، وآخرون.

■■■

فلسفة الثقافة
مصطفى النشار
القاهرة: دار قباء، ٢٠٠١

لا تنفصل الثقافة السائدة فى مجتمع ما عن أنماطه الإنتاجية والتوجهات السائدة فيه ذات الطبيعة التقدمية أو الأصولية، وهو ما يمنح هذه الثقافة فلسفة ما، تقود المجتمع نحو مزيد من التقدم والرفاهية والتعاطى مع معطيات العصر أو تنزلق به القهقرى، هذا بعض ما يناقشه المؤلف فى كتابه.

■■■

معارك من أجل الأنسنة فى السياقات الإسلامية
محمد أركون
تعريب: هاشم صالح
بيروت: دار الساقى، ٢٠٠١

يتحدث الكتاب عن أسباب ضمور الفكر الفلسفى العقلانى فى الساحة الإسلامية منذ انهيار الحضارة الإسلامية فى القرن الثالث عشر، ويسلط المؤلف الضوء على وجود تيار تنويرى ذى حس إنسانى فى القرنين الثالث والرابع للهجرة بشكل خاص تفاعل بقوة مع التيارات الفلسفية فأفاد منها وأضاف إليها.

■■■

يا قلبى لا تحزن
صبرى العسكرى
القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠١

مجموعة من الكتابات التى نشرها المؤلف فى عدة صحف ودوريات مصرية وبعضها يتناول أعمالاً نقدية لأعمال عدد من الأدباء مثل ماركيز وطاهر بن جلون ومحمد أبو دومة وأندريه شديد والطاهر وطار وآخرين.

"فكـر دينى"

أحكام المرأة بين الاجتهاد والتقليد
شيماء الصراف
باريس: دار القلم، ٢٠٠١

تقارن المؤلفة بين الشريعة والفقه والقانون والاجتماع فى تناول كل منها لقضية المرأة، وهى تنتهى إلى أن على المرأة دورا بالغ الأهمية فى تأكيد ذاتها بحثًا عن حقوقها بين اجتهادات هؤلاء جميعًا.

■■■

أصول الصابئة ،المندائيين، ومعتقداتهم الدينية
عزيز سباهى
دمشق: دار المدى، ٢٠٠١

هذه هى الدراسة الأولى باللغة العربية عن هذه الجماعة (الطائفة) التى نشأت فى وادى الرافدين قبل ظهور المسيحية، والمؤلف يبحث فى أصول هذه الجماعة وآثارها وعلاقاتها بجيرانها فى فترة وجودها.

■■■

الدور التربوى والاجتماعى للمسجد
أساتذة من جامعة الأزهر
الرباط: منظمة الأيسيسكو، ٢٠٠١

يتناول الكتاب فى خمسة فصول مكانة المسجد والأسس التربوية للدعوة الإسلامية فى المسجد والأدوار الاجتماعية للمسجد وأثرها فى تنمية المجتمع ويتبعها بعرض لنماذج من المساجد التى لعبت هذا الدور ويختتم بسبل الإفادة من المسجد فى وقتنا الحاضر لتنمية المجتمع.

■■■

حواء من الخلق إلى البعث
حسن حامد عطية
القاهرة: دار الخيال، ٢٠٠١

دراسة فى النصوص الدينية المقدسة عن الإنسان وتطوره وقصة خلق حواء والاختلافات بين المحكى والمتوارث من ناحية والنص الدينى من ناحية ثانية، والفروق كذلك فى المفاهيم حول المرأة فى الديانات السماوية الكبرى.

■■■

خالد وعمر
كلاوس كلير
ترجمة: محمد جديد
دمشق: دار قدمس للنشر والتوزيع، ٢٠٠١

رسالة دكتوراه حصل بها الباحث على الدرجة من جامعة برلين الحرة عام ١٩٩٨، ويضم ثمانية فصول تقدم سيرة موجزة لخالد بن الوليد والعلاقة بينه وبين أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ومواقف النزاع بينهما، والكتاب سعى أو إعادة فهم لبعض الكتابات التى تناولت العلاقة بين الصحابيين الجليلين.

■■■

Rebellion and Violence in Islamic Law
(التمرد والعنف فى الشريعة الإسلامية)
Khaled Abou El Fadl
Cambridge Up. 2001, 400PP, £45.00

دراسة منظمة تعالج قضية المقاومة السياسية والثورة فى الشريعة الإسلامية منذ القرن الثامن الميلادى وحتى القرن الثامن الميلادى.

تتناول الدراسة أيضًا الأحكام القضائية والشرعية التى عارضت أو أيدت الأساليب التى استخدمها الثوار من اغتيال إلى سرقة واغتصاب.. إلخ.

■■■

Commanding Right and Forbidding Wrong in Islamic Thought
(الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فى الفكر الإسلامى)
Michael Cook
Cambridge Up, 2001.720PP, £55.00

يعد مايكل كوك أحد أبرز المتخصصين فى الدراسات الإسلامية فى الغرب، وفى هذا الكتاب الطويل يتصدى كوك للتركيز فى مسالة واحدة فقط هى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر. فيبحث تطور هذا المفهوم عبر التاريخ الإسلامى وعبر الفرق والمذاهب الإسلامية المختلفة. كما يسعى أيضًا إلى كشف العلاقة بين هذا المفهوم وبين الأيديولوجيات الإسلامية المعاصرة والتى تحكم سياسات الجماعات الإسلامية المختلفة.

"فنـون"

ألعاب الدراما السينمائية
مدكور ثابت
القاهرة: هيئة الكتاب ـ مكتبة الأسرة

دروس تطبيقية فى فن كتابة السيناريو،

وكذلك صناعة التأثير الدرامي في الفيلم مثل التشويق والإثارة والمفاجأة، وجميعها ألعاب يصوغها المؤلف والمخرج ويتحكمان فيها، ويضم الكتاب ملحقًا يشتمل على نماذج امتحانات القبول لطلاب معهد السينما خلال العقد الأخير في جميع التخصصات.

■■■

Art, Not Chance: Nine Artist's Diaries

(فن وليس صدفة: تسعة فنانين ويومياتهم)

Paul Allen (editor)

Calouste Gulbenkian Foundation, 2001, 120pp., £ 8.50

قام الناشر ومعه محرر الكتاب بول ألن بتجربة فريدة في هذا الكتاب، حيث وجها الدعوة لتسعة من الفنانين (ست نساء وثلاثة رجال) لكي يكتبوا يوميات أو مذكرات على مدى عدة أشهر تسجل مراحل إنجازهم لعمل إبداعي ما. من ضمن هؤلاء الفنانين النحات ريتشارد ونتوورث الذي سجل لحظات يوم واحد، والكاتب المسرحي شيلاج ستيفنسون الذي كتب مقاطع طويلة حول عدم قدرته على الكتابة، فيقول: «كيف يكتب المرء مسرحية؟ وكيف كتبت المسرحيات الأخرى؟ أنا لا أتذكر». والمؤلفة الموسيقية ايرولين فالن وغيرهم. ويقول المحرر في مقدمته إن الفنانين لم يتعمقوا كثيرًا في البحث أو في التنظير للعملية الإبداعية نفسها، حيث إنهم منشغلون بصناعة هذا الإبداع أكثر من التفكير فيه أو حوله.

■■■

تاريخ دراسة الدراما

أ. نيكست

ترجمة: ضيف الله مراد

دمشق: وزارة الثقافة السورية، ٢٠٠١

عرض لتاريخ دراسة الدراما عن أهم الفلاسفة الألمان في القرن التاسع عشر وآرائهم في المسرح والنظريات التي وضعوها لدراسة الدراما والكوميديا ومواقفهم المتباينة وخلافاتهم مع النقاد في قضايا الإبداع.

"نقـــد"

أصنام النظرية وأطياف الحرية

علي حرب

بيروت: المركز الثقافي العربي، ٢٠٠١

ينتقد المؤلف في هذا الكتاب ظاهرتي بيار بورديو عالم الاجتماع الفرنسي ونقوم تشومسكي عالم الألسنيات الأمريكي، ولا يخلو نقد المؤلف من اتهامات واضحة لكليهما بالنرجسية والأصولية والرجعية، كاشفًا عن أوجه خلل رهيبة في منهجيهما من وجهة نظره بطبيعة الحال.

■■■

آفاق لأدب أفريقيا فيما وراء الصحراء

الهادي المبروك الدالي

القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠١

دراسة لأكاديمي ليبي رأى أنه لا فرق كبيرًا بين الأدب الشعبي الليبي والمغربي عن نظيره الموجود في جنوب الصحراء، حيث يتشابه الإيقاع والكلمات ربما حملت المضمون نفسه وإن اختلفت الألفاظ والتعابير، والمؤلف يعرض لنماذج شعرية ونثرية قديمة وحديثة كتبها أدباء أفارقة باللغة العربية.

■■■

التاريخ والتجربة في الكتاب لأدونيس

زهيدة درويش جبور

بيروت: دار النهار، ٢٠٠١

مقاربة نقدية توازي إبداع النص الأدونيسي موفقة بين المنهج الأكاديمي والعلمي والحس الأدبي محققة ما يسميه رولان بارت «لذة النص» الذي ينتقي فيه أدونيس الأحداث الدامية في التاريخ العربي ليكشف ظلامية السلطة وسطوتها الباحثة في علاقتها بالإنسان العربي.

■■■

القيمة والمعيار.. مساهمة في نظرية الشعر

يوسف سامي اليوسف

دمشق: دار كنعان، ٢٠٠١

يحاول المؤلف أن يحيي رؤى نقاد الشعر والأدب الأقدمين في تراثنا العربي من أمثال الجرجاني والباقلاني وابن طباطبا، والذين كان لمساهماتهم دور مهم في إثراء تراثنا الأدبي وتطويره، فيما بعدت مدارس النقد الحديث عن تناغم الكلمات وجمال البيان.

■■■

سيكولوجية الشعر

محمد طه عصر

القاهرة: عالم الكتاب، ٢٠٠١

دراسة نقدية في كيفية الاستفادة من علوم الغرب ومصطلحاته في التحليل النفسي وغيره من المدارس النقدية، مع التركيز أساسًا على المدرسة الفرويدية، ثم كارل بيونج الذي انشق عليه، ويقدم ذلك كله للشاعر والدارس والقارئ: كيف يصبح الشعر أكثر إمتاعًا.

■■■

مائة عام من الفكر النقدي

سعيد الخاتمي

دمشق: دار المدى، ٢٠٠١

يقرأ المؤلف مجموعة من الدراسات النقدية التي كتبها معروف الرصافي والزهاوي والبصير ونازك الملائكة وفاضل تامر، وهي أعمال أقرب إلى الفلسفي والفكري منها إلى النقدي، لكنها في كل الأحوال ترصد تطور مسار هذا الفكر عبر مدى زمني طويل يقارب القرن، وتعكس صورة لجدل المائة العام.

■■■

مراودة النص

نبيه القاسم

فلسطين: على نفقة المؤلف، ٢٠٠١

يدرس المؤلف عددًا من الروايات والمجموعات القصصية الفلسطينية متتبعًا التطور الفني الذي طرأ على الإبداع الفلسطيني في السنوات الأخيرة، وموقع هذا الإبداع في مسيرة الأدب العربي عمومًا.

■■■

"السـلاح البيـولوجي"

The Biology of Doom: The History of America's Secret Germ Warfare Progect

(تاريخ البرنامج الأمريكي السري للحرب الجرثومية)

Ed Regis

Owl Books, 2000, 259PP., $ 15.00

استطاع المؤلف أن يحصل على ألفي نسخة من وثائق حكومية سرية متعلقة بالمحاولات الأمريكية أثناء الحرب العالمية الثانية في تطوير أساليب الحرب البيولوجية. ويتتبع المؤلف برنامج الأسلحة البيولوجية الأمريكية تاريخيًا منذ أن بدأ عام ١٩٤٢ وحتى أنهاه الرئيس نكسون عام ١٩٦٩.

بدأ البرنامج الجرثومي في ولاية ماريلاند الأمريكية تطويرًا لتجارب البريطانيين على الأنثراكس وقد واجهوا صعوبات تقنية كبيرة في تحويلها إلى أسلحة. البرنامج كان يوظف حوالي ٥ آلاف باحث وموظف وضابط، وقد اكتشف المؤلف أن البرنامج كان من ضمن مموليه رجل الأعمال صاموئيل برونفمان رئيس شركة سيجرام. ومن الحقائق المفزعة التي تكشف عنها أيضًا الوثائق أن البرنامج تضمن إجراء اختبارات بائولوجية على ألفين من المتطوعين البشر، بالإضافة إلى إجراء تجارب على الأراضي الأمريكية وفي الهواء الطلق.

■■■

Anthrax: The Investigation of a Deadly Outbreak

(أنثراكس: التحقيق في تفشي وباء مميت)

Jeanne Guillemen

University of California Press, 1999, 339PP., $ 40.00

يفحص هذا الكتاب ملابسات الحادث الذي وقع في شهر أبريل من عام ١٩٧٩ في مدينة سفردلوفسك السوفيتية التي تقع في جبال الأورال والذي أدى إلى وفاة أربعة وستين مواطنًا. وقد ألقت السلطات وقتها اللوم على بيع لحوم مصابة بالأنثراكس في المدينة، ولكن يثبت المؤلف في هذا الكتاب أن السبب وراء الإصابات والوفيات كان إطلاق جراثيم الأنثراكس من موقع عسكري مجاور للمدينة.

ففي عام ١٩٩٢ اشترك المؤلف مع فريق بحث روسي - أمريكي لتقصي المعلومات عن هذا الحادث. وقد بدأ التحقيق من المدافن المحلية في المدينة للوقوف على هويات الضحايا التي كانت قد أخفتها الكي. جي. بي، ثم قادهم البحث إلى القاعدة العسكرية «كومباوند ١٩». فما الذي كانت تقوم به هذه القاعدة العسكرية باستخدام الأنثراكس؟ هذا هو ما يحاول الكتاب أن يجيب عنه. ويقوم المؤلف بالإضافة إلى هذا بإجراء مقابلات مع الناجين وأقارب الذين أصيبوا أوماتوا لإظهار الأثر الذي يتركه الأنثراكس على ضحاياه.

■■■

Biohazard: The Chilling Story of The Largest Covert Biological Weapons Program in the World-Told from Inside by the Man who Ran it

(القصة المفزعة لأكبر برنامج تسليح بيولوجي سري في العالم - يرويها الرجل الذي يديره)

Ken Albick

Stephen Handelmon (Contributor)

Delta, 2000, 320PP., $13.95

كين ألبك المولود في كازخستان هو أحد أهم العلماء السوفييت وكان قد تولى قيادة البرنامج السوفيتي للأسلحة البيولوجية من عام ١٩٨٨ وحتى عام ١٩٩٢. وفي عام ١٩٩٢ فر ألبك إلى الولايات المتحدة الأمريكية وبدأ في إفشاء المعلومات للمخابرات العسكرية الأمريكية عن برنامج السلاح البيولوجي السوفيتي. وهو الآن يعمل في إدارة الدفاع البيولوجي في الولايات المتحدة.

يصف ألبك في مذكراته هذه كيف يكون السلاح البيولوجي أشد فتكًا من القنبلة الهيدروجينية خاصة مع تطبيق الهندسة الوراثية وهندسة الميكروبات في تطويرها. وهو يكشف عن محاولات روسيا لتطوير نوع معين من السلاح البيولوجي يصلح للاغتيالات السياسية وأيضًا محاولاتها لتحويل عينة من مرض «الإيدز» إلى سلاح بيولوجي، بالإضافة إلى القصص التي يرويها عن الكي. جي. بي التي قامت بقتل الشهود الذين كانوا يقتربون من عمل هذا البرنامج السري.

■■■

Underground

(تحت الأرض)

Haruki Murakami

Alfred Binnaub, Philip Gabriel (Translators)

Vintage Books, 2001, 366PP., $ 14.00

في مدينة طوكيو وفي يوم ٢٠ مارس من عام ١٩٩٥ قام عدد من أتباع طائفة الأوم سترنكو بإطلاق غاز السارين السام داخل إحدى محطات قطار الأنفاق، فأصابت ركاب خمس عربات. استوقف هذا الحادث المرعب الأديب الياباني المعروف هاروكي موراكامي فقرر أن يقدم عملاً غير روائي حول هذه الواقعة وما خلفته من آثار نفسية وما تثيره من أفكار وتساؤلات. قام موراكامي بإجراء المقابلات مع الذين نجت أعمارهم من آثار الحادث ولكنهم مازالوا يعانون متاعب صحية ونفسية بسببه. وقد وجد صعوبة كبيرة في إقناع اليابانيين من أبناء وطنه بالتحدث والتخلي عن العادة اليابانية التقليدية التي ترفض الشكوى والنقد.

كذلك قام موراكامي بمقابلة أعضاء الطائفة الدينية واكتشف كيف أن أفرادها على درجة عالية من الذكاء والتعلم ولكنهم عانوا أنواعا مختلفة من الفراغ في حياتهم ونفوسهم مما جعلهم يتبعون قائدهم شوكو أساهارا الذي وعدهم بالخلاص إذا ما خضعوا لإرادته.

■■■

نون

لماذا أصبح المسلمون صيداً حلالاً ؟!

فور وقوع الهجوم الانتحارى الذى تعرضت له واشنطن ونيويورك، فأشعل حريق حرب شهد العالم بدايتها ولم يشهد بعد نهايتها، اتجهت الانظار إلى الشرق الاوسط، وعلى وجه التحديد إلى الشعوب العربية والإسلامية، تبحث فى ثنايا الشوارع الضيقة، والفسيفساء الملونة، والتاريخ الحافل بالصراعات.. وربما تحت العباءات السابغة، أو وراء اللحى المرسلة والعيون الساهمة، عن أسماء وعلامات وتواريخ تدل على الطريق إلى مرتكبى الهجوم ومدبريه ومخططيه. فهنا وهناك. كما اكتشف بعضهم أخيراً. تكمن مستودعات كراهية دفينة. ونفوس مترعة بمشاعر الظلم والمرارة، وضحايا حروب ومعاناة مثقلة بالمهانة، عميت عنها عيون الغرب، وتعامت عنها النظم الحاكمة.

وها هى أمريكا التى جلست طوال عشرة أعوام منذ نهاية الحرب الباردة، متربعة على عرش من الرخاء والهيمنة والقوة العسكرية المطلقة التى لا ينازعها أحد، متحصّنة وراء أسوار من العظمة والتفرد، تجد نفسها فى موقف غريب، تبحث فيه عن الجذور التى أنبتت هذا العنف الموجه ضدها هى بالذات، وتطرح على نفسها وعلى مفكريها وخبرائها سؤالا مُلحّاً لخصته إحدى المجلات فى عبارة واحدة هى: لماذا يكرهون أمريكا؟ هل هو صراع بين الحضارات كما تنبأ هنتنجتون؟ أم أن له أسباباً غائرة فى أعماق الحضارة الإسلامية كفكر ودين؟ أم أنها بعض تجليات العجز الذى مُنيت به النظم العربية الحاكمة بإخفاقها فى تطبيق الديمقراطية وتحقيق التقدم لدى شعوبها؟

وكان طبيعياً فى ضوء هذه التساؤلات أن تتردد. على لسان بيرلسكونى مثلاً. أصداء أفكار عنصرية قابعة فى تلافيف العقل الاوروبى والغربى بصفة عامة منذ عصور الاستعمار، تضع شعوب الشرق فى مرتبة أدنى، تجعلها غير قادرة على الانفتاح والإنتاج والتطور، وتظل بحكم قيمها المتخلفة، تدور فى صراعات عابثة غير عقلانية تفضى بها إلى التآكل والانتحار، وذهبت تفسيرات أخرى إلى أن ما ينعم به الغرب. وأمريكا فى المقدمة. من رخاء وتقدم ورفاهية، هو الذى يثير حقد وكراهية شعوب فقيرة مطحونة ومحرومة من كل شىء.. وشخصية مثل بن لادن وتنظيم القاعدة، وجماعات مثل طالبان، هى التعبير الكامل عن مشاعر الغيرة والحسد والكراهية المدمرة الموجهة ضد الحضارة الغربية، هذه الصورة هى الصورة التى سعت وسائل الإعلام الغربية إلى تجسيدها للعالم الإسلامى، الذى يتربع بن لادن فى القلب منه، علامة على وضع حضارى، ومستوى فكرى، وعداء دينى يختزل فيه العرب كل الاسباب التى أدت إلى الأحداث الأخيرة.



وبغض النظر عن الاسباب الحقيقية التى صنعت ظاهرة الإرهاب وكانت مسئولة عن ولادة طالبان وبن لادن، وعن الاساليب الإرهابية التى استخدمتها الدول الكبرى فى بسط نفوذها الاستعمارى تارة والاقتصادى والسياسى تارة أخرى، فإن الحديث عن العنف الأعمى والإرهاب الوحشى الذى أدى إلى سقوط عدة آلاف من الضحايا الأبرياء، فتح الباب أمام جدل واسع النطاق، أُعيد فيه إنتاج واستحضار الصور النمطية للإنسان العربى والمسلم فى العقل الغربى والامريكى. وكانت هذه الصورة هى عريضة الاتهام التى وجهت إلى مئات من العرب والمسلمين الذين يعيشون فى الغرب، والذين كان عليهم أن يواجهوا أسباب الريبة والشك، ويدفعوا عن أنفسهم أصابع الاتهام وملاحقات الشرطة فى الشوارع والمطارات.

فالعربى بملامحه الشرقية العربية، وأسمائه وعاداته وأسلوب حياته وجذوره الثقافية وأزيائه: بنسائه ورجاله وأطفاله، إما أن يظهر فى صورة بدوى جاهل حملته ثروة النفط التى لا يد له فيها على ظهرها، فلا يعرف فى الحياة شيئاً غير بعثرة أمواله فى صالات القمار ومخادع النساء، أو يظهر فى صورة عصابية متعصبة، تتسم بالجلافة والغلظة وانعدام الذوق والسلوك، مرشح دائماً لكى يلعب دور الإرهابى الذى يخطف الطائرات، ويلقى القنابل على الابرياء، ويفجر المبانى والسفارات، لانه يعادى المعرفة والتقدم، ويكره حضارة الغرب ولا يجد نفسه فيها.



هم يسالون أنفسهم فى الغرب: لماذا يكرهوننا؟ ونحن لابد أن نسال أنفسنا فى الشرق نفس السؤال.. هل هذه الصورة النمطية الناطقة بالاحتقار والاستعلاء هى التى تولِّد لديهم تلقائياً مشاعر الغرائبية والخوف من الآخر؟ أم أن هناك تياراً معادياً. لاسباب سياسية. هو الذى يغذى هذه المشاعر ويضخمها ويلح عليها فى البيئة الثقافية التى يعيش فيها المواطن العادى فى الغرب؟ أم أن لدينا بالفعل من جوانب النقص والقصور والممارسات السلبية ما يشجع على تثبيت هذه الصورة النمطية، وتعميقها، وتحويلها فى أى لحظة من اللحظات إلى أداة للهجوم، أو سلاح للضغط، أو مبرر للعداء؟

لقد آن الأوان. وباب الجدل حول هذا الموضوع مفتوح على مصراعيه فى العالم كله. أن ننظر نحن داخل ذواتنا، ونعيد تقييم أوضاعنا، ونفتش عن جوانب القصور التى تولد لدى الآخرين تجاهنا. وفى الغرب بالذات. نظرة الاستخفاف أحياناً، والاتهام وإساءة الظن أحياناً أخرى، والعداء والاستعداء والاستبعاد فى كثير من الاحيان.

هناك إجابات كثيرة قد يضيق المقام عن ذكرها..

ولكن أول ما يتبادر إلى الذهن، هو وجود حاجز ثقافى حال دون تعريف الغرب بمنجزات الحضارة العربية والإسلامية، وغيِّب عن الفكر الامريكى. والاوروبى بدرجة أقل. الإسهام الثقافى والحضارى للشعوب العربية والإسلامية، فلا يكاد يهتم بها أو يطلع عليها غير دائرة محدودة من المثقفين والاكاديميين، أو الدبلوماسيين ورجال الاعمال الذين تقودهم ظروفهم إلى هذه الاصقاع، وحيث تغيرت وتبدلت المعايير التى يقاس بها التقدم الحضارى والإبداع الثقافى، فإن غياب الإسهامات العربية عن الحضور العالمى فى الفن والموسيقى والادب والسينما من ناحية، وفى مجال العلوم والتكنولوجيا من ناحية أخرى، لم يدع لشعوب الغرب فرصة للتعرف على الحياة العقلية والفكرية المعاصرة، وإذا أتيح له أن يطلع عليها جاءته مشوهة باهتة. ونحن من جانبنا لم نصنع شيئاً للتغلب على هذا القصور. ويكفى للدلالة على ذلك أن يكون فوز نجيب محفوظ بجائزة نوبل للآداب هو أول احتكاك حقيقى بيننا وبين الغرب. وأن يكون فوز زويل بنوبل فى العلوم هو أول اقتحام عربى حضارى لعلوم الغرب وتقنياته المعاصرة.

يأتى بعد ذلك عامل آخر نتحمل نحن مسئوليته بالدرجة الاولى، يعود إلى إخفاقنا كمسلمين فى تقديم الإسلام وفكره ومبادئه الحقيقية إلى العالم المعاصر.. مستنيراً متحرراً من الجمود والتخلف. قادراً على مواكبة التجديد والتقدم والقيم الإنسانية التى تحكم العصر. فبينما نجحت المسيحية فى تجديد نفسها خلال القرنين الثامن والتاسع عشر، أخفق مشروع التجديد فى الفكر الإسلامى الذى قاده محمد عبده، وسيطرت على الفكر الدينى تيارات الجمود والمحافظة وتغليب النقل على العقل. فإذا العالم الخارجى لا يرى من الإسلام غير أكثر وجوهه جموداً وتخلفاً وتطرفاً. ليصبح نموذج «طالبان» هو النموذج الذى يراه العالم ويحاكم الإسلام والمسلمين به.. وحين وقعت أزمة تماثيل بوذا، لم تفلح أكبر المراجع الإسلامية فى إقناع «طالبان» بالتراجع. ولم ير الغرب من الإسلام غير هذا الوجه القبيح الذى يحرِّم خروج النساء وتعليمهن. ويمنع الموسيقى والتليفزيون. ويمنع حلق اللحى.. إلى آخر قائمة طويلة يصعب حصرها. ودلنى على دولة ترفع شعار الإسلام وتتدثر به، استطاعت أن تقتحم أبواب العصر وأن ترتفع بمستوى شعبها علماً وعملاً إلى مستوى معقول يضاهى دولاً أوروبية متوسطة القيمة لم يكن لها فى التاريخ الإنسانى إسهام يُعتَدُّ به.

يتصل بذلك من قريب، غياب الشرعية السياسية التى تقوم عليها الدولة الحديثة فى عالمنا المعاصر.. شرعية السلطة، وشرعية الحكم، وشرعية العدالة، الأمر الذى وضع الشعوب العربية على هامش المسرح الدولى. فلم يعد أحد يأخذ الشعوب العربية مأخذ الجد، إلا بقدر ما تفرضه المصالح العاجلة، والانفجارات السياسية المفاجئة.. والنظرة السائدة إلى ظاهرة الإرهاب فى هذا الجزء من العالم، هى أنها نتاج طبيعى لنظم الحكم القائمة، أو هى جزء من تكوين شعوبها التى. بالفطرة والغريزة. لا تعرف معنى الحرية والمدنية والديمقراطية، بل تحكمها ثقافة الخوف والقهر، وهى ثقافة لابد أن تفضى بالضرورة إلى ثقافة الإرهاب.

هذه أسباب وعلل لا يحق لنا أن نعلقها على صدام الحضارات، أو على إرث تاريخى من الكراهية والحروب الدينية والخلافات الثقافية. بل يجب أن نتحمل نحن مسئوليتها. ونبحث لها عن حلول من داخلنا وليس من خارجنا.. فالله لا يغيِّر ما بقوم حتى يغيِّروا ما بأنفسهم!

سلامة أحمد سلامة

ضاعف مدخراتك

مع وثيقة ادخار البنك العربى الذهبية



واحصل على الجنيهات الذهبية

- مــدة الوثيقــة ثــلاث سنــوات .
- تحقــق أعلــى عائــد ١١,٢٥٪ .
- يمكن الاقتراض بضمان الوثيقة .
- جنيــه ذهــب لكل ٢٥ ألــف جنيــه مصــرى .
- قيمــة الوثيقــة ألفين جنيــه مصــرى ومضاعفتهــا .
- إمكانية استرداد كامل القيمة بعد ستة شهور من تاريخ الإصدار .
- يصرف نصف العائد شهرياً والنصف الآخــر يستثمــر حتى تاريخ استحقــاق الوثيقــة .

البنك العربي

أكبر شبكة مصرفية عربية

لمزيد من المعلومات برجاء الإتصال بتليفون: ٨٨٨ ٩٤ ٣٠

الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر

السنة الثالثة
العدد الرابع والثلاثون
نوفمبر ٢٠٠١

رئيس التحرير
سلامة أحمد سلامة

رئيس التحرير الفنى
حلمى التونى

مدير التحرير
أيمن الصياد

تصدر عن
الشركة المصرية للنشر العربى والدولى

رئيس مجلس الإدارة
إبراهيم المعلم

عضو مجلس الإدارة المنتدب للإنتاج
أحمد الزيادى

البحوث والمتابعة
هديل غنيم

محتويات العدد:

"تعبر المقالات المنشورة عن آراء مؤلفيها، ولا تعبر بالضرورة عن رأى «وجهات نظر» إلا إذا أشارت إلى ذلك صراحة"

كتّاب العدد:

- أحمد توفيق... مدرس طب المناطق الحارة بجامعة طنطا.
- أحمد كمال أبوالمجد... أستاذ القانون الدستورى بجامعة القاهرة.
- أمينة رشيد... أستاذ الأدب الفرنسى والمقارن بجامعة القاهرة.
- تارون ج. تيجبال... محرر بمجلة *Outlook* الهندية.
- جلال أمين... أستاذ الاقتصاد بالجامعة الأمريكية فى القاهرة.
- حسين عبدالله... أستاذ اقتصاديات البترول ووكيل سابق لوزارة البترول المصرية.
- حلمى التونى .. فنان تشكيلى ومصمم جرافيك.
- سلامة أحمد سلامة .. صحفى.
- سيمور هيرش... صحفى أمريكى.
- صبرى حافظ .. أستاذ الأدب العربى الحديث بجامعة لندن.
- عادل أبوزهرة... أستاذ العلوم السلوكية بجامعة الإسكندرية.
- محمد حسنين هيكل .. صحفى.
- محمد الميلى... المدير العام السابق للمنظمة العربية للتربية والعلوم والثقافة.
- ناصر الأنصارى... مدير معهد العالم العربى بباريس.
- يوسف القعيد... صحفى وروائى.

رسوم العدد للفنانين:

محمد حجى - محمد حاكم - سعد الدين شحاتة



المراسلات:

الشركة المصرية للنشر العربى والدولى
٣ ميدان طلعت حرب. القاهرة. جمهورية مصر العربية
ت: ٣٩٣٠٤٩٠/ ٣٩٣٠٤٩٢/ ٣٩٣٠٤٩٦ - فاكس ٣٩٣٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى (التحرير): e-mail: info@alkotob.com

الاشتراكات:

السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد: داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصرى - اتحاد بريد عربى: ٦٠ دولاراً أمريكيًا - أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولاراً أمريكيًا - أمريكا وكندا: ٨٠ دولاراً أمريكيًا. باقى دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكى.
إدارة الإشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصرى. ص. ب: ٣٢ البانوراما. مدينة نصر
هاتف: ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس ٤٠٤٨٥٤٦ - e-mail: weghat @alkotob.com

ثمن النسخة:

فى مصر ١٠ جنيهات مصرية. السعودية ٢٠ ريالاً - الكويت ١.٥ دينار - الإمارات ٢٠ درهما - البحرين ديناران - قطر ١٥ ريالا - عُمان ريالان - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - سوريا ١٥٠ ليرة - الأردن ديناران ونصف - ليبيا دينار واحد - الجزائر ١٠ دنانير - المغرب ٣٠ درهمًا - تونس ٤ دنانير - اليمن ٣٠٠ ريال.
Austria SCH 175 - France 30FF - United Kingdom £3

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة